شاكر الأنباري

نشيدنا الحزين

رواية

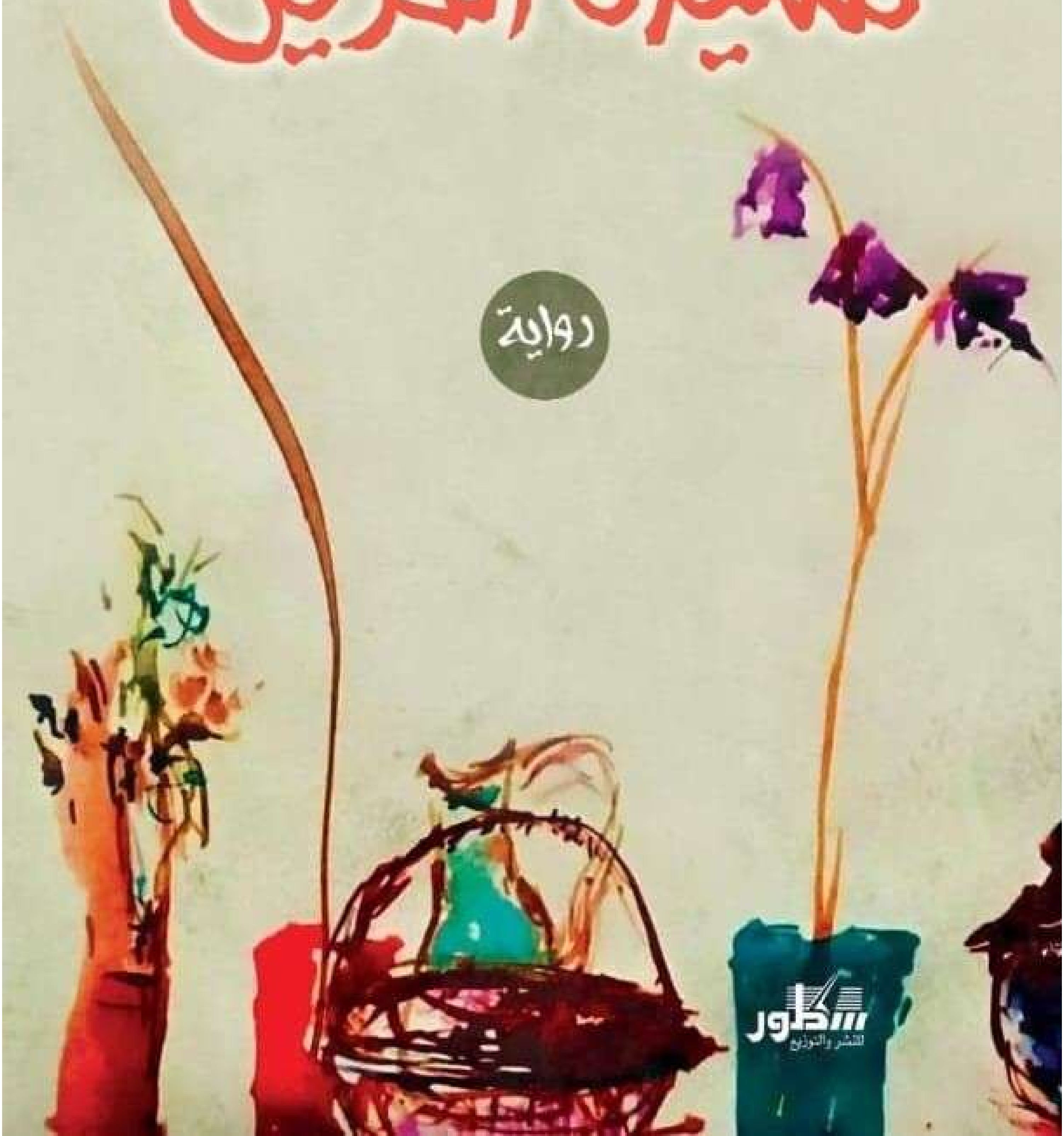

سطور للنشر والتوزيع

نشيدنا الحزين

نشيدنا الحزين

لوحة الغلاف للرسام العراقي طالب حسين

جميع الحقوق محفوظة ©

الطبعة الأولى – سنة ٢٠٢٢

ISBN:

لا يسمح بإعادة طبع الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والنشر على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الكاتب.

المواد المنشورة تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر عن رأي الدار

SUMER
Printing, Publishing&distribution

LUXEMBOURG- 2- c Crauthemerstrooss-
L- 3334- HELLANGE
+354671531017

دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد: شارع المتنبي
مدخل جديد حسن باشا
هاتف: ٠٧٧١١٠٠٢٧٩٠-
٠٧٧٠٠٤٩٢٥٦٧

نشيد نا الحزين

رواية

شاكر الأنباري

١

غابت شمسنا وتركت وراءها ملاءة قرمزية كثيفة اللون راحت تنسدل على غابات السرو، وأبراج الكنائس، وواجهات العمارات العالية في هذه المدينة الغريبة. غابت تلك النجمة البعيدة، نجمتنا، ببطء، فأدخلت الحزن إلى أرواحنا، وبدأنا نتجمع في الفضاء، كما درجنا على فعل ذلك كل غروب. هذا وقتنا المناسب لترك مخابئنا وقبورنا، وصورنا الشفيفة وأجسادنا الفانية المدفونة في أرض باردة، استعدادا لطقسنا الذي دأبنا عليه منذ زمن طويل، أي رواية الحكايات، بعد أن أصبحت تسليتنا الوحيدة في وجودنا الملتبس. اعتدنا أن نخرج كل ليلة من مخابئنا: من وسط الأغصان ومن وراء الشواهد ومن القبور، أو ننزل من السماء القريبة ونتجمع في أفق المقبرة ثم نبدأ في رواية ذكرياتنا. وهي ذكريات تعود في الغالب إلى عقود خلت، منذ أن دخلنا إلى هذه البلاد. بعض من الأرواح نعرفها حين كنا في الحياة الأرضية، وبعضها نتعرف عليه أول مرة من خلال حكاياتها التي سمعنا بها، أو تقاطعت ذات يوم مع أشخاص كنا نعرفهم هناك. أشخاص أمتعتنا مغامراتهم، وطريقة عيشهم، والغرائب التي عاشوها. لم يتح لنا الرقود بسلام مع أجسادنا المدفونة في الأرض، ولا تهيأ لنا الإفلات من مصيرنا والسفر نحو السماء البعيدة كما تفعل الأرواح على الأرض حين تغادر أجسادها، فلبثنا معلقين، وتحولنا إلى ذكريات شاحبة وأصداء. وهو مصير وجدناه غريبا، لكننا ارتضينا به في النهاية.

قليل منا يتذكر السنة التي وصلنا فيها إلى هذه البلاد، فلم يبق من الجيل الأول سوى الشيوخ. وهؤلاء تآكلت ذاكرتهم، وفقدوا اهتمامهم بالماضي، بعد أن فتكت بهم أمراض الجسد، والروح، وصاروا يدمجون الذكريات بعضها ببعض، فتجدهم يحكون قصص أشخاص من معارفهم تنتمي بالحقيقة إلى أشخاص آخرين. نحن الأموات، نهيم الليلة في البرزخ، حيث يتساوى الموت

والحياة، ولا يعود من قيمة لشرح وتفسير. الموت والحياة، كلاهما كما عرفنا لاحقا، وازددنا حكمة بهذه المعرفة، وجهان لمصير واحد، هو مصيرنا. مات كثيرون منا، ووضعنا الزهور على قبورهم، بعد أن خلفوا بناتا وبنينا، تزوجوا ثم أنجبوا في هذا المكان. ورحل آخرون إلى بلدان بعيدة، ثم نسونا، ونسيناهم بدورنا حتى تلاشت أخبارهم. بينما جن قسم منا لأسباب نجهلها، كما حدث لصاحبنا المشرد، الهائم على أرصفة ميناء مدينة البحر والسمك، وقد وجد ميتا في ليلة باردة. يجن الشخص من دون معرفة سبب جنونه، وكأن الجنون كيمياء تكمن هناك، في خلايا الجسد وكهوفه، وتنتظر الظروف الملائمة للظهور.

والجيل الثاني منا، ثم الثالث، سادا في النهاية، وذلك حسب قانون الحياة الذي يحكمنا جميعا. امتلك أحفادنا اهتمامات لا تمت لنا بصلة، بل نسوا حتى لغتنا التي أورثناها لهم، وأرضعناهم إياها مع الحليب، ودأبنا على الحديث بها داخل البيت مع دفقة من الفخر، والوفاء. لغتنا المقدسة، أفضل اللغات على وجه هذا الكوكب، لم نكف عن تعليمهم هذه البديهية بدون كلل، لكن معظمهم اليوم لا يجيدون كتابتها، رغم أنهم يتكلمون بها. ومنهم من لا يكتب بها ولا يقرأ، ويحشو لغته بمصطلحات، وكلمات، وتراكيب من لغة البلد. اكتشفنا أن اللغة ابنة الطين والتراب والهواء وأشعة الشمس ورائحة الحقول، ولا يمكن جلب لغة ما من متحف الزمن، حتى وإن كانت مقدسة مثل لغتنا. في حين نسيها الجيل الثالث تماما، كلاما، وقراءة، وكتابة. نسوا أغانينا الحزينة، ومقتوها، بل وصموها بأبشع النعوت، وهو الوصف الأدق لمزاجهم، لأنها تنسجم مع مقبرة الأشباح التي بعثنا منها حسب قناعتهم.

وكانت المشاعر الأبرز المستولية علينا طوال تلك السنوات الشاقة من عيشنا في هذا المكان هي الخواء، وساد بيننا الخواء مشيدا جدارا ثقيلا كنا نواجهه كل صباح، ما أن نفيق من النوم. خواء ما أن يسقط المرء فيه حتى يصبح من الصعوبة الخلاص منه، وهو حال الأغلبية منا في هذا المكان. فما أن

يغادر المرء وطنه حتى يستحيل عليه أن يهنأ بوجوده، ألسنا في النهاية نعيش في مجتمع يتجاهلنا، ولا يلتفت إلى ما كنا نمتلك من مواهب، ومشاعر إنسانية حساسة من فرط الاغتراب، والعزلة، والهشاشة؟ بل وينظر إلينا بريبة في كثير من الأحيان؟ ونحن لا نتحدث عما نعيشه اليوم من حالة غريبة، فلهذا توصيف آخر، لكن الأمر يعود إلى سنوات اندماجنا في التربة الجديدة. البعض سماها تربة الغربة، والبعض سماها المنفى، ورفع البعض الآخر من شأنها ليسميها أرض الجنة.

لدى وصولنا قالوا لنا وبوضوح إنه ينبغي عليكم، مستقبلا، إثبات أنكم مواطنون أسوياء، كي يتاح لكم البقاء هنا. في هذا البلد لا مجال للعربدة، وخرق القوانين، وجلب فوضاكم إلى حدائق جناننا الممتدة من البحر إلى البحر. الاندماج في المجتمع ستعرفونه لاحقا، وله ثمن باهض. وافقنا على شروطهم، بدون تردد. وصلنا شبابا فقيري الخبرة بالحياة، لا نعرف ما نريد، وحولتنا الحروب إلى عصائر من الألم والقلق. وأخبرونا أنهم سينقلوننا إلى "الجزيرة" بعد "التحقيق" مباشرة، ولم نكن ندرك معنى الجزيرة التي تحدثوا عنها. تحلم بجنة ثم تجد روحك في جزيرة، تلك المفارقة وقفت أمامنا مثل عاصفة ترابية. وتذكرنا تلك الجزر المسحورة التي قرأنا عنها في كتاب ألف ليلة وليلة. أجل، لقد وصلنا شتاء، وصادف أنه كان شتاء قاسيا لم تعرف له البلاد مثيلا كما أخبرونا. شتاء، لاحظنا قسوته ما أن نظرنا من النوافذ، ورأينا الكائنات المتجمدة على امتداد النظر، وفتحنا عيوننا على سعتها من الدهشة، فها نحن في عالم مثير كأنه حلم في ليلة مقمرة.

وجدنا المشهد أكبر من أن تستوعبه تجربتنا الضيقة: نساء بلباس الشرطة، شعورهن شقر، وعيونهن زرق مثل مياه البحر، ومسافرون من أصقاع الأرض كلها، وكأن العالم جميعه هنا: أميركيون لاتينيون، أفارقة عيونهم تتلاصف في الضوء الشديد، يمشون بقلق داخلي لا يفسر. يابانيون وجدناهم يصوّرون

كل ما تقع عليه أعينهم، كانوا يحدقون بدهشة إلى السقوف المعلقة المضاءة، والأدراج المتحركة، والكافتيريات الغاصة بالبشر بأضوائها الناعسة، الخافتة، وهي تبحر إلى تخوم الموت والنسيان، وكانوا يأكلون بشراهة، ويشربون بلذة، ويدخنون منتظرين مواعيد الطائرات.

قالوا لنا: انتظروا تحت لوحة انطلاق الطائرات ووصولها، وسنعود إليكم، ثم وقفنا مثل تماثيل خارجة من الرمل، أو أموات بعثوا من مقبرة جماعية، وأخذنا نتسلى بالنظر إلى مدن العالم التي حلمنا بها ذات يوم وهي تضيء على لوحة إعلانات التحليق والهبوط: لندن، باريس، نيويورك، روما، ساو باولو، برلين، أوتاوا، طوكيو، لشبونة، القاهرة، طنجة، والوقت مثل الطائرات يمر سريعا ويتركنا نعدّ الثواني، والدقائق، والساعات. استجوبونا ساعتين، وعرفوا من أين قدمنا، ولماذا جئنا إلى هنا، إلى هذه الجزر، بعد أن تنشقوا البارود في أجسادنا وقد تغلغل في المسامات عميقا، ورأوا مشاهد رعب عتيقة في عيوننا، مرسومة هناك أشبه بالصور المجسمة على الحيطان. سمعوا بدون لبس تلك الارتعاشات في أصواتنا وقد تخافتت من الرعب الأخرس الذي طالما واجهناه في الجبهات، والزنازين، والغرف المغلقة، والقرى الجائعة، والجبال المشتعلة بالنابالم. أكدوا لنا بأكثر من لغة أننا وصلنا بر الأمان. وجدنا أنفسنا خائفين، فنحن غرباء، والغرباء يخافون دائما. أفكارنا مازالت في فوضى بسبب القصص والحكايات المعششة في رؤوسنا، ونتيجة الأهوال التي واجهتنا قبل أن نصل إلى هذا البلد. كل واحد منا مكتنز بقصة مثيرة، حتى يمكن القول إننا قصص متحركة، بل مشاكل متحركة تنتظر الوقت الملائم كي تفرغ تفاصيلها وتنتقى منها الحكمة. هذا فيما لو كان ثمة شيء من الحكمة في المآسي التي اجتزناها حتى قيض لنا الوصول إلى بلاد الثلج.

معظمنا لم يصدق أنه وصل فعلا إلى البلد سالما، والأمر ربما لا يعدو أن يكون حلما جميلا رأيناه في غفوة قصيرة وسط سواتر القتال وأزيز الرصاص

وتلال القمامة بين البيوت ورعب اجتياز الحدود بين الدول. والبعض خشي من أنه سيفتح عينيه ليجد نفسه وسط زنزانة تحت الأرض، أو في خندق يفصل بين متحاربين أو قارب تتقاذفه أمواج بحار مظلمة. ولكن ما هو ملموس أكثر إقناعا من الحدوس والخيالات، إذ جلبوا الباص وطلبوا منا الخروج، فتحركنا باتجاه الليل، وما أن حاذينا الهواء البارد حتى انفتح زجاج شفاف لوحده، وتلقفتنا أصابع الثلج. وبلغة أجنبية ثقيلة أخبرتنا الشرطية الشقراء التي جلست جنب السائق بأنهم سيأخذوننا إلى الجزيرة. نسمع ولا نعي ما يقال، بل وأغلقنا آذاننا على الكلام فلا نريد سوى التوغل عميقا في ثنايا البلاد. لن تتوفر لشرطتهم إمكانية إرجاعنا ثانية إلى هناك. شكك البعض بقصة الجزيرة، وكيف يمكن أن يكون الأمر خدعة، خدعة ذكية لجرنا بنعومة إلى طائرة ثانية متأهبة للإقلاع، تعود بنا إلى المكان الذي جئنا منه. سننتحر إن حاول أحد إرجاعنا إلى بلداننا البعيدة، قلنا لهم قبل أن نصعد الباص. لم نصدق نجاتنا. كيف لا وقد خرجنا من كهف موت طويل. وفي جعبنا قصص وحكايات عن ذلك الهروب. قصص وحكايات تستغرق روايتها قرونا من البوح. بعد أن سمعوا هواجسنا بانت في أعينهم الدهشة، ولاحت الابتسامة على وجوههم، وسرى طيف من التعاطف على التعابير فأجابوا بلهجة قاطعة أنهم لن يعيدونا أبدا، فالعودة تعني الموت، وهم يدركون ذلك، وعندهم صورة واضحة عما عشناه، وعما يجري في ذلك الشرق البعيد.

لم نتوصل إلى أن الوقت ليل أم نهار، والبياض الحليبي ينتشر في كل زاوية ومكان، صحيح أننا لم نر ظلالا لكننا لم نر شمسا ساطعة في السماء، إلا أن الرؤية واضحة. البيوت المتخللة لتلال الثلوج تكشف عن شكلها القرميدي، وأبواب الخشب مغلقة، والسياجات خفيضة تحرس حدائق الثلج. لاحظنا غياب البشر من الشوارع، وبدت الأماكن التي نمر بها وكأنها مهجورة منذ سنين، ولولا سماعنا لأزيز العجلات على الثلج لجزمنا أننا لا نتحرك، بل نتأرجح في النقطة ذاتها. لا طيور هناك ولا صياح ديوك أو نباح كلاب. لا مخابز تفتح في

الصباحات المبكرة، ولا رجال يعودون من صلاة الفجر بعيون ناعسة. والأغرب من كل ذلك لا نسمع انفجارات تعبث بسكينة الوجود. سيطل علينا حوت ما من بين طبقات المحيط المتجمد، أو دب قطبي أبيض الفراء عملاق الهيئة، جائع الجوف، يلتهمنا لحما وعظما، كما قرأنا ذلك في القصص، وسمعنا ذلك في الحكايات. ورأينا مثل حلم عمارات عالية شبحية المظهر، تستطيل لتختفي بين الضباب، وتوغلنا في جسور تربط بين ضفتين، لأنهر أو قنوات لا نراها. ومرة لاح لنا خليج صغير محاط بالأبنية، تقوم على ضفافه رافعات عملاقة توحي بوجود ميناء ما. غير أنه لا صافرات عالية لبواخر مغادرة. كنا كمن يتوغل في إطار لوحة تشكيلية مرسومة بالألوان الفاتحة وسط بيئة غير مألوفة وفي جهل مطبق. نرى، بعيون مفتوحة، لكن لا نعي شيئا مما يجري لنا. نحن غرباء نستحق الشفقة. نسمع، لكننا لا نصل إلى الفهم. ما زالت حواسنا مغلقة من ضجيج السنوات الصعبة التي عشناها هناك.

أخبرتنا المرافقة فجأة أن قصر الملكة يربض إلى يسارنا، لديهم ملكة إذن قلنا لأنفسنا، وحدقنا من النوافذ فلم نشاهد سوى الثلج، وشبح عمارات من ثلاثة طوابق ما زالت المصابيح تضيء نوافذها، ويتسرب منها لون حليبي يجعل المرء يشك في أنه وسط حلم صباحي لذيذ. الملكة ترقد هناك تحت ذبذبات الضوء الحليبي في دفء عرينها، والصمت ما زال سائدا في جوف الباص، وكأن أي حركة غير مرغوبة يمكن أن تؤثر على مصائرنا، وتعيدنا إلى نقطة البداية، وهو سلوك عادة ما ينتاب البشر حين يجدون أرواحهم في بيئة غير مفهومة، وكان هذا حالنا. تكاثف الجليد في الخارج، وألسنة ضبابية تمشي من دون قدمين على كل ما يظهر في مجال الرؤية. أسنان عملاقة مرعبة، مغاور سرية وسط الأغصان توحي بالخطر، أعمدة حادة، مستدقة النهايات كأنها رماح، نتأت من الجدران والسقوف، ظلال تتراقص ببطء، آثار غائرة في أديم الأرض لحيوانات منقرضة ربما تجولت في هذه الأصقاع قبل ملايين السنين. تضاريس في منتهى الغرابة. نحن إذن في الأزمنة القطبية السحيقة، عندما كانت الدببة

سيدة هذه الأصقاع. هذا ما رأته أعيننا في ما حولنا من بنايات، وشوارع، وفسح، وغابات.

ثم انعطفت السيارة في طريق فرعي تحيط به الأشجار وكأنه ممر متجمد لا ينتمي إلا إلى الخيال، ولاحظنا بناية جميلة لكنيسة يرتفع برجها فوق ذرى الأشجار. برج مذهّب لم يستطع الثلج ولا الضباب إخفاءه عن الأعين. ها قد عدنا إلى الحياة مرة ثانية. وها هي آثار البشر تظهر لنا من صرامة البرد والضباب. هل حقا سنعيش حياتنا في هذه الأرض المتجمدة؟ وكيف نجد تلك الحياة بعد عشرات السنين؟ وفتحنا أعيننا على مساحة شاسعة من المياه، وقالت لنا المرافقة لقد وصلنا البحر، وهناك في مكان صغير من الضفة الصخرية تربض الحورية المصنوعة من البازلت، وهي تمثل توق البشر إلى الأعماق، وإلى السفر نحو العالم المجهول. الحورية كما أخبرتنا المرافقة تجسيد بازلتي لحلم رآه شاعر هذه البلاد قبل أكثر من مئتي سنة، حكاه على الورق، آن ما كان يعيش في غرفة مستأجرة على كتف القناة، فقيرا، كئيبا، بلا حبيبة. ثم جاء نحات وسيم ملتح، بعد موت الشاعر بعشرات السنين، وصبه على صخرة عملاقة، مكونا تلك الفتاة الحورية التي نصفها سمكة ونصفها إنسان. وتخيلنا أنفسنا على شكل حوريات بحر تتوق إلى المغامرة، ألم نقطع كل تلك المسافات مشيا، وطيرانا، وسباحة، للوصول إلى هذه الأرض الغريبة الباردة؟ ألم نعبر الجبال والوديان بين أكثر من بلد طلبا للنجاة؟ ألم تطردنا أكثر من مدينة وأغلقت خلفنا الأبواب؟ وهل سألنا أحد يوما عن رأينا في الحروب المشتعلة في الأمكنة التي هربنا منها؟ ألم يقولوا لنا بوضوح: أنتم وقود فقط؟ هل هناك قوة على هذه الأرض بوسعها محو ذلك من رؤوسنا، أو من أحلامنا؟ أسئلة لم تفارق رؤوسنا حتى ونحن نترجل من الباص عند المنحدر، مع حقائبنا البائسة، حقائب المشردين والمتعبين والهاربين، ممن تاهوا في هذا العالم، وغابت الجهات عن أبصارهم.

٢

في هذا الهزيع من الليل ونحن نجتمع تحت سماء المقبرة، والنجوم تتلاهث فوقنا بعيدة غامضة، وهدوء العاصمة يشكل مظلة غير مرئية، ولا أحد يفهم وجودنا الملتبس بين الحياة والموت، عادت لنا كل تلك الدقائق والساعات المعبأة بالخوف والقلق. كنا نرى أدق التفاصيل رغم موتنا. في ذلك الفجر البعيد أوصلنا الباص إلى البحر. وقفنا نجيل أبصارنا في المكان، ولاحظنا وجود درج من الطابوق ينحدر إلى المياه، ويقف عند الحافة قارب صغير أنيق المظهر، حسبناه لعبة سحرية هيأته المدينة لنا كي نلعب به، وربما هو نوتي مسحور انسل من حكايات السندباد ويزمع أخذنا إلى جزر الهند والصين. وجدنا القارب مضاء بأنوار شفافة توحي بالدفء، عكس ما كنا نحس به ونحن نقف على حافة البحر، في زمهرير يتجاوز العشرين درجة تحت الصفر. نسمع نداءات مباغتة لنوارس طائرة، وزعيق غربان مختبئة بين أغصان الثلج في الغيضة الواقعة خلف ظهورنا. وما زالت خيوط العتمة تمسح تفاصيلها بلون لا هو بالأسود ولا بالأبيض.

الجزيرة هناك، قالت الشرطية الجميلة التي تمنينا كلنا القرب منها، وملامسة حرارة جسدها وتأمل عينيها الزرقاوين، وحين حدقنا في مكان إشارتها لم نر سوى طرف إصبعها الصغير الناعم، أنعم من كل الأصابع النسائية التي رأيناها في حياتنا السابقة. لا شيء سوى الماء، والضباب، والغيوم العالقة في سقف السماء بشرائط غير مرئية. حتى الشمس حين ظهرت أخيرا من بين الغيوم، في حافة بعيدة وراء الموج، لم تضئ سوى جرمها، وكانت تبدو قرصا شبحيا، متنائيا، بعيدا، بلا دفء. قرص يجعلنا نستعيد كل بحار الحزن التي سبحنا فيها. بدت مغسولة بحبات البرد، وضباب البحر المحيط، فشعرنا

بالخيبة من تحولها الغريب هذا. أشمس وتفتقد للدفء؟ أشمس وهي لا تشبه شمسنا مطلقا؟

وبعد العد والتفقد، وقراءة الأسماء، وتوضيب الحقائب، نزلنا الدرج الحجري حذرين، وتسلقنا حافة القارب، ودخلنا في جوفه بمشاعر بين الدهشة والخوف وروح المغامرة. سلّمت الشرطية قائمة الأسماء إلى ربان القارب وغادرت، وكانت عيوننا تستطلع الكراسي البلاستكية الملونة، والأضواء الصغيرة المثبتة على الجانبين. وكنا نشم رائحة ثقيلة لسمك وفقمات ومخلوقات بحرية متوارية بين الصخور، وحين شاهدنا في الفسحة الوسطية مجموعة من الكراتين المعبأة بالموز واللحوم والعلب الطويلة والخبز، انبرى واحد منا يقول لصديقه:

- ما الذي سيفعلونه بنا في الجزيرة برأيك؟

- هناك احتمالان: إما أنهم سيسمنوننا، طعامهم وفير كما ترى، ثم يأكلوننا على عادة أهل الشمال المتوحشين، المعروفين بالفايكنغ، مثلما قرأنا في كتب الرحلات عندنا. أو سيسمنوننا لكي نستطيع مضاجعة النساء الشقراوات بدون توقف. سمعت من مصدر لا يكذب نشرته صحيفة أميركية أنهم يعانون من نقص في المواليد. ولا تنس مظهرنا الذكوري القريب من التوحش. والشقراوات يعشقن الرجال السمر ذوي الشعور المفلفلة والدماء الحارة.

وما نال استغرابنا أن مياه البحر لم تتجمد على رغم البرودة غير المعقولة في الكون، وألفينا الأمواج تحمل بعض الأحيان كتلا من الثلج تتأرجح بين الشاطئ الصخري والمياه العميقة، وتبادر لأذهاننا منظر جدنا السندباد وهو يضرب في عمق البحار باحثا عن جزيرة الأمان والعسل والذهب بعد غرق سفينته. كما استعاد البعض منا رحلة جلجامش العجيبة إلى جبال الأرز بحثا

عن عشبة الخلود. وشاهدنا أعشاب البحر الداكنة محمولة على سرير من الموج، يعكس بعضها الضوء الشاحب إلى عيوننا بحدة، ورأينا ذيل الماء ينشطر نصفين وراءنا ما أن تحرك القارب متجها إلى الجزيرة، ودفعنا الحزن إلى يقين أننا بشر ضائعون. هذه حقيقة لا يمكن لنا تجاهلها، فنحن مقتلعون من الجذور كما لو كنا رؤوس بصل ناضجة، وما يجلب العزاء لنا أننا نتشارك ملايين البشر المصير ذاته، فقرننا هذا، وألفيتنا الثانية الموشكة على النهاية، لا تنتظر أشخاصا لهم المصير ذاته، بل تندفع إلى الأمام، ودائما إلى الأمام. قارنا مصيرنا بمصائر الهنود الحمر، والعبيد المجلوبين من غابات أفريقيا، والبدو الرحل الذين غابت عنهم شمس الحضارة. نظرنا خلفنا، ونحن نغادر اليابسة، بأحاسيس من يدخل مفازة لا يعرف بالضبط ما تحمله له من مفاجآت. وهكذا في ذلك النهار البعيد أبعد من نجمة القطب، لمحنا رافعات الميناء العملاقة تذوب في الضباب، وقباب الكنائس وأبراجها تتضاءل أمام أنظارنا لحظة بعد أخرى، وصارت المدينة تسرع في الهروب إلى الخلف مثل شبح، تاركة خطا أسود يمتد من الشرق إلى الغرب. واستغرقت الرحلة إلى الجزيرة حوالي نصف ساعة، وكنا نتخيل أنفسنا سندخل إلى مكان ذي شوارع فسيحة، وبنايات نظيفة، وأشجار ترقص بين أغصانها طيور شتوية، وتملأ الموسيقا مقاهيها، ومن غير المستبعد أن تنتظرنا فتيات شقراوات عند الميناء، وهن يمسكن بزجاجات من نبيذ العنب، والأنظار لن تمل من رؤية الثلوج وهي تتكتل على السقوف القرميدية الحمراء، حيث الموسيقى تنساب من خلل النوافذ جالبة بهجة الصباح للزائرين، غرباء هذا العالم. لكن شيئا من ذلك لم يكن مرتسما سوى في رؤوسنا. إذ حط بنا القارب على حافة الجزيرة، وقد صنعت من رصيف خرساني صغير، ولم نر سوى الصخور، وشاهدنا بعجب عمق الكآبة المستولية على المكان.

الجزيرة ذاتها بدت وكأنها صخرة كبيرة جرداء تغطيها الثلوج، تنتأ من تلافيفها شجيرات أبرية جافة، ونباتات محترقة السيقان بسبب البرد. استقبلنا

عدد من الموظفين الشقر من أهل البلاد، وقادونا إلى باب واسع تحت الأرض، وذكرونا بطلبهم السابق في أن نثبت لهم أننا مواطنون صالحون، نسير على ضوء قوانين البلاد، وأن أي سلوك نسلك، أو تصرف نقوم به، سيدون في ملفاتنا، وسيؤثر مباشرة على عيشنا في البلد. كنا ننظر فيما حولنا ونتعجب، فكيف انتهى بنا مصيرنا إلى هذا الكهف المجهول في الأرض الغريبة المحاطة بالمياه؟ ومن استطاع حفر هذا الكهف في الصخرة البارزة وسط لجة البحر؟ هربنا من الحرب إذن وقذفتنا أقدارنا إلى جزيرة النحاس لنموت من العزلة والبرد والغربة، فأي قدر معاكس طالنا؟

الحياة هنا سهلة قال لنا المقيمون القدامى، طعام ونوم وفراغ. واكتشفنا أن أولئك المقيمين يشبهوننا تماما، بوجوههم وقصصهم وخوفهم من المجهول، والبعض منهم يحمل أسماءنا ذاتها، لكن لم ينلنا العجب، تساءلنا مع أرواحنا، فالغرباء متشابهون في أي مكان وزمان. وفي الليلة ذاتها، أسكنونا كل ثمانية في صالة، والصالة تحتوي على أربعة أسرة بطابقين، وعرفنا أن هناك مطعما يقدم لنا ثلاث وجبات. صباحا ينتهي الطعام في العاشرة، ومن يفضل النوم عليه الانتظار حتى الغداء، وعادة ما يبدأ في الواحدة وينتهي في الثانية، ساعة عليك أن تقف في الطابور وتمسك بصحنك فيضعون لك الطعام ثم تختار طاولة في المطعم وتنهي وجبتك. والعشاء يبدأ في السادسة وينتهي في الثامنة. نقانق بقريّة وزبدة ومربى وخبز طويل وسميك يسمونه الخبز الفرنسي، يضعون عليه أحيانا السمسم أو حبة البركة، في البداية لم نستسغه لكن بمرور الأيام وجدنا طعمه لذيذا خاصة مع جبن الشرائح المغطى بالمربى. اللبن والعصير في علب طويلة الشكل من الكارتون، وتحسرنا عندئذ على طاسات لبننا القديم وقدوره المترعة باللذة، ونالنا العجب من هذه الطريقة في تقديم اللبن. ولأن وجبة الغداء لا تخلو من اللحم والمرقة وهو ما يسمونه "الصوص"، السائل الكثيف المائل إلى السمرة، والرز، تظل رائحة الطعام كثيفة في معظم زوايا

المكان ودهاليزه. للجزيرة تلك طقوس خاصة بها، وكان علينا أن نرصدها يوما بعد آخر كي نتآلف معها.

حين تظهر الشمس في السماء، وهي نادراً ما تفعل ذلك، يصعد البعض منا إلى سطح الجزيرة للفرجة على الصخور والنباتات والآفاق، ومن هناك يمكن رصد السفن العملاقة وهي تمر من بعيد ناقلة المسافرين والبضاعة إلى مدن الشمال، والقوارب السريعة للمتريضين، وقوارب صيادي السمك والقريدس. وكان جسد المدينة الشاحب يظهر لأعيننا مثل خط داكن، وفيه ظلال أبنية شاهقة وأبراج وقلاع عتيقة عمرها قرون وغابات تكتلت في لون أسود، ويأتي ذلك موشحا بضباب خفيف يتلاشى لحظة بعد أخرى. هذا المشهد كان دائما ما يحيل أرواحنا إلى حجم العزلة الواقعين بين براثنها. ومثل حشرات خائفة عليها أن تتلمس محيطها بحذر، وبعد أسبوع من وجودنا، صعدنا إلى سطح الجزيرة بعد تسلق الصخور الملساء، وتوغلنا بين شجيرات محترقة بالجليد، وتبدت لنا الآفاق وكأنها تضاريس لعالم آخر لا ينتمي إلى الأرض. أشار واحد منا إلى قلعة قديمة نائية، تقع إلى الغرب من الجزيرة فصاح بفرح: "قلعة هاملت"، وكان أميرا على هذه البلاد. وكان ذلك اليوم هو يوم التعرف على "كمال"، فمن بيننا أشخاص وجدناهم مميزين لهذا السبب أو ذاك، فتابعنا مصائرهم لأن ثمة مزايا لديهم لم نستطع نسيانها. أو يعود السبب إلى آرائه الصادمة حول البشر والفكر والدين، وربما لتجربته العجيبة التي قادته للوصول إلى أرض الجزر هذه. وهناك من يمتلك موهبة الحديث المرتكز على معلومات نجهلها، والخبرة العميقة في المجتمع الجديد. أما اصحاب التجارب النسائية فلهم تقدير خاص بيننا كوننا نعشق أحاديث النساء وأخبارهن، ففي أرواحنا جبال من الكبت والجهل بعالم المرأة، ونواياها، وأفانينها. اكتشفنا أن صديقنا كمالا واحد من المتبحرين بالأدب، وحشرة كتب عتيقة لم يخطر ببال أحد منا وجوده على ظهر الجزيرة، ونحن اليوم لا نتذكر سوى قلة من جماعتنا من بين آلاف جاءوا معنا إلى البلد في تلك السنين البعيدة. ربما لأن تلك القلة تميزت بشيء

ما لافت لأنظارنا. وكان كمال واحداً من تلك القلة المجيدة التي حفرت حكاياتها في تاريخنا القصير على هذه الأرض الباردة.

وفي ذلك النهار شرح كمال لمن يجهل هاملت أن عمه قتل أباه الملك لكي يستولي على العرش ويتزوج أمه، وقد دس السم في أذنه وهو نائم. في تلك القلعة جرت أحداث رهيبة أخبرنا كمال، ظهرت فيها أشباح وحيكت مؤامرات. قتل من قتل وانتحر من انتحر، ولأول مرة في تاريخ تلك القلعة ظهر شبح دخاني ينطق بحقيقة بعض الأحياء وخستهم. وهي أحداث مأساوية وردت في مسرحية لكاتب انكليزي اسمه "شكسبير". وتلك القلعة النائية هناك، المطلة على البحر، هي قلعة الأمير هاملت، وقد عاش قبل وصولنا بمئات السنين. وقتها كان "كمال" يكرس أيامه للقراءة، وهو أمر لم يكن شائعا بيننا. يستلقي على فراشه في السرير العلوي ويقضي الساعات مع واحد من الكتب، عرفنا أنه استطاع الحصول على الكتب من مكتبات رسمية لديها أقسام صغيرة للغات الشرقية، كان صديقه يستعيرها ويجلبها له، وكان كمال لا يختلط كثيرا بنا، حتى بادرنا شعور أنه يكنّ الاحتقار والازدراء لنا، نحن الذين نقضي وقتنا في كلام فارغ، ونقاشات تمتد أحيانا حتى منتصف الليل حول الأسباب الكامنة وراء هروبنا من أوطاننا والتوجه إلى هنا، إلى الجزر الباردة هذه. لا يقضي وقته بالتجوال في دهاليز الجزيرة السفلية، ولا ينتصب مثل مسمار أمام التلفزيون المربوط في الجدار بغرفة الاستراحة ليرى برامج لا يفهم منها شيئا كونها باللغات الأجنبية. ولا يطيل الجلوس في المطعم للتلصص على "نينا" العاملة في المطبخ، أو الفتيات اللواتي يزرننا بين الحين والآخر وينتمين لمنظمة الصليب الأحمر.

جذب كمال أنظارنا لسعة أفقه، والمصطلحات التي يتداولها أثناء محاججاته، كالسريالية، والتصوف، ولعنة الشعر، وأبطال ديستويفسكي، وسارتر الوجودي، وأدب المنفى، ومحمد إقبال، وما إلى ذلك من كلمات وجدناها غريبة على أسماعنا. احتدم النقاش ذات ليلة بين الساهرين حول الدين وتأثيره

على مجتمعاتنا، وما تفعله المذاهب من انقسام للحمة المجتمع، وكيفية الخروج من بحر الأفكار المتحجرة إلى هواء الحاضر وصناعاته ومنطقه، ففاجأنا كمال برأيه حول تلك الأمور. قال ببرودة أذهلتنا إنه لا يؤمن بالأديان، هكذا علنا، ولكنه من عبدة اللذة، فهي أسمى ما يطمح له الكائن البشري. وعلى رغم أنه لم يحقق هذا المبدأ لضيق اليد وقسوة الظروف حين كان هناك، إلا أنه تهيأ له التواصل مع النساء ثلاث مرات فقط طوال حياته، وظل يستعيد خلال سنوات تلك المشاهد حين يعمد إلى استحلاب اللذة مستعيناً بالمخيلة. كل مرة يتلاعب بتلك المشاهد حسب المزاج الذي هو فيه. وعرف عن كمال انزواؤه فوق صخرة على سطح الجزيرة كلما أسفرت الشمس عن نفسها. على تلك الصخرة الخشنة يجلس متأملا في الأفق الشاسع، تتقافز حوله طيور النورس تستطلع بعيون مدوّرة هذا الكائن بشعره الأسود، وحركاته العصبية وهو يمارس تحولاته الداخلية بحرية. صادف أن كانت هناك غيمة بيضاء تسبح على خلفية من الزرقة الباردة، فتخيل كمال روحه، ذات ظهيرة، غيمة صغيرة تلتحم بتلك الأشكال الروحانية في السماء، وتخيل نفسه مسافرا معها من دون عودة، يتنقل فوق المدن والبلدان، يرقب الغابات والطرق البرية، ويحدق إلى الطيور ذوات الأجنحة الطافية في الهواء، وينظر بحب إلى السواحل الرملية، وإلى النساء العاملات في الحقول والجيوش المتحاربة. وكثيرا ما تخيل نفسه، مثل تلك الغيمة، يتفتت إلى قطرات ناعمة، رذاذية، تذوب مثل أشعة نورانية في المطلق البعيد غير المكتشف. سمعنا لاحقا أنه يصوغ تلك التأملات قصائد وجدانية بنكهة روحية كثيفة. لم يكن أحد منا يصدق تحولات كمال تلك، كونها خارج إرادات البشر. إنه فعل من أفعال الملائكة أو الجن، أو البشر الممسوسين القادمين آجلا إلى أرض الجنون.

ما إن تآلفنا مع حياة الجزيرة اليومية، وامتص حواسنا ما يرى ويسمع ويشم فيها، ودرسنا بعض قواعدها وقوانينها، حتى سمحوا لنا بزيارة المدينة، فقررنا اختيار وقت الظهيرة، أي الساعة الثانية عشرة، برغم أننا لم نستطع

تمييز ساعات النهار بعضها عن بعض لأن الأفق متشابه دائما، وبالذات حين تغيب الشمس خلف الغيوم وهي عادة ما تفعل، وأضواء الدهاليز والممرات مضاءة ليلا ونهارا. سنعود من تلك الزيارة في قارب الساعة الثامنة مساء. وجودنا القصير في تلك البيئة البحرية التي تسودها الطيور، ولبطات السمك، والأشن المائي، والبواخر العائمة على أسرار الحياة منذ ملايين السنين، جعلنا نقع على اكتشافات مذهلة. لون بشرة أهل البلاد أشقر، وعيونهم زرق وأطوالهم عملاقة، والنساء يمتلكن أجسادا واثقة من نفسها حين تتحرك أو تناقش أمرا ما، وفسرنا الأمر على أن ذلك يعود إلى الحرية الواسعة التي عاشها الجسد منذ الطفولة وحتى لحظة وجوده اللاحقة. عرفنا أنهم يميلون إلى المتعة والطرب، يرقصون على إيقاع أية موسيقى يسمعونها، بما في ذلك موسيقانا. يقدسون القوانين، ولديهم يومان في الأسبوع يجنّون فيهما، ويسمونها "الويك إيند". هم أيضا ينظرون إلينا بتوجس، كما لو كنا أطفالا صغارا بحاجة إلى رعاية. ورغم اكتشافنا البون الشاسع بيننا وبينهم، سواء في الشكل أو التفكير، إلا أننا مجبرون على التعايش معهم والاندماج بهم. والاحتكاك هو المفتاح الوحيد لباب الاندماج.

٣

ما زالت البرودة ذاتها.

أنزلنا القارب عند المرفأ الصغير الذي رأيناه وقت وصولنا، والشيء الذي جذب نظرنا مقدار البرودة المبثوثة في الجو، وهي لا تخترق الملابس فقط بل تتغلغل حتى تصل العظام، وكأننا لا نلبس سوى جلودنا. ولعدم وجود ثلج في الجو دهشنا من كثافة النوارس في سماء البحر، حتى أنها رافقت رحلتنا بالقارب وكانت بالعشرات، تزعق وتنزل حتى السطح ثم تحلق عاليا في لعب لا ينقطع وكأنها تقدم عروضا راقصة لنا. ربما لأنها أدركت أننا غرباء عن هذا المكان، وأننا سنزور المدينة الشهيرة للمرة الأولى في حياتنا، وسنرى الحضارة على حقيقتها بما في ذلك نوارسها. هكذا قرأنا رقصة النوارس تلك، الرقصة التي أحببناها ودفعتنا لنعابث الطيور بالإشارات والصفير والكلام، فالطيور تعرف لغتنا حتما، أو هي تعرف لغة البشر على الأقل أينما وجدت.

أشار لنا أحد المارة إلى قبة مذهبة تظهر من بعيد مثل إناء مقلوب، وقال لنا اتجهوا نحو تلك القبة فهي تربض في منتصف المدينة. وهكذا جعلناها إشارة لنا ودليلا، وتركنا الميناء خلفنا، ودخلنا عبر طريق ضيق إلى حديقة مكتظة بالأشجار. أخبرنا صديقنا نائل أن لديه موعدا مع "جميل" وهو مقيم هنا منذ فترة طويلة، في مقهى اسمه "الحذاء الصيفي"، فقهقهنا عاليا، واعتبرنا حديثه مزحة صباحية نادرة، حتى تخيلنا أنفسنا نلبس حذاء صيفيا بدون جوارب، ونسير في شوارع العاصمة المرتجفة من البرودة. تعرفت على "جميل" في دمشق، قال "نائل" وهو يتوسطنا ماشيا بتريث وكأن الكلام يعيق حركته، وكان يستأجر شقة في منطقة المزرعة، وجميل في الأصل من مدينة البصرة، أسمر البشرة طويل ويتلمس المرء الجدية في تعابيره، استأجر تلك الشقة لأنه يحصل على نقود جيدة من تعهدات الدهان، أي صبغ الأبواب والشبابيك والجدران. وقد

اشتغلت معه أسبوعين، لكنني لم أحتمل العمل فهربت. كان شخصا طيبا، وحين كسدت أعماله سلم الشقة إلى صاحبها وحزم أمره وجاء لاجئا قبل سنتين، لكنني لم أنقطع عن مراسلته وتتبع أخباره. ومقهى الحذاء الصيفي تقع في "شارع المشي". وسألناه عن قصده من شارع المشي، فقال نائل بهيئة العارف إنه شارع لا تمر فيه سيارات، ونالنا العجب في أنفسنا لكننا لم نقف، وتابعنا توغلنا في طريق على ضفاف تلك البحيرة راح يتلوى بنا يمينا ويسارا، يرتفع عن سطح البحيرة حتى نظهر على الأرض فنرى تلك القبة المذهبة فنعدل اتجاه مسيرنا على ضوئها، أو ننزل إلى الأسفل فلا نعود نرى سوى الأشجار وبقعة السماء الزرقاء، حتى قادنا الطريق في النهاية إلى شارع عريض يطل عليه سياج عال بابه مفتوح.

قرأ واحد منا اسم المكان على قطعة مذهبة معلقة على الطابوق الأحمر فعرفنا أنها الحديقة الملكية، فتهيبنا في البدء من دخولها لأن كلمة ملك، ورئيس، وسلطان، تبعث القشعريرة في أبداننا.

ولكون الباب مفتوحاً، ولم نلمح أي حرس قلنا لأنفسنا فلندخل هذه الحديقة، ونمتع أبصارنا دقائق ثم نتابع مسيرنا إلى قلب المدينة. رأينا نساء عجائز يتمشين بين الشوارع المكسوة بالحصى، وأطفالا صغارا مع أمهاتهم، وشيوخا يتنفسون بعمق ويطلقون البخار من أفواههم، وقد صممت شوارع الحديقة لكي تؤلف أشكالا منسقة تبتعد بعضها عن بعض، أو تتقارب متداخلة عند بقعة جميلة من أشجار التوت البري. مشينا نحو تمثال لطيف يبلغ ارتفاعه ثلاثة أمتار لشاعر البلاد، صاحب قصة عروس البحر. كان الشاعر يجلس على كرسي من الحديد وهو يمسك بين يديه كتابا من الحجر. وجه الشاعر كان يحدق في البعيد، نحو المدينة، وحقيقتها التي يراها وحده، وكأنه يرسم لها مصائرها الخيالية في رأسه. مات الشاعر منذ زمن بعيد، لكنه ظل بعد موته في رؤوس الصغار والكبار جيلا بعد جيل.

شعورنا السود، وعيوننا القلقة، وحركاتنا العصبية المتوترة، وأصواتنا المرتفعة، والنقاش الحاد الدائر بيننا عن قصر الملك الواقع في قعر الحديقة والمفتوح للسياح، واندهاشنا بأبراجه وشرفاته وزيناته المرمرية، كل ذلك كان يجلب أعين مواطني البلد إلينا، فيرمقوننا بدهشة ويمرون بجانبنا مسرعين، وكأنهم يبصرون شياطين خرجت توا من مياه البحر. أبصرنا مجموعة من الأطفال تقودهم امرأتان يتجهون إلى باب في القسم الغربي من الحديقة حيث يقع القصر المنيف، ولمحنا شخصا غريب الهيئة جالسا على مصطبة خشبية تحيط بها مثل نصف دائرة شجيرات خفيضة، يضع جنبه قناني زرقاء، ويمسك واحدة بيده يرتشف منها بين الحين والآخر، ويحدق بنا بتركيز. لحيته شقراء مشعثة، وبشرته صفراء، صفارها لا يدل على الصحة، وأسنانه مهدمة، كما لو أنه تناول فطورا مصنوعا من صفائح الحديد. وهو يدمدم مع نفسه بكلام غير مفهوم، وحين مررنا جنبه سألنا من أين أنتم، فأجابه واحد منا لقد جئنا من بلاد الشمس، الواقعة خلف البحار. ماذا تفعلون هنا، سألنا مرة ثانية، فأجابه نائل بابتسامة ساخرة: جئنا نبحث عن كنوز الأمان والسعادة في دياركم. ونال الجواب ارتياحه ورضاه، وهذا ما ظهر على وجهه الملتحي، وأشار إلينا باسما اذهبوا عبر باب الحديقة إلى ذلك القصر، هو قصر الملك، عمره أربعمائة سنة ويحتوي على تاريخنا كله.

باب الحديقة أدى بنا إلى جسر عتيق من الخشب، بطول عشرة أمتار تقريبا، صنع ذات يوم فوق الخندق المليء بالماء المحيط بالقصر للحماية من هجوم مباغت. وفي مياه الخندق جذب نظرنا سرب من الأسماك تسبح قريبا من الجسر، وقال واحد منا لا بد أنها معتادة على تناول الطعام من أيدي الزائرين لذلك تتجمع تحت الجسر. أسماك حمر وبيض وسمر داكنة، بأحجام مختلفة وهيئات عديدة بعضها غريب، تتلاصف جلودها المحرشفة في ضوء الشمس المنفرش على الدنيا حولنا.

أخبرنا "نائل" بعد عبور الجسر أنه رأى سمكة تحدق في وجهه دهشة لأنها شعرت به غريبا عن هذه الديار. السمك لا يقرأ المشاعر، ولا يعير أهمية لألوان البشر، لذلك لم نصدق هواجسه تلك. واقترح آخر أن نأتي مساء إلى الخندق مع سنارات وطعم لكي نصيد بعضا من ذلك السمك ونعمل منه وجبة لذيذة، ثم راح يقهقه بصوت عال، فلبثنا ماشين نحو القصر. وجدنا الباب مفتوحا فدخلنا إلى البهو الكبير، واستقبلنا رجل أنيق نظيف الملابس، أشار لنا بالبدء من الصالة اليسرى، حيث ستقودنا الصالات والممرات إلى عمق السنين، السنين التي لم نكن قد ولدنا فيها، ولم نشاهد ما جرى خلالها من حروب وغزوات وانتفاضات ومواجهات، ابتدأت كما رأينا ذلك مكتوبا على منشور طويل معلق جنب تمثال لأحد الأبطال، منذ دخول الدين الجديد إلى هذه البلاد، ومواجهته للشعوب المتعددة الآلهة التي لم تغادر معابدها الوثنية إلا بعد آلاف القتلى طوال مئات السنين. تبينّا في صالة معتمة بعض الشيء مجسما واضحا للبلاد، المجسم يعرض في صندوق مستطيل ضخم مثبت في الجدار الطويل للصالة، بإضاءة مشعة ساحرة تبرز جزرا ثلاثا، الأولى وهي الأكبر تمتد طوليا وسط بحرين، والثانية وتقع فيها العاصمة جزيرة متوسطة الحجم، بينما الجزيرة الثالثة تتوسط الجزيرتين وبدت صغيرة عائمة في مكان اللقاء لذينك البحرين. ورزقت البلاد فضلا عن الجزر الثلاث بمئات الجزر الصغيرة المشابهة لجزيرتنا أو أكبر، لذلك سميت ببلاد الجزر الباردة. ويعرض الجهاز السحري في لقطات متعاقبة ميزات كل جزيرة من تلك الجزر، وعدد سكانها وأشهر مهنها وأهم رموزها وفرسانها ومعالمها من قصور، وأبراج، وأزياء، وحصون، وجسور، وصخور غريبة الهيئة كانت ذات يوم كتابا دوّن عليه البشر تعاليمهم وانتصاراتهم وأحلامهم. لقد وحّد الملك صاحب القصر تلك الجزر قبل مئات السنين تحت تاجه، واستطاع التمدد شمالا حتى كاد يصل قطب الأرض الشمالي، وتمدد غربا حتى هيمن على الجزر البريطانية بآلات حربية مرعبة، وسفن غريبة الهيئة، وشجاعة رجال لا يعيرون أهمية للموت. وتسنى

لنا أخيرا رؤية الجزيرة التي نبذونا فيها فوجدناها على شكل نقطة صغيرة تقابل تمثال حورية البحر في الاتجاه الشمالي، التمثال المنحوت من حكاية شاعر البلاد وراويها. سنتحول ذات يوم إلى مخلوقات بحرية دون شك، لأننا نعيش وسط المياه، قلنا لأنفسنا ونحن نتأمل المكان الذي وصلنا إليه. لكن لا يهم حتى لو تحولنا إلى سمك فلن نخسر شيئا من مغامرتنا لأننا سنظل أحياء في النهاية، وكان ذلك عزاء حقيقيا لنا، دفعنا لمتابعة تجوالنا في القصر. دخلنا مخدع السيدات بعيون متعطشة إلى اكتشاف تفاصيل هذا القصر الفخم، وطقوس النساء في غرفهن الباذخة، وشعرنا بالدفء الأنثوي يسري في عروقنا، ويثير فينا العطش إلى إناث البلد الشقراوات، ذوات العيون الزرق الممتلئات الأجساد كما لو صببن بمقاييس نموذجية للأنثى. لم تعد عيوننا تحتمل كل هذا الجمال والأبهة، ليتنا خلقنا في ذلك الزمن البهي، قال واحد منا، واقترح علينا الخروج لاكتشاف المدينة، لكننا لم نخرج، وواصلنا تجوالنا في أروقة القصر. وقعنا على عشرات القطع المشغولة يدويا في الأبهاء والزوايا، ومن كثرة الزخارف التي رأيناها، والصور المرسومة على الجدران والسقوف والأثاث، وذلك الصمت العميق، صمت الزمن، تعبت عيوننا وحواسنا فتعجلنا الخروج من الباب، الخروج من التاريخ العجيب المتروك على الأشياء، ونحن نمني النفس بيوم مثمر يرضي فضولنا وعطشنا للتوغل في مجاهيل البلاد. صعدنا عدة درجات أدّت بنا إلى باب خشبي مرتفع وواسع، شرعت صفحة واحدة منه، لنفتح أعيننا ونرى الضوء الباهر في المساحات الممتدة في الجهة الثانية من القصر، وهناك تجلت لنا القبة المذهبة مرة أخرى، فقررنا التوجه نحوها لأنها تحتل قلب المدينة.

كنا نسير قطيعا غريب الهيئة مرة في وسط الشارع، ومرة على الرصيف المثلج، والمارة يرقبوننا بفضول. ملابسنا لا تناسب الأرض، وشعورنا السود متطايرة، وأعضاؤنا متحركة مثل نوابض عند الحديث، وكنا لا نترك شيئا إلا ونصبّ عليه نظراتنا وملاحظاتنا، إذ اعتبر البعض أننا نعيش معجزة بوجودنا

وسط هذا الزمهرير، والنساء الشقراوات، والمحال النظيفة المدارة من قبل النساء. سنعيش في هذا التخم غرباء، ونموت كي نصبح إمثولة لأحفادنا. جئنا على مستديرة صغيرة إلى يميننا قبل أن نصل مبنى الكنيسة الفخم، فواجهنا تمثال متوسط الارتفاع تقف على منصته امرأة من البرونز، شكلها مخضرّ تقريبا، شهدت فصول الثلج والمطر والريح والرطوبة. امرأة من هذه البلاد تلف رأسها بغطاء تفاديا للبرد، وجثتها متوسطة الضخامة وهي تحمل في يدها اليمنى سمكة بحرية مسطّحة، وتلوح ابتسامة الظفر على شفتيها السميكتين، وهي تتجه إلى المدينة، وعند قدميها سلة مليئة بالسمك، وقد كتب تحت التمثال "بائعة السمك"، وتخيلنا المرأة قبل مئات السنين وهي تحمل السمك من صيادي الميناء لتبيعه في سوق المدينة. علّق "ليث"، وهو الأصغر بيننا، ونطلق عليه اسم المراهق، على التمثال قائلا: إنها تشبه عمتي "نهاية"، بائعة اللبن، وكانت تجلس في واحد من أسواق بغداد تبيع الجبن واللبن والقيمر كل صباح، قبل أن تموت أثناء الحرب حزنا على ابنها البكر الذي قتل في هجوم صاعق حدث في الجبهة الشرقية. ومن غرائبها أنها هجرت لبس الحذاء شهورا حزنا على ولدها، تحت دهشة معارفها وأقربائها، حتى ظنوا بها الجنون. وحدثنا بمتعة عن عمته الساذجة وما كانت تكابده مع مكتشفات الحضارة الجديدة في بغداد أيام زمان. وصلنا إلى محاذاة الكنيسة، فأنفتح أمامنا ميدان واسع، على اليسار منه صواري سفن وقناة عريضة من المياه، وقريبا منها بناية ضخمة عتيقة من الطابوق الأحمر، وتزيّن واجهتها أشكال توحي بالرقص والتمثيل والغناء، بينما يبتدئ من واجهة الساحة شارع عريض مكتظ بالبشر.

"يحتوي العالم كل هذا الجمال، بينما قضينا نحن حياتنا نتقاتل، ونموت في ذلك المكان البعيد؟ نموت فداء لأولئك المستبدين؟"، كنا نتحدث بيننا ونحن نحدق بذهول إلى صواري السفن الراسية، ووجوه النساء الطلقة الخالية من الهموم، المرتسم على محياهن ابتسامات خالدة، وإلى واجهات الزجاج العامرة بالألبسة الفراء، والملابس الثقيلة، والقبعات الأنيقة، والقفازات الجلدية.

وراودنا إحساس أننا انتقلنا إلى عالم غير أرضي. وكان الهدوء يضرب سدله على الصواري البعيدة والبنايات الملونة وقباب الكنائس. ويخترق ذلك الهدوء بين لحظة وأخرى صيحات تشبه صراخ أطفال لنوارس تتقدم من البحر صوب اليابسة باحثة عن الطعام. وليس بعيدا عنا سرب هائل من الحمام يتجمع حول رجل ملتح، متسخ الثياب، يمسك كيسا مليئا بفتات الخبز يطشّه على الأرض ليتزاحم الحمام والغربان والنوارس حوله لالتهام الوجبة النهارية من طعام بني البشر. شبّهه واحد منا بجلجامش حين سرقت الأفعى من بين يديه عشبة الخلود وتركته حزينا، عابسا، متحسرا على مملكة سيفقدها ما أن يموت.

جئنا إلى شخص أسمر البشرة يشبهنا، مر بنا مسرعا وسألناه عن الشارع المسمى بشارع المشي، فأشار إلينا تجاه الشارع العريض، وأخبرنا بالقول: يبتدئ من هناك حتى ساحة اللقالق، ومن ساحة اللقالق حتى بناء البلدية الضخم. أية لقالق؟ ووقفنا مذهولين، فنحن لا نعرف ساحة اللقالق، ولا مبنى البلدية الضخم، لكننا دخلنا الشارع على أية حال مثل أعمى يتجول في غرفة مظلمة. سيل من البشر في الاتجاهين، كنا نشق طريقنا فيه بصعوبة، وكانت أضواء المحال الأنيقة مضاءة، في واجهات زجاجية، وعند ساحة صغيرة تقع أمام كنيسة وجدنا شابا ضئيل الحجم، أشقر البشرة، يرتدي ملابس يومية ويقف بحذاءيه الثقيلين يطلق صوته مغنيا للعابرين. وحين أنهى أغنيته جذب قبعته الصوفية ودار فيها على المعجبين، أولئك المصغين بخشوع. بدأ البعض يلقي له بعملات معدنية، فيما فضل البعض الآخر الانسحاب قبل وصوله إليهم. هنا لا أدعية أو آيات قرآنية أو دعوات بالنجاح والتوفيق، بل صوت رخيم يسيل في الآذان مثل موسيقى قادمة من خلف الغيوم. إنه واحد من مغني الشوارع الجوالين الذين قرأنا عنهم، أو سمعنا بهم من خلال القصص والروايات. يعتاش على أعطيات المستمعين، وهناك مثله من الرسامين، والحواة، والممثلين، والمهرجين، والتماثيل الجامدة، يستحصلون رزقهم اليومي على ما

يمتلكونه من مواهب. "مهنة نظيفة"، قال واحد منا أثناء ما كنا ننسحب بهدوء، ماشين نحو ساحة اللقالق.

وفي تلك اللحظة الخاطفة، لحظة اكتشاف المدينة، غافلنا نائل ومضى داخلا إلى باب معتم يطل على الشارع. وقفنا ننتظر خروجه بعيون مستنكرة سلوكه غير المتوقع، وحين دققنا الأنظار في الباب، شاهدنا صورة على الزجاج لرجل عجوز بلحية شائبة ممسكا كأسا ضخمة مليئة بالجعّة. ومن الباب تهب رائحة ثقيلة لخمور ودخان وعطن الأماكن المغلقة. المكان حانة نهارية تبيع المشروبات. وصورة الشيخ على الباب إعلان لجذب الزبائن. انتظرنا نائلاً نصف ساعة تقريبا، وكنا نضرب أخماسا بأسداس عما يفعله في الداخل المعتم، ومتى سيعود إلينا نحن أصدقاءه، ومنذ تلك اللحظة أدركنا أن نائلاً من الأشخاص المسكونين بعشق الخمرة، ولا يخجل من إظهار ذلك، وبعد فترة الانتظار المزعجة، والمقلقة، خرج إلينا نائل بوجه مستبشر، وعينين ضاحكتين، وأخبرنا أنه لا يستطيع رؤية الجعة من دون أن يحتسي شيئا منها. وطفق يحدثنا بانشراح، ودعة مزاج، عن جعتهم اللذيذة التي لم يسبق له تذوق صنف بطعمها. أخرجته الكحول عن كآبته السابقة وتحول بلحظة إلى كائن خفيف، يقفز بكلامه من موضوع إلى آخر. "الحياة صحراء من دون كحول"، قال لنا ضاحكا ونحن نتابع مسيرنا. نائل اليوم سائق باص في العاصمة، يراه بعض منا ممن يتسلل نحو تخوم المدينة ليلا للفرجة على البشر، كيف ينحني على مقود الباص وهو يعبر به "جسر كنيبل"، الرابط بين العاصمة وجزيرة آما، سابحا في زمن آخر، زمن نهاية التجربة، بعد أن غادر معظم مجايليه. كان نائل الأكثر واقعية بيننا في ما يخص دوره في الحياة التي جئنا إليها هربا من حروبنا وصحارينا وسجوننا، ولا يمكن القول إلا أنه الأكثر حكمة بيننا. فالتكيف مع المحيط حكمة بشرية عمرها آلاف السنين، كما أدركنا ذلك في نهاية الرحلة لأعمارنا المتآكلة. شعره أبيض، وجهه ممتلئ بالأخاديد، والمرارة، وينتظر إحالته إلى التقاعد، وعرف بيننا خلال العقود التالية لذلك اليوم بالسكير، ولوثة

عقله التي يسببها الخمر أصبحت معروفة بيننا. وسنروي يوما ما قصته مع "منى"، المرأة العراقية التي أحاطت بها الإشاعات والأقاويل، وكيف أن فشل تجربته معها قاده إلى أن يندمج بالحياة اليومية أكثر منا جميعا، فتحول إلى سائق باص. ونحن من موقعنا بين الشجر، في هذا الليل الصيفي المشع بالنجوم، ننتظر وصوله إلى هذا المكان بشوق، وقد سمعنا أنه أصيب بأكثر من جلطة قلبية بدون أن يدفعه الخطر إلى التوقف عن شرب الخمرة، وتدخين سجائر البرنس الطويلة، فلديه حتما قصص لا نعرفها، وحكايات لا تنتهي نزجي عبرها وقت فراغنا الأبدي.

٤

في تلك الساعة، من ذلك النهار البعيد، وبعد خروج نائل الشاب من ذلك الكهف، مضينا في طريقنا المجهول نحو ساحة اللقالق. وحسبنا أننا سنجد ساحة واسعة تقف فيها، أو تطير فوقها اللقالق البيض. ولم لا، قلنا لأنفسنا، ففي هذا البلد يمكن لكل أمر غريب أن يحدث. لكن ما وجدناه صورة مختلفة عما ارتسم في رؤوسنا.

وسط ساحة مستديرة إسمنتية، على شكل بحرة صغيرة ملأها الثلج، ينتأ منها عمود إسمنتي مزخرف بنقوش حجرية، رأينا طستا كبيرا تتوزع على حافاته طيور اللقالق المصنوعة من البرونز الصدئ المخضر. لقالق تهم بالطيران، ونحن إذن إزاء نصب اللقالق بعينه. ولم نفهم المغزى من النصب هذا، سنعيش سنوات أخرى حتى نقع على قصة النصب. وأبرز ما شاهدناه، عدا تمثال اللقالق، مبنى هائل الضخامة يقود إليه طريق مفتوح قيل لنا أنه مبنى البرلمان، حيث يتحكم البرلمان في هذا البلد بكل شؤون البشر. ليس هناك جنرال فخم الشاربين يضع النجوم والتيجان على كتفيه، ولا رئيس يفقه بكل شاردة وواردة. الناس عبر أحزابها تدير شؤون نفسها. كما شاهدنا واجهة بنك عند الزاوية يدخله الزبائن لاستلام النقود ثم يخرجون بوجوه طلقة، وعلى اليسار مجمع ضخم للبضاعة يحتوي على كل ما يخطر بذهن الإنسان من مصنوعات ومشمومات ومأكولات ومشروبات وملبوسات. مقاهي الرصيف كانت تضع كراسيها وطاولاتها أمام الواجهات، وتستقبل الزبائن شاربي القهوة والشاي والخمور والكاكاو والشوكولاتة، وتوفر لهم بطانيات وثيرة لمن يحس بالبرد. والندل فتيات وضيئات الوجوه، يحملن الكؤوس المترعة يتنقلن بين الطاولات كأنهن فراش نادر سعيد بحركته. وألفينا الشباب يتجمعون حول تمثال اللقالق يقبلون النساء بمتعة، ويحتسون الجعة، وينظرون متأملين

البشر التي تروح وتغدو في الاتجاهات كلها، وكانت أقدامهم تسحق الثلج المتخلف من ليلة البارحة. وبعد أن متعنا نواظرنا بهذه المشاهد، وسمعنا موسيقى شجية لأشخاص من مكان بعيد يسمى أميركا اللاتينية، يعزفون على آلات غريبة كالطبول والنايات والخراخيش والكيتارات، وتأملنا بواجهة البرلمان البعيد، واصلنا مسيرنا نحو مقهى "الحذاء الصيفي"، وأخبرنا واحد من جماعتنا أنه يقع على اليسار في زقاق ضيق أمامنا. أي اسم لطيف هذا. وراح البعض يتخيل صندلا أنيق الجلد، بلون بني يشبه شعر البنات، وسيور عمد صانعها إلى تحويلها إلى تحفة فنية بارعة الشكل مرقّشة بالفراشات. كل شيء مكتنز بالدهشة، وروح الأسلاف نتنفسها مع الهواء النظيف. وهكذا بما يمليه إصرارنا على الكشف والمغامرة دخلنا زقاقا ضيقا، رصفت أرضيته بأحجار قديمة، ومشينا فيه مئتي خطوة تقريبا حتى رأينا اللوحة التي تشير إلى المقهى، وكان يمثل حذاء مرسوما على الزجاج. وكان ما يشبه صندلا قديما يزين تلك الواجهة، وهو صندل من تراث الماضي بدون شك، فلم يكن مألوفا لذائقتنا، وحاذينا الواجهة الزجاجية وكنا لا نجرؤ على الدخول، ولكن نائلاً لمح صديقه جميلاً هناك جالسا قرب البار فدخلنا مبتهجين.

هذه هي الحياة التي حلمنا بها، تسكع في الطرق، وجلوس في المقاهي، وتقبيل النساء والتمتع بمباهج الحياة من دون أصوات طائرات ومخابئ عطنة في الجبهات، وبدون أوامر عسكرية. مدن نظيفة ومشاعر ناعمة، وموسيقى. لكن كيف نصل إلى هذه الحالة؟ بل السؤال كيف وصل هؤلاء إلى بناء هذه البهجة على الأرض؟ أي الأفكار أوصلتهم لهذا؟ وأي الكتب التي قرأوها قادتهم إلى هذه النتيجة؟

رأينا جميلاً يجلس قرب فتاة شقراء، مسترخية البشرة، وعلى وجهها ابتسامة ساحرة، قابلتنا بها، حين تقدمنا نحو الطاولة. وطلبا منا الجلوس واحتساء مشروب ما، فوقفنا محرجين، فكرة احتساء الخمور للبعض منا

ليست محبذة. فديننا لا يبيح ذلك كما قالوا. برغم أننا لاحظنا أن العيش في هذه البلاد مستحيل بدون معاقرة الخمور. فالخمور في كل مكان. وكأن هذا الشعب ما هو إلا سمك بشري يسبح في بحر من الخمور. استعصى تفسير الظاهرة على كثير منا ممن جاءوا من بيئات محافظة. نائل يعرّف جميلاً وصديقته علينا بالأسماء، والمهن والبلدان، والفتاة تومئ برأسها تحية، وطلب جميل منا بإصرار الجلوس واحتساء كأس من الجعة أو فنجان قهوة أو كأس نبيذ لكننا رفضنا، فنحن لا نمتلك نقودا كافية، ولا نعرف الاثنين، لذلك سلمناهما صديقنا نائلاً وخرجنا من المقهى. اجتزنا شارع المشاة حتى نهايته، وتوقفنا في الساحة الواسعة المسماة ساحة البلدية، وشاهدنا الشجرة العملاقة المنتصبة وسط الساحة وقد زينت بالمصابيح، والقطع البلاستيكية الملونة، والشرائط، والنجوم الزجاجية. يقف تحتها وحولها السياح والمتطفلون من أمثالنا لالتقاط صور للذكرى. والشجرة هي مركز المدينة في الشهر الأخير من هذه السنة التي ستتوج بالاحتفال الضخم. لا شيء من هذا كله يعنينا، ووجدنا أنفسنا وسط غابة من الرموز، فنحن لا نعرف سبب وضع شجرة كبيرة في وسط الساحة أمام مبنى البلدية الأحمر الضخم ذي الباب الخشبي السميك الذي قيل أنه بعمر مئتين أو ثلاثمائة سنة على الأقل. ولا نعرف تلك العجلة التي يتحرك بها الناس هنا، ولا إلى أين يتجهون ولماذا. الجميع في عجلة من أمرهم، وشعرنا بالبرد يعيق حركتنا، البرد والجوع، وهو ما لم نحسب لهما حسابا قبل أن نأتي. المشي في زمهرير الشتاء، ولساعات طويلة، يسبب الجوع الشديد، لا، ليس هناك عطش فالهواء بارد، لكنّ هناك جوعا شديدا، وانتحى واحد منا خلف كنيسة وبال بعجلة عند غيضة كثة الشجر معزولة خالية من البشر، وأخبرنا بعد التحاقه بنا أنه رأى خيطا من الدم يجري مع الماء، فأخبرناه أن هذا من شدة البرد، وأعضاؤنا غير معتادة على هذا الزمهرير. اقترح آخر أن ندخل مطعما من المطاعم لنطلب شيئا نأكله بدون أهمية لنوعية الطعام، واقترح ثالث أن نتناول وجبة من تلك الأصابع اللحمية

المعروضة في واجهات العربات الصغيرة المتوقفة في بعض الساحات التي نمر بها، وتفوح من حولها رائحة شهية، مزيج من السنب والكجب والشواء، ولكننا بعد حسابات، وتدقيق بنوع اللحوم وهل هي حلال أم حرام، وجدنا أننا لا يمكن أن نغامر مثل تلك المغامرة، وقر قرارنا على أن أسلم طريق لنا، وبعد أن رأينا جزءا لا بأس به من العاصمة، هو العودة إلى عشنا الأمين، تلك الجزيرة الراقدة بين أصابع الماء. وما شجعنا على الميل إلى قرار الرجوع مشاهدة الشمس وقد بدأت تضمحل في الغرب وسط الضباب، والعتمة تزحف على أعالي الأبنية والأزقة، والأضواء تنار فجأة وكأنها تستجلب الليل عنوة.

شيء واحد جذب نظرنا في طريق الرجوع، خلف كنيسة سيدتنا، رأينا انعكاس واجهة متحف ضخم البناء على بحيرة صغيرة بمواجهة المتحف، وواجهة المتحف مستوحاة من الفن الفرعوني بأحجامه الهائلة وأبوابه العملاقة. لا يمكن معرفة المدينة بلمسة واحدة. ستكون لنا جولات ثانية معها. قررنا الرجوع وتأجيل رغباتنا إلى مغامرة أخرى. وكان طريق الرجوع أسهل علينا، فقد قام واحد منا، هو الأذكى بيننا، في وضع إشارات خاصة لطريق الرجوع تمثلت بقمم بعض الأبراج، وقباب الكنائس، وألوان بنايات عالية، وذرى أشجار صنوبر مميزة، تتبعناها إلى الميناء، وهو ما أنقذنا من التوهان، حتى وصلنا إلى القارب. انتظرنا هناك أكثر من ساعة. ثم بدأ الثلج يتساقط بشكل مائل، على رغم خلو الأفق من الريح، ولم نتوصل إلى سر تساقط الثلج بشكل مائل، لكنه جلل الأغصان المورقة والنافضة، واحتمت النوارس البرية وطائر الشقرق طويل الذيل بين الأغصان الكثة، فيما انزوت النوارس الكبيرة على السقوف. والسقوف القرميدية الحمراء أصبح لونها أبيض، وتعاطفنا مع الطيور وهي تقبع وسط الثلج ملتمّة على نفسها، من دون معاطف أو أردية تقيها زمهرير البلاد. والشيء الذي جذب أنظارنا، وكان جديدا علينا تماما، سقوط ندف سميكة من السماء راحت تتزايد لحظة بعد أخرى، وكان سقوطها

بطيئا. الثلج ألقى حجابا على أبنية المدينة الضخمة البعيدة، فغابت عن النظر، فتخيلنا أنفسنا في ثلاجة عملاقة تدور وسط فضاء كوني مجهول. على صفحة البحر يذوب الثلج مباشرة، بينما هو على الأرض يتراكم قليلا قليلا ويضاف إلى ثلوج الأيام الفائتة، حيث تلتمع الصخور الساحلية بمياه الندف الذائبة فيصبح لونها بلون الصدأ.

خرج آخر مسافر من القارب القادم من الجزيرة ودخلنا نحن بضجة عالية، ومعنويات مرتفعة، فقد رأينا المدينة العريقة لأول مرة في حياتنا، وصرنا نمتلك صورة ما، لشارع المشي، وكنيسة سيدتنا، ومتحف السيد "ثورفالدسون"، ومقهى الحذاء الصيفي، وجميل المترجم، ومبنى البلدية بطابوقه الأحمر وبابه الخرافي. ولن ننسى طبعا قصر الملك وما يضم من أعاجيب، ولو أن الصورة، صورة عاصمة الشمال، ضئيلة، ومبتسرة، كما تبين لاحقا، لكننا صرنا نفهم ما يدور من أحاديث حولها في ليالي الجزيرة الطويلة. لقد حلت في أجسادنا قبسات من أرواح أسلافهم المشهورين بالتوغل في بحار الجليد. وهكذا عدنا إلى عشنا أشخاصا آخرين، عدنا إلى تلك الواحة الصغيرة المختبئة تحت الصخور، في تلك الجزيرة العجيبة التي وجدنا أنفسنا ننام، ونعيش، بين دهاليزها وقاعاتها، وصارت الكوابيس زادا يوميا لنا. كأنما الاسترخاء الذي أعقب الوصول فجّر كل ما ظل متراكما من هواجس، وخيالات شاذة، وكوابيس. لقد آمنا بأن التخلص من الماضي ليس ممكنا أبدا. لم نتشبع بعد بالحياة البهيجة التي دخلناها بغتة، ونتلمس طريقنا بأناة وحذر فيها، مازال خزين ذكرياتنا لا يحتوي سوى ما عشناه هناك، وما عشناه هناك لم يكن مبهجا على الإطلاق. ولكون الأحلام عادة ما تأتي مختلطة الوقائع وغير منطقية، فهي تصبح كوابيس تلم برؤوسنا ما أن نضعها على مخدات الإسفنج الموضوعة على أطراف أسرّة الخشب من طابقين الموزعة في القاعات.

حقبة الكوابيس أطلقنا عليها. وكان الجميع تقريبا يشكو من الكوابيس. كل الكوابيس تتعلق بالماضي.

تأتي على هيئة قصص مضحكة في كثير من الأحيان، وغير منطقية في أحيان أخر. كأن يجلس الشخص في مقهى صغير مكتظ بالبشر يشرب الشاي المخلوط بالهيل، ويتنفس دخان الفحم المحيط بإبريق الشاي، ويدخل فجأة رجال أمن رسميون، يفتشون عن الهاربين من جبهات الحرب، وحين يمد الشخص يده إلى جيبه يكتشف أنه لا يحمل أية أوراق ثبوتية. هذا معناه حكم بالإعدام. الثاني يفيق جاف الفم، مذعورا، بعد رحلة موحشة في صحراء قاحلة تطارده فيها طائرات مروحية تروم اصطياده، وحين يواجهه تل سيختفي وراءه، كما ظن، يجد أن ما يأتي وراء التل هاوية سحيقة لا قرار لها وهو يتأرجح فوقها ناشف الريق. وثالث يمسك بندقيته في طابق عال من بناية عتيقة ويحدق إلى جهة العدو فيلمح صاروخا متجها نحو البناية فيسقط في يده، ويستيقظ صارخا ليوقظ من في القاعة جميعا، وهكذا.

أما أغرب ما تحدث به واحد من زملائنا فعن حلم يرى فيه جسده وقد تشابك على نفسه مثل جذور شجرة عتيقة. اليدان تلتفان على الرأس، والرجلان تدخلان بطريقة ملتوية بين اليدين، والرأس يجد نفسه يلامس الفخذين، وكل مرة يستيقظ مرعوبا وهو يحاول فكفكة العقد، وتخليص أطرافه من المتاهة. الكابوس العجيب، كابوسنا الجماعي، ظل يتكرر ويلف حياة الجزيرة الصغيرة المحاطة بالسمك والأمواج البيض، ولم يستطع أحد الخلاص منه، أو فهم دلالاته. واعترف الجميع أنه رافقهم منذ هروبهم من مياه الحرب، ولم يكف عن الظهور بعدها.

الشاعر كمال، المولع بقراءة الكتب، ويجلس ساعات في سريره منكبّا على كتاب سميك، زعم أنه لا يرى الكوابيس، بل وينام هادئا مطمئنا كونه يفرغ ذكرياته على شكل خواطر، ومذكرات، وقصص، وقصائد، يرصد فيها أدق

المشاعر والمخاوف التي تكتنزها ذاكرته. الكتاب محظوظون، إذن فهم مكنسة ضخمة تزيح قمامة الفرد خارجا. مارس هذا الإفراغ، كما يسميه، طوال سنوات، مما جرده من الخوف الداخلي، والرغبات المكبوتة، والحوادث المرعبة التي عاشها في الحرب كسائق دبابة حين نشبت الحرب بين الدولتين الجارتين الواقعتين في الشرق البعيد. عادة ما كان يتحدث بجمل غامضة عن قدراته في "تقمّص" لحظات مريحة، يجد نفسه فيها طائرا مع الغيوم، أو يسابق نورسا في الفضاء، يتمشى في حقل ذرة يانع، وحينا ينظر من أعلى مرقب على سطح سفينة تمخر المحيط، وهكذا من مشاهد ومناظر يخطها له عقله كي يهرب من ضياع حاضره، لكننا لم نتوصل إلى ما يعنيه بلحظات التقمص. أوجز الأمر لنا باختصار فقال: هو أن تتحول إلى غيمة أو سفينة أو شجرة أو قبر أو قطرة ماء أو حتى جبل. مع ذلك لم يدرك أحد منا، تماما، لغز تقمصه ذاك، وعددناه تهويمات مثقفين لا أكثر.

صديقنا "محمد"، واعتبرناه مفكرا بطريقة ما، وسياسيا لا يشق له غبار، شـرح لنا من جانبه كيف هي خارطة المكان في جزيرتنا، وأوضـح بين الجد والهزل، أنها تنقسم إلى "بنية تحتية وبنية فوقية". البنية التحتية تشمل نظام المطبخ وإعداد الطعام بثلاث وجبات، والدور الذي كنا ننتظم فيه للحصـول على الطعـام، ونوعيـة الوجبـات وتلاؤمها مع مـذاقنـا والتحولات التـدريجيـة للتـآلف مع هـذا الطعـام الغريـب، وأبرز مـا فيـه البطـاطـا المسـلوقـة والخبز الفرنسـي السـميك وصـفائح الزبدة الملفوفة بالسـيلوفان واللبن والحليب المعبآن بعلب الكارتون، ولحوم الدجاج والبقر. ثم صالة المطعم التي تنتشر فيها الطاولات والكراسـي على مسـاحة شـاسـعة، حيث يتجمع الأصـدقاء حسـب البلدان واللغات والأديان، ونادرا ما يحصـل اختلاط بين تلك التصـنيفات، وتنظيف قاعة الأكل وهو يقع على كل صـالـة مرة في الأسـبوع، سـوية مع تنظيف المطبخ. وتسـتخدم في التنظيف سـوائل ذات رائحة لم نألفها، تذكرنا بعض اللحظات بالغازات السـامة التي اسـتخدمت في جبهات القتال، كالكلور

والســارين والخردل. والبنية التحتية تشــمل التلفزيون وتغيير المحطات أثناء المشاهدة في الليل خاصة، وتصبح الغلبة للرياضة في الأوقات التي تعرض فيها جولة لكرة القدم بين النوادي العالمية. تلك باختصــار البنية التحتية للحياة في الجزيرة، وهي تختلط على مدار الساعة، ليلا ونهارا، برائحة الطعام السارية في الأروقة والممرات والغرف، لتنفذ إلى أدق الزوايا المخصــصــة للتمديدات الكهربائية المسـببة لتوهج الضـوء في هذا الجحر الأرضـي الغاطس تحت الماء. ومحمد من دعاة التجربة الألبانية ومناصــري أنور خوجة، ويخطط لزيارة تيرانا، للوقوف على حقيقة التجربة الاشتراكية المشعة، وسط محيط شيوعي كاذب وموبوء، حسب تعبيره.

بنظارته السميكة، وشاربيه الصغيرين، ووجهه الطويل، وضحكته الدائمة، وصوته الجهوري، عرف محمد بيننا بمطحنة الكلام، مطحنة تعيد سامعه حين يتحدث بحماس عن الاشتراكية والامبريالية والصراع الأزلي بينهما، إلى مقاهي بغداد ودمشق وبيروت في عقد السبعينيات.

والبنية الفوقية للجزيرة حسب محمد، هي: المبارزات الفكرية والسياسية التي عادة ما تبتدئ في صالة الطعام ولا تنتهي في قاعات النوم، وتتوزع بين الأفكار القومية والإسلامية التي تعتبر جبهة الكفر واحدة، وكذلك الأفكار الشيوعية التقليدية المناصرة للاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية والأحزاب الشيوعية، وهي تركز على أن فشل التجربة لا يعني خطأ النظرية، وستعود الشيوعية ذات يوم في المستقبل أقوى مما كانت عليه. نظريات صديقنا محمد تقسم العالم إلى لونين فقط، الأسود والأبيض، الخير والشر، السلب والإيجاب، المناضلين والخونة، الإمبريالية والاشتراكية الحقيقية، الشرق والغرب. لكن بعض الحالات فيما بيننا كانت تستعصي على التصنيف، مثل الشاعر كمال، والعبثي عاشق الخمرة نائل، صديق جميل. شكّل كمال جزيرة لوحده لا تنتمي إلى البنية الفوقية أو التحتية، فهو يعيش في عالم الكلمة،

والشعر تحديدا. والكتاب لا يفارق يديه حتى وهو يتناول طعامه في المطعم. وكمال من مناصري الشعر العمودي، ويعتبر قصيدة النثر لغوا لا يستحق الوقوف عنده. فالمتنبي والبحتري والجواهري وأحمد شوقي، فضلا عن شعراء المعلقات، أوصلوا الشعر، مع أبي العلاء المعري، إلى سماوات الفن والفكر والفلسفة، وقد امتلكوا الموهبة القادرة على دمج المعنى بقوانين التفعيلة والقافية، وهو انجاز بشري مذهل حسب تعبيره. أما شاعره العالمي المفضل كما قال لنا فهو محمد إقبال، وريث الحلاج وابن الفارض والجنيد البغدادي.

يلقي كمال الشعر على مستمعيه في القاعة التي ينام فيها، ويناقش تفاهة قصيدة النثر مع الجالسين معه على طاولة المطعم حتى لو كانوا غير معنيين بهذا الأمر، ولم يقرؤوا كتابا واحدا في حياتهم. وينزوي بعض الأوقات في ركن قريب من غرفة السيطرة الكهربائية القابعة في قعر الجزيرة ممسكا القلم والورقة، منتظرا نزول ملاك الشعر على رأسه. أو يجلس في سريره العالي مدونا في دفتر سميك ديوانه الشعري الذي سيطبعه ما أن تسفر الأمور عن نفسها، ويقصد بذلك قبوله مقيما في البلد. إضافة إلى الشعر يكتب كمال القصة وينوي كتابة رواية، مستلهما فيها تاريخ السلطة منذ نزول الرسالة حتى منتصف القرن العشرين. بدأ كتابة تلك الرواية بوضع العنوان قبل كل شيء وسماها: "الوديعة". خدم كمال سائق دبابة في الحرب، وهرب ذات يوم نحو الحدود، وأقام في مخيم "كرج" القريب من العاصمة طهران سنة كاملة قبل أن يحصل على جواز سفر مزور استطاع الطيران به نحو دمشق، ومن هناك حط الرحال في هذا البلد الشتائي البارد المكون من جزر صغيرة متناثرة على سطح بحرين باردين طوال فصول السنة.

عكس محمد خوجة، الماركسي الحاد والناظر بمنظار واحد الى الحياة، كان لكمال ملامح دقيقة سمراء البشرة وعينان صغيرتان نفاذتان فيهما أشعة وقحة يرقش بها محدثه، مع ابتسامة لئيمة نادرا ما كانت تصل إلى القهقهة. ومن

خلال محدثيه الخلّص الذين يثق بهم كان كمال ملحدا بعنف، ينفي القداسة عن الأديان كلها، ويستهزئ في لحظة الانفعال بالأنبياء، والرسل، ويردد بيتا للمعري يلخص رؤيته للحياة كلها وهو: "لا إمام سوى العقل مشيرا في صبحه والمساء"، مما كان يغضب محاوريه الاسلاميين ويجعلهم يبتعدون عن سريره، وعن الصالة أيضا، كما لو أنهم يبتعدون عن شخص مصاب بالكوليرا. ويعتبر كمال وصوله إلى هذا البلد فرصة نموذجية للتفرغ لكتابة الشعر، والقراءة، والتأمل في حياته الماضية وما جرى فيها من حروب وهروب وأحقاد أسرية ومجتمعية. وهو عازم في السنوات القادمة، ما أن يمنح شقة للسكن في واحدة من مدن هذا البلد، وراتبا شهريا مضمونا للعيش، على تصفية الحساب مع الماضي عبر تلك "الرواية" كما يردد دائما.

وتصفية الحساب مع الماضي هو الطريق الأمثل للوصول إلى الجنة، أي الجنة الداخلية حسب رؤية المتصوفة مثل ابن عربي وجلال الدين الرومي والحلاج وشمس تبريزي الذي عشق اسمه برغم أنه شخصية وهمية، وظليّة، لا يعرف عنها شيئا سوى عن طريق قديسه جلال الدين الرومي صاحب كتاب "المثنوي" كما شرح الأمر لنا في ليلة أرق.

تلك المعلومات كانت تتردد في أروقة الجزيرة من صالات نوم، ومطعم، وصالة تلفزيون، وممرات تشبه التوابيت لجزيرة كانت ذات يوم قاعدة عسكرية لحلف شمال الأطلسي. معلومات اعتبرت غريبة على كثير منا، مما دفع البعض للجلوس الدائم مع كمال مثل مريد وفيّ، أو الطلب منه تعليمه كيفية تقطيع الشعر حسب البحور. وكان كمال يعشق هيئة المعلم، وتتصاعد في روحه موجة العظمة والتميّز، فيقوم بالواجب برحابة صدر، ويضيف إلى مواهبه موهبة تفسير المنامات والأحلام والكوابيس لبعض الأشخاص، مستندا إلى رؤية فرويدية كنا نجهل أين تعلمها، وكيف قرأ كتب فرويد وأين، ما دام قضى سنوات من عمره سائق دبابة في حروب الأرض التي جاء منها.

صديقنا نائل لم يكن، في ذلك الزمن، من هذا النمط. لا يعير أي اهتمام للشعر، ولا لفرويد وتفسير الأحلام الذي برع فيه، ويعتقد أن الرسالة الإلهية للإنسان في هذا الوجود هو التلاقح والتزاوج والمتعة مع المرأة، واحتساء المشروبات الروحية التي تحلق بالإنسان فوق أصله الحيواني ليعيش في بحور الخيال، والسماء الدخانية، والجنة الافتراضية، بعيدا عن الحروب والقتل والبشاعات والمعاناة اليومية لهذا الكائن الضعيف. الحياة امرأة. والعمر يمنح مرة واحدة حسب قوله، والعمر قصير، ثم يغيب الفرد من سجلات التاريخ كأي جرثومة أو فايروس أو سمكة تعيش في عمق آلاف الأمتار من البحار المظلمة.

نذر نائل نفسه للمتعة، وهو ما دأب على ممارسته يوميا كلما توفرت لديه النقود، وقص لنا تلك الليلة الفريدة التي قضاها مع صديقه جميل بعد أن تركناه في مقهى الحذاء الصيفي ومضينا وقتها لاكتشاف المدينة.

٥

جلس منتشيا من تأثير كأسي الجعة اللتين احتساهما في تلك الحانة جنب زوجة جميل واسمها "سوزان"، وهي من مدينة تقع في الشمال، أقصى الشمال، وجاءت إلى العاصمة لتعمل مع الوافدين الجدد في معسكر يشبه جزيرتنا، لكنه يقع على اليابسة. وهناك التقت بجميل وعشقته، ثم تزوجته، واستأجرت شقة تقع في وسط البلد ليس بعيدا عن شارع المشي. الشارع الشهير الذي رأيناه في أول زيارة لنا لقلب العاصمة. بعد احتساء قنينتين أخريين من البيرة الشهيرة بحجم ربع لتر، أكمل نائل طيرانه ودخل في برزخ خفة الروح. بدأ يجيل طرفه في الندل، وجلهم من الفتيات، والمرايا الطويلة المزينة للجدران وهي تعكس وجوه الجالسين الرخية وتكشف القبل المتبادلة بين الجنسين، وتكويرات الشعر الذهبي الشهي للّمس والتقبيل، وكان يتأمل زوجة جميل بنظرات خفية، ويشعر بالحسد لوقوعه على هذا الجمال. كان الأنف مرتفعا بنبل، والعينان زرقاوين هادئتين كبحيرتين في صيف رائق. كانت تبتسم له كلما التقت عيناها بعينيه، عيني النموذج الأول الذي تتعرف عليه من أصدقاء جميل.

المقهى روح صاخبة، وهذا واضح من خلال الموسيقى الناعمة المنسابة من مكبرات خفية مثبتة في الجدران، ومن خلال الأناقة البادية على الفتيات الداخلات إلى المقهى وهن يتطلعن في الجالسين بحثا عن الأشخاص الذين تواعدوا معهم. ومن خلال الهدوء الناعم المستولي على الجميع شعر نائل بنفحة الحياة للمرة الأولى، وكان كل شيء، كل تفصيل، كل ابتسامة أنثوية، مشعا بالنور الكهربائي الساطع. ورائحة النبيذ، والقهوة، والبيرة، تكلكل على الفضاء، والدخان ينعقد بستائر فضية قريبا من السقف. شرح لنا نائل الموقف على النحو التالي: "كنت أستطيع احتساء البحر الأبيض المتوسط لو امتد وجودي

طويلا في ذلك المقهى، لكن الأسعار مكلفة. ولم أشأ الإثقال على جيب صديقي". همس له جميل بعد مضي ساعة على جلوسهم في المقهى، بأن الوقت قد حان للانتقال إلى مكان آخر. أسلم نائل قياده لهذين الزوجين الهانئين، لكن رغبته للمزيد من الشراب راحت تتفاقم، وليستيقظ لديه ذلك العطش الخفي للوصول إلى درجة البحران، والثمل، ونسيان الواقع. واتجهوا إلى ساحة البلدية. سوزان تتمسك بذراع جميل، ونائل يسير جنب جميل. هناك بار رخيص وممتع سنقضي الليلة فيه، سنستعيد أيام الشام البعيدة، أخبره جميل، فلم يملك نائل سوى الابتسام، هو لا يمتلك نقودا لمثل هكذا مشاريع، لكنه ضيف على جميل، وهو سيتكفل بهذه الليلة. قبل ذلك سنذهب إلى البيت، فلدي نبيذ نحتسيه، ثم نأكل قليلا ونخرج، قال له جميل. لا تحلو الدنيا إلا مع النبيذ. كثيرا ما قلت لأصدقائي لولا خوفي من تحولي إلى مدمن لعاقرت الشراب من الصباح وحتى المساء. الخمرة هي الدواء لأحزاننا. لاحظ كيف تطوروا، الفرح يفتح الذهن ليبدع كل ساعة شيئا جديدا. لا تنس أن الخمر يحمل صاحبه إلى الحديث، البوح عما يشغل روحه، وإلى تبادل الأفكار، وسماع رأي آخر، يقي الفرد من تراكم العنف في داخله. معك في رؤية الحياة بعينين ثملتين. اجتازوا ساحات وتماثيل وبنايات ضخمة، وتحرش بهم سكارى ومتعصبون يمقتون اختلاط الأجناس، وفغمت أنوفهم روائح الطعام القادمة من عربات بيع السجق المتوقفة في الزوايا والساحات. وبعد أن أعتمت السماء، ولم يعد يرى منها سوى أضواء الواجهات والاعلانات، انتهى بهم المسير إلى مكان غريب يقع خلف المحطة المركزية للقطارات.

هذا الشارع هو غرفة نوم المدينة، قال جميل مشيرا إلى شارع طويل تقوم البنايات على جانبيه ومكتظ بالماشين. لم يفهم نائل ما رمى إليه جميل، فأوضح له شارحا أن الشارع لعرض الأعضاء الجنسية في واجهة المحال، وفيه أنواع من البيوت الخاصة باللذة، لولا وجود سوزان معنا كنت قدتك بجولة فيه. طوال ما كنت في السفينة، وقبل أن أعرف سوزان قضيت كثيرا من النهارات

متجولا في الشارع. غريب كيف يبتكر الإنسان متع حياته، وغريب كيف يستطيع الوصول إلى حريات لم تخطر على ذهن البشر منذ مئات السنين. وبدأت السماء تنث ثلجها وتلون الفضاء بلون وردي غريب أضفى برهة من السحر على الموجودات. فكر نائل وهو يسير جنبهما عما تغير في جميل بعد أيام الشام، ورأى أن أبرز ما تغير فيه هو مظهره. صار يرتدي قبعة واسعة بعض الشيء، تضفي عليه هيئة رجل يتحدر من إحدى بلدان أميركا اللاتينية، خاصة وهو يترك لحيته وشاربيه غير حليقين كلية، شعرات غير كثة تضفي على سماره سمة رجل أعمال ناجح. نعم، الإنسان صنيع البلاد التي يعيش فيها.

ثم جاءوا إلى بناية عتيقة فتح جميل بابها وقادهم درج ضيق من الخشب إلى الطوابق العليا، ربما كان الثالث أو الرابع، فالأبواب متشابهة وكلها خشبية عتيقة، ودرابزون الدرج أصبح لونه بنيا. وكانت الشقة معتمة، تفوح منها رائحة الخشب العتيق العطن، الخشب المجلوب من غابات تضم بحيرات وحقول مزروعة بالشوفان، والقمح، والشعير. خشب مرت عليه أيادي خبراء على مر العصور بالنظر إلى عروق السيقان والأغصان وهي تغذي أوراقها سنة بعد سنة منذ عصور الفايكنغ حتى اليوم. وحين أضاء جميل النور قاده إلى صالون معتم وأجلسه على أريكة عتيقة، وهذه هي المرة الأولى التي يدخل فيها بيتا من بيوت البلد، تديره امرأة من ناسه فارعة شقراء أنيقة النظرة أنيقة الأنف، ومضى جميل نحو مكان ما إلى يسار الصالون وجلب علبة ضخمة من الكارتون وقال له لدينا كمية هائلة من النبيذ فاشرب قدر ما تستطيع.

المدينة في الصيف سجادة مزركشة، ورود وأشجار خضراء وأنواع الفواكه ونساء عاريات يتشمسن بين الأشجار وعلى سواحل الرمل. بلد يستأهل بذل الجهود والمغامرة للوصول إليه. السهر في ليالي "الويك إيند" عالم آخر. تخرج صباحا وتشاهد الفتيات الثملات ينمن على مصطبات الحدائق وحيدات بدون خوف. لكن إياك أن تتحرش بالنساء في الشارع، يعتبرون هذا السلوك سلوكا بربريا غير متحضر البتة، هناك طرق أنجع للحصول على امرأة: في العمل مثلا،

كون الاحتكاك أسهل وأكثر حميمية، معظم الوظائف تتقاسمها النساء مع الرجال، وفي المدرسة، فالدراسة مختلطة وليس كما هو في بلداننا، من الابتدائية حتى الجامعة، أو، وهذا هو السبيل الأفضل، والأنجع، والعملي، لأمثالنا القادمين من الشرق البعيد، السهر في البارات والمراقص والحانات. لكل فئة عمرية مرقصها وبارها، وحين تتصاعد رنة الكؤوس، وتبلغ الساعة منتصف الليل، تنزاح الحواجز، وتتلاشى دلالات اللغات، وتشتبك رغبات الجسد بدون تردد أو خجل. نساء البلد خجولات جدا برغم امتلاكهن حرية جسدية غير محدودة. توقف جميل عن حديثه وملأ كأسي نبيذ من حنفية العلبة البلاستيكية، وبدا مأخوذا متحمسا بضخ الخبرة إلى صديقه. وكانت عيناه تأتلقان بأفكار أوسع مما يفهمها نائل، لقد اكتسب تجربة لم تعد تنتمي إلى الشرق البعيد. وضع كأسا أمام نائل، وأخذ الثانية معه إلى المطبخ حيث سيعد لهم وجبة سريعة. ها هو جميل القديم الذي يعرفه، المشهور بروحه الكريمة كما خبرها في الشام، فكر نائل. لم يتغير برغم زواجه من امرأة من البلد. كان الصالون يقع في المنتصف بين المطبخ وغرفة النوم، وهناك حمام صغير يقع بمواجهة المدخل، شرح له جميل خريطة الشقة، أثناء ما كان يتنقل بين الصالون والمطبخ والحمام مرتديا الملابس ذاتها التي كان يرتديها في مقهى الحذاء الصيفي.

قال له لديّ قلوب طازجة سوف أقليها بسرعة، قلوب خنازير. فلم يعترض نائل، وفكر أن الاعتياد على طعام البلد هو جزء من اكتساب الاندماج، وستسجل الحادثة في سجله، وكيف يتم ذلك، لا يعلم، لكنها ستسجل حتما، وأثناء ما كان جميل يتنقل بين المطبخ والصالون بدأ يحكي له ذكريات تعيش معه عن السنوات التي قضاها في مدينة دمشق. وسوزان لم تخرج من غرفتها، والنبيذ مغر لنائل فراح يشفطه شفطا، ويحس به يتغلغل في جسده ويرتفع بروحه خارج علبة المكان، وظل جميل مستمرا بالكلام: هل تذكر كيف كانت حياتنا هناك؟ ذلك الرخاء الروحي الوارف الذي كنا نعيشه، من أننا سنعود

قريبا إلى البلد ما أن تنتهي الحرب الطويلة المشتعلة في الشرق. مرحلة مؤقتة، كنا نؤمن بعودتنا كبديهية رياضية. لا يمكن أن يستمر الوطن في أزمة كل تلك السنين. حتى الأعمال التي مارسناها كي نستمر على الحياة كانت أعمالا مؤقتة وغير جادة، كل صباح كنت حين أستيقظ فجرا وأعد نفسي للذهاب إلى دمر أو قدسيا لصبغ بيت ما، أو شقة في طابق عال، يراودني ذلك الإحساس، إحساس أن وجودنا مؤقت وسنعود ذات يوم قبل أن تشيب رؤوسنا. لم أكن أعبأ بالنقود، المهم أن تكون متوفرة، لكن لم أعبأ يوما كيف أصرفها، سواء على نفسي أو على الأصدقاء. الليل في دمشق كما تذكر كان مغريا لنا بالسهر، نمضي السهرة في قصر البلور أو مطعم الريس قرب ساحة المحافظة، أو نجلس في شقتي الواقعة في منطقة المزرعة، العامرة دائما بالأصدقاء، الريان والفروج المسحّب والشقف والكباب، وكل تلك المأكولات التي بالكاد تعودنا عليها مثل المكدوس والشنكليش، وكدنا ننسى أكلاتنا الوطنية. جميل يثرثر بلذة وهو يتنقل من المطبخ إلى الصالون أو العكس، ممسكا كأس نبيذه المترعة دائما، ونائل كان يسمع فقط، ورائحة البهارات والقلي تملأ الشقة، واستطاع تمييز صوت سوزان من مكان ناء يأتي من عتمة الممر تتكلم مع شخص ما. نبرة واحدة رتيبة لا يفقه فحواها، وخمن أن الحديث يدور عبر التلفون. دخل بكأسه المطبخ وشاهد جميلاً يقف أمام طباخ الغاز ينكب على قدر واسع يتصاعد منه البخار اللذيذ فأحس بجوع شديد. قال له جميل بعد لحظات سيجهز الطعام، نأكل أنا وأنت لأن سوزان لا تعجبها الأكلة، وكانت الخزانة الخشبية تكتظ بعلب صغيرة من البهارات المتنوعة، والمطبخ مرتب بطريقة أنيقة، والشباك يطل على حديقة خلفية يغطي الثلج كل مساحتها، سوى منصات خشبية صغيرة من مراجيح ومزلقانات وتماثيل لحيوانات، فكر نائل أنها للعب الأطفال بالتأكيد، على رغم أنه لم ير أي شخص في الحديقة.

اللغة مفتاح هذه البلاد، من غير معرفة اللغة لا يمكنك النفاذ إلى عقول السكان، فلديهم لغة خاصة، مغلقة، توارثوها من مئات السنين، ويستطيعون

بسهولة تامة تمييز من هو ابن البلاد ومن هو الدخيل عبر أبسط الحروف الصوتية وتراكيب الجمل والاستعارات والأمثال. حاول أن تضع جهدك في تعلم اللغة واتقانها، اللغة مفتاح القلوب إلى الحسناوات أيضا، وضحك جميل ضحكته المميزة الطويلة، والمتقطعة مثل حصى يتساقط على صفيح خشن. وأخبرنا نائل، ونحن جلوس حول تخته، وصوت الموج يتناهى إلينا وهو يضرب صخور الجزيرة بقوة، أنهم لم يتأخروا طويلا بعد تناول الطعام، إذ خرجوا إلى مشرب يعرفونه جيدا يقع وسط المدينة. كانت الثلوج مستمرة بالهطول، وأرجل المارة تسحق ثلوج الشوارع بجزمات ثقيلة مخصصة للشتاء. تعريشات تملأ الشوارع، ودلايات من السقوف القرميدية الحمراء، وتكويرات تتجمع على نهايات الأبراج في الكنائس، والكاتادرائيات.

اجتازوا حديقة وسطها بحيرة متجمدة، ومروا بتمثال عازف البوق، وتوقفوا في ساحة البلدية، وسمعوا دقات ساعة البرج المضاءة بمصباح متوهج يكشف عقارب الساعة بوضوح من مسافة بعيدة، وهربوا من شباب يتعاركون بكرات الثلج وهم يضحكون، وشاهدوا الزينات تتدلى من فضاءات الشوارع. وبالترتيب ذاته، سوزان تمسك ذراع جميل وهو يمشي جنب جميل يسمع الأحاديث والتعليقات، ويكتشف بعينين غائمتين من السكر هذا الوجود الضاج، السعيد. العلاقة مع امرأة من البلد هي الخطوة الواسعة في طريق الاندماج بروح المكان. التعرف على امرأة يعني التعرف على طعام شعبها وعاداته وملابسه وذوقه وأعياده والعائلة وطقوس الزواج وطقوس العيد والاحتفالات ونمط التفكير في التعامل مع الحياة اليومية، عدا عن ولوج درس طقسي سري في غرفة النوم. وصلوا تلك الليلة الباردة إلى البار ووجدوه مكتظا، وكأن هؤلاء البشر يعيشون اليوم الأخير في حياتهم. الحرارة ناعمة، والدخان يغطي الرؤوس، والروائح المختلفة للطعام والشراب تختلط مع روائح النساء المتبرجات، يتولد عن ذلك مزيج خانق لكنه ملائم لرفع الكلفة والابتسام ولمس الأيادي والأرداف. اللمس الذي يحدث بسبب اكتظاظ المكان بالراقصين

والشاربين والمتفرجين، والعتمة الناعمة في إضاءة البهو. العثور على مكان للجلوس صعب، فالموائد مشغولة أجمع، والوقوف أكثر من الجلوس، وثمة فسحة في الوسط تركت كمنصة صغيرة للرقص ما أن تبدأ الفرقة عزفها.

وجدوا الفرقة تقف قريبا من البار، في زاوية ضيقة، حيث الطبل والغيتار والصنج والناي، والعيون ملتهبة بالشبق والسكر والشهوة، وحين لمحت سوزان صدفة مكانا فارغا في الزاوية قادت الركب إلى هناك، وجلسوا حسب التسلسل سوزان وجميل ونائل، وكانت سوزان تتطلع في وجوه الموجودين كما لو كانت تبحث عن شخص ما بعينه. سألها جميل عن سبب تطلعها فردت سريعا: أبحث عن "تينا". قال لها من هي تينا، أهي صديقتك في العمل؟ قالت أجل أتصلت بها لكي تسهر معنا في المكان. صمت جميل ولاحت في وجهه ابتسامة ناعمة. جلب جميل ثلاث كؤوس بيرة "درافت" سعة نصف لتر، وجلسوا يحتسون ويتأملون. ولأن الموسيقا كانت عالية جلسوا بصمت ينظرون إلى الجموع التي تزدحم على منصة الرقص وعلى طاولة بائع الخمور. جموع مبتهجة خالية البال، يفكر نائل ويمتص سيجارته بمتعة، يتمطق الدخان وينفثه أمامه. وشعر بنفسه يقترب من تلك الحالة التي يعرفها جيدا، القطع مع ما يحيطه، يبلغها في لحظات الإفراط في الشراب، حينها يتحول كل شيء إلى كتلة رجراجة بلا شكل، وحيث تتداخل الوجوه وتندمج الألوان، وتختلط الأفكار في رأسه حتى تتلاشى مخلفة وراءها طفوا مريحا لجسده، وروحه. وها هو يقترب من هذه الضفة مع كل رشفة طويلة من السائل الأصفر المضمخ بالسحر.

المرأة لابسة الفرو، الأربعينية، الممسكة بسيجارة في مبسم، الشقراء الشعر، تنحني على رجل أصغر عمرا، وتغوص معه بقبلة طويلة، ومن الواضح أنها ثملة مثل الجميع. المغني مجهول الهوية يرفع صوته بالغناء غير المفهوم، على قرع الطبول يفجره شخص زنجي. وعازف الغيتار الشاب، رياضي الجسد، نزع ملابسه العليا فبانت شعيرات صدره مثل أعشاب برية صفراء. وسط

الحلبة ينط راقصان مميزان أفسح لهما المجال لاستعراض رقصاتهما التي تتنوع بين الروك أند رول، والفالس، والسامبا، وهو ما أذهل الجميع فوقفوا يصفقون لهما، وفي هذه اللحظة دخلت فتاة شقراء تلبس ملابس عادية، تنفض الثلج من شعرها بيدين بيضاوين، بضتين، ذاتي خواتم فضية واكسسوارات بلاستيكية. وقفت أمام طاولة جميل وسوزان وهي تنظر في الوجوه، ولاحظ نائل بين أبخرة السكر، ودخان السجائر، أن فمها ينفتح وينغلق بدون أن يسمع صوتها، وعرف أنها تتكلم مع سوزان التي أفردت لها مكانا ضيقا بين جميل ونائل وحشرتها هناك وهي تقول لنائل: صديقتي "تينا". لكن نائلاً لم يسمع أي شيء، وجلس مستسلما تائها في خيالاته مأسورا إلى المشاهد التي يعيشها. أفرغت الكؤوس مع دخول تينا فنهض جميل مرة أخرى وملأها ثانية ووضعها أمامهم، وقد نزع في هذه الأثناء قبعته المستديرة ووضعها جنب سوزان، ثم طلب من سوزان القيام لمراقصته. حاولت تينا تبادل الكلام مع نائل فقربت فمها من أذنه لكنه لم يستطع فهم ما تقول، ولم يملك سوى هز رأسه والابتسام، وهو ذاهل لا يعرف في أي مكان هو.

ومن بين الوجوه الكثيرة، الوجوه الغريبة السمات التي تحيط به لم يعد يتذكر سوى وجه صديقه جميل، المشغول عنه بمراقصة زوجته الشقراء. لم يكف نائل ولا لحظة واحدة عن التدخين، وشعر بنفسه يغور أكثر فأكثر داخل شرنقته، وحين أصغى في لحظة صحو عابرة، سمع وكأن المغني الذي يجهل إن كان ذكرا أم أنثى يغني أغنية مألوفة له تعود إلى فيلم "زوربا" الذي شاهده في دمشق أكثر من مرة، فدفعته ساقاه للنهوض عن الأريكة والتوجه إلى الفسحة. تلك أغنيته البعيدة بلا شك. راح يتمايل مع اللحن الداخلي المنشغلة به حواسه. رجلاه تطرقان أرض الرقص الخشبية بعنف ولا انتظام. عيناه الكحيلتان تسبحان في الوجوه، ورقصه بلا إيقاع، جسده لا يتناسق مع حركة قدميه مما جلب الأنظار إليه بشعره الأسود، ولحيته المتوحشة، وحجمه المائل إلى الصغر، وعينيه السوداوين الشبيهتين بحبتي كرز يانعتين. لا يرقص على

تلك الموسيقا إلا حين يصل به السكر إلى موضع القطع. الغيبوبة عن الكلام المنطقي المترابط، والصعوبة بربط المقدمات والنتائج، والسبب والمسبب. هذا ما وجد روحه فيه، بعد احتساء محموم لفترة طويلة، وبعد خلط الجعة مع النبيذ، مع "السنابس" المصنوع من البطاطا. ولكي لا تترك صديق جميل وحيدا داخل حلبة الرقص، نهضت تينا ورافقته في الحلبة، وسط ذهول الجميع وابتسامة سوزان التي شجعتها على ذلك. لم ينقطع نائل عن رقصته غير المتناسقة حتى حين رافقته تينا بخجل أول مرة، ثم بحماس وهوس، وكأنها وجدت متعة في الاشتراك بهذه الملهاة وسط ليل العاصمة الثمل. وكان في رقصها هوس غجري تفجر عميقا من بحيرة الرتابة التي تسير حياتها عليها. وهكذا أطبقت الموسيقا الصاخبة، والروائح الأنثوية، والقبلات العميقة التي تدمج اللعاب باللعاب، ولمسات الأصابع التائقة إلى العناق والدفء البشري وسط صحراء الثلج وذكريات الماضي ومآسيه، أطبقت على المكان وحولته إلى محفل خارج الزمان، إلى بؤرة للهروب من الإيقاعات اليومية المملة، والرتيبة، وأضفت سحرا منوّما على بعض المشاركين، ومنهم نائل.

أفاق نائل من ذلك السحر قبل الفجر بقليل، ليجد نفسه في صالة غريبة يضيء نور خفيف موجوداتها، حسبه نور بدر في كبد السماء، ذلك النور يكشف له مثل حلم عابر أنه ينام في بيت جميل، وثمة عطش غير طبيعي يستولي عليه. عطش يدفعه إلى الاستيقاظ، إلى شحذ حواسه الثملة والقيام مترنحا، مفتشا عن شربة مياه في المطبخ. وجد نفسه ينام على أريكة عريضة، وسط بطانيات صوفية سميكة. لا، إنه ليس في حلم. وحين نزل من الأريكة ومشى تجاه المطبخ فاجأه صوت تينا وهي ترفع الغطاء عن جسدها ليبين بياضه واضحا تحت النور المنسكب من الشباك. نظر صوبها وظن أنها تنام عارية، ما شكل لذهنه صعقة غير متوقعة. طلبت منه كأس ماء من المطبخ، همست أنها عطشى، ثم سكتت وهي نصف ناهضة من مرقدها. خطا بخفة كما لو أنه لا يرغب في خدش جمال الأضواء الساحرة في الخارج، ومرأى

الحورية الجالسة في فراشها نصف عارية. العقل يتوقف بعض الأحيان عن العمل بشكل منطقي، وهذا ما وجد نفسه فيه. لم يفكر سوى بالصورة الجميلة، والغريبة، المنحوتة الماثلة أمامه. الفتاة النضرة، الثملة، التي رافقته الرقص في ساحة الحانة، بقدمين خفيفتين، شفافتين، كأنهما نبيذ أحمر مندلق على صفيحة زجاجية. ارتوى من الحنفية وجلب لها الكأس. تناولتها بأصابع عاجية ساخنة. تناولتها شاكرة، وتلبث نائل هنيهة غير عارف ما سيفعل، ووقف متأملاً الوجه المضيء والشعر الأشقر المنكوش، وامتص دمه ذبذبات جسد لدن يتوق لعناقه. دائما في اللحظات الحرجة يقف مرتبكا ولا يجرؤ على اتخاذ قرار حاسم. أحس بروحه عاجزة، وعقله مشوش، وأعضائه مفككة.

حين انتهت رواية نائل اعتبرناها حكاية محزنة، وراح البعض منا يعيد الشريط في رأسه ليضع نفسه في مكان نائل. لقد عاد نائل بعد الظهيرة إلى الجزيرة، وحين روى لنا الحادثة استمعنا له ونحن نفغر أفواهنا متعجبين من هذه المغامرة. كل ذلك البياض الذي وصفه، والشعر الذهبي المنكوش، والعتمة المهيأة لمغامرات سرية ولم يتحرك مفاعله النووي؟ كنا نحب مغامرات من هذا النوع كونها تضيق قليلا من عزلتنا عن المجتمع الجديد الذي قدمنا إليه. وجدنا الرأي السائد حول المغامرة ينحصر في أن لقاء المجموعة مع تينا في ذلك البار لم يكن صدفة، بل هو مخطط له من قبل سوزان. مؤامرات نساء، كما وصفها واحد ممن يعتبر نفسه خبيرا بالجنس اللطيف حسب مواصفات شارع الرشيد والنهر والكرادة في بغداد. تينا صديقة العائلة، فكيف عرفت بوجودهم في المرقص؟ هناك مئات الحانات والمراقص والبارات في المدينة. حضارتهم بالأصل مبنية على مفهوم البار، أي الرقص والشرب والجنس. كيف استدلت إليهم لولا اتصال مسبق من سوزان حدد المكان بالاسم، والساعة التي يكونون فيها هناك؟ لم ينجح المخطط بسبب نائل، هذا الشاب الأخوث عديم الإحساس بالجمال، الجاهل بأمور النساء وأحوالهن، أوضح واحد من الآراء. كان عليه ألا يسكر لهذه الدرجة فتطير من يديه فرصة الحصول على امرأة. كلا. يرد عليه واحد آخر، كان ينبغي على سوزان وجميل إخباره بالدعوة كي يظل محتفظا

بعقله ولا يصل إلى برزخ السكر. أعجبنا برأي مغاير جاء هذه المرة من كمال الشاعر، حيث رد فشل نائل في تلك المغامرة إلى ثقل اللاوعي لديه، اللاوعي الذي تكوّن طوال قرون في مجتمع شرقي متحجر ومحبط ومهزوم، لا ينتج سوى الخوف من الجنس الآخر، وإلا فقد وفرت له تينا فرصة ذهبية حين طلبت منه كأس الماء ليلا، وكأنها تقول له انتبه لي. أنا هنا. لكنه لم يفعل. فالتخلف، والنكوص الحضاري، وثقل الماضي، أي ثقل اللاوعي على الشخص، كلها عوامل مؤثرة في إخصاء الرجل معنويا، وتركه عرضة للتردد والتراجع والنكوص. التواصل مع الأنثى فعل حضاري يستوجب ثقة بالنفس، وهو ما لا يمتلكه نائل، كما لا يمتلكه معظمنا، نحن القادمين من آتون الموت والرعب.

وقد نال تحليل كمال إعجاب البعض منا واستنكار البعض، إذ اعتبر هؤلاء أن الأمر ليس بهذا التعقيد. وكل ما حصل هو أن صاحبنا فقد السيطرة على حواسه بسبب الخمرة، وفاق مشوش الذهن، مفكك الأعضاء، فارغ الرأس، أي باللهجة الدارجة تحول إلى "طينة"، فلم يكن ينشد سوى العودة إلى النوم. وهذا كل ما هناك. عاش نائل ردحا من الزمن منشغلا بكل هذه التفسيرات، لكنه، كحالنا جميعا، عاد ثانية لينغمر في حياة الجزيرة اليومية. فقد كنا مثل أطفال يختبرون نهر الحياة أول مرة، والحكماء من بيننا يعتبرون الفشل، حتى الفشل، درسا كتب علينا أن نتعلم منه، والإنسان يتعلم من أخطائه في النهاية. ونحن بعد أن متنا، ودأبت أرواحنا على الاجتماع كل ليلة في فضاء المقبرة، لازمتنا الحسرات على تلك الأزمنة، واعتبرناها طفولتنا البشرية الزاهية في هذه الجزر، باعتبار أن السنين التي عشناها في بلداننا لم تكن سوى خرائب، نقول لأنفسنا محزونين من النسيان الملفعين به: ألا يحن الفرد إلى طفولته رغم أنها كانت قاسية؟ ألا تمتلك الانتقالات الكبرى في حياة أي فرد نكهة خاصة لا تنسى؟ كيف إذن وقد خرجنا من ظلمات إلى نور؟ أجل، ما زلنا نتحسر كل ليلة على الشعور الذهبية الناعمة في حانات الميناء الجديد، ومنطقة "كرستيانيا"، ومراقص "النوربرو"، ومقاصف الإستدكاذا"، والشفاه القرمزية لفتيات يتقن إلى رعشة الجنس، والضحكات المتهورة في آخر الليل.

٦

حدث بعد كل ذلك أننا بدأنا نمتلك الجرأة على التغلغل في تربة البلاد مثل مطر صيفي، ولبثت تلك الليلة عالقة في رؤوسنا، حيث نستعيدها كلما غابت الشمس بدفق ساحر من الحنين، وكانت نجوم السماء، أو غيومها، شاهدة على ذلك الحنين. حنين أرواحنا المعلقة بين السماء والأرض وهي تنظر إلى حياتها الأرضية التي زالت ولم يبق منها سوى الحكايات. سميناها ليلة الاحتفال المقدس، وكان فينا توق غريب وعطش لرفع تلويحة وداع لأوطاننا، تلويحة بلا ندم. أدهشنا القدماء منا وهم يرددون أمامنا كلما التقيناهم: انتظروا ليلة رأس السنة، وسترون العجب. ولأننا أغرار وسذج على المكان صدقناهم، وبالذات ما كانوا يروونه عن النساء: ستقبلون الفتيات الثملات مجانا، وتشاهدون السماء تتحول إلى عرس ناري، وسيكون الجميع متسامحين معكم وستلمسون ذلك التسامح عبر الابتسامات السارحة على الوجوه، والمصافحات العامرة بالود لمن يعرفكم ومن لا يعرفكم، وستطبق ملايين الشفاه الخشنة على ملايين الشفاه الناعمة في مخادع دافئة. نزلنا ذلك اليوم من الجزيرة مع القارب عند العاشرة مساء تقريبا، وكانت سماء العاصمة تشتعل بالألعاب النارية. أينما حدقنا رأينا خرائط الضوء ترتسم في صفحة الظلام، والألوان تبعث في الروح بهجة لا تنسى، كل ذلك على خلفية من الثلوج المتساقطة من السماء كأنها قصاصات ورق أبيض يلفع الكون. وكأن الليلة ستبقى في فؤاد من شاهدها، وإلى الأبد، فلا ترى العيون سوى ما يدهش، ولا تسمع الآذان سوى أصوات السعادة. دخلنا يومها في زقاق جانبي يقابل المسرح الملكي، وكان الثلج يسّاقط بشكل غير مسبوق، ويوحي عند الأضواء العمودية المنتصبة في ساحة الميناء الجديد الذي يقع المسرح مقابله بليلة ساحرة. ذلك الزقاق الضيق يتفرع من الساحة، ليس بعيدا عن شارع المشي الشهير الموغل في قلب العاصمة، آنذاك، تحول الثلج

عبر الضوء إلى فراشات حية تتراقص بجنون. لم نتجه نحو "ساحة اللقالق" هذه المرة، بل قادنا الزقاق إلى واجهة ذلك البار المعروف المسمى بالبار "الهندي"، ويقصد بالهندي هنا هو الهندي الأحمر، لا هندي بوذا وعبّاد البقر ونهر الغانج، وكانت واجهة ذلك البار تتألق بأضواء عيد الميلاد لتجذب الزبائن إليها. جلسنا على طاولة من الخشب، تقع قرب الدرج الذي يقود الخطى إلى الأسفل، حيث تتوارى دورات المياه. لم نعرف نوع الخشب حين تلمّسناه بأصابعنا، أهو من الحور أم من السرو أم البلوط، فغابات البلاد تغص بأنواع غريبة من الأشجار. عفص وحور وصفصاف وبلوط. لا يمكن الجزم أننا ننسجم مع الرائحة العبقة، وأزياء النساء القزحية، وأناقة الرجال وهم في أتم البهجة لاستقبال سنة غامضة، تحمل معها توقهم إلى المجهول. إلى القدر القادم الذي سيغير حياتهم من دون شك. هم على صخرتهم، بينما نحن نسبح على ماء زلق، مائج، تعصف به الريح. قطيع أجنبي مثلنا سيجذب البصر حتما. وجدنا المرايا المبثوثة في المكان تعكس الشموع المضاءة على الطاولات، وأضواء المصابيح المثبتة على الجدران، ذات الألوان الهادئة التي تناسب علب الليل والمخابئ السرية لاقتناص المتعة، وألفينا معظم الطاولات مصنوعة من النوع ذاته، والبار مكتظ، نساء ورجال يتقابلون على الطاولات يحتسون الشامبانيا أو البيرة أو النبيذ، لمسنا في وجوههم الفرح والانبساط، وكان معظمهم من أهل البلاد، بشقرتهم الفاقعة، وعيونهم الزرق الشبيهة بدثار البحر.

أثناء دخولنا لاحظنا المغنين يصدحون بأغنية أميركية مشهورة ذاعت في الفضاء الفني العالمي قبل عشرات السنين، لمغن جامايكي عرفه واحد منا يهتم بموسيقى الغرب. "No woman no cry" . لا بكاء بدون امرأة، قال إن اسمه "بوب مارلي"، وهي تشعل مزاج الجالسين بالنشاط والمتعة. لمسنا ذلك من خلال تمايلهم على الكراسي، واحتسائهم المتواصل لكؤوس الشراب التي تفرغ ثم تترع تباعا. قنديل البحر لا يبعد عن مجلسنا، قواقع الشواطئ تحتفل بضوء القمر، عروس البحر ترقص على وقع أشعار خالقها، شاعر الجزيرة المدقع "هانس

كرستيان أندرسن". عروس تحتفل، مثل غيرها من المخلوقات، بانصرام سنة في سلسلة الزمن الصاعدة نحو المجهول. على وقع الأغنية يحتفون بالثلج والجعة وهدير الريح، ويفصلنا عنهم جدار سميك، جدار السنين السود والمكان الأغبر. اختفى عن وعينا العالم الخارجي، وتلاشت أصداؤه وضوضاؤه برغم أننا قريبون من ساحة المسرح الملكي، ومن ضوضاء الميناء الجديد المحتشد بالبحارة، والسكارى، وفتيات اللذة. البعض منا افتقد أغانينا وما تبثه من شجن وحزن في النفوس، غير أنها لا تلائم ما يحيطنا من أضواء وبهجة وحركة. فرقة الموسيقا تتكون من أشخاص بدا عليهم سمة الهنود الحمر، بآلاتهم الوترية والهوائية، وصناجاتهم المتجاوبة مع أغاني بوب مارلي حول البحارة، وحمالي الموانئ، وقاطعي القصب في حقول أميركا اللاتينية، ومعاناة السود، والمولّدين، العاملين في الشركات متعددة الجنسية، وأغلبها من أميركا الشمالية. مات المسكين بعمر ست وثلاثين سنة بسبب الإدمان على المخدرات، والاختلال بميزان العدالة التي ظل ينشدها من خلال أغانيه، كما شرح لنا صديقنا العارف بموسيقا الغرب ومغنيه. تخيلنا أسماك البيرانة المتوحشة، وخمرة قصب السكر كما قرأناها في روايات جورج أمادو، وبنادق جيفارا في غابات بوليفيا، والغيوم الممطرة أزهارا وضفادع، وسحر الزنوج في غابات الأمازون وهم يتذكرون قرون الرعب حين كانوا يتحولون إلى طعام لكلاب الرجل الأبيض حامل الإنجيل.

المرايا المثبتة على الجدران تعكس الوجوه والكؤوس بألوان مضاعفة، فإذا بالمكان يتحول إلى لعبة خيالية كنا في وسطها أشبه بطيور غريبة في حقول نائية. كنا نحتسي كؤوس البيرة بلذة، ونرتشف في ما بعد الصمت بيننا، وكانت الساعة تتقدم نحو منتصف الليل بسرعة، وكنا ننتظر، ونتبادل الابتسامات مع النساء الجالسات، وبين حين وآخر يرفع أحدهم كأسه ويشير إلينا ثم يحتسي السائل برضى كبير عن النفس. هذه هي الجنة، هذه هي الجنة، ولا بد أن التاريخ عاد بنا إلى مجالس هارون الرشيد وبذخ البرامكة. رحنا ننشد مع

الجامايكي بوب مارلي، والزمن لا يعنينا، والموت بعيد عنا. امرأة غريبة الهيئة، تجالس شابا طويلا في منتصف العمر، كانت تمتلك شعرا أسود اللون ينساب حتى كفلها، جذبت نظرنا كلنا ورحنا نتبادل الإشارات حولها. الأصابع الطويلة، والصوت الخشن، والنظرات الوقحة التي توجهها إلينا، وهي تتثنى على كرسيها بشكل مفتعل. كانت هي الأخرى تشير إلينا بكأسها محيية وكأنها تؤكد لنا أننا مرحب بنا في البلد، وأن في هذه الليلة لم يعد هناك فرق بين ابن البلاد والأجنبي، وكأنها تقول هناك أشياء كثيرة توحدنا هذه الليلة، كالخمرة، وأغاني بوب مارلي، والأضواء المشعشعة على الجدران وفوق الرؤوس، وليلة رأس السنة التي جاءت بمزاج جيد مرغوب من أهل البلاد، وحملت معها الثلج من الغيوم البعيدة الشبيهة بالرماد، وفرشته في كل زاوية ومكان. زينت به الأشجار العارية، وغطت القرميد الأحمر، ولوثت أعراف الغربان الليلية في مخابئها، وأحكمت ستارها بين النجوم والعيون الساهرة. وألقته أخيرا، بكرم ومرح، بين أيدي الناس لكي يتراشقوا به كما اعتادوا منذ ظهور أجدادهم "الفايكنغ" في هذه السهول. بعضنا فكر، بما يشبه التأمل، والخيال، بلوحة أخرى. لوحة غير محسوسة تختفي وراء كل ما يجري من مرح وموسيقا وانطلاق وحرية، تتكون من قائمة طويلة من العظماء في الفكر والأدب والسياسة والشجاعة. ورنّت في الأذن أسماء مألوفة للبشرية. ليوناردو دافنشي، شكسبير، جان جاك روسو، أديسون، هانس كرستيان أندرسون، نيوتن، ألكسندر دوماس، ليو تولستوي، موزارت، نابليون بونابرت، جيفرسون، كارل ماركس، وسواهم من حملة مشاعل فكر، وحملة بنادق مبتكرة، وصناع مهرة غيروا مسار البشرية الذي كان راكدا، ووجّهوه نحو النور والعقل. وعلى مسافة بعيدة من طاولتنا، في الزاوية القصية من المكان، جذب نظر البعض منا عناق شاب وشابة استغرق فترة طويلة. ينفصلان لاستراحة قصيرة، يحتسيان كأسيهما ثم يعاودان التقبيل بشوق، ومتعة. هل هي القبلة الأخيرة في نسيج هذا الليل؟ كنا نتفاهم بالإشارات، وبعض الأحيان بأصوات بطيئة وعالية تلفت نظر القريبين منا لأننا

نتكلم لغة لا يفهمونها. هم يتمتعون بحاضرهم، فيما نهرب نحن من حاضرنا. هم في طور التحقق البشري للأحلام، ونحن في طور الانحدار البشري نحو البربرية. زنازين، ثكنات عسكرية، معسكرات تدريب، خطوط جبهات، هجوم، انسحابات تكتيكية، فرق إعدام، أسرى، جرحى، معوقون، تقارير أمنية، تعذيب، غازات سامة، محاكم ثورية، اعتقالات، وكل ذلك القاموس البشع من الانحطاط. والأنكى من كل ذلك شريحة من المجانين. أجساد متخشبة تخاف من تحريك خلاياها. جذوع نخل رست على شواطئهم الباردة، ولا يعرفون كيف يتعاملون معها. وحين نهضت تلك المرأة متجهة نحو الدرج خلفنا عرفنا السر المختبئ وراء الهيئة الملفتة للنظر، من خلال السيقان الرفيعة، والتنورة القصيرة، والرقبة الصلبة، ومتانة الجسد، تكشّف لنا أنها رجل، الأمر الذي وقع علينا كالصاعقة. قال واحد منا وهو يلتفت متابعا "المرأة"، أو الرجل لابس التنورة: ترى لو كانت في مجتمعنا ما الذي سيفعلونه لها؟ أو له؟ رد عليه واحد منا مقهقها: سينحرونها في الشارع كما ينحرون خروف العيد. ثم فجأة سمعنا صوت كأس تكسرت قريبا من الدرج، فتطلعنا بدهشة وخوف. حسبنا أن قذيفة ما سقطت قربنا، أو أن شجارا عاتيا نشب بين شخصين. ظن واحد منا أن ذلك احتجاج على صورة الكائن الخنثى الذي لا تعرف هويته الجنسية، لكننا فوجئنا بالكأس الثانية تتكسر في المكان نفسه فأدركنا أننا أمام لعبة ما. هناك تحطيم لموجودات سنة عتيقة، للخلاص من عبء اثني عشر شهرا من تكرار الألفة مع الأشياء ذاتها. ذهنية غربية بامتياز. البحارة في مواجهتنا يحتسون "الروم" بكؤوس واسعة مفلطحة، ما أن ينهي واحد منهم شرابه حتى يقذف الكأس الفارغة خلف ظهره، وهي كما فهمنا من النادل عادة من عادات الفايكنغ احتفاء برحيل السنة. يكسرون الكؤوس كناية عن كسر الشر الذي مضى والشر الذي سيأتي، وذكّرتنا هذه العادة ببعض من ممارساتنا العتيقة ونحن نقول الجملة ذاتها حين ينكسر إناء ما في المطبخ. الشعوب تمتلك عادات متشابهة كما فكرنا وناقشنا الأمر بيننا. اكتشفنا في وقت متأخر من تلك الليلة

أننا لم نكن الأجانب الوحيدين في بار الهندي. رصدنا شلة صغيرة من اللبنانيين تجلس في قعر المكان البعيد عن الباب، وأخرى من الإيرانيين تجلس قرب منصة الفرقة الموسيقية. وبدا لنا الأمر مفهوما. فبعد وصولنا تقوقعت كل جالية على نفسها مثل أميبا تشعر بالخطر، تجمع اللبنانيون مع اللبنانيين، والفلسطينيون مع الفلسطينيين، والعراقيون مع العراقيين، والإيرانيون مع الإيرانيين، ونادرا ما كانت لنا صلات مشتركة. لا شيء يجمع البشر بعضهم بعضاً سوى الألم. صارت أصوات انفجارات الصواريخ النارية تأتينا من بعيد، نسمع الأصوات لكننا لا نرى الخرائط الضوئية التي ترسمها في سماء الثلج والعتمة الخفيفة. وفي العمق من ذاكرتنا حملنا صورة عن لحظة حلول السنة الجديدة، رأينا ذلك في أفلام أجنبية، وسمعنا عنها في حكايات نادرة، ففي اللحظة التي ينطبق فيها عقرب الدقائق على عقرب الساعات، عند المحطة الواقعة على رقم ١٢، تنطفئ الأضواء وتنشب المعركة بين الأنوثة والذكورة. تشتبك الشفاه لا على التعيين، يتناوش أي ذكر الأنثى الجالسة أو الواقفة قربه ليطبع على شفتيها قبلة حارة، وهكذا كنا ننتظر. ننتظر وعيوننا ترمق بشبق النساء الجالسات أو الواقفات قربنا بعد أن اكتظ المكان بالحضور، والجميع ممسك بالكأس متطلعا إلى عقرب الدقائق.

انطفأت الأضواء فجأة واشتعل الأفق في الخارج بالانفجارات المسالمة والجميلة.

لم يقبّلنا أحد في بداية العام الجديد، وبقينا نحتسي ونحدق بالوجوه الفرحة السعيدة، لم نصل بعد إلى معنى قدومه، مثلما لم ندرك لماذا وكيف انصرم العام الماضي، فالمآسي التي نعيشها أنستنا الاحتفال بالحياة، وأنستنا جدوى عبور الزمن على بشراتنا وعقولنا، فكل تفاصيل حياتنا وذكرياتنا غائمة رجراجة مثل أجواء البار تلك بدخانها، وروائح نسائها، وسيلان خمورها، الذي استغرقنا بعمق فلم نفق على أنفسنا إلا وقد بان ضوء الفجر من خلال الباب،

وبدأ الساهرون ينسلون واحدا بعد الآخر نحو الشارع. وهكذا فعلنا نحن، غرباء الألفية الثانية. وجدنا أنفسنا أمام واجهة المسرح الملكي المعتمة، وأمام أسراب النوارس المفتشة عن طعام وسط الثلج المتراكم على الأشجار والأرصفة والمقاعد الخشبية المهجورة في الساحة. وفي الساحة جذب انتباهنا حشود الشباب، فتيانا وفتيات، وهم يتبادلون القبل، والأحضان، على الرغم من برودة الجو. وفي ذلك الفجر البارد اقتنعنا بجدوى العيش في هذه البلاد، ونسيان ماضينا الشائك الأليم، وقررنا تمضية الوقت في التسكع بشارع المشي إلى أن يحين موعد القارب كي نعود إلى حضن الجزيرة.

نحن نعيش إذن فجرا آخر من حياتنا الأرضية.

٧

انتهت حياتنا في الجزيرة، وسندخل في تلافيف البلاد، برحلة تشبه الخيال.

شاهدنا كنائس عتيقة في القرى، كانت أبراجها ترتفع مع الغيم والضباب، وصادفتنا حقول من الثلوج تلهو فيها أرانب، وثعالب برية بفراء رمادي تتأمل فينا بعينين قهوائيتين متعجبتين، لكننا لم نر لحد تلك اللحظة دببا قطبية. فتشنا بأبصارنا عن قبائل الفايكنغ المرعبين فلم نبصر أحدا، وأدركنا أننا نعيش في أوهامنا وأحلامنا، فما زلنا مأسورين بالوهم والأحلام منذ خرجنا من شرنقة الحروب والموت. ومن بعيد لاحت لنا غابات بكر داكنة اللون تمتد مسافات طويلة، وشاهدنا بيوتا ملتمّة على نفسها تلوح سقوفها القرميدية الحمراء كأنها ذهب عتيق، وتبرز جرز من القش في نوافذها مشكلة ستائر ومصدّات للريح وأرواح الأسلاف. شعرنا بأنفسنا ننأى بعيدا عن جذورنا، بل أصبحت تلك الجذور خيالات، وأحلاما مدوّمة في رؤوسنا. نعم. في رؤوسنا فقط. لأول مرة في أعمارنا نقع على هذا الكم الهائل من الأشجار، ونعيش بيئة ثلجية كنا لا نراها حتى في أحلامنا. ما ملأنا بالدهشة ذلك الفراغ السائد الخالي من البشر، وكأنهم هجروا هذه الأرض إلى بلدان أخرى. وكان معظمنا لم ير ثلجا في حياته، وأرواحنا سرعان ما تسربت منا نحو صحراء من العزلة، عزلة غير مفهومة لم ندرك سببها بالضبط. وفدت بسبب الثلج على الأغلب، وبسبب دخولنا النهائي في متاهة هذه البلاد القطبية، وابتعادنا عن أرضنا، وأنهارنا، وبيوتنا، وسيماء أحبابنا. لا نعرف إجابة قاطعة لأحاسيسنا، المهم تلك المشاعر الصغيرة الناغزة في أسفل الصدر وهي تدفع الشخص إلى التحديق فيما حوله ببلاهة من دون أي اهتمام، أو دافع إلى الحياة. تحول البعض منا إلى شاعر فراح يرمق الغربان السود ويصفها بملائكة الجحيم، وتيجان الأشجار باعتبارها

إهرامات من حضارات الهنود الحمر، والسقوف القشّية المكللة بالثلج وكأنها قطعة من أرض الأسكيمو استحضرت من قديم الزمان إلى هذه الجزر.

يخبرنا مرافقنا بمايكروفون مخفي كما لو كان دليلا سياحيا أن البلد دخل منتصف القرن التاسع عشر إلى الحداثة، عبر تحديث الريف أولا، ومد السكك الحديد، وانشاء الموانئ والمصانع، وهي نهضة شاملة اكتسحت القارة العجوز برمتها. وكنا نسمع مذعورين، لا نرغب في مقارنة أنفسنا بهم، فانكفأنا على أرواحنا وتحولنا إلى آذان صاغية فقط. قال: ظهرت خلال تلك المسيرة الشاقة طبقات جديدة كالطبقة الوسطى والطبقة العاملة، لقد تغيرت منذ ذلك الزمن أساليب الحياة اليومية، وغادر البلد زمن الفايكنغ والأساطير والسفن الشراعية وجنّ السقوف والأرواح المنتشرة في غابات الصنوبر. تفشى النور في البيوت المعزولة التي كانت محشوة بالمخلوقات السماوية، وثابت العقول إلى رشدها. صارت تفكر بوضوح، ووفدت المنظمات والأحزاب والمكننة والإسمنت والحديد والرصاص والورق والخشب، حيث انتقلت بالمباني إلى طرز جديدة، وظل الريف فقط متحفا للحياة القديمة بكنائسه الفخمة، وسقوفه القشيّة، وحقوله المسيجة بالأشجار والأغصان والأسلاك الشائكة. "أنتم محظوظون"، يقول مرافقنا، ونحن نخترق الريف والغابات والمدن، متجهين نحو الشمال، فقد جئتم في زمن الخير، لا تنسوا أنه قبل مئتي سنة كانت هذه الأماكن عرضة لأوبئة وأمراض كالكوليرا، والطاعون، والجذام. أمراض تفتك بالألوف من الفلاحين المساكين وفقراء المدن. وحدث أن فرغت قرى بكاملها من سكانها. وحدث أن تناقص سكان مدينة من المدن حتى النصف. وحدث أن هاجر سكان واحدة من القرى برمتهم إلى القارة الجديدة، أميركا الذهب والهنود الحمر والمحيط، فلم يبق في الديار سوى البوم، والغربان، وطائر الشحرور المغني للجوز البري وأشجار اللبلاب وأغصان شجر التفاح. حدث كل ذلك، لكن الحياة ظلت سائرة في طريق الأبدية، كما يقال في الكتب. شعرنا بأننا محظوظون فعلا، لقد وصلنا إلى هذه البلاد بعد أن غادرتها المجاعات والأوبئة، وقال واحد

من الراكبين أجل لقد أرسلوها إلى الشرق، إلينا، نحن أبناء القصب والبردي والأكواخ السعفية والمياه الملوثة بجراثيم الديزنتري والحصبة وذبابة التسي تسي وحبة بغداد والهيضة. ورفدوها بزائر جديد هو الحرب.

غرابة التضاريس الموغلين فيها فرضت الصمت علينا، وكانت الباصات تسير بانتظام نحو جهة مجهولة، تتسلل بين سهوب الثلوج والغابات تلك. وصلنا إلى مدينة كبيرة تقع في أقصى الشمال، وهيأنا أنفسنا للنزول أخيرا، لكن حدسنا كان خائبا فقد درجت الباصات خارج المدينة واتجهت شمالا مرة أخرى، وبدأت تتوغل في شارع عريض يغور بين الحقول والغابات. انعطفت إلى اليمين ودخلت في شارع ضيق بين الغابات الكثيفة، وسارت فيه ما يقرب الربع ساعة، ثم جئنا على فسحة كبيرة يتوسطها بناء ضخم من طابقين على شكل حرف "**L**" الانكليزي. أخبرنا الدليل مبتهجا أننا وصلنا، وهذا هو المكان الموعود الذي سنقضي فيه فترة الحضانة بين ذراعي الأم الرؤوم، أي البلاد الثلجية هذه.

بين الأغصان البيض رأينا سناجب تتقافز من جذع إلى آخر، مفتشة عن بقايا ثمار تركها الصيف الفائت، وكانت سعيدة تقوم بعملها كما لو هي تلعب. ورأينا أعشاش الغربان في أعالي الشجر. وتنفسنا رائحة الغابة التي لا تشبه أي رائحة خبرناها في مكان آخر. وفي عمق الغابة تناثرت بيوت لفلاحين، إذ بدت لأعيننا مثل قطع من الكيك الملون، لكننا لم نلمح أحدا في عمق الغابة ذاك. هنا يعيش العازبون سوية مع العائلات، أطفال ونساء، وشيوخ، قدموا من كل بقاع العالم، يوحدهم حلم العيش بعيدا عن البلدان التي تشهد الحروب، وبعيدا عن معاناة تجديد جوازات السفر، والإقامات، والتنقل من مكان إلى آخر طلبا لاستقرار طويل الأمد. جناح المطعم هو الأبرز، وهو صالة واسعة مستطيلة الشكل تنفتح شبابيكها على فسحة تحيط بها أجنحة السكن، وصفوف تدريس اللغة، ومكاتب المعلمين والمشرفين، وغرف العناية الطبية. لذلك وجدنا حياة مختلفة هذه المرة، وقد سبقنا إليها حشد آخر من أصحابنا.

وجدنا أنفسنا أشبه بأطفال محتاجين إلى العناية، أو هكذا راحوا يعاملوننا. وهذا ما كان يستفزنا بعض الأحيان، فنحن لسنا معوقين أو قصرا، بيننا عقول ناضجة، مفكرون وشعراء وكفاءات لم تمنح فرصة في وطنها. وزّعونا على الغرف، كل اثنين في غرفة، وغرفة لكل عائلة مهما كان عدد أعضائها.

عموما، لم تختلف حياتنا هنا عن حياة الجزيرة كثيرا، حتى أننا عجبنا من جدوى وضعنا في هذا المنعزل النائي، بين لغط الطيور وعتمة الغابات العملاقة، وهل ثمة سبب آخر غير فكرة دمجنا في حياة البلد؟ عبرنا عن هواجسنا تلك للمشرفين على البناية وبرنامجها، فطلبوا منا التريث قليلا قبل الحكم والتذمر، تاريخ البلد في انتظاركم، وينبغي عليكم التزود بشذرات منه عند بدء برنامج الدراسة. كنا نستيقظ صباحا على أصوات طائر الشقراق بين الأغصان الثلجية متنقلا من غصن إلى غصن، ومن شجرة إلى شجرة، ولغط النوارس وهي تحلق قرب الغيوم، وعواء كلاب بعيد قادم من بيوت الفلاحين. ويكتظ المطعم أثناء الصباح بالبشر وهم يتناولون وجبة الفطور بضجيج النساء والأطفال والشيوخ والشباب المتحمس للطعام. والأكل لم يختلف عن أكل الجزيرة، سوى أن المنتجع يشهد وفرة أكثر في الخبز واللبن والحليب والأجبان، والعصائر. تبلغ الساعة التاسعة صباحا، ننهي الفطور، نجمع كتبنا ودفاترنا، نغلق غرفنا بعد أن نرتب أسرتنا، نتذكر كوابيسنا في الليلة السابقة، وأحلامنا، وحجم الدموع التي سكبتها عيوننا قبل السقوط في هاوية النوم، ثم نتوجه إلى صفوف الدراسة. ينبغي علينا منذ الآن أن نتعلم لغة أهل البلاد، وتاريخهم وعاداتهم في المأكل والملبس والتخاطب، وما يسمونه "الأتكيت" في أسلوب العيش. وكانت هناك أربعة صفوف للتدريس تبعا لمستوى الشخص العلمي الذي حصل عليه في بلده، أو البلد الذي قدم منه، ويخلو الصباح عادة من الأطفال فهم يستمرون بنومهم حتى العاشرة أو الحادية عشرة، لذلك كانت العائلات التي تمتلك أطفالا تأخذ وجبة الصباح إلى الغرف، والمسؤولون عن المطعم يعرفون ذلك. يتجمع الأصدقاء على الطاولات. البعض يبدأ برواية

النكات والبعض يغني، وثمة من مال جسده ومزاجه إلى الرقص، والفرفشة، وإن ظل في كرسيه منتظرا لحظة مواتية، أو نشوة تزيل الخجل الذي كان يحس به. وباعتبار أن معظمنا من الشرق، واللغة ذاتها، تستحضر المساءات صوت زهور حسين وطوني حنا وداخل حسن وسعدون جابر وعبد الحليم حافظ وفيروز وأم كلثوم. وجلب شخص ذات ليلة، لا أحد يعرف من أين، آلة عود كان يعزف عليها ألحانا تراثية يطرب لها الموجودون، ويرافقه شخص وسيم اسمه "مراد" بالغناء، ولديه شغف بفريد الأطرش، ويجيد أداء الأغاني العراقية بحرفية عالية. والظاهرة الملفتة للنظر هنا، السماح للنزلاء باحتساء المشروبات سواء في المطعم أو في الغرف، لذلك كانت اجتماعات الخمرة تظل متواصلة حتى ساعة متأخرة من الليل. ننسى العالم الخارجي وننغمر بأحاديث في السياسة، وهي الموضوع المحبب للجميع، ثم نتناقش حول المرأة وما تعانيه في بلداننا. وأغلب الأحيان ننشغل بوضع خارطة للمستقبل، المدن التي سنعيش فيها، والمغامرات التي تنتظرنا مع النساء، والراتب الشهري الذي سنتقاضاه من الدولة كمساعدة لنا حتى نتقن اللغة ونجد فرصة عمل تلبي متطلبات حياتنا اليومية. فيما كان البعض يفكر بالحصول على النقود لكي يرسلها لأهله في البلدان البعيدة، البلدان المتحاربة أو الرازحة تحت ضائقة مالية عارمة.

ومن بين الموجودين في المجمع كان كمال يمتلك طبيعة مغايرة لنا، لمسنا ذلك في الجزيرة، وتأكدت لنا هنا بعد أن ضمّنا روتين المكان الموحش. يقرأ الكتب، ويناقش، ويعطي وجهة نظر تختلف عما كنا نؤمن به، بل كانت أفكاره تصدمنا بعض الأحيان، خاصة ما كان منها متعلقا بالدين والفن. ينظر إلى تاريخ الأديان، وخاصة الدين الاسلامي، بحساسية واقعية، منطقية، باردة، بعيدا عن الأساطير والخرافات والبديهيات المتعارف عليها في وعينا. يجلس وفي يده كتاب ما، باللغة العربية أحيانا وباللغة الانكليزية بعض الأحيان، لم نكن نعرف من أين يحصل عليها، بل وجد مكتبة صغيرة في المجمع تحتوي على عدد لا بأس به من الكتب، فراح يقرأ كل ما تقع عليه يداه. كتب حول الزهور وكتب

حول أصل الانسان، حول الفايكنغ وفتوحاتهم في الغرب وكيف وصلوا إلى جزيرة آيسلاند وكرينلاند، وكيف احتلوا سواحل بريطانيا. أنواع الأسلحة والسفن والدين الذي كانوا يدينون به قبل دخول المسيحية. لا يوفر شيئا من المواضيع، وذات يوم رأيناه يقلب في كتاب حول أنواع السقوف التي كان الفلاحون في هذا البلد يصنعونها لبيوتهم، وأنواع الأخشاب المستخدمة في صناعة البيوت فنالنا العجب من غرابة اهتمامه. نجده جالسا بعض الأيام في زاوية من المكتبة، واضعا سماعات ضخمة على أذنيه يسمع بها عبر جهاز تسجيل سمفونيات شائعة لبيتهوفن وبرليوز وفاغنر وموزارت، فكنا نضحك على الأمر ونعده عبثا لا طائل من ورائه. غريب ومشرد ولاجئ ويسمع الموسيقا!!! وفوق ذلك سائق دبابة على الجبهة. ونستغرب من اهتمامه بهذا الفن غير المفهوم، والبعيد عن ذائقتنا. وكان يرد علينا "إنني أمي أجهل لغة الموسيقا الراقية وأنا أحاول تعلم هذه اللغة، فهي تشيع الهدوء والانسجام في روحي"، لكننا لا نفهم ما يقصد بتلك المصطلحات. فما معنى الانسجام داخل النفس وما معنى الهدوء، ألا يجلس هادئا عند سماع الموسيقا؟ ولأن لغته الانكليزية جيدة لذلك كان الأنشط بيننا في صف تدريس اللغة. يناقش بطلاقة، ويعبر عن أفكاره ووجهة نظره من زوايا لم نألفها، فتقف المعلمة "إنكا" مذهولة أمامه، وأمام المعلومات التي يمتلكها، وسعة أفقه تجاه الحياة وشؤونها من فن، وفلسفة، ودين، وحساسية تذوق الجمال. عرّف بنفسه في اليوم الأول من الدراسة، وكانت إنكا تسأل الجميع عن أسمائهم ومهنهم وتخصصاتهم، بأنه شاعر، وشاهدنا ابتسامة على فمها فسّرناها أنها ابتسامة إعجاب، وقد فرحنا نحن أيضا لأن كمالاً نال إعجاب المعلمة إنكا. هذا واحد منا ينال حضوة أبناء البلد، قلنا بفخر لأرواحنا.

معلمتنا امرأة ذات قوام طويل، وعينين زرقاوين صافيتين، حادتي النظر، وشعر مسترسل منسدل على كتفيها، وأنف أقنى فيه تحدب صغير في الوسط، أضفى كبرياء خافية على سماتها، وفمها صغير مزموم يصبح مغريا وجميلا ما

أن تبتسم. وابتسامة إنكا تزيل الجدّية العميقة التي تتلبسها. وهي كما أخبرتنا من المدينة المجاورة للمجمع، متزوجة وتعيش مع زوجها وطفلها، لكننا كنا نلمح تعابير حزينة في وجهها كل صباح، ومن النادر رؤيتها ضاحكة. يبدو أن إنكا ارتاحت لكمال، فكانت تشمله بنظرات لطيفة ومعجبة، وتتيح له وقتا جيدا لمناقشتها حول اللغة، والتاريخ، ونمط الحياة في هذا البلد. إضافة إلى تعليم اللغة كانت تضخ فينا تاريخا جديدا، وتقاليد مغايرة، وكأنها تحاول مسح تاريخنا القديم وأفكارنا التي تربينا عليها، وهي على رغم أنها لم تبد ذلك بشكل مباشر لكننا كنا نلمس منها دأبها على رسم صورة جميلة لما يعيشه مجتمعها، وما يؤمن به من قيم وأفكار: لا تظنوا أننا خلقنا هكذا، تقول. لم يبدأ تطورنا الحقيقي إلا في القرن العشرين، في تلك الحقبة فقط ترسخت البصمة في التصميم والعمارة على سبيل المثال، مسارح، أبنية ومجمعات سكنية، مطارات، مستشفيات، معاهد، فنادق، بالترافق مع الاهتمام بالديكور الداخلي، والاهتمام بالبيئة والحدائق. بات النظر إلى العمارة باعتبارها تكوينا شاعريا، وهنا نظرت إلى كمال وثبّتت عينيها في وجهه الشاحب الأسمر، ثم بدأ التصميم بإدخال الزجاج في الأبنية، والشبابيك الواسعة والأبواب الشفافة لتمنح العين إطلالة واسعة على الطبيعة: "قبل ذلك التاريخ إذا ما تجولتم في الريف لن تجدوا سوى البيوت الخشب ذات الشبابيك الضيقة، والسقوف القشية المتهدلة على الواجهات، وهي برغم جمال منظرها ورومانسيته، لكنها كانت باردة شتاء لدرجة مخيفة. فكّر مصممونا لاحقا بإدخال أكبر كمية من الضوء إلى البيت فجاءوا بفكرة النوافذ الزجاجية الواسعة، جوّنا قاس، وشمسنا خفرة لا تظهر في السماء كثيرا، ولا ترى العين معظم شهور السنة سوى الغيوم والثلوج، والعتمة. أجهزة التدفئة الحديثة ألغت الحاجة إلى استخدام الجدران الثخينة العازلة للحرارة والبرودة، وكان ذلك تطورا هائلا لم تشهده هذه الأصقاع منذ ملايين السنين. لنقل منذ العصور الجليدية". لغة غريبة على أسماعنا، لغتهم، ابتكرت لنا إنكا طريقة غريبة في التعليم، جعلتنا

نحفظ جملا كاملة غيبا، نكررها مثل الببغاوات، وهو ما كان يجعل كمال يحس بالعجز، والغضب، فالأمر فيه اقحام وقسر لروحه، فيبدي انفعاله لإنكا على شكل مماحكات لا علاقة لها باللغة. لغة غريبة لم نتعلمها إلا بجهد بالغ مما جعلنا نعيش على الحافة، هذا ما لا نشك به، سواء من يعيش في هذا المجمع أو من يعيش في السفينة الراسية قرب العاصمة، أو أولئك المحظوظون الذين دبرت السلطات لهم سكنا قرب البحيرات.

أجل، نعيش على حافة هذا المجتمع لأننا لم يتهيأ لنا الاتصال به، أو النفاذ إلى تلافيفه. ما عشناه من ليالي خمرية، وجولات في العاصمة، اكتشفنا أنه غير كاف لاختراق قشرة المجتمع. لكل مجتمع تلافيفه وخباياه، مما جعلنا نحمل أوهاما كثيرة عنه، هذا الانسان المختلف عنا، لا بالشكل فقط، بل بتلك الروح التي نمت، وتشكلت، وحلمت، وفكرت، طوال قرون مديدة. نعيش في أساطير لا تمت إلى الحقيقة بصلة، وهذا ما أدركه كمال قبل كثير من أصدقائنا. وعيه ذاك هو ما حمله على الاندفاع نحو لجة التجربة. أريد أن أكتشف، أنا شاعر، والشاعر ينبغي عليه أن يكون شجاعا ومغامرا، دأب على القول. وذات عطلة في نهاية الأسبوع قرر كمال أن يندفع نحو المغامرة، والمغامرة هي أساس الإبداع، وراح يستعيد في مخيلته أولئك المغامرين العظام ممن حولوا مغامراتهم إلى أشعار وروايات وقصص. اشتغل "هيرمان ميلفل" على السفن سنوات، قضاها في صيد الحيتان، ومن الأحداث والمفارقات وتعابير الرعب التي عاشها مع البحارة أنجز عمله الفذ "موبي ديك"، ويجزم كمال أن شخصا لم يعش تلك التجربة لا يمكنه جلب كل تلك التفاصيل عن عالم البحار، والسمك، والحيتان. هاك "رامبو" مثلا، شاعر فرنسا الشاب، ألم يغامر بالرحيل إلى الحبشة متاجرا بالسلاح وباحثا عن المغامرة؟ "هيمنغواي"، كتب رائعته الشيخ والبحر بعد أن عاش سنوات في كوبا، بل وساح في إفريقيا، وقاتل في إسبانيا مع الثوار، وعرف لمن تقرع الأجراس. ربما الوحيد ممن شذ عن القاعدة هو "دون كيشوت"، البطل الذي بناه "سيرفانتس" من الأعلى، فبعد هوسه في

قراءة الروايات وأدب الفروسية، عمد إلى الخروج إلى العالم ليعيش التجربة والمغامرة. ولن نغفل ابن فضلان، وتجشمه عناء رحلته في هذه الأصقاع الباردة، أصقاع السلاف والبلغار والروس والفايكنغ، ليرضي فضوله الإنساني في الاكتشاف.

ممتلئا بتلك الأفكار، وتقديرا للتجربة وانعكاسها في الإبداع لاحقا، قرر كمال السهر وحده، بعيدا عن القطيع، ليبدأ خطواته في جمهورية السعادة هذه، ويتعلم عادات أهل البلد في قضاء أوقات بهيجة في البارات، والمراقص، مع الجعة والسنابس والدخان والنساء، كما يفعلون هنا على ظهر الجزر. وذهب مساء إلى الشارع العام مشيا على الأقدام وسط ثلج مثل التلال، من دون أن يخبر أحدا. وقف عند محطة الباص المار في الطريق وكاد يتجمد من البرد. حين ركب الباص قال للسائق انزلني وسط المدينة بلغة انكليزية طبعا، وفعلا أنزله السائق وسط المدينة في وقت كانت خيوط الليل تنسج عباءتها على الشوارع والأبنية، لكن الأضواء باهرة، وجذبت نظره تلك الأعمدة الطويلة المصفوفة على امتداد شارع المشي، وهي تحمل مصابيح مضاءة بوهج ناعم، وكانت المصابيح على شكل أزهار كأسية مقلوبة ترتفع بضعة أمتار عن الأرض، وتعجب من ذوق هذا الشعب الذي يهتم بأبسط التفاصيل ليخلق منها لوحات فنية مدهشة. مشى وسط حشد من البشر ينوون السهر مثله، البعض منهم يمسك قناني البيرة ويتمايل مغنيا، منتشي الوجه مرفرفا في سماوات المتعة، والبعض يسدل ياقته الفرو على وجهه ويفتش عن مكان حميم يقضي فيه ليلته، فغدا يوم سبت، وهو عطلة في البلد، والقلوب خالية من الأهوال والمصائب، وروح الشباب هي القاطرة المندفعة بالبلد نحو سهوب السحر والمتعة. وحين شاهد مكانا يتجمع أمامه عدد من الرجال والنساء عرف أنه واحد من بارات المدينة الشهيرة التي تستحق السهر فيها. دخل مع الداخلين، وبعد أن وصلت دقات قلبه إلى صماخي أذنيه، وامتلأ بالخوف والتردد، همس لنفسه بالقول "واجه الخطر والق نفسك في لجة المغامرة فلن يربح في هذه

الأرض سوى الشجاع المغامر المقدام". وكان يتعجب من كثرة النساء وشهيتهن لشرب الجعة والنبيذ، ووجد البعض يقف على البار بينما صفت الكراسي والمقاعد على طول الجدران، وشمّ رائحة النساء وتصاعدت في جسده أمواج الشهوة والتوق لملامسة تلك الأجساد البضة، والشفاه الشهية، والمؤخرات المعتنى بها كما لو كانت واجهة حداثية للجسد، حسب تعبير إنكا. هي أغنية الانسان وتتجلى بالنظرات الحارة والابتسامات الواسعة المغرية تدعو للاقتراب، والآذان التائقة للغزل وسماع الحكايات، فقادته خطاه إلى مقعد طويل تجلس عليه امرأة، بينما تقابلها زميلة لها شقراء الشعر وهما تتكلمان همسا، وحدس أنهما كانتا ترقبان الداخلين بدقة، وتنتظران امتلاء المقاعد فيما حولهما. كانتا تحتسيان البيرة، بدون مزة طبعا، حسب التقاليد السارية هنا. واتته الجرأة على الجلوس جنبهما من دون طلب الإذن منهما، ولم يحس بوجود تعابير استنكار لتطفله على المقعد. واستمرتا بالحديث في تجاهل واضح له، فيما نزع سترته الجلد المبطنة بالفرو، وقد اشتراها من أحد اللاجئين في الجزيرة، وقال لهما كما لو أنه يعرفهما منذ دهور: سأجلب لي مشروبا، فأومأتا له بالموافقة مع ابتسامات رضا وفضول. الشقراء اسمها "بنتا"، وذات الشعر الأسود اسمها "أنيتا"، وكان يفكر بإيجاد مدخل للحديث معهما، برغم أنه لم يعتد على مخالطة نساء البلد، غير أنه منّى نفسه بليلة حمراء تذهب عن روحه وحشتها، وقلقها، وحرمانها. لا يعرف كيف قاده عقله إلى تناول الجو كمفتتح للمسامرة، فقال لهما بلدكم بارد، كيف تعيشون في هذه البقعة الجليدية؟ ولمس راحة في وجهيهما لحديثه، فسألته بنتا عن البلد الذي قدم منه فقال لها من ايطاليا، وفكر أنه إن قال لهما من العراق ستفهمان فجأة أنه لاجئ، وسمعة اللاجئين هنا لا تسر كما هو معروف. وبما أن الايطاليين ليسوا نادرين هنا، بسمرة البشرة وسواد الشعر والعيون السود، نسب نفسه إلى بلد دافنشي والبرتو مورافيا وفيليني، خاصة وأن ملامحه، كما أخبره أكثر من شخص، لها سمة إيطالية أكثر مما هي عراقية. عادة ما كنا نغير أسماءنا وبلداننا قدر ما نستطيع،

فمخابرات الدول التي ننتمي إليها يمكنها أن تسبب الأذى لعوائلنا في بلاد المنشأ. ويمكن أن تعتقلنا ذات يوم إذا ما قيض لأحدنا السفر إلى تلك البلدان، وشاع وهم بيننا أن مخابرات دولنا دست بيننا بعضا ممن يرتبطون بها، وينقلون عبر تقارير سرية ما يدور من حوارات ونقاشات وتنظيمات معارضة، بل وحدا الأمر بالبعض إلى تغيير تاريخ ميلاده من أجل تضليل الشرطة السرية لبلده وعيونها. ويعمد أشخاص بعض الأحيان التعامل بإسمين، واحد، وهو الحقيقي، مع الجهات الرسمية، وآخر مزيف يدعى به بين الأصدقاء، وقد اكتسبنا هذه التقية من العمل في الأحزاب المعارضة، أو نتيجة لتواجد البعض الآخر في كردستان العراق وإيران، ومناطق الأهوار جنوب العراق، ودمشق وبيروت. أما الفلسطينيون واللبنانيون فكانوا يتعاملون فيما بينهم بالكنى، استمروا على العادة الشائعة داخل المخيمات والفصائل المسلحة.

أخبرهما أن اسمه "مانفريدو"، من مدينة ميلانو. كيف جاء هذا الاسم إلى خاطره لا يعرف. ولم يكن متأكدا إن صدقتا بجنسيته أم تغاضيتا عن الكذبة مجاملة له، ومداراة لمشاعره. كانت بنتا تعجبه أكثر من صديقتها، لها وجه أمومي سمح، وعينان زرقاوان خجولتان، وهي تنظر له بإعجاب واضح ورغبة، وأحس بما يشبه اليقين أنها تتمنى قضاء الليلة معه، عكس أنيتا ذات الأنف الأشم، والعجرفة المتجلية على وجهها المشدود الذي يستطيع المرء أن يقرأ فيه بقايا معاناة، وتجارب، وذكريات حادة. وسرح به الخيال خلال الحديث، وهم مستمرون باحتساء البيرة، واستهلاك السجائر من نوع برنس طويل، وتبادل الحوار ووجهات النظر عن أي شيء يخطر في بالهم، إلى ليلة ساخنة تنتظره، قد يشتركون فيها ثلاثتهم على سرير واحد، وسمع، وقرأ، أن الفتيات الأوروبيات لا يمانعن من ارتكاب هكذا سلوك. لاحظ اكتظاظا غير طبيعي في المكان، وتشكلت غيمة سميكة من الدخان، وشاعت رائحة غريبة على حواسه. أخبرته بنتا حين استفسر عنها بأنها رائحة الحشيشة، وتنبه فعلا إلى بعض الأشخاص يغادرون الباب ثم يلبثون دقائق يدخلون بعدها بكامل الانشراح، وهم

يضحكون ويحدثون إشارات سمجة لا يمكن لعاقل القيام بها. البار يرتاده كثير من البحارة، ومن مختلف دول العالم. الميناء قريب من المدينة، والسفن تضخ البحارة يوميا على رصيف هذا الجزء من البلاد، وهم يقضون يوما أو يومين ثم يرحلون، وقد لا نراهم مرة أخرى. وخلال ذلك يسمحون لأنفسهم بالتحرر من التزمت القديم، مطلقين لأنفسهم العنان في الشرب، والأكل، والمضاجعة، وتدخين الحشيشة. الزبائن خليط عالمي عدّه من منتجات العولمة الجديدة، فتقع عين المرء على سمات الهنود الحمر كما هو بائن من بحارة أميركا اللاتينية، ووجوه يابانية، وشعر أشقر وملامح أوروبية صرفة، وعدد قليل من الأفارقة. من جهته كان قد جهّز ذاكرته وجلس متأهبا مع أهم الكتاب والمفكرين الأوروبيين مثل نيتشة، وهانس كرستيان أندرسن، وهايدكر، وماركس، وشكسبير، وت. أس. إليوت، وهمنغواي، ولوركا، وجلال الدين الرومي رمز تصوف الشرق، مع محي الدين بن عربي، والمتنبي وبدر شاكر السياب محطّم أحلام الشعر العمودي، وحروب جلجامش ومغامراته في بلاد الأرز، وعظمة مملكة بابل، وذلك من أجل الخوض في سجال ثقافي، فكري، استشراقي معهما، كما كان يجري عادة هناك في بغداد ودمشق وبيروت. لدهشته لم يحدث أي سجال، ووجدهما لا تمتلكان أي تصور عن شعوب تلك المنطقة. لم تسمعا بمشاهيرهم التاريخيين، ولا بأوابدهم ومناطقهم الموغلة بالقدم في أرشيف الحضارات، وهذا ما دفعه للجم خياله الثقافي بقوة، وحاذر بعد ذلك من الانسياق خلف وهمه بقدرة تلك الشعوب وثقافتها.

يمكن القول إنه لزم حدّه والتقط فكرة غامضة عن جليستيه الفاتنتين. بدل كل ذلك واصلتا الحوار والقهقهة عن تنزيلات السوبرماركتات بعد انقضاء الشتاء، وأنواع الشاورما والفلافل والكبة التي وفدت حديثا إلى هذه المدينة، مع اللاجئين القدامى والجدد، ونوعية البيرة الموجودة في مدينتهما، وما إلى ذلك من مواضيع عدها كمال مع نفسه ترهات حقيقية لم ترض غروره الثقافي. ومع

ذلك أقنع روحه بأن الليلة ليست ليلة ثقافة واستعراض عضلات فكرية وسياسية.

في ذلك البار المحشور بين بنايتين ضخمتين، وسط المدينة الشمالية المثلجة، نسي كمال المبنى الذي يقيم فيه، والأصدقاء، والمعلمة إنكا، وصالة الطعام، ودببة الغابة المحيطة بهم، بل قد نسي تلك الجهة من العالم المسماة بالشرق. وكاد يصدق أن اسمه هو مانفريدو، لا المشرد، اللاجئ المسكين، سائق الدبابة تي ٥٢ المدعو كمال.

الجيد في هذه البلاد أن الليل يمتد في الشتاء حتى الثامنة صباحا.

لأول مرة يدخل إلى بيت من بيوتهم. وبيت بنتا صالة طويلة للجلوس لاحظ أنها مليئة بالمزروعات، وقد وضعت في الزوايا وحافات الشبابيك وعند خشبة المطبخ، حتى في التواليت كان هناك مزروعات من الصبار البيتي، وهو شيء عجيب يراه لأول مرة. بلدهم أخضر على الدوام، والأشجار تتوزع في كل مكان، والمرء لا يرى بقعة صحراوية، بل يرى فقط حشائش ومزروعات في كل بقعة، مع كل ذلك تراهم يملؤون بيوتهم بالطبيعة الحية. كان هناك مطبخ مرتب ومرافق صحية واسعة وغرفة نوم فسيحة ذات سرير عريض وغرفة مخزن صغيرة تقع على جانب المدخل، والبيت كله كما قالت بنتا، وهي تريه إياه بنوع من كسر الحواجز بينهما كما هجس، ضمن بنايات خاصة في البلد تسمى بيوت حرة. بيوت تتلاصق مع بعضها ضمن فسحة واسعة ويختلف نظامها عن نظام الشقق أو "الفلل". من أعجب ما رأى في تلك الليلة ورق التواليت المزخرف بالألوان، وظن مع نفسه أن "بنتا" هي من قام بذلك مبالغة بالتزيين والإدهاش. قدمت بنتا دورة من البيرة المحلية فيها طعم مرارة حاد، ووضعت شريطا ل"كيم لارسن"، مغنيهم الأشهر، على مسجلة ضخمة تقع في الزاوية، وترتبط بمكبرات سود في زوايا الصالون تضخّم الصوت، وتوقع أن تدعوه بنتا للرقص، لكن ذلك لم يحصل، وبعد أن احتست أنيتا مشروبها نهضت وودعتهما وقالت

إنها تعبة وتحن إلى سريرها، وفهم من بنتا أن أنيتا تقطن في بيت مجاور لبيتها، وأن ابنها وابن أنيتا ينامان في البيت مع جليسة الأطفال، وهما تدفعان نقودا لذلك، وأن اسم ابنها "كيم"، وحدس أنها سمته بهذا الاسم لحبها للمغني الصاعد "كيم لارسن". لم يكن يصدق ما يجري له في تلك الغرفة المعطرة، وبقيا مستغرقين بالنوم حتى الظهيرة. فراش امرأة شقراء، وفنون مضاجعة لم يحلم بها، وتلك الأنوثة الطليقة، الحرة مع الرجل. جلبت كيم من بيت أنيتا وأجلسته قبالته في الصالون، ووجده طفلا خجولا يحمل سمات غير سمات أهل البلاد، عيناه البنيتان وشعره الأسود السبل ووجه مورد يعكس بصمات لاتينية. كان ينظر إلى كمال بغرابة، وكأنه يحدس أنه سيقوم بلعب دور ما في حياته القادمة. أسبوعا كاملا، أخبرته بنتا، ظلت تتسكع مع ذلك البحار في حانات المدينة، تعطلت سفينته وتطلّب إصلاحها خمسة أيام، وتعرف عليها في مرقص قريب من الميناء، حيث أقام هو في فندق عمره مئتا سنة، رافقته إلى الشوارع القديمة التي تجولت فيها هي نفسها عندما كانت طفلة، وجلست معه على حافة الميناء يحتسيان البيرة السوداء، ورافقته في كنائس المدينة وحدائقها، وهما يستمتعان بصيف تلك المنطقة المشمورة على ساحل البحر. وأكثر ما أعجبها في الرجل شعره الأسود الفاحم وملامحه المتحدرة من الشعوب الهندية في أميركا اللاتينية، إذ شعرت حينها بأنها تتواصل مع ممالك المايا، والأزتك، والإنكا، وتلك الأزمان الساحرة حين كانت تلك الشعوب جزءا من الطبيعة. طلبت منه بنتا طلبا وجده غير مألوف، طلبت منه أن يعمل لها طفلا يكون أخا لكيم، وحين اعترض حول قضية الزواج، والسكن المشترك، والحياة الزوجية، قالت له بصراحة إنك لا تتحمل أي مسؤولية عن المولود، ستسجله على اسمها، وهو حق قانوني مكفول في هذه البلاد. فالأم تستطيع تسجيل اسم وليدها وكتم اسم الأب عن السلطات، الأمر الذي لم يستوعبه كمال. بقي مذهولا من الطلب، متفكرا بعاداتهم وطرائق عيشهم، حتى قذفه الباص في الطريق الموصل إلى السكن ليلا، ووجد نفسي ممتلئا رعبا من الغابة وأصواتها.

في هذه البلاد يتعلم المرء درسا جديدا كل يوم، بل كل ساعة ودقيقة، وكانت ليلة باردة بشكل غير مألوف. لقد مشي الطريق نحو السكن، وفي روحه توقعات مرعبة بظهور دب قطبي من بين الأشجار، ربما يعاقبه الإله "أودن"، إلههم قبل أن يتنصروا، على موبقاته مع السيدة "بنتا": "جربتم ذلك بلا شك، في الليل والصمت، وحين تتساقط كتل الجليد من الأغصان العالية لأشجار السرو والجوز البري، يكون وقعها على الأرض وكأنه حيوانات تدب وتحاول الانقضاض، ولم يكن سوى الدب القطبي في مخيلتي، وعند المئة متر الأخيرة لم أعد أتمالك روعي، فركضت بكل ما أمتلك من قوة على رغم السكر، وظننت أنني سأتيه في دهاليز الثلج، أو أنتقل فجأة إلى ممالك الفايكنغ بسفنهم ورماحهم، عبر فجوة في الزمن لا يعرف سوى الرب كيف ستحدث لي. وحين رأيت الأضواء من بعيد أحسست كما لو أنني رجعت إلى العراق، وغنيت أغنية قديمة ليوسف عمر وأنا أتلفت يمينا وشمالا خوفا من انقضاض كائن ما على جسدي الضعيف، المرتجف من الصقيع. ظلت أغنية يوسف عمر عالقة في فمي. وحدها ما هدأ روعي من منظر الدب القطبي الذي سيظهر لي من بين أشجار السرو العملاقة. الضوء جعلني أهدأ بعض الشيء، وأحسست بالأمان، فبعد قليل قلت لنفسي سألتقي بمراد، وخالد، وفريد، ومنى، ومحمد، وليث، وسيروان وعائدة، وكل تلك الشلة التي تجلس معي في المطعم كل يوم، أو رافقتني منذ زمن الجزيرة وحتى الآن. وما أن فتحت باب غرفتي حتى اندسست في الفراش ونمت مثل شبح خارج من مقبرة. لكن من الغريب أنني وجدت نفسي وسط حلم تخيلته حقيقة. فالأحداث في الحلم لم تكن غريبة علي، والشخصيات طالما رأيتها في أيام سابقة، بل حتى الروائح كانت حقيقية، خاصة روائح أزهار الحديقة. أجل، وجدت روحي في مدينة دمشق، كانت غرفتي متواضعة جدا، سقف من الصفيح والخشب والخرسانة، جدران مدروزة بالنورة، وباب مشقق كان يقيني من عيون الجيران، أما بابها فباب غريب كان يقودني إلى رياحين وورد وكروم ووجوه صبايا تحدق خلسة من الشبابيك،

ويقودني إلى أرض إسمنتية لطيفة الصقل شكلت مستطيلا صلدا حول الزرع، وتلك المواصفات ساهمت في عزلتي بدون شك. استأجرت تلك الغرفة من امرأة عجوز غائبة الملامح. ثم وجدت نفسي في أزقة الشيخ محي الدين بن عربي أعمد إلى شراء خبز من أفران غاصة بالنساء، أنحشر وراءهن مثل مسمار، وحين ألفظ سمومي واشتري خبزي لا ألبث أن أتصدق به بعد دقائق على الشحاذين، والأرامل الواقفات أمام الجامع، وكان يوم الجمعة يوما ممتعا في منطقة الشيخ محي الدين، وعادة ما أكون هناك منذ الصباح. امرأة البيت المقابل حاولت جذب نظري إلى مفاتنها أثناء نشرها للملابس على حبال غسيل يحجبها السياج عني، وهي نفسها التي حدثتني عنها صاحبة البيت: حلبية جميلة القد، مفاتنها تنادي المارة وسواق السيارات وطلبة المدارس المراهقين، هي كمثرى معطوبة، تفاحة نالها الدود، عجينة مختمرة أكثر من اللازم. هكذا حدثتني عنها ذات يوم. تلك الجارة الحلبية أوشكت أن تكون أولى مغامراتي مع النساء. كنت أسبح في بخار خمرة متغلغل في خلاياي، حين لاحظت ذلك المخلوق الصغير يتسلق الكتاب الذي أقرأ، وكان طوله لا يحس، بيد أنه يتلوى تحت ناظري كأفعى قميئة وقد اختلط مع الكلمات، فتارة يصير راء وأخرى يصير سينا، نقطة طورا وفارزة طورا ثانيا، فما كان مني إلا أن أطبقت ديوان مظفر النواب، وأعتبره الأب الروحي لي، وسحقته سحقا. أجل، محوت النقطة وأزلت الفارزة. ولم أكتشف أنني داخل مرحلة دودية إلا ذلك الصباح، الصباح الذي وجدتني فيه طافيا على بحر من الكائنات الدودية المنشأ، ذات الأذرع الحريرية والأفواه الأميبية، فما كان لي، وكما عودتني السنوات الماضية، إلا أن ألوذ بالفرار. والغريب أنني وجدت نفسي أقف في تلك الحديقة ذاتها أقرأ قصيدة عمودية بصوت حماسي، وكان صديقي الصحافي زيدون هادي يصفق لي بحرارة".

٨

في جلساتنا التالية حاولنا ايجاد رابط بين حكاية كمال مع بنتا في المدينة الواقعة على بحر الشمال، وقصة الحلم الذي شاهده بعد عودته من مغامرته النسائية، فلم نجد. أقسم واحد منا أن حلم كمال الذي قصه لنا لم يكن حلما. كانت الأحداث وحواشيها قصة حقيقية عاشها ولا بد في تلك المدينة العتيقة. إضافة إلى أننا نعرف الصحافي ذاك، زيدون هادي، وهو ما زال مقيما في "مساكن برزة" الدمشقية، وفسرنا الحلم على أنه حنين كمال إلى الماضي بعد الخوف الذي عاشه من هجوم الدب القطبي، وأنه كان يحس بالأمان في دمشق أكثر مما يحسه اليوم في هذه الجنة الثلجية. على الأقل تستطيع التكلم بلغتك، ومعرفة تعابير البشر وانفعالاتهم على الوجوه وهم يحدقون فيك أو يخاطبونك. تغازل فتاتك بالرموز المتعارف عليها، ويمكنك أن تجد الكتاب الذي تتوق لقراءته، وهنا جاء اسم ديوان السياب، فقال واحد ساخرا تخيل بدر شاكر السياب يعيش على حافة الدائرة القطبية من الأرض، ويكتب معلقة جديدة اسمها المومس الشقراء، وضحك بصوت عال دفعنا للضحك معه على رغم الملل من حياتنا الرتيبة. كل ذلك جائز في الربط بين الحكايتين، حكاية الواقع وحكاية الحلم، ولكن واحدا من الجالسين اسمه "حازم"، وكان يقزل قليلا في رجله لذلك أطلقنا عليه لقب حازم الأعرج، تنبأ لكمال بعودة ثانية إلى دمشق، فحلمه هو تنبؤ مستقبلي بالرجوع إلى حديقة الياسمين تلك. وهناك من شرح حالة كمال بأنها سعي متواصل لبلوغ مرحلة المواطنة الصالحة، ومن شروطها في هذه الأمكنة الباردة هو استحضار الماضي بتفاصيله من أجل نقده وتبويبه، فهذه الشعوب لم تستطع الارتقاء في الحضارة بلا فصفصة الماضي وتقليبه، وجها وقفا، كي تتخلص من أذرعه المتشبثة بالبشر مثل اخطبوطات بحرية هائجة. على أية حال تشعبت التفسيرات، ولكن الخواطر تواردت بنا

نحو سؤال جوهري نبع في أذهاننا كما بفعل معجزة: هل نفّذ كمال طلبها بمنحها طفلا ثانيا يكون أنيسا لكيم في حياته القادمة؟ لدى جماعتنا كثير من الأسرار، ولا يمكننا الإنغمار في بحرها، لذلك عدنا إلى روتين حياتنا اليومي وأصبحنا مداومين على درس إنكا في اللغة والدمج والتعريف ببلدنا الجديد، البدلة المزركشة التي يتعين علينا ارتداءها للسنين المقبلة، وربما لبقية العمر.

ارتأت المعلمة أن تجعل فصل الدراسة كله، وهو يمتد من الثامنة صباحا حتى الثانية عشرة والنصف، مع بعض الاستراحات القصيرة، محصورا بالأجداد، ليس أجدادنا العرب الذين وصلوا حتى جبال البيرينيه وحدود النمسا، بل عن أجدادنا الجدد، الفايكنغ. أجدادنا الذين كانوا عادة مدرعي الجسد بالزرد، ويرتدون خوذة حديدية محكمة تغطي الرأس، ويحمل المقاتل منهم عدة القتال المكونة من الرماح ذات الأنصال المختلفة في الطول والحدة، والسيف وجعبة السهام مع القوس، ولا تخلو يد المقاتل اليمنى من قدّوم بقبضة رشيقة من الخشب، ويحتفظ باليد اليسرى بدرعه المصنوع من الجلد أو الخشب أو الحديد. ذلك المحارب، مثل المزارع والملك والحاشية، يمجد رب الآلهة "أودن" الكلي القدرة، وزوجته الأم "فرايا"، والابن "ثور". السيف، والرمح، والقدّوم، والدرع، الدرع تحمل عادة آخر ما ابتكرته المخيلة من زخارف وأشكال. ترك الأجداد مآثرهم وقصصهم على الصخور، "الرونستين"، المنتشرة في كل الأصقاع الشمالية، لتدوين وتمجيد المعارك، والقوانين، والإعلانات المهمة، والملوك، والاستذكارات. وتعطي تلك الحروف انطباعا بأنها رسوم لا أكثر. نعم، تخيلوا آلهة للشجر والطيور والغرقى والمحاربين والأضاحي والولادات. وفسحة شاسعة تسمى "فالهالا" تقيم في مكان ما من هذا الكون. وهي جنة الفايكنغ التي يتوق الفرد للوصول إليها، كي يجد الراحة الأبدية، ويشرف عليها الرب أودن. "فالهالا" هي الجنة التي يصلها المحاربون الذين يسقطون بشجاعة خلال المعارك. تقول إنكا إن أصل اللغة رسوم كانوا يدونونها على الأشجار، والصخور، والعظام، قبل أن تتسلل الكتابة اللاتينية وتحل محلها خلال تقدم

الزمن، الذي عاصر دخول الكنائس والدين المسيحي. لغة أجدادنا هي لغة السحر، والآلهة، وقد تسلمها أودن من السماء. "أودن" يأخذ الحياة، و"ثور" يصنعها، فيما تشرف "فرايا" على شؤون القلوب والحب بين ذكر وأنثى، كي تستمر الولادات وتتجدد الحياة.

نحن أبناء السفن، تقول بنظرة حادة تشمل الجميع، السفن بيوتنا، وقبورنا، ومراكبنا التي كانت تسير بنا نحو أراضٍ جديدة، وصلنا فيها إلى أبعد الجزر، وفي القطب وصلنا إلى جزيرة غرينلاند، ووجدنا سكانها الأصليين الشبيهين بالهنود الحمر. في القطب وشعورهم سود فاحمة!! وليس بعيدا عن الحقيقة القول بأنها حملت المكتشفين إلى أميركا قبل كولومبس بمئات السنين. نعم عادة ما كان الرجال المهمون يدفنون في سفينة مع الثيران والأفراس والكلاب. تطمر في الأرض وتتحول إلى قبر أبدي، هي سمة ابن هذه الأرض، سفن للصيد، سفن للتجارة، سفن كبيرة للحروب، أغلبها مسطح الجسد لا يغوص في البحر أكثر من نصف متر. مما سهل لهم الوصول إلى معظم الشواطئ. هل تعلمون؟ حقيقة كانت شواطئ بريطانيا ذات يوم تحت سطوتنا، حكمناها بالحديد والنار، وأسسنا دور عبادة لرب الأرباب أودن. السفينة رمز للسلطة والثراء، وهي رمز للموت، يربط عالم الأحياء بعالم الظلام. عمدوا إلى تزيينها برؤوس حيوانات، أفاع، تنانين، لطرد الشر خاصة في وقت الحروب، وتلوّن الحيوانات بألوان زاهية تشع من بعيد في عتم نهارات الشتاء القصيرة. نتمثل هذا التاريخ البعيد بأساطيره وشخصياته، ملوكه وأبطاله، ليختلط بأبطالنا وشخصياتنا التاريخية ورموزنا الدينية وأساطيرنا، طبعا ولا ننتبه إلى تحولات الثلج العجيبة ومرور الزمن من حولنا. الثلوج ذابت من الصفحة الخارجية للشبابيك وتركت وراءها سيولا مائية صغيرة، أما الطبقة البيضاء داخل الفناء الواسع فألفيناها مختلطة بطين الأرض وكذلك الشارع الموصل بين السكن والطريق العام. لاحظنا سواد الأسفلت وهو يبين من وسط البياض.

بدأت أغصان الأشجار تسفر عن لون داكن، وتساقطت بلورات الثلج بدون أن نحس بها في الأيام الماضية، وقال أكثر من شخص إن الربيع على الأبواب، في حين صارت الطيور تفيق باكرا، وتسابق الضوء لتملأ الفضاء هديلا، وزقزقة، ونعيقا، وغرغرة. هجسنا أنها تستعد للتزاوج، وبناء أعشاشها، كي تستمر الحياة. وظلت الحياة في بلداننا البعيدة مستمرة هي الأخرى، لم تتوقف بسبب بعدنا عنها، شب مواليد جدد ومات شيوخ ونمت نخيل وتعاقبت أصياف على رغم غبار الانفجارات، واسوداد الآفاق من البارود والدخان. وكانت أصداؤها تتناهى إلى أسماعنا مثل قرقعة رعود في سماء غائمة. هنالك شيئ ما يحدث في أرواحنا، شيئ يدعونا لتقبل مصائرنا، وتقبل فكرة أننا قد لا نرى بلداننا التي جئنا منها حتى نهاية أعمارنا، وكانت فكرة مأساوية لنا، فكرة متشائمة لم نعتدها. كيف لفرد خرج من بلده مرغما، ثم يكتشف لاحقا أنه قام برحلته الأخيرة في الحياة؟ وماذا عن الموت؟ تخيل نفسك تموت قبل رؤية تلك الشوارع التي نشأت فيها، وتلك المدن التي شكلت في ذاكرتك قصص حب، ومغامرات، وحوارات مع أشخاص بقوا هناك من غير أن تتهيأ لهم فرصة ارتياد المغامرة؟ وماذا عن الدفن؟ وهل سندفن في أرض لا نعرفها؟ نجهل رائحة ترابها ونجهل ديدانها التي ستعتاش على لحومنا، ونجهل أسماء نباتاتها وأشجارها وطيورها وفاكهتها؟ وهل سندفن في واحدة من السفن على جري العادة في هذه الأرض قبل عشرات القرون؟ أم ندفن في مقبرة على الطريقة الإسلامية التي توارثناها جيلا بعد جيل؟ أسئلة لا يمكن الهروب منها. الحياة ستستمر من دوننا في البلد البعيد، وبرغم أن هذه الخاطرة ليست قناعة للجميع، لكنها تدفع البعض منا لكي يكتشف فجأة عبثية ساعاتنا التي نعيشها. كيف يمكن إقناع واحد منا بأنه لن يرى أمه وأباه وأخوته وأصدقاءه بعد اليوم؟ وإذا تم إقناعه بهذه الفكرة، هل يمكن له أن يحيا حياة طبيعية مرة أخرى؟

انشغلنا بتلك التساؤلات والهموم ردحا من الزمن، حتى حلت تلك الليلة المشأومة ووضعتنا على المحك. الوحوش ما زالت كامنة في دواخلنا حتى وإن

تمثلنا تاريخا جديدا لأرواحنا. كنا في ما يشبه الحفلة أقيمت في مطعم السكن، بمناسبة انتهاء فترة الدمج الاجتماعي، واقتراب توزيعنا على المدن، وقد وضعت الإدارة الطاولات بنسق طولي، ورصفت الكراسي حول الموائد، وفرشت شراشف بيض على الطاولات. صفوا الكؤوس والمشروبات والصحون حول مناديل بيض، وتوزعت الشوكات والملاعق والسكاكين حول الصحون. لمس الجميع روحا احتفالية مرحة، وقد شاركت العوائل في الأمسية، وكان ضجيج الفرح القادم من الأطفال يملأ الصالة. أما موظفات المجمّع فارتدين ملابس أنيقة، وكن يتجولن بين الموائد سوية مع الرجال لوضع اللمسات الأخيرة على الاحتفال، وارتفعت رائحة العطور النسائية في فضاء الصالة طاردة زنخة الطعام القديمة. استغربنا من غياب المعلمة إنكا عن الأمسية، ولاحظنا وجود فتيات غريبات عرفنا أنهن صديقات للشباب المغامر الذي استطاع كسب قلوب فتيات المدينة أو فتيات البيوت الريفية المبعثرة داخل الغابة، وعلى حافات الحقول. كانت الأضواء مشعة، ساحرة، ولمعان الكؤوس يعشي العيون. والقاعة واسعة زيّن سقفها بأوراق ملونة وشرائط على هيئة قلوب وبالونات فاقعة الألوان تتأرجح في الفضاء المضاء بأنوار الشموع التي صفت أربعا أربعا على الطاولات، والطاولات صفت صفين وسط القاعة، بينما غطيت سطوحها بورق أبيض تبعثرت عليه كؤوس وملاعق وسكاكين وأشواك. عند المقدمة منصة خشبية واسعة قيل أنها ستكون حلبة للرقص، وكان الجدار القائم خلف الحلبة يحمل لافتات بثلاث لغات ترحب جميعها باللاجئين. رائحة غريبة لم تكن مألوفة لأنوفنا قبلئذ، ولأن غالبية الجالسين يدخنون، ظننا أنها لسجائر حادة الطعم شاء واحد منا تجربتها، فثمة أنواع مهولة من السجائر، نجدها في الدكاكين والبارات والسوبرماركتات. ظننا ذلك إلى أن همس شخص من بيننا يبدو أنه خبير بالدخان: هذه رائحة حشيشة. ثم أشار لاحقا إلى اسم مراد، وتساءلنا كيف تهيأ لشخص مثل مراد الحصول على الحشيشة؟

وفي زاوية القاعة كانت الموسيقا تنبعث من مسجل ضخم يقف عليه شاب فلسطيني يبدل الشريط تلو الشريط، وقد اختلطت موسيقا الشرق بموسيقا الغرب: فيروز، أم كلثوم، الفس برسلي، بوب مارلي، فرقة آبا، طوني حنا، ومغني الدانمارك المشهور كيم لارسن. تشيع في وسط القاعة ضوضاء هائلة، خليطة من أصوات الحضور والموسيقا وطبطبة الخطى المتنقلة بين الطاولات. وكان الحضور مزيجا من اللاجئين الجدد والقدامى وموظفي مكتب استقبال اللاجئين والفضوليين من أهل المنطقة. الخمرة تسري في الرؤوس، وتنزع أغلفة الخوف والتردد. "ليث لديه صديقة، ليث لديه صديقة"، هتف شخص ممن يجلسون حول مساحة الرقص لصديقه بدهشة، وصارا يضحكان بصوت عال. وجود فتاة مع صديقنا ليث نال استغرابنا، نحن معارفه، فاتجهت العيون إلى حيث يجلس. كانت صديقة ليث تجلس جنبه تحتسي البيرة مثل غيرها من الجالسين. مراهقة شابة في عمره، وصفها البعض ممن رآها قبل ذلك في المكان بأنها حشاشة، ومدمنة على الكحول، لهذا صادقت ليثاً، وصارت تتردد على السكن. روح بريئة بشاعرية مراهقتها الأنثوية المتفجرة بتوق المغامرة، والبحث عن المختلف، والفريد. تمنطقت ببدلة طويلة وردية، وحزام أحمر يلتف حول خصرها الناحل الذي أبرز عجيزتها، وقد انحدر شعرها الداكن على صفحتي وجهها، فبدت مثل ساحرة شمالية خارجة توا من عتمة الغابات. لم يعرف أحد كيف استطاع ليث لقاءها، أين ومتى؟ في البدء ظنناها واحدة من الموظفين، لكننا بدأنا نراها مع ليث في أغلب الأوقات التي تكون فيها داخل السكن. قيل لنا إنها من بيوتات الفلاحين القاطنين قريبا من المجمع. وقيل إنها نقلت أفكار أولئك الفلاحين الذين رأوا لأول مرة في حياتهم هؤلاء البشر القادمين من بلاد الشمس، بشعورهم السود، وعيونهم الداكنة، وبشراتهم فاقعة السمرة، وأصواتهم العالية التي يتبادر لمن لا يعرفهم إحساس أنهم في معركة كلامية ستقود حتما إلى عراك بالأيدي. مشاعر الفلاحين وأفكارهم أوحت لنا بأنهم خائفون ويعتقدون بأننا عنيفون، وهم يتساءلون سرا: ألم يأتوا

من بلدان تستعر بها الحروب كما حدث لنا أيام الفايكنغ قبل مئات السنين؟ وذلك القلق المشع في نظراتهم، ألا يوحي بالعنف وشهوة القتل؟ راح البعض يحتسي البيرة، وراح آخرون يحتسون النبيذ، وثمة من جلب قنينة فودكا من نوع سميرنوف فاخرة، ولعلع صوت مراد على الطاولة محاولا استحضار أغنية الربيع لفريد الأطرش، لكن الضوضاء تشتت ذهنه وتلغي لديه حالة الوجد التي ينبغي أن يكون عليها كي يجيد الأداء. كان دائما بحاجة إلى مستمع معجب بصوته، لذلك يتوقف بعد كل مقطع مجيلا بصره في الوجوه. ويعود إلى الكلام وتناول النبيذ متهيئا لوصلة أخرى.

المعركة بين مراد وليث جاءت مصادفة، وتحولت في نهاية الليل إلى كابوس.

تعالت الضجة في صالة المطعم، ونزلت العوائل من غرف الطابق الأول، تجمعوا في الممرات والأبواب وهم ينظرون إلى الاشتباك بين عدد من الأشخاص، لا أحد يعرف في البدء من يضرب من، ومن يحاول فض النزاع. اختلط الحابل بالنابل، وتهاوت قناني البيرة على الأرض ومعها صحون المزة، وكأن الغضب المختزن في النفوس قد وجد له منفذا ليخرج إلى النور، ولم تكن المشادة، وموضوعها، سوى ذريعة. سمعنا صوت تكسر القناني والصحون، وتعالى الصراخ المصحوب بالسباب، وتطايرت قطرات الدم. ووجدنا أنفسنا في حفل من الوحشية اعتقدنا أننا نسيناها خلف المدن، والبحار، والصحاري. على بعد ثلاث طاولات من قلب المعركة، أذهل شخص، بدا أنه سكران، كل من كان في الصالة. يرتدي بلوزة بيضاء، ويجلس مع شخصين آخرين، وظل طوال السهرة يحتسي الفودكا بلهفة غير طبيعية. وعند اشتداد الصراخ وسريان العدوانية بين الموجودين، فاجأ الجميع بتناوله لقنينة الفودكا الفارغة المنبطحة على الطاولة، وكسرها على صلعته الضخمة، من غير أن يعرف أحد الدافع لسلوكه الفظ ذاك، ولماذا نهض ممسكا عنق القنينة الذي تحول إلى ما يشبه السكين المتأهبة للطعن. وقف صامتا، مثل وتر مشدود، يحدق بعينين

ثملتين متوهجتين، وتعابير غاضبة، داخل الصالة وخارجها، بفم مزموم وساعدين متأهبين، ولا يتفوه بكلمة واحدة. وقف مهددا أشجار العفص المحملة بالثلج، والطيور النائمة في أعشاشها بين أغصان عجفاء، ووجوهنا الذاهلة، وفكرنا أنه كان يتخيل، بتلكما العينين السوداوين المتألقتين ككوكبين في طريقهما للاصطدام، مردة الليل وهي تهم بالهجوم على الجالسين، وشياطين السقوف المخروطية تكشّر عن أنيابها منذرة لنا، وحيتان البحار الشمالية وقد جنت، وقناديل البحر الباحثة عن فرائسها. تخيلناه يتأهب لمقارعة جيوش مدججة بالأسلحة، وطائرات تحلق متأهبة لإطلاق صواريخها، وسفن رمادية تبحر بين الجزر والبلدان. واقفا كالوثن، غاضبا مثل بركان، لا يفتقد سوى الرمح الرديني، والسيف الدمشقي، والدرع الفارسي، كي يذكرنا بفارس الصحراء "عنترة العبسي". لبثنا مشدوهين، نحدق به مذهولين، وسمعنا واحدا من الحشد يثقب به صائحا من قلب العتمة، في زاوية القاعة: "كفى يا ""أنكيدو"، اجلس ودع الليلة تمضي على خير". حسبنا أن أنكيدو اسمه الحقيقي، ولم نتبين إلا بعد هنيهات من الزمن أن ذلك الشخص يقصد بأنكيدو رفيق جلجامش، شبه الإله المتحدر من الغابات السومرية، في تلك الملحمة الخالدة. أما الرجل فاسمه "وسام". تبسم البعض، واندهش البعض الآخر، وتجمد آخرون من الرعب، ولاحظنا سيلان قطرات صغيرة من الدم على جبهته، راح يمسحها لاحقا بمنديل ورقي، دسه في جيب بنطلونه العريض، فيما ظلت عيناه تتوهجان بوحشية أخافت كل من كان حاضرا. أنكيدو بقي صامتا، بثانية أبدية لا تنسى، ممسكا بقنينة الفودكا إلى أن حضرت الشرطة. لم يعرف أحد لم كسر القنينة، ولماذا وقف متأهبا للعراك، وقد لقب منذ تلك الليلة بوسام أنكيدو. ولكن البعض منا دمدم هامسا لأصدقائه: إنها لوثة عراقية بامتياز. إن لم يجدوا أحدا يتعاركون معه فهم يتعاركون مع ظلالهم. ويبدو أننا كنا ظلالا في نظره، شاءت الفودكا، والجعة، التي تناولها بإفراط، أن تسوق عقله إلى ذلك الضلال.

وسط الفوضى والذهول حضرت إدارة السكن متمثلة برجلين وامرأة، وقفوا مشدوهين من الهمجية المعروضة أمامهم. نعرف أن مراداً وليثاً كانا يسكنان في غرفة واحدة، وكانت غرفة واسعة تطل على الغابة، ونعرف أن البنت تلك نامت أكثر من ليلة في سرير ليث، ونمى إلينا أنهما كانا يتضاجعان ليلا ومراد في الطرف الآخر من الغرفة يتقلب على سريره، ويسمع أصوات اللذة تتناهى إلى مسامعه. وقيل كما تسرب الخبر أنه كان يستمني على المشهد، لكنه لم ينس توقه إلى اختطاف تلك البنت من ليث. عرف مراد بيننا أنه كرس نفسه للذة، وشرب الخمرة، وملاحقة النساء، وتدخين الحشيشة، أما كيف يحصل على الحشيشة فلم نسمع رأيا قاطعا بذلك. وبعد أن انجلت الصورة لنا، وانقشع دخان الواقعة التي أطاحت بسمعتنا، عرفنا أن مراداً ضرب ليثا أكثر من طعنة سكين أحدثت له جروحا في يده وظهره. لكنها كانت جروحا طفيفة لم تشكل خطرا على حياته. جروح أحدثها خبير باستخدام السكين. قبض على مراد متعتعا من قبل الشرطة، بعد أن أكد أكثر من شخص أنه هو من طعن ليثاً الذي نقلته سيارة الاسعاف إلى مستشفى المدينة.

٩

ما هو سبب المعركة؟ من هو المذنب؟ كيف سمح الجالسون لليث ومراد بالوصول إلى هذه اللحظة من الاشتباك وكادت تؤدي إلى القتل؟ ما هو حجم العدوانية المختزن في نفوسنا بحيث يمكن أن تؤدي أبسط حادثة إلى القتل، ولصديق مقرب كحالة ليث ومراد؟ من نحن إذن؟ ومن هم؟ تلك الأسئلة وغيرها كانت مثارا لتحليلات عميقة في الغرف، وفي صالة المطعم، وعند ساحة السكن التي ذاب عنها الثلج وصارت مكانا مناسبا للتسكع الليلي لمن لا يستطيع النوم.

قادت أسئلتنا إلى مزيد من المقارنات والبحث عما يجمعنا مع بقية البشر وعما يفرقنا عنهم، وكان تقييمنا لأبناء البلاد، على سبيل المثال، يتم في ثنائية صارمة. أولئك الذين يمقتون الأجانب ويبين مقتهم من خلال نظراتهم، وإشاراتهم، وتعابير وجوههم، ونمط خطابهم، ونبرته، والمتعاطفون الذين يبتسمون بنعومة لهم، ويبدون لهم المودة، ويحاولون بشتى الطرق مساعدتهم إذا ما واجهتهم مشكلة ما. وبرغم أن المعلمة يفترض بها أن تقف في صف الأجانب بحكم مهنتها وواجبها فهي تتقاضى راتبا من البلدية جراء تعليمنا، لكننا لم نتورع عن وضعها تحت مجهر التصنيف الذي دأبنا عليه. هل هي متعاطفة معنا أم كارهة لنا؟ يمينية القناعات أم يسارية مثل صاحبنا محمد خوجة؟ ونال استغرابنا تجاهلها للمعركة بين مراد وليث فلم تفه بكلمة حول الموضوع، وفسرنا الأمر على أنه تشف مقيت بنا. لم نعرف سوى هذين التصنيفين، لكن بسبب حيادها مع الطلاب شاء البعض أن يعتبرها باردة تجاهنا، وهذا ما كان يقربها من ضفة الكره، بينما احتج البعض الآخر على هذا المنطق بالقول إنها لا يمكن أن تندفع في عواطفها مع كل فرد منا. فنحن خليط من المشاكل النفسية، والعقد، والمكبوتات المتراكمة طوال سنين. ثمة من كان

يقترب منها مدفوعا بنوازع جنسية. فلإنكا جسد ممتلئ، ومؤخرة لدنة، وقوام ساحر، إضافة إلى اعتنائها بهندامها. ولا يمكن تجاهل عطرها الخفيف يلفها كل صباح، ويتوزع في الصالة الواسعة الموجودة في الطابق الأول مثل ألسنة لهب غير مرئية. تلك الصالة الدافئة، كنا ومن خلال شبابيكها نرى امتداد الغابة الشاسع، ونسمع صوت الغربان وهي تتوغل بين أغصان أشجارها، ونلمح طرفا من الشارع الواصل بين السكن والطريق الرئيسي الذي كان يقودنا نحو المدينة. وفيها أيضا تنقلنا أفكارنا السارحة إلى ماضينا البعيد، لنتساءل كل صباح عن معنى وجودنا في وسط الغابة، والمستقبل الدخاني الذي ينتظرنا. حين تنزع المعلمة المعطف الثقيل داخل الصف يبرز لها جسد مثير يغري العين، وكان أغلبنا في توهج الشباب وعنفوان الرجولة. الاحتكاك مع أنثى البلاد مثير. الدم يغلي في شرايين شابة، والعطر جديد على أنوفنا. كثير منا لم يختبر تجربة أن تكون معلمته أنثى. أنثى جميلة وعيناها نافذتان، ورشاقتها لا تقاوم. وثمة من حاول الاقتراب والاحتكاك، واللمس حتى، كمن يجس تمثالا بديعا فائق الاتقان، أو كمن يعرض نفسه لها طامحا إلى قضاء ليلة حمراء معها، لكن إنكا تصده بأدب ونعومة. وتضع حدودا يصعب اجتيازها، مما يعطي الانطباع لنمط منا أنها لا تودنا، وتبتعد بمشاعرها عنا مما كان يسهل تصنيفها في خانة الكارهين، والعنصريين المتخفين، اللابسين أقنعة عديدة لم نستطع اختراقها للوصول إلى حقيقة المشاعر. وكانت الابتسامة الودودة واحدة من تلك الأقنعة. لكننا لم ندرك أن تلك الابتسامة قناع يرتديه الجميع. وكل ذلك نتيجة جهلنا بطبائع أهل البلد، وقلة خبرتنا بهم، وندرة احتكاكنا الحياتي معهم. حسب المستوى الذي تتخاطب به معها يقول بعض العارفين منا، في علاقة الطلبة مع إنكا، ثمة من يخاطبها من تحت الحزام، وثمة من يخاطبها عقلا لعقل، كمال الشاعر على سبيل المثال، وهي صفة صارت تلاحقه لكثرة ترداده للشعر خلال كلامه، وثمة من لا يستطيع ايجاد مكان محدد يقف فيه كي يبدأ الكلام معها،

وهذا صنف شائع ممن يرتبك كثيرا حين يجد نفسه أمام أنثى، وكيف إذا كانت أنثى غريبة اللغة والشكل والتقاليد؟

وراقبنا بحسد كيف كانت تقف مع كمال دقائق بعد انتهاء الدرس لمناقشة قضية من القضايا قد لا تكون لها علاقة باللغة، كالفرق بين المسيحية والاسلام، أو المفهوم الاستعماري لشعوب العالم الثالث، أو قضية تعدد الآلهة الذي كان شائعا في هذه البلاد، ولاحظنا ارتياحا واضحا في وجه إنكا خلال تلك الأحاديث. وقبل أن ننهي فصل حياتنا في السكن بيومين شاهدنا إنكا وهي تركن سيارتها أمام الباب الخارجي وتفتح صندوق السيارة لاستقبال متعلقات كمال، وهي عدد من الكتب، ملابس جمعها في حقيبة سوداء تحمل على الكتف، وحقيبة يدوية صغيرة يضع فيها هوية البلد الجديدة وأوراق منح اللجوء ومخاطبات مع إدارة اللاجئين الرئيسية، وحاجات شخصية أخرى. وضع كل ذلك في سيارة إنكا وكان وجهه حليقا طليقا، وودعنا بابتسامة فيها شيء من الفخر والانتصار. أدركنا أن كمالاً، وطوال أسبوع ظل مترددا بين القبول باقتراح إنكا أو الرفض. عرضت عليه السكن معها، فهي تمتلك غرفة فائضة عن الحاجة كما أخبرته، وأقنعته بالعدول عن رغبته السكن في العاصمة. "هذه المدينة غنية قالت، وبإمكانك الحصول على عمل محترم، أو دراسة اختصاص ما يضمن لك عملا في المستقبل". أخبرته أنها تقطن مع زوجها وطفلهما البالغ خمس سنوات من العمر، وأوحت له بأن العلاقة بينها وبين زوجها ليست على ما يرام. لمس في تعابيرها مللا من حياتها، وتوقا إلى الخروج من الشرنقة. ستكون له جسرا للعبور إلى روح هذا المكان، تساعده في تعلم اللغة، ترشده إلى مباهج الجزر ودهاليزها. تبعده عن تلك المفازة الموحشة التي قدم منها بروح مدمّاة، وأحلام كالكوابيس، وتعابير جافة راكمتها الحرب في قلبه. وكمال يتوق منذ زمن بعيد إلى استقرار منزلي وأسري كي يتفرغ إلى هوايته، قراءة ما حرمته منه الحرب من روايات وشعر وكتب سير وتاريخ، وكتابة تهويماته الشعرية وحكاياته التي سيعيد عبرها خلق عالم أكثر جمالا، فضلا

عن تعلم لغات جديدة. وربما ستوفر إنكا كل ذلك إذا ما عاش في كنفها. امرأة جميلة الوجه، ذات أنف ينث كبرياء أنثويا، وابتسامة ساحرة، لا تجود بها بسهولة، وعينين زرقاوين حادتين تخترقان المقابل وتعريانه من دروعه. هي لا تشبه "بنتا"، فتلك امرأة بسيطة تشي بساطتها بالبلادة بعض الأحيان، جسدها كان مترهلا بعض الشيء عكس جسد إنكا المشدود. وهذه تمتلك ثقافة عامة لا يستهان بها، تشي بتعليم جاد، بينما بنتا لم تكن متعلمة تعليما عاليا. قطع الخيوط مع حياته السابقة ضرورة لا بد له من معاقرتها. ألا يعيش في الجنة؟ ألا يمتلك مصيره وحريته هنا؟ ألا يحتاج مركبه السكران، حسب تعبير"رامبو"، كما فكر مع نفسه، أن يركن إلى مرفأ؟ هذه فرصة حلم بها طويلا منذ أن علمه الأدب مهنة التمرد. التمرد مهنة كما فكر، وعلى الفرد أن يتقنها، والاتقان بحاجة إلى تجربة وإرادة وقرار قاطع وشجاع مثل سيف عنترة.

ودّعنا كمال لينتقل إلى حياته الجديدة. وشعر البعض منا بالحسد فهو سيقطن في بيت حقيقي من بيوت الفايكنغ. وسيضمن له عشا دافئا في جزيرة اللذة. وتقع غرفة كمال في الطابق الأول من بيت إنكا، يصعد إليها بدرج خشبي ضيق، وهناك غرفة أخرى اتخذتها إنكا كمخزن، وعرف كمال أن البيت مملوك لهما هي وزوجها. وقامت إنكا بإجراءات كتابة العقد مع مؤسسة مساعدة اللاجئين حيث يدفع كمال ايجارا شهريا معقولا لها. انغمر كمال بحياته الماضية، وساح في جولة عميقة في طفولته ويفاعته، ربما كانت تلك المرحلة هي فترة الأمان الوحيدة في حياته، يساعده في ذلك خمر البطاطا الذي تشتهر به المدينة والمسمى "سنابس"، وقد نصحته إنكا بتناوله كونه فاتحا للشرايين ومذيبا للشحوم، وتناولاه معا في عدد من الليالي حين كانت تظل وحيدة بعد أن ينام طفلها. والسنابس هو المشروب السحري الذي قاده إلى الدور الذي ينبغي له تمثيله واتقانه في هذه الحياة، أي دور المثقف المهتم بالأدب والفكر والمعرفة. ورغم الإنتقالة الكبيرة في نهر حياته ظلت العزلة رفيقته الدائمة. ينبغي عليه أن يكون كاتبا جادا. وهي مهمة ليست سهلة، تتطلب من الفرد

توظيف كل دقيقة، وساعة، من نهارات العمر، لتحقيقها، والنجاح فيها. وكان يستعرض كتّابا قرأ عنهم، من الشرق والغرب، واجهوا الغربة، والنفي عن أوطانهم، لكنهم لم ينكسروا أو يسقطوا في لجة اليأس، وتحول شبّاكه إلى شاشة سينمائية ينغمر بها ساعات أحيانا، حتى يحل الظلام، ينغمر بالفيلم، كما سماه مع نفسه، الفيلم الذي يتحرك أمامه خارج النافذة، أو يغيب المشهد الخارجي عنه تماما، فيسافر إلى داخله بتركيز شديد. والمساحات المقابلة للشباك عبارة عن شوارع بعيدة، لا يسمع سوى ضوضائها، و"بارك" طولاني فيه أشجار وطرق ترابية للمارة، ومربعات للثيل، وألعاب للأطفال كالمراجيح والزحليقات وأعمدة التسلق. وعرض البارك يمتد أكثر من مائة متر لذلك كان الأفق قد تحول إلى شاشة، عادة ما تنفرش تحت باصريه بتلك اللوحة الضوئية الشاسعة التي تستجلب الحلم، وتستجلب الماضي، وتستجلب الأوهام. تعبر الغيوم صفحة السماء الزرقاء دائما، وحين تضربها أشعة الشمس تتحول إلى سائل خفيف من الذهب يتشكل في تكوينات عجيبة، ويسافر شرقا وغربا حسب هبوب الريح. وكان هذا التغيير، سواء في اللون أو الشكل، يرسم خلفية متحركة، ومتغيرة للطيور. طيور من كل لون وحجم وشكل، الحمام بريشه الرمادي ومنقاره الأحمر وهو يحط على الأشجار بحذر ثم يطير نحو شجرة أخرى. والشقراق الذي ينقض إلى قلب شجرة وكأنه يبحث عن مكان ملائم لبناء عشه. طيور النورس كان كمال يراها وهي تتجمع فوق الأشجار بأسراب كثيفة لتلتقط الديدان من التربة الرطبة في الأسفل، وكان مفتونا بتلك الطيور. وفي لحظات نادرة من تأملاته اليومية، يتحول بعض الأحيان إلى إنسان كوني، كما وصف روحه، أي أن ما يعيشه عبر تلك الشاشة العريضة، شاشة شباكه المفتوح على الكون الخارجي، يعيشه بالتأكيد كثير من البشر المتواجدين على سطح هذا الكوكب الصغير الدائر حول الشمس. هذا المشهد لا يحمل أي خصوصية دينية أو لغوية إنه مشهد إنساني فقط. كان هذا الاستنتاج يدخل شيئا من الراحة والطمأنينة إلى روحه القلقة.

عاش أول تجربة في توسيع حضوره الثقافي، ومسيرته في السلم المؤدي إلى عالم الكتابة، عبر تلك القصة التي كتبها عن طفولته، ودمج فيها بين الشعر والنثر والذكريات والقص، وجاءت المحاولة ناجحة بكل المقاييس. خلال ليال عدة من الوحدة في بيت إنكا، غرق عقله في الذكريات البعيدة، بسبب استثارات الوحدة والنبش في الذاكرة، وانحصرت تلك الذكريات في جده، الذي توفي منذ يفاعة كمال، لكنه يتذكر وجهه المجعد ببقعه السود، وصلعته، ومشرب دخانه الخشبي، وكان علامة فارقة على حضوره في حياتهم. وتذكر رحلاته إلى المدينة في ذلك الباص الخشبي، والأمراض المبتلى بها، خاصة الزهايمر قبل أن يموت ميتته الأخيرة، وحكاياته عن رحلات قام بها في مدن البلد، ومشاهد تروي تاريخا غائرا في الماضي. ولانغماره الجاد الذي لا يفهم سببه بحياة جده، وصورته الخالدة في رأسه، قرر ذات ليلة، وكان فيها أرقا، والسواد يكلكل على العالم خارج غرفته، أن يحول تلك الذكريات إلى قصة. وفي ذهنه نشرها في تلك المجلة التي يصدرها شاعر من الناصرية يقطن في لندن، وتضم نصوصا لمغتربين عراقيين وعربا، ويرسلها له كل شهر على عنوانه البريدي بعد أن اشترك بها منذ اليوم الأول لسكنه لدى إنكا. تذكر ذلك التحليل الناجع حول اكتساب المواطنة الصالحة، والانتماء للحضارة المعاصرة، وهي تبدأ بتذكر الماضي واجتراره، ثم نشره ونقده والخلاص منه. وقيل إن ذلك ينقّي اللاشعور ويغربله، حسب فرويد، من شوائبه ومكبوتاته وأدرانه، كي يتحول الشخص إلى بلورة صافية. بلورة من الحضور والوعي والشفافية، لكائن يتخلى عن عقده السابقة. تتحدث قصة الجد، وهي تدور في قرية مهملة، عن صبي يراقب جده الميت تحت يد الشيخ في مغسل الأموات، وزمن القصة يعود إلى أكثر من ثلاثين سنة ماضية. حسب القصة كان الطفل يخشى في تلك اللحظة أن يستفيق جده من الموت حين يسكب الشيخ الماء الحار على جسده، فقد حدث الأمر في موت سابق لجده. يعود الصبي ليروي ما حدث أول مرة حين كان جده في اللحظة ذاتها، إذ استفاق الجد وعاد إلى الحياة، ومن هنا تبدأ

اللحظة الدرامية في القصة، حيث يبدأ جده وقد أصيب بما يشبه الهذيان يستعيد تاريخا غائرا في الزمن، يعود إلى بدايات القرن العشرين. ابتدأ الجد هذيانه بالنساء اللواتي ضاجعهن سرا، فسماهن بأسمائهن، وأشار إلى الأماكن بوضوح. وقد نام الجد يوما كاملا، وأفاق مع بزوغ نجمة الثريا وصهيل خيول الليل وخلاء الدروب من الماشين، أفاق بوجه معصور وسيماء مضطربة ونظرات لا تزال زائغة تعبر عما يضطرم في دواخله. وكان هناك وصف شعري لبيوت القرية الطينية، وغناء بلابلها في الصباح، ومنظر النهر المجاور للقرية. رصدت القصة إيقاع قرية قبل أن تدخلها الكهرباء وأنماط الحياة الحديثة، وقبض الكاتب على الحياة الرعوية لقاطنيها وأفكارهم عن الموت والحياة. تستمر القصة واصفة نمو الخوف في شجرة العائلة المتحلقة حول فراش الجد مثل مستعمرة فطر بري، وتوسلوا إليه، مع أرواحهم، تجنب الحديث عن فضائح عفا عليها الزمن، فالغرفة غاصة بالناس والكل ينتظر سماع ما سوف يقوله. لكن الجد لم يطاوع الأماني والتوسلات، وعاد يروي حكاياته بوضوح عجيب: رأيناهم ينسحبون على بغالهم المحملة بالحرير والذهب والجواهر، جندرمتهم وولاتهم، حجابهم وخدمهم، يمموا صوب اسطنبول عبر صحرائنا الرملية بعد أن تركوا سطوة مئات السنين ونجوا بجلودهم. قالوا للانكليز هاكم البلد، خذوه بكنوزه ومياهه ونسائه السمر وجوامعه. لم تعد الجوامع بذات قيمة منذ أن اخترعوا المدفع. الشوارب السود الممسدة بالزيت، البواريد الطويلة، الجزمات الرفيعة الرقبة، الطرابيش المزركشة بخيوط الذهب، ثم تعرف أن الواقف أمامك جندي من جنود السلطان. شعر أشقر ووجه أملس طويل وبنطلونات تصل إلى الركب ورؤوس عارية لا يسترها سوى السماء، تشاهد ذلك فتدرك أنهم الانكليز، وفدوا من خلف البحار لمحاربة المسلمين، هدم جوامعهم، نهب خيراتهم، تحويلهم إلى عبيد. وتروي القصة كيف ران على المجتمعين الدهشة والذهول، ودمعت عيونهم من دخان المنقلة الرابضة وسطهم، وخشي الحضور من انعطاف الجد المفاجئ إلى حكايات النساء، ولم يتنفسوا الصعداء إلا بعد

أن غادر الضيوف واحدا إثر واحد. قدمت له أم الصبي الشوربة والدجاج مع الخبز فأكل بنهم، بدون أن يقاطعه أحد. وراح جده يحدثهم عن رحلته العجيبة. والغريب أن الجد في القصة راح يروي عن غيبوبته في المرة الأولى، أو ميتته كما سماها الكاتب: اختطفني ملك كأنه بازي، له أجنحة من حرير وعيون من زمرد، ووجدتني بين يديه مثل عصفور، وطار بي إلى السماء. من بين طبقات سندسية وفرجات مرجانية وكوى مؤطرة بالعاج، أراني عالم الأرض وقال لي انظر. نظرت فاندهشت. وجدتني طفلا وضعوا على رأسه غطاء من الجوت مجملا بالودع والخرز، يلعب بين بيوت الشعر والمراعي الصحراوية. ورأيت الصحراء سجادة خضراء تسرح في جنباتها حمير وبغال وأغنام، وكانت هناك كلاب تنبح على ضيوف ملتحين، ونساء يغزلن الصوف على مغازل من الخشب. هي سنوات الطفولة. أدار الملاك رأسي قليلا وقال لي انظر فنظرت. كان النهر ممتلئا بسفن الانكليز يسوقها سيخ لحاهم مشدودة بخيوط من شعر الماعز، وعمائمهم تشبه عمائم الأولياء، كانوا يتقافزون بين أكداس الورق والعتاد والبنادق وبالات الألبسة العسكرية الضخمة. ثم ارتفع بي قليلا حتى رأيت بيوت الطين وتنانير القرية وباصات الخشب، وإذا كل شيء مختلف عن سابقه، إنها سنوات كهولتك قال لي. نزل بي فلامس جناحاه دخان المواقد وأوراق التين وسعف النخيل وصفحة النهر، وقال لي ودّع من تودع واغرس ما تغرس، تزوج كما تشاء وتكلم بما يأمرك به قلبك، فأنت لن تموت هذه المرة. سترى أحفادك وأبناءهم، وسترى أمورا عجيبة لا يقبلها عقلك، لكن تمن الموت وسأجيئ إليك فأطير بك إلى السماء من دون عودة هذه المرة. ويروي الصبي متعجبا، تبدل جده الهائل بعد موته الأول، وكيف انسحب مثل محارة إلى صدفته الداخلية، وخبايا سنواته التي لا تحصى. قل حديثه، وتراخت أعضاؤه، ونما في وجهه النمش، وتلاشى النور في عينيه. وبعد التباسات حياتية كتلك، نالت من هيبته وتوازنه المشهور في المنطقة، أيقن الصبي أن الجد نادى على ملك الموت أن تعال خذني، ولسان حاله يقول إني رأيت أكثر مما ينبغي لإنسان أن يراه. وفي

النهاية أبصر الصبي جده مستسلما لموته الثاني بين يدي الشيخ، لم يصدر زفرة أو رعشة، كما ماتت في أعضائه أية حركة، وكان يستقبل المياه المعطرة ببرودة الموت راضيا، مستكينا، قانعا. غسل الشيخ زوايا الجسد وانحناءاته بأتم العناية، ورش عليه العطر، ونادى على الواقفين جنب الباب لمعاونته في تكفينه. وبعد اتمام العمل نقلوه محمولا بالأيدي ومددوه على النعش، وكان من خشب الصفصاف، ثم غطوه بحرام صوفي أحمر. وقبل الظهيرة بساعة، حمل الرجال نعشه على أكتافهم واتجهوا به إلى المقبرة، عبر بساتين النخيل وغابات الطرفاء وأجمات البردي. وتنقل القصة أحاسيس الصبي، بعد أن غاب المشيعون عن البصر، وإيمانه بأن جده مات ميتته الأخيرة، وإلى الأبد، ورآه طائرا بين ذراعي ملك الموت فوق الصفصاف، والتوت، ودخان السيارات، وأمواج النهر. واحد من بيننا يصبح مشهورا، ينشر في المجلات، ونجالسه كل يوم، وهذه ظاهرة جادة لا تحدث مصادفة. واحد منا يدخل التاريخ أخيرا. أما نحن، بمجموعنا، فندرك جيدا أننا خارج التواريخ كلها. طردنا من تاريخ بلدنا لكننا في الوقت نفسه لم ندخل تاريخ هذه الأرض. بعد موتنا لن يتذكرنا أحد. حتى أبناؤنا من الجيل الثالث لن يتذكرونا، حيث لن يتوانوا من الاندماج والذوبان في نسيج هذا المجتمع، وتاريخه.

تلك الحقائق أدركناها في تلك السنة مثل هجس صادق لا يخيب، وبرهنت التجربة التي عشناها على صدقها تماما. انتشر خبر تلك القصة التي نشرها كمال في المجلة اللندنية، وتناقلناه بين المدن، ووصل إلى أسماع من هم في العاصمة، وهذا ليس بالأمر السهل والبسيط. صديقنا ينطلق بثبات نحو الشهرة، حتى أن البعض صار يتمثل سيرته الحياتية فيقرأ الكتب، ويناقش بالثقافة، ويزج نفسه في المغامرات الحياتية. وشاع إيمان بيننا في أن الأرض الجديدة لم تعد تخيفنا. قرأنا قصة كمال بإمعان، وفرحنا بها، وقال قائل إن كمالا روى في القصة ما جرى لجده على الأغلب، وأصر ثان على أن كمالا سيكون له مستقبل واعد بكتابة القصة، واعتبره البعض الآخر بارعا في رواية

القصص أكثر من نظم الشعر، وكان الرأي الأخير يغيظ كمالاً بعمق، إذ كان يعتبر نفسه شاعرا حداثيا، بعد أن هجر قصيدة العمود ومضى نحو قصيدة التفعيلة، والنثر أحيانا، ويطمح للوصول إلى سر التصوف عبر الشعر، ورائده في ذلك الشاعر محمد إقبال. وسيعيش حياته كذلك في أرض الثلج، والنساء الشقر، والخمور المقطرة من ثمار البطاطا.

وصودف أن قرئت القصة في مقهى "كراسنابولسكي" وسط العاصمة بشغف، وفكر أحد المخرجين بتحويلها إلى مسرحية، ثيمتها الرئيسية هي انهماك الغرباء بتذكر الماضي، وهو بطريقة ما إعاقة لاندماج الشخص في مجتمع السعادة هذا، وابتعاد عن ضفة المواطنة الصالحة. نقل واحد من الأصدقاء تلفونيا إلى كمال ما دار من آراء حول قصته في مقهى المثقفين تلك، ونية مخرج معروف اسمه "علي الشمري" في تحويلها إلى مسرحية. وأخبره أيضا أنه ربما يتصل به لاحقا للحديث عن المشروع، ويجب على كمال أن لا يتفاجأ من الاتصال لأن المخرج طلب منه رقم تلفونه فأملاه عليه بسعادة واستبشار.

وفي لياليه المتوحدة الكئيبة، وبعد أن حجز له مقعدا في عربة المبدعين، المشهورين، صار كمال يمضي عميقا في التأملات، سواء بالبشر أو الكتابة. نجاح قصته أوحى له بطرق مبتكرة في نسج اللغة، حتى راح يفكر في البدء بكتابة روايته "الوديعة"، وتوصل إلى أن الحياة مليئة بالعبر، الصغيرة منها والكبيرة، ويصنعها الناس أثناء حركتهم اليومية وحواراتهم وتصارع إراداتهم، بمعنى آخر أن الأفراد هم مجموعة أحداث، وهو حين يتناول شخصية ما عليه أن يتناول قربها من حدث ما أو بعدها عنه. هناك أشخاص بعيدون عن الحدث المهم، بينما هناك أشخاص منغمرون في الحدث، هم صنّاعه بشكل ما، وعليه أن يضع تركيزه في مثل هؤلاء. وفكر بقصص الحب التي تنمو يوميا على سطح هذه الكرة السابحة في الفضاء. وحين تذكر عددا من الروايات التي قرأها وجد مصداقية لرؤيته تلك. كذلك الحكايات الواقعية، أو الأحداث الضخمة، بعض

الشخصيات معنية بها أكثر من غيرهم. ولعل الماضي الذي عاشه هو أصدق برهان على صواب تأملاته. الماضي لا الحاضر هو ما شغل كمال وأمثاله من جماعتنا، سواء في كتابته لدى المهتمين بالكتابة، أو من خلال الأحاديث اليومية في الجلسات والحوارات. وكان يقضي مساءات عديدة، جالسا في سريره ناظرا من الشباك إلى ماضيه. لم يكن يرى واجهات البيوت مسدلة الستائر على حيوات قاطنيها، ولا يعير أهمية للنوارس وهي تزعق في الفضاء وتظل دائرة في النهارات بدون هدف محدد، ولا يتتبع خطوات إنكا وزوجها وولدها في الأسفل، وهم يعيشون حياتهم الأسرية كأي أسرة عادية، أو هكذا اعتقد في بداية سكناه معهم، بل شرع الخيال الليلي، أثناء ما كان يحتسي شراب السنابس، يسحبه إلى الماضي، مثلنا جميعا، لكن برؤية معرفية ناقدة. يتأمل طفولته في تلك القرية البعيدة ببساتينها ورجالها ونسائها وألعابها، ويتذكر جده في نهاية رحلته، وينتقل إلى مرحلة الدراسة وقد قضاها في معهد التكنولوجيا قسم المساحة في العاصمة بغداد، ويسميها دائما بعاصمة الحروب. يستحضر الفتيات اللواتي كن في صفه، والدروس الخاصة بذرع المساحات والارتفاعات وتعيين الطرق وانحناءاتها، وهو اختصاص لا يؤمن في أنه سيستفيد منه في حياته الحاضرة. ذلك يتطلب منه دراسة مواضيع الهندسة من جديد، وضبط اللغة، وتأدية الامتحانات، ومعادلة الشهادة، وهو لم يجلب معه أي وثيقة رسمية تثبت تخرجه من المعهد. في النهاية ما فائدة المساحة؟ ينتقل إلى أصعب حقبة في حياته ألا وهي حقبة الحرب. لقد عاش بعض سنواتها سائقا لدبابة. قاتل داخل الحدود الإيرانية، على مشارف نهر الكارون، اكتوى ببردها شتاء وحرها صيفا، وكانت له مثل كفن جاهز أوشك أن يرتديه أكثر من مرة. والحرب لم تكن حربه. حرب سعى إليها القادة الكبار، مضطهدو الشعب، كما يخطر له وصفهم دائما. القتال مهنة، وهو يصنف نفسه شاعرا، والشعراء لا يقاتلون بالدبابة والمدفع إنما بأقلامهم ضد الشر، والظلم، والتقاليد البالية. الشاعر يصوغ العالم بكلمات، ويرشد البشر إلى طرائق جديدة للتفكير. الشاعر مغامرة وجودية

بامتياز. عدا ذلك لا يعدو أن يكون انسانا عاديا يكرس حياته للطعام، والجنس، والنوم. وتلك الأفكار لم تكن تناسب الضجيج المصاحب للحروب. الفوضى والعنف والموت، ويضيف لذلك الثالوث الفقد والدموع والدماء.

وكثيرا ما استحضر من قتلوا في تلك الأوقات الصعبة بطريقة بشعة، حين يلغى لديه حس المكان والزمان بفعل تركيز الخمرة في رأسه، فكان يعيش تلك اللحظات الصعبة بوضوح عجيب يدفعه بعض اللحظات إلى أن يفيق على نفسه وهو يتكلم محاورا أولئك الأشخاص، رفاق الموت، رفاق الدموع، رفاق الألم والرعب بصوت عال، مخبرا إياهم بأحواله الحاضرة، كيف عبر المدن، والبلدان، والبحار، ووصل إلى هذا المكان البارد. يبوح لهم بما يضمره من أفكار تخص بيئته الجديدة كلاجئ، كفرد يشعر بصقيع الوحدة، وتخص تخطيطه لمستقبل السنوات المقبلة. وخلال سفراته الليلية في عالم الفكر والخيال حول نساء هذا البلد، خاصة علاقته السابقة ببنتا، ثم لاحقا علاقته المتوترة بإنكا، كذلك من خلال ملاحظته للأصدقاء الذين نجحوا في إقامة علاقة مع النساء، استنتج كمال أن معظم النساء كن غير طبيعيات، أو لهن مشاكل معينة تجعلهن على تقاطع مع مجتمعهن ومفاهيمه. بنتا على سبيل المثال، استنتج أن السبب الرئيسي في تفضيلها للأجانب كون جسدها يميل إلى البدانة، وحسب ما أخبرته ذات يوم فهي كانت تفضل الذهاب إلى الحانات القريبة من الميناء لتلتقي ببحارة أجانب مختلفي الجنسيات والأذواق، وكان البعض منهم يفضل النساء السمينات، عدا أن سهرها في تلك البارات عادة ما يكون على حساب واحد من البحارة المعجبين بلحمها الأبيض الإسكندنافي الشهي. بعد أسابيع من الإبحار في مياه المحيطات من غير رؤية جنس لطيف سوى السمك، تتحول المرأة إلى عملة نادرة. إنكا لها نمط آخر، فهي جميلة القوام، مثقفة ثقافة عامة جيدة، وهي تعيش مع زوجها وابنها كيم حالة زوجية مستقرة، لكنه لاحظ ميلها الواضح تجاهه، ولا يفهم السر الكامن وراء ذلك. صارت تقله معها في سيارتها الصغيرة صباحا ثم تعود معه بعد الظهر، ومرة دعته إلى الكافتيريا، لشرب

القهوة، ولكون كمال يفتقر إلى التجربة مع النساء، تعسر عليه فهم ما تبغيه منه. ظل في جهله لحدود علاقته بإنكا حتى تلك الليلة الغريبة حين صعدت إلى غرفته حاملة قنينة من الويسكي وكأسين، ودعته إلى مشاركتها الشرب. هو يشتهيها صحيح، بيد أنها تمتلك زوجا، وهذا ما وقف حاجزا بينهما.

مرة انتقلت به إلى شيء آخر، فبعد عدة كؤوس، بدأت تستعرض له اكسسواراتها النسائية، الحلق في الإذن والسلسلة الفضية المنتهية بورقة آس وهي تلتف على عنقها الأبيض، وسألته عن رأيه بعطرها، ولم يحرك كل ذلك عزيمة كمال في المبادرة، فقامت بلحظة خاطفة واستلقت جنبه على الأريكة ثم وضعت رأسها على فخذه. تجمع الجمال كله بين يديه، وعبقت الرائحة في أنفه، وتلوت الرغبة في حضنه، وشعر بروحه وحيدا مع الأنثى الخالدة. لم يعرف كيف يتصرف، أخبرته بأن مساكنتها لزوجها قضية شكلية فهما عمليا منفصلان منذ سنة، كل واحد منهما يمتلك حريته في التصرف والسهر والخروج ليلا، وما إقدامهما على هذا الاتفاق إلا بسبب الطفل. لا يريدان الانفصال عنه. ينتظرانه حتى يكبر قليلا كي يختار بينهما. اعتراف إنكا بأسرارها مع زوجها فاجأ كمال كثيرا وأصابه بالشلل. وفي يوم آخر أخبرته إنكا أنها رتبت له أمسية مع الريفيين في قرية تقع على أطراف المدينة: من الضروري أن يعرف السكان، خاصة قاطني القرى، شيئا عن حياتكم وخلفياتكم في بلدانكم الأصلية، هم يجهلون السبب الذي دفع هذا الكم الهائل من اللاجئين للقدوم إلى البلد. وافق كمال متشككا، وسألها عن السبب الذي حداها باختياره هو من بين الآخرين: "أنت مثقف ولديك معلومات عامة واسعة، تتكلم الانكليزية بصورة جيدة، وهم أغلبيتهم يفهمونها، ولا داعيَ لوجود مترجم. الأفضل أن تتحدث لهم مباشرة. سأكون جنبك إذا ما احتجت لمساعدة". سيخوض التجربة، وسيقف عاريا أمام الأغراب، ولن يخسر شيئا إذا ما جاءت التجربة فاشلة. ستكون بشكل ما تواصلا مع الثقافة الأجنبية، وهي من مستلزمات أي كاتب جاد، وعلى المرء إن أراد التخلص من حرجه وخوفه الدخول في ساحة المواجهة، فالمواجهة

هي التي تجوهر حقيقة الشخص. لقد نال من الهروب كفايته، عمره قضاه بالهروب، وهذا ما صنع منه كائنا خائفا، يركن إلى سرره للساعات كما لو كان جرذا في جحر عميق.

في عطلة نهاية الأسبوع وجدا القرية تسبح ببحر من الخضرة، والهدوء يخيم على البيوت، حيث بدت للناظر كما لو أنها ترفل في سحر غير مفهوم. لا مارّة في الطرقات، لا صوت يسمع، لا نباح كلاب ولا صياح ديكة، وبسقوف بيوتها القرميدية الحمراء بدت وكأنها قرية خلّفها الزمن وراءه. حقول القمح والشعير تحيطها من جوانبها كافة، وتتمركز بيوتها الخفيضة المبنية على الطراز القديم حول الكنيسة. سيكون اللقاء في الكنيسة، ورآها كمال ترفل بالبياض، برجها وملحقات الصلاة والمخزن، وتشخص في جدرانها شبابيك ضيقة بدت له مثل العيون المفتوحة. شرعت إنكا تستطلع وجه كمال كما لو أنها ترغب في قراءة الانطباع الأول لرؤيته قرية من هذا المكان. أكيد أنها لا تشبه قراكم، تساءلت بصوت خافت وهي تدير وجهها نحوه أثناء توجههما إلى بوابة المدخل. لا يمكن المقارنة، رد عليها كمال مبتسما، قرانا توقفت في العصور المظلمة. وفي ممر الكنيسة اصطفت منحوتات القديسين حول المسيح، تحت قوس السقف الأزرق الممثل لسماء نائية مليئة بالنجوم، وكانت التماثيل موضوعة على أعمدة ذات قواعد مربعة، وهي تواجه أيقونات ناتئة من جدار الممر المقابل. وتلك التماثيل تفرض على الداخلين إلى الكنيسة الهدوء والتمعن. وحين ولجا الباب الخشبي العتيق وجدا الكراسي الموضوعة في البهو ممتلئة بالبشر، ويغلب عليهم عنصر العجائز، وكان الرجال بأطقم أنيقة، والنساء بقبعات تنتمي إلى السبعينيات، والوجوه متغضنة شاحبة، والهدوء يهيمن على المكان. وثمة ضوء أصفر خفيف تلقيه المشربيات ذات النوافذ الملونة في الأعلى، وقد بنيت الكنيسة قبل أكثر من ثلاثمائة سنة، أي في ذلك الزمن الذي كانت فيه القرى تقوم عادة على وجود كنيسة صغيرة، وإقطاعي، وغابة برية، وحقول فسيحة لزراعة القمح والشعير والذرة. ذلك الزمن المظلم قبل أن تزيح الكهرباء أساطير

الجن والكائنات الصغيرة المختبئة في المداخن، ومخازن العلف في الأروقة الخلفية للبيوت. ورحب بهما القس الذي لبس رداء أنيقا، وحديثا، ووجد كمال نفسه مثل كائن هبط من المريخ، حيث صار بؤرة للفحص والرصد والتساؤلات. هي المرة الأولى لكمال يدخل فيها كنيسة لذلك شعر بالارتباك، وراح يستمد الشجاعة من إنكا، وكانت تتقدمه نحو المنصة العالية، الموضوعة بمواجهة الحاضرين، قريبا من المذبح.

وكانت هناك رائحة حادة لزيت، وبخور، وقدم، وهي بصمات معروفة لمعظم الكنائس الصغيرة المنتشرة في القرى. "المواجهة" كلمة ارتسمت في خيال كمال مثل لوحة نارية. تاريخ يواجه تاريخا، ومعتقدات تقف عارية أمام معتقدات وطقوس وأفكار مسبقة. وكان الصمت مرهقا، والوجوه وجدها في ذلك الضوء الأصفر شمعية، مترقبة، ولدت لديه إحساس أنه يجلس أمام محكمة أشباح. أشباح ستستجوبه عن حياته الماضية، وهواياته، وكيف يأكل، وكيف واتته الجرأة على اقتحام المكان.

أوضح القس، بكلام مقتضب، الهدف من الجلسة، وضرورة احتضان المظلومين والمشردين، ومن تقطعت بهم السبل، حسب ما أوصى الكتاب المقدس، ثم استرسل في الكلام حول المهمة الانسانية للكنيسة ودورها في مواساة البشر مهما اختلفت ألوانهم وأديانهم، وراحت إنكا تترجم لكمال ما يتكلم به القس، وهي تضع فمها في أذنه حتى تكاد تلامسها، بل وشعر بدفء أنفاسها على صيوان الأذن. وبعد ذلك شرحت للحاضرين، بأفكار قليلة، البعد الانساني لاستقبال اللاجئين من مناطق الحروب، وإعطائهم فرصة لتأسيس حياة أفضل. سادت لحظة من الصمت القلق، ومثل معجزة وجد كمال نفسه يستجمع أفكاره ثم بدأ الكلام يتدفق من بين شفتيه، كما لو كان يقرأ من ورقة مكتوبة معتنى بمضمونها: تلك الحرب تجري بين نظامين متعصبين، أحدهما مستبد فرض نفسه وحزبه على شعبه، بمئات السجون، وزخم غير معهود من

الكلام عبر الصحف والشاشات، وفرض حزبه نمطا واحدا من التفكير على الجميع بقوة العصا الكهربائية، والطلقات الآتية غيلة على المعارضين. والثاني فرض الدين والمذهب على شعبه بالعنف، والتطبيل، واستحضار ماض بعيد على هيئة مومياءات يحاول بعثها وتسويغها من جديد، ويرغب بتصدير رؤيته الدينية على أتباعه، ومشايعيه، حتى لو كان ذلك عبر القوة. المعارضون، سواء كانوا من هذا الجانب أو ذاك، لم يعد لديهم من خيار سوى الهروب خارج الحدود، البقاء داخل الحدود يعني الموت في الجبهات أو في أقبية السجون. أن تنجو عليك المرور من ثقب إبرة، وفضّل كمال، كما قال، عبور المخاطرة والنفاذ من ذلك الطريق الضيق الشبيه بطوق الهلاك، غامر برأسه للهروب من جبهات القتال والوصول إلى الجنة الأرضية التي حلم بها في هذا الجزء من العالم. ممتنون لهذا البلد، قال لهم بصوت راعش مؤثر بصدقه وعاطفته، قبلنا لاجئين، ووفر لنا السكن والراتب للعيش، والمستشفيات للعلاج المجاني، والمدارس لأطفالنا، وأدخلنا في رعايته إلى أن نستطيع الاعتماد على أنفسنا بعد أن نتقن اللغة ونندمج في نسيج المجتمع. في الشرق كثير من البلدان أغلقت الأبواب أمامنا بحجة أننا لا نجلب معنا سوى المشاكل، ومشاكلهم تكفيهم، كما سوّقوا خطابهم بين مناصريهم. وكانت علامات الرضا ترتسم في تعابير انكا، وفي نظرات عينيها المزهوة وهي تراقب وقع كلامه على وجوه الفلاحين. طلب القس من الحاضرين توجيه أسئلة أو استفسارات فنهضت امرأة يلوح الكبر على هيئتها من الصف الأمامي، وهي تتكئ على عكازتها الخشب، وسألت كمال بتردد، وخجل، وثمة ابتسامة تلوح على شفتيها المغضنتين: "أنت مسلم كما أفهم من حديثك، لكنني لا أفهم كيف تتزوجون أربع نساء، حسب وصية نبيكم؟" سؤال بسيط وبريء من امرأة عجوز تعيش في قرية منزوية في شمال الأرض، فاجأ هذا السؤال كمال بشدة، وما أن هضم السؤال حتى أجاب بوضوح: أولا ليس كل المسلمين يتزوجون أربع نساء، في مدينتي التي جئت منها ليس هناك سوى أشخاص قلائل متزوجين من أكثر من واحدة، ونساؤنا صرن من الذكاء

والفطنة بحيث لم يعدن يقبلن بأن يكن زوجة ثانية أو ثالثة. قد يجد المرء حالات استثنائية لدى أبناء القرى، والبدو، ممن تزوجوا امرأتين أو أكثر، على رغم أنني لو قيض لي لجمعت أكثر من امرأة على سرير واحد. قالها وابتسم، ثم تململت بعض النساء الجالسات، وحين أحسسن بالطرافة التي تكلم بها كمال تصاعدت بعض القهقهات بين الرجال والنساء. رجل في الصفوف الخلفية سأل عن السبب الذي يجعل المسلمين يمتنعون عن أكل الخنزير، فأجابه كمال بسرعة: أنا أتناول لحم الخنزير في وجباتي، وهو رخيص هنا في الأسواق، أتناوله مقليا، ومشويا، ولا أستسيغه في الطبخ.

الهدوء في القاعة شمل الجميع، ولاختبار صدق كمال ورؤيته للأديان، سأله القس في النهاية: هل تعتقد نفسك مسلما؟ إذا اعتبرنا الإسلام ثقافة امتدت قرونا عديدة، فأنا أنتمي إلى تلك الثقافة، ثقافة الحكايات والقصص والمحاججات الفلسفية وعلماء المسلمين الذين برعوا في الجبر والهندسة والطب والفكر، كإبن سينا وأبي حيان التوحيدي والرازي، أبدى كمال رأيه بصوت واثق من نفسه، ومن قبلهم الشعراء الأنيقون في اللفظ والأفكار والتمرد مثل عنترة العبسي، ومجنون ليلى، وأبي نؤاس الذي أجاد في وصف الخمرة ومجالسها وأحوال المنتشين في ليالي الأنس بين أحضان الجواري ورنين العود، نعم أنا مسلم: إذا ما قرأت المتصوفة وطرقهم في التأمل والوجد والانخطاف الروحي، والتفكر بالوجود البشري، أنتسب إلى محي الدين بن عربي، وجلال الدين الرومي، والحلاج، والحسن البصري، ورابعة العدوية. وأنا مسلم كلما اطلعت على حركات التمرد التي قادها الفقراء والمظلومون، وتسحرني حكايات ألف ليلة وليلة، وكثيرا ما وجدتني أتسكع مع شخوصها في أزقة بغداد، والقاهرة، وحلب، ودمشق، وأجد روحي في الجب المسحور والمدينة الممسوخة أحجارا بناسها وحيواناتها وبضائعها. وأتفكر بحكايات السحرة والمشعوذين والمغامرين الذين ركبوا البحار للتجارة، وحب الاطلاع على بلدان أخرى، مثل السندباد البحري. أما الإسلام الطقوسي والفقهي فلا يغريني كثيرا، وباعتباري

شاعرا فعلاقتي بثقافة العالم المعاصرة تجعلني أحس بنفسي أنتمي إلى الإنسانية أكثر مما أنتمي إلى مدينة بعينها، ودين محدد، وقومية، وبلد. ثم طلب شخص يجلس في الخلف، ولم يتبين كمال وجهه، أن يقرأ لهم قطعة من الشعر باللغة العربية، فجاءت في ذهن كمال فورا أبيات للمتنبي مع سيف الدولة، قرأها كمال بصوت مترنم، يرتفع وينخفض، يستطيل ويخفت حسب ما يستدعي الوزن والقافية، فنال استحسان الجمهور وتصفيقه. وحين طلبوا منه ترجمة الأبيات أقنعهم بصعوبة ترجمتها خاصة وأن لغته لا تساعده في ذلك.

"أمسية ناجحة" قالت له إنكا، وهما يخرجان من باب الكنيسة، وعند الساحة أرته الحجر الفايكنغي القديم، الرونغستين وهو ينتصب في ساحة القرية وكان يشبه دبا أسمر اللون يهم بالانقضاض على واحدة من أسماك السلمون. الحروف الغريبة المنقوشة على الحجر تشعر المرء كما لو أنه يعود بالتاريخ إلى الوراء، حين كانت هذه الحقول الخضراء ساحات لمواجهات بين الفايكنغ المناصرين للمسيحية والآخرين من أتباع الإله أودن قبل أكثر من ألف سنة.

١٠

تلك التجربة كانت ناجحة فعلا، ستغني فكره، وتضع روحه بمواجهة تنوع الحياة وتقبل اختلافاتها. وعرّج به تفكيره إلى نظرية الفراغ والامتلاء، فهو يحشو ذاكرته بتفاصيل جديدة يوما بعد آخر، بينما يبقى ماضيه ذكريات بعيدة، عليه أن يتخلص منها بطريقة ما، وهي ذكريات مؤلمة كلها. حينئذ تمثلت لعينيه السواتر الترابية القاتلة، ووجوه رفاقه المقاتلين وهي تنضح رعبا وخوفا، والطبيعة الموحشة للأرض حين تتحول إلى ساحة حرب. تمثلت له نباتات الحلفاء مخالب تتوق إلى تمزيقه، والطرفاء حرابا جاهزة للنفاذ في لحمه، والنخيل فخاخا للقناصين، وفقدت جمال عذوقها، وألوان سعفها المندغم بلون السماء الزرقاء. وظل يفكر بالطرق الناجعة لاختزان تفاصيل طازجة من هذا المكان كي يؤثث لنفسه ذاكرة جديدة. وبات يعيش زواجا مربكا بين الواقع والخيال، أو بين ما قرأه في الكتب والقصص من أحداث، وبين ما مر به حقيقة على صعيد عيشه اليومي. ذاكرته ممتلئة بهذه الإرباك، هناك أحداث بعيدة لم يعد يميز إن كان عاشها حقا أم أنه قرأها في رواية أو ملحمة أو كتاب سيرة. حتى عندما يكتب قصة ما، أو مشروعا لسيرة أو رواية يعيش الارتباك ذاك، فهو لا يرغب في تكرار ما قرأه ذات يوم في مخيلة كاتب آخر.

لقد صارت غرفته مصنعا للأحلام، تقذفها بلا رحمة في سماء نومه. تذيبها عجائن مروعة تلتصق بذهنه وتبلّ فراشه بعرق الرعب وماء الخوف. تتكرر في الليالي الطويلة بنسق واحد، لمجرى فريد وإن اختلفت التفاصيل. في تلك الأحلام كان يرى أدق الصور، الروائح، الوجوه، الأشجار، الشوارع والفصول. أحلام شبيهة بإناء ضخم اختلط فيه الحاضر والماضي والتهويمات. ما عاد ثمة فواصل أو حدود بين بلد وآخر، مدينة وأخرى. أحلام تحاصره وتقطع نومه

وتعيش معه يوم صحوه حتى خال أن المدينة هي السبب. سمع كثيرا عن تأثير الجو بالأمزجة والأحلام.

في الليل لا يجرؤ الاندساس في سريره ولا إغماض جفنيه، لأن ذلك يقوده بلا شك إلى دوامة الأحلام غير المفهومة: يرى نفسه ماشيا في شارع نظيف بخطوات متعثرة، تشي بعدم الثقة، تراصفت على جانبي ذلك الشارع بيوت خفيضة من طابق واحد، ديكوراتها ونوافذها واسعة لا يرى العابر من خلالها سوى الظلال والعتمة. تحف بتلك البيوت حدائق صغيرة منسّقة فيها ورود مختلفة الألوان: صبار مزهر، لسان ثور، جوري مائل الخد، يميس على بساط من الثيل. كان ثمة أشجار سرو ودلب وكستناء تصفّي ضوء الشمس وتدخله بلطافة إلى الشبابيك البلورية. وفي ذلك الشارع مارة غريبو الأطوار. من غرائبهم شعورهم المسبلة وهي تتعثر بالرموش والحواجب يخضها النسيم مثل أشرعة وجلة. كانت وجوه المارة منبسطة راضية على عكسه هو، فقد كان يمشي بين تلك الحشود بتلكؤ، فالعيون مصوبة نحوه، ومثل هجس غير أكيد سمع أحدهم يدمدم مع روحه حين حاذاه: خنزير أسود. آخر يقول بوضوح: ثوم عفن، وثالث كان يحمل مرآة طويلة يرتطم به ويشكل أمامه حاجزا لا يمكن اجتيازه. عليه فقط أن يحدق بالمرآة. يميل نحو اليسار فيميل أمامه، يميل نحو اليمين فيلفي الرجل المرآة أيضا. ما كان منه إلا أن يحدق، إلا أن يلبي رغبة ذلك الرجل: شعر أسود مفلفل يتجه إلى السماء، بشرة سمراء لوحتها عقود من الأشعة الشمسية، عينان سوداوان فيهما هزائم منكرة تتمترس وراء الجفون والأحداق: "طير البجع الضال، شاهد ما حولك، تقول المرآة، هل تجد بينهم شبيها؟" ويفتح جفنيه حادا بصره، فلا يجد، وما كان منه إلا أن يبعد الرجل عن طريقه ويحاول الهرب. تحاصره الأجساد، تحاصره الشقرة ويغرق في بحر من العيون الخضر والزرق، وتصخب الأصوات في رأسه: خنزير أسود، أين بيتك، ما الذي جاء بك إلى مدينتنا، لماذا تلّوث نساءنا، ارحل قبل فوات الأوان. ولا يملك أمام طغيان هذا السيل من الأصوات، هذا الحصار غير المرئي،

إلا الهروب. الركض بدون الالتفات إلى البيوت والأزهار والشارع المضيء بنظافته. يسرع للوصول إلى البيت، ويلوذ بغرفته وحينها فقط يتنفس برخاوة، ويتلمس شعره، ويحدق بعينيه السوداوين. يرى مرآته جوار السرير ويلمح ابتسامتها المغرية. يقترب منها، يلمس بلورها، يداعب ملاستها، فتفتح له ذراعيها ويدخل فيها. تريه جلدته السمراء المدبوغة بالحروب والسنين الضوئية وهجير الصحاري. تستدرجه إلى تهويماتها اللامعة وملاستها الدخانية، مادة له كتلة من الشعر الأصفر سبط الملمس، ناعم التعرجات، دقيق الجذور. تطلعه على عينين زرقاوين صافيتين رموشهما من الموسولين الأحمر مركونتين على خزانة صغيرة من خشب الصندل، كتب على رف من رفوفها اسم "كارين": من هي كارين؟ هل هي صديقة ليث ذاتها؟ يرى العينين، ويلمس خصلة الشعر، وتواتيه الفكرة. حانت فرصة التحولات السرية، ليمضي بتلقائية وتواطؤ مع المرآة. يمد يده إلى الشعر الأسود فيقتلعه خصلة بعد خصلة ثم يكومه على أرضية الغرفة. الأرضية من خشب "الماهاغوني" الرخيص تتلقف الشعر بين شقوقها وتدمجه بقلامات الشوائب والأوساخ. يضع الشعر الأصفر فينسدل على فوديه وصدغيه، ثم يبادل المرآة نظرات حيرى، فهو لا يفقه ابتسامتها العالقة على البلور. وحين يلتفت إلى الخزانة يلفي العينين الزرقاوين تغمزان له وتغريانه بالاقتراب فيقرر المضي مع المرآة في لهوها. ينتزع عينيه السوداوين ويرميهما جنب شعره الأسود من دون مبالاة بالدموع السائلة المنسكبة منهما نحو الأرضية وشقوقها. يلصق بعد لأي العينين الزرقاوين بمحجريهما الفارغين، ويتنفس برهافة وطمأنينة، لقد تمت المعجزة: بشرة سمراء، تطوقها هالة من الصفرة في الشعر، ينفتق فيها ثقبان زرقاوان برموش من الموسولين الأحمر، عينان زرقاوان وشعر أصفر، وحاجبان سوداوان، وقلق متوهج متلاطم الأمواج، وفم مزموم على مرارة أيام سود موغلة في القدم.

وبعد أسبوع من رؤيته الليلية الخانقة، استطاع كمال إنجاز قصة سماها "الكابوس"، ثم أرسلها فورا إلى تلك المجلة اللندنية. وقد نشرت في العدد الأخير

من المجلة، وقرئت على أنها رؤية جديدة في قضية الهوية التي راحت تستبد بنقاشاتنا، وتحليلاتنا، وأفكارنا. واستبدال هويتنا بهوية أخرى لم يكن هاجسا لكمال فقط، بل كان شعورا عاما عاشه عدد كبير منا، وهذا ما دفع بالبعض إلى تغيير حتى أسمائهم كي تتواءم مع البيئة الجديدة. اكتشفنا أن أسماءنا تصعب على لسان أهل البلد، سواء في المدرسة أو الحانات أو اللقاءات النادرة التي كانت تجمعنا مع المواطنين، فضلا عن الدوائر الرسمية التي نتعامل معها. مع الصديقات جرت الحالة بشكل مختلف، لقد أتاحت لهن العلاقة الحميمة معنا إلى استخدام أسمائنا مادة للسخرية والمرح، خاصة بوجود بعض الحروف الصعبة التي يتعذر على الأجانب نطقها. وترافق استبدال الهوية والأسماء مع محاولات جادة للتخلص من قناعات، وبديهيات، وتصرفات، كانت تغلف عقولنا ولا نلتفت لها سابقا. قد يكون الاحتكاك مع بيئة جديدة هو ما دفعنا لمراجعة حساباتنا. هذا بالضبط ما جرى لكمال في تلك الظهيرة الصيفية الرائقة، أي الركوب في سفينة التحولات، كما سماها مع نفسه في لحظات تجلياته الروحية.

لفت نظره بغتة طير غريب يقف على غصن قريب من الشباك. كان لون الطائر مميزا، فهو أخضر يميل إلى الصفار، بذيل طويل ووجه مسطح بعض الشيء فحسبه ببغاء. لكن الببغاوات ليست طيورا برية في هذا المكان. هل هو طير مسحور مثل تلك الطيور العجيبة في ألف ليلة وليلة، أو حكايات "الأخوة غريم"، أو قصص هانس كرستيان أندرسون؟

استغرب من أن الطائر كان يدير رأسه إلى شباكه ناظرا بعينين مستطلعتين، تثيران الانتباه، فهما بالكاد يراهما الشخص بسبب تدلي الريش عليهما، وبقي كمال ينظر إلى الطير الغريب بدون أن يقدم على حركة ما، بل وأوشك أن يدخل في وعي تقمصي ليصل إلى ما يفكر به هذا الكائن الواقف على الغصن. وهي محاولات قام بها في السابق ليختبر مقدرته على تمثل الأشياء فيما حوله

سواء كانت حية أو جمادا. وفجأة نط الطائر من مكانه، وفرد جناحيه واتجه إلى الشباك. ارتطم بالزجاج ثم ارتد إلى الأرض وسط دهشة كمال من هذا التصرف غير المألوف لطائر. نهض من سريره ومد رأسه من الشباك ووجد أن الطائر يرقد على جنبه وسط الزرع الخفيف في الحديقة. فكر أن يخرج لالتقاطه، ولكنه لا يملك قفصا لتربيته، ومن الأفضل إخبار إنكا بالأمر. نزل إلى الأسفل ونادى على إنكا، ووجدها تلاعب ابنها، فأخبرها بحماس عن طائر الببغاء الصغير الراقد في الحديقة. خبر الطائر أشعل حماس إنكا وابنها فخرجا ركضا إلى الحديقة، وتناولا الطير من الأرض من غير أن يبدي أية مقاومة. كانت فرحة الطفل لا توصف بامتلاكه للطائر، اندفع إلى صحن صغير وملأه بالماء ثم قدمه إلى الطائر، فيما جلبت إنكا لب بذور عباد الشمس وقدمتها له، لكنه ظل ساكنا بدون أن يتناول شيئا. اكتشفت وابنها أن رجل الطائر مصابة بعطب، كما اكتشفا زوائد قرب منقاره تغطي عينه اليسرى، وربما هذا ما دفعه للارتطام بالشباك، ولكن مرأى الطائر لم ينم على أنه ببغاء. فكرت إنكا أنه نوع من طيور الحب هرب من قفصه، أو تخلى عنه مالكه بسبب ذلك العطب، بعدها رتبت له مكانا للعيش في الداخل. قلبت واحدة من الطاولات الصغيرة على قفاها، ثم غطتها بشال أبيض شفاف. وضعت له صحن الماء وبذور عباد الشمس وقطعا من الخس، لكن الطفل لم يفارق الطير. وقف يترقبه بحب ودهشة، راصدا أقل حركة تفلت منه. وقرأ كمال بكتاب شعر صغير وجده في مكتبة المدينة، وتذكر صديقه الصغير. لم يسمع أي شيء عن الطائر. وبحلول المساء ارتكن إلى سريره وشرع يقلب في كتاب لتعلم اللغة، ولم يلبث أن نام نوما عميقا خالياً من الأحلام. ذهب صباحا إلى المدرسة ونسي أمر الطائر، وعاد بعد الظهر وفي نيته التأهب للنزول إلى المدينة ولقاء بعض الأصدقاء الجدد ممن قطن فيها مؤخرا. لكنه عند العصر لاحظ من الشباك حركة غريبة في الحديقة.

كانت إنكا تحمل الطائر ميتا بين يديها وطفلها يسير خلفها باكيا. مات الطائر الأخضر المائل إلى الصفرة، وها هما يودعانه بحزن، لكن ما الذي يفعلانه في الحديقة؟ تساءل كمال ووقف في الشباك من خلف الزجاج يستطلع المسيرة الحزينة هذه، وخمن أنهما يحملانه ليلقياه بين الأشجار، أو ليضعاه في حاوية النفايات المركونة عند طرف الحديقة. حين رأى الطفل حاملا سكين مطبخ كبير، استوقفه المشهد وأصيب بالقشعريرة، هل يريدان ذبح طائر ميت؟ ربما، فهؤلاء يتحدرون من أقوام بربرية لم تفهم من لغة للتفاهم بين البشر سوى الذبح. على رغم أنهم لم يقدموا على ذبح أحد منهم حتى الآن. لكنه مخلوق ميت، وكاد يتخيل أن هذه الشعوب قد لا تتورع عن أكل الكائنات الميتة. والأموات لهم حرمة كبيرة لدى البشر حتى لو كانوا من جنس الطيور، الأمر لم يكن كما ظن كمال بل حدث شيء آخر لم يخطر في عقله. ففيما كانت تمسك الطير بين يديها بوجه حزين، وتجلس على الثيل صامتة تحدّ بصرها في الريش والمنقار والقدمين، وجد الطفل فسحة صغيرة رطبة خالية من العشب، وبدأ يحفر بالسكين. تم انشاء حفرة في الأرض، ثم حملت إنكا الطائر بين يديها وقبلت ريشه، ووضعته بتمهل في الحفرة. وراح الطفل يدفع التراب فوق الطائر بدون التوقف عن البكاء. استغرق الدفن نصف ساعة، وتشكل قبر صغير على جثة الطائر، ثم عمد الطفل إلى التقاط قضيب خشبي شكّه في التراب، وبتثاقل وحزن مشى نحو شجرة جوري صغيرة فاقتطع أكبر وردة متفتحة، ورجع بتمهل وشكها في القضيب. وكانت أمه تمسكه من ظهره بحنو، وتمسح على شعره، وتسمعه كلاما ما لم يتبينه كمال. ارتفعت من الأرض، من القبر، من آثار ديدان الحديقة، من أذني كمال الشاعر، موسيقا جنائزية ناعمة، تكاد لا تسمع، ونشرت حزنها على هذه الزاوية من عالم البشر. طائر آخر يتوارى عن خياله. وبعد أن تمت الطقوس، وتلاشت الموسيقا الجنائزية من أذن كمال، رجعا إلى البيت وساد في الأسفل هدوء عميق لكنه هدوء الفجيعة والآلام.

الاحتفاء بموت طائر مريض على هذا الشكل ينم عن روح شفافة، ممتلئة بالإنسانية. روح يمكن أن تخدش بكلمة بسيطة نابية أو خارجة عن حدود اللياقة، روح لا يمكنها أن تقدم على قتل كائن حتى لو كان طيرا. بل وتضع وردة على قبره. شبحت أمامه آلاف الجثث التي كانوا يرونها في الجبهات، ملقاة في العراء، خاصة بعد المواجهات الضخمة إثر كل هجوم. لقد رأى جثثا تأكلها الكلاب البريّة، ورأى جثثا تحولت إلى هياكل عظمية بين نباتات الحلفاء، وفي سهوب الرمال، وجنب السواتر الترابية المتروكة. جماجم ضاحكة. جماجم وحيدة بلا عمود فقري. سلاميات أصابع تشبه عظام طيور نافقة. أولئك البشر لم يكونوا بحاجة إلى ورود على قبورهم، بل كانوا بحاجة إلى قبور. وقرر أن يلغي موعده مع الأصدقاء ولن يسهر هذه الليلة في البار. فكر في أن المشهد يتطلب التدوين إما على شكل قصيدة شعرية في معنى الموت، وجدوى الحزن البشري، أو في قصة قصيرة تروي اللحظات الأخيرة من حياة طائر الببغاء. إنه ببغاء في قبر. وها هي ملايين الكائنات الصغيرة تهجم على جسده. على القلب والفخذين والأحشاء. كائنات مثلنا تريد أن تعيش وتجدد نفسها. تنتج جيلا آخر من ذواتها. خلاياه تتآكل، بل تتحول إلى خلايا أخرى لحيوات غير مرئية. الخواء يحل في جسده مخلفا الريش والمخالب والعظام الصغيرة. وكانت هناك مئات النوارس تحلق في السماء بمهرجان شد انتباه كمال، وجعله ينغمر أكثر فأكثر في تأملاته. ثم شرع برسم خريطة لهذا الكائن المحشور في غرفة، ببيت غريب، في مدينة غريبة: إنه آلة من لحم ودم، لكنها آلة شبهها بمحرك عملاق ينوء بأسراره، له أذرع عديدة تكونت منذ طفولته وحتى اليوم. تكونت من خلال تربيته، وقراءاته، وأحلامه، وتجاربه وأغلبها مر. عضو منه يحتله رجل بدوي بقيم موشكة على الانقراض. آخر مصنوع من بساتين قرى وصحارٍ. وعضو مصنوع من شعر مترجم وروايات يطير فيها البشر إلى السماء، وتمطر فيها الغيوم أزهارا. عضو عبارة عن فم لشاعر كبير اسمه المتنبي، يتشدق بالحكمة فيدهش العالم. عضو مكون من مجرات بعيدة، وأسرار علمية حول الذرّة وعوالمها،

وحول النجوم القاطنة على حافة الكون، والانفجارات العملاقة، والثقوب السوداء. عضو يتكلم بلسان الحكيم طاغور ومحمد إقبال الشاعر المتصوف. عضو للجماجم المتآكلة في حفر على جبهات القتال. بلا شك، إنه مصنوع من غبار، ونهارات حارة، وسعف نخيل ينعكس عليه لون الحقول، ومويجات النهر والساقية القريبة، وخبز تنور ساخن تسري رائحته بعيدا في المكان. هو اليوم يبني عضوا آخر من لغة الفايكنغ، ومن نسائهم وطعامهم وأديانهم. نعم. بلا شك، هو آلة ضخمة تتكافل مئات الأذرع لتشغيلها، لتصنع منها كمال المفكر بماضيه في سرير موحش.

شاهد الصخور القديمة الحاملة لتاريخ البلد منذ قرون، على شكل لغة غريبة مكتوبة بأبجدية لم تعد تنتمي إلى الحاضر، وتجول في غابات الريف القريب من المدينة على دراجة هوائية استعارها من إنكا، حيث شاهد الأرانب تتقافز بين العشب، والسنجاب بشعره البني ينط من غصن إلى آخر، محدقا فيه بعينين مدورتين ذكيتين. حفر اسمه على ساق غليظة لشجرة "سرو" تعمد أن يكون باللغة العربية، وكتب تحت الإسم كلمة شاعر، وفكر أن اسمه سيبقى عشرات السنين مدونا على اللحاء، وهو خلود أكيد بمعنى من المعاني، وتمنى لو يقوم بالفعل نفسه على صخرة الرونغستين الفايكنغية ليبقى إلى الأبد. توقف عند تماثيل تجسد أبطالا خاضوا معاركهم بقلوب فولاذية، وهي تنتصب عند ساحات وزوايا، أو شاخصة أمام متاحف وبنايات أنيقة. تأمل الأمواج في البحر، والسفن تشق الهواء في حلم الوصول إلى اليابسة، والرسوم الملونة على أفاريز الأبنية وقد استوحت مجسماتها من ذكرى قلاع، وأبطال، وملوك، وأمراء حكموا البلد. وتلك الارتكاسات الملحة نحو الماضي، والتفكر بالحياة الجديدة، ودهاليزها ومنعطفاتها، وألغازها، والحيرة مما نعيشه، لم تقتصر على شخص بعينه، وكانت ظاهرة عامة يشترك فيها الجميع، وانتهت لتصبح محط نقاش واسع خلال الجلسات الحميمة بين الأصدقاء.

١١

حين كنا هناك، في عين الشرق، يفسر البعض الظاهرة تلك بالقول، لم نكن نشعر بالأزمة الشخصية الهائلة التي صرنا إليها في هذا المكان، بلدنا الثاني، كما دأبنا على تسميته. صحيح أننا كنا مأزومين لكننا لم نكن نحس بتلك الأزمة. ومن هو ضليع بقراءة الظواهر الاجتماعية فسّرها بالقول إن وجود أزمة عامة يغطي كثيرا على الأزمة الذاتية. هنا الوضع مختلف، المجتمع الذي جئنا إليه لا يعيش في أزمة، إنسانه لا يعيش في أزمة، لذلك لا يهمه الماضي كثيرا. يفكر فقط بحاضره ومستقبله، عكسنا نحن. فنحن مأزومون، متوترون، قلقون، مفككون مثل ساعة مرت عليها أصابع المصلّحين الجهلة. نحمل أكواما من الأزمات، كأزمة الجنس، والعمل، والتخطيط للمستقبل، وأزمة الهوية واللغة والدين وحتى اللون، نحن الخراف السود وسط قطيع أبيض، صحيح، ونحن مكشوفون أينما تحركنا، في الباص، في الشارع، في المطعم، على الساحل، وفي الحدائق الجميلة المخططة وفق ذوق حضاري تراكم طوال عقود وعقود. بل قل قرون وقرون. تلك القرون السحيقة مرت علينا ونحن نتزوي خائفين داخل أبواب الحارات، والمحلات، والمساكن التي عانت من اللصوص والدخلاء والغزاة. قرون مرت علينا من عواصف الغبار أخرجتنا من تاريخ الأمم ومن الحضارة. لذلك لا نستطيع التعبير عن أفكارنا، ومشاعرنا، في المحافل العامة ووسائل الإعلام بلغتها الصعبة، اللغة الشبيهة بثمرة بطاطا حارة في الفم، مثلما يصفونها هم ذاتهم. ينبغي علينا أن نتكيف مع الاختلاف، لا جيلنا فقط، بل سنورث اختلافنا حتى لأطفالنا.

ينبغي أن نقر أننا مختلفون في الدين واللون والمزاج، والسؤال يبقى يراود أذهاننا هل يتقبل المجتمع الجديد اختلافنا عنه؟ وكم ستمضي من السنين حتى يعترف بهذا الاختلاف؟ على صعيد النخب، ثقافية واجتماعية وسياسية،

ثم على صعيد أبناء المجتمع البسطاء ذاتهم. وحتى تحل لحظة الاندماج، ومن المؤكد أنها ستستغرق بضعة أجيال، ينبغي علينا التكيف مع اختلافنا هذا. كنا نشعر في تلك السنوات بأزمتنا الذاتية ونعيشها كل دقيقة وثانية، كحال صديقنا كمال صاحب الإحساس المرهف، والشعور الناعم كونه شاعرا، وكاتبا. حتى أحلامنا أصبحت تنتمي إلى الماضي. لكنها من ذلك الماضي القادم على شكل أصداء، وروائح، وسمات لوجوه غامضة، وقصص غلفت طفولتنا لعقود من السنين، وأمكنة شاحبة لم نعد نستطيع نسبتها إلى مدينة بعينها، أو حتى بلد بعينه. رغم ذلك رحنا نتقبل سلوكيات أبناء البلد قليلا قليلا. صحيح أننا نظرنا إليها بغرابة في البدء، لكنها شرعت بالتسلل إلى أرواحنا مع الهواء البارد الذي نتنفس على مر الساعات، ومع ندف الثلج المتساقطة كأنها ملائكة هابطة من السماء، ومع زعيق البط في البحيرات المسورة بأشجار الصفصاف، ومع اللون القرمزي الملفع لسماء الخريف. هدأت الموجة، واستقر الجميع مطمئنين إلى حياتهم الجديدة، واقتضى ذلك سنوات من المعاناة، والتقلبات، والأحداث المحزنة، وكنا نتابع أخبار أصدقائنا بدقة، قصصهم، ومغامراتهم، ومعاركهم برغم أننا أموات معلقون بين السماء والأرض. نتحرى عن مصائرهم وهم يتقلبون مع الأيام والسنين، بين المدن والقرى والبلدان.

أكثر من ليلة صرفنا في الحديث عن صديقنا ليث، وكيف حملته الموجة بعيدا عنا، فليس أمامنا سوى الليل نجتمع به للحديث عن حياتنا السابقة في تلك الجزر. أما في النهار فنتبخر ونختفي ونصبح غير مرئيين، نجتمع بين الغصون، وفوق الشواهد، وتحت تيجان الشجر حيث الصمت الأبدي لعالم الأرواح. وكان من أكثر المتحمسين للحديث عن ليث، وأخباره، صديقه المسمى "أبو ليلى"، أو "البدوي" مثلما كنا نناديه تحببا في الجزيرة، ولذلك سبب معروف، دأب أبو ليلى على لبس العقال، والكوفية، والعباءة، بعض الليالي في الجزيرة، واستمر على هذه العادة حتى حين حصل على حق الإقامة وانتقل إلى ذلك البناء المنزوي بين أشجار الغابة. ورأيناه في الزي نفسه في أكثر من مناسبة،

وحين يسأله البعض عن سبب لبسه بهذه الطريقة يرد بأنه ينتمي إلى قبيلة بدوية كريمة، وهو لن يتخلى عن تقاليد القبيلة حتى لو سكن مع الأسكيمو في القطب الشمالي. الوحيد من بيننا لم ينقطع عن زيارة ليث ولا ليلة واحدة إثر الحادث في تلك المعركة مع مراد، وتشبث به كي يبقى معه في المنطقة التي عاش فيها، لكن ليثا رفض بقوة، وأصر على الانتقال إلى مدينة النحل والسمك، ثم إلى بريطانيا، ومن هناك حملته الريح إلى مدينة من مدن كندا فتحت الباب للهجرة. وقد انضم أبو ليلى إلينا، نحن كائنات الظلام، قبل أسابيع، بعد أن بلغ الستين من العمر، ومات بسبب جلطة دماغية حادة.

نتذكر ليثا بوجهه الطفولي وسذاجته المحببة إلى النفوس، وكأنه لم يصدق وصوله إلى هذا المكان، وأكثر ما كان يغريه في وجوده الجديد وفرة الفتيات المراهقات. وآمن مع نفسه أنه ربح عمرا إضافيا منذ خروجه من العراق، ولن يوفر ثانية واحدة من المغامرة والمتعة. أما اهتمامنا بما يحدث بعيدا، في بلداننا، فأخذ يظلله غبار الزمن وجريانه البطيء. خفت اليوم في أسماعنا هدير الحروب، وبدأت جراحنا تندمل على مر الليالي وتعاقب النهارات، حتى كوابيسنا عادت شاحبة وغير مفهومة، والرعب في أعماقنا فسح المجال، هو الآخر، للحظات سعيدة كنا نقتطفها من نبع حياتنا المتدفق، والجديد يزيح القديم، ولا يعبر المرء النهر مرتين، تقول الحكمة البشرية. سنتئذ، حين كانت الدماء تجري في عروقنا، كانت أخبار أصدقائنا تصل إلينا تباعا، وإن كانت تصل متأخرة بعض الشيء، عبر الزيارات المتبادلة بين أصدقاء الأمس، أو عبر التلفون. الجميع يعرف أخبار الجميع، الأخبار المهمة خاصة. لقد عشنا قصصا لا تحصى ظلت تنشأ على مر السنين، بعضها نعرف أسماء أبطالها، وبعضها ترد غفلا عن الاسم. تلك الأخبار، والقصص، والحوارات، ربطت، مثل خيوط العنكبوت، تلك الجالية الوافدة، الهاربة من مصائرها المظلمة، وأضفت عليها مذاقا خاصا، وزودتها بتجارب متشابهة تقريبا، تتلخص في أنها عادة ما تقارن البلد الجديد ببلد المنشأ، وتتوجس في الدخول العميق إلى روح البلد وناسه.

كل ذلك مع شعور حاد بالغربة والدونية، مصحوبا بحنين إلى الطفولة، "الزمن الذهبي" كما أطلقنا عليه، وإلى تلك الحياة البسيطة الساذجة السهلة الواقعة وراءنا، مقارنة بما علينا عيشه في مجتمع يتنفس التكنولوجيا بآخر اكتشافاتها، ويضع حسابا للزمن حتى لو كان ثانية واحدة. مجتمع يرسم أهداف أفراده لسنوات مقبلة، ويتمتع ناسه، رجالا ونساء، بحرية تامة، شرط ألا تكون مصدر إزعاج للآخرين، أو تشكل تهديدا لحياتهم.

استقرار صديقنا ليث في مدينة بحرية تقع على الضفة الغربية من الجزيرة الكبرى خبر نال اهتمامنا، وجلب الخبر معه تفاصيل أيامه كذلك، وقصص أصدقائه القريبين منه. عرفنا بثبات، وهو ما أدهشنا كثيرا، وجود وسام أنكيدو معه في تلك المدينة، بل ويسكنان في البيت نفسه. قبل مغادرته على تلك السفينة إلى بريطانيا، سكن ليث مع شخص آخر في شقة تطل على البحر، كان المشترك بينهما هو صالون الجلوس، وخصصت لكل شخص غرفة متوسطة الحجم، مع سرير من الخشب يمكن استخدامه كأريكة، وطاولة صغيرة للكتابة مع كرسي بلاستيكي، وتطل نوافذ الغرف على عمارات مقابلة، كانت تنتصب في الفضاء مثل مستطيلات من الحلوى قائمة على رأسها. حين رأى شوارع المدينة العريضة، وتنفس هواءها البحري الدافئ، ودخلت منبسطاتها الخضراء في روحه، وتملى في أفقها المفتوح، أحس بأن المكان ملائم لمزاجه كثيرا، ويمكنه قضاء حياته فيه بعد أن يجد لنفسه صديقة، وعملا، وسكنا له وحده. الاستقرار نعمة بعد سنوات التشرد، خاصة إذا وجد المرء نفسه في مدينة تفتح للبحر الغربي ذراعيها، ونحل حقولها يطير في الفضاء مفتشا عن غذائه وسط أشجار الأكاسيا والورد البري، ومع حمام يرعى طعامه من بين أرجل البشر في الشوارع والساحات من دون خوف.

لم يكن ليث يعرف مساكنه، لذلك يقضي وقته في الغرفة ناظرا إلى السماء، متأملا البحر البعيد، وواجهات العمارات المقابلة، ومنظر المدينة

المسترخي بأبراجها وسقوفها وغاباتها. يعود من مدرسة اللغة، يتناول طعامه في المطبخ المشترك، يغلق باب غرفته ويجلس في السرير شبه مشلول، ينتقل بصره في السفن البعيدة التي كانت تتراءى في البحر البعيد مثل خطوط داكنة تتحرك ببطء نحو المجهول. ومثل أي منا، نحن الوافدين إلى هذه البلاد، نحن الغرباء على هذه الأرض، نحن الهاربين من مقبرة الوطن، كان يفكر دائما في العائلة البعيدة، وفي رأسه يمكن سماع صوت أمه الخشن، وصوت أبيه البطيء، والحكيم، وصوت أخوته الصغار حين يشتبكون في اللعب تحت أنوار ليلة مقمرة. أو يرى، بعد انفصاله عن الواقع المحيط به، تلك الليلة الدموية حين تشاجر مع صديقه مراد، ووجه صديقته الصغيرة "كارين"، ومشاعر الرعب في عينيها الزرقاوين بعد أن راح الدم يتدفق من ذراعه. استغرقت الجروح شهورا كي تندمل، لكن جروح روحه لاتزال طرية، لقد تعرض للغدر من أقرب أصدقائه، وطلب من المسؤولين نقله إلى مدينة معزولة خالية من العراقيين. اختاروا له المدينة البحرية وقالوا له ستعجبك كثيرا، وقطعوا له تذكرة سفر وأعطوه عنوانا في المدينة ثم أوصلوه إلى القطار.

النزيل الثاني واسمه "نيازي" منشغل دائما بالرسم، ورسوماته كما رآها ليث غريبة جدا. كان يستخدم الحبر، أداة وحيدة، ويرسم متاهات لا أول لها ولا آخر، أحيانا يرى الخطوط على شكل أحصنة ووجوه نساء وعيونا واسعة ممتلئة بالرعب. رسم حصانا منتصب الرأس واسع العينين، أبرز ما أوحت به اللوحة ذلك الرعب الذي يكاد يسيل على ورق الكارتون. عنون اللوحة ب" الشعب"، وكان لدى الرجل هوس بالخطوط، والمتاهات المنفتحة على بعضها كما لو أنه يروي شبكة الأحداث في حياة شخص ما. أحب ليث الحصان كثيرا وظل يتذكره لسنوات تالية. وبتذكر الحصان يتذكر صديقه نيازي المولود في كركوك.

لكن المزعج مع نيازي، عدا رسوماته غير المفهومة، بل والبشعة أحيانا، عادته المقيتة في فتح المسجل على أغنية فارسية بصوت عال، وليث لا يعرف الفارسية ولا يحب الغناء الفارسي، ولم يسمع سوى بالمغنية "كوكوش" التي أحب بعض أغانيها، و"مهستي" القريبة من صوت فيروز، وتجلب النعاس. كان نيازي يتصرف داخل البيت وكأنه ملك له. الزمن الذي قضاه مع نيازي كاد أن يدفعه لمغادرة المدينة. فالجميع في بلد لا يفرض أحد أية خيارات على غيره، وهو غير مضطر لمجاملة نيازي، وظل ليث غريبا على الشقة. ثم حدث أمر جديد في مدرسة اللغة قاده إلى طريق آخر. معلمة اللغة والاندماج "جاوانا"، وهي امرأة تجاوزت منتصف العمر وتتعاطف مع الجميع، وتتعامل بأمومة ورعاية نابعة من قلبها، هي من سألتهم في حصة الدرس عن الهوايات التي يمارسونها، فوقف ليث مرتبكا أمام السؤال فهو لم يمارس أية هواية في حياته. رسب في الصف السادس الإعدادي وطلب إلى الخدمة العسكرية، وقرأ في تلك الخدمة نهاية محزنة لنفسه، وكان الموت شاغل الجميع تلك الفترة، مما دفعه إلى اتخاذ قرار فردي بمغادرة بغداد، والرحيل إلى أربيل. ومن أربيل سافر إلى مدينة شقلاوة، وأوصله "رجل شريف"، كما وصفه، عطف على شبابه المهدد بالموت، إلى البيشمركة، ومن هناك إلى إيران. وكانت الممر الوحيد للعبور إلى أوروبا. سموه "طريق الحرير الجديد"، الذي سلكه معظم العراقيين أثناء الحرب. طريق يبتدئ من بغداد إلى مدينة السليمانية أو أربيل، ثم الجبال والسهول المحصورة بينها، وأشجار الجوز وطيور القبج والقرى المحترقة التي تؤسس نفسها كل عقد من السنين، ثم تحترق بنيران الطائرات والحروب حتى يعاد بناؤها. الجبال كانت وقتها هي الملاذ، حيث البيشمركة الكردية والأنصار العرب المناوئون للنظام، ومن هناك إلى طهران ثم إلى سوريا فأوروبا، عدا عن استثناءات قليلة تحدث مصادفة. إلا أن ذلك ظل جزءا من ماضيه الكئيب، وقد صار يرتد إليه في الأحلام والكوابيس الليلية فقط. اليوم يمر بمرحلة اكتشاف الذات، وسؤال من يكون، ولم جاء إلى هذا البلد، وما هي هوايته،

وكيف ستكون عليه حياته في السنين المقبلة؟ أما رحلة طريق الحرير فتحولت إلى تاريخ. لذلك فاجأه سؤال المعلمة "جاوانا" حول امتلاك هواية ما، هواية يكرس لها المرء وقته كله. ومن ضمن الهوايات التي اعتبرتها المعلمة جميلة، ومفيدة، ومجزية فن التصوير، أخبرتهم أن بعض المصورين كانوا محظوظين، إذا ما التقطوا صورة استثنائية لحدث غريب أو مفاجئ، كسقوط طائرة، أو غرق سفينة، أو احتراق بناية ما. وكالات الأنباء يمكن أن تشتري تلك الصورة بآلاف الدولارات. الهوية بصمة الأصابع. هذا الكون العجيب كل ذرة فيه تمتلك هوية، طعما، رائحة، لونا ما يحدث الآخر عن مكنون الكائن، وروحه، وسماته، وهويته.

جاوانا المعلمة هي من أوحت له بالتفكير بممارسة هواية ما تنقذه من الرتابة، والغربة، والسأم، ومجاملة جاره نيازي، ومن حمأة التفكير بالماضي وهو ما يستولي عليه معظم الأحيان. وأول ما فكر به هو شراء كاميرا ليبدأ هوايته بالتصوير. برغم أنه يكتب الخواطر في غرفته لكنه لا يطمح إلى أن يصبح كاتبا مثل كمال. في المطعم وقبل الحادث كان يجلس مع شلة من الأصدقاء، تطلع كمال في وجهه وقال له بنبرة بريئة: صديقي ليث انت تمتلك وجها شاعريا، لكنه لم يتنبأ له أن يصبح شاعرا أو قاصا، تلك مهنة لا يجيدها. في تلك البدايات، وكونه لا يتقن اللغة المحلية، وله تجربة بسيطة بالانكليزية، حصل عليها خلال دراسته في العراق، ارتأى أن يجهد في تطوير لغته الانكليزية، بالترافق مع اللغة المحلية التي اعتبرها لغة صعبة تستعصي على لسانه. اعتقد مع نفسه أنها لغة تناسب عهد الفايكنغ أكثر مما تناسب الوقت الحاضر. ظل يقلب الأمر في عقله أسبوعا بأيامه الشاقة الطويلة المحشوة بالحيرة. تسحره تلك الأجهزة الصغيرة التي تجمد الوجوه والأشجار والشوارع فتبقى شابة إلى الأبد. وذات يوم غائم مضى إلى محل يبيع الكاميرات في شارع المشي، واستطاع شراء كاميرا "كوداك" بسعر مناسب، مع زوم طويل يقرّب له المشاهد، حتى يضعها في متناول بصره، ووجد أنه السحر بعينه. وجلس ليلته في الغرفة يخطط لما يمكنه

القيام به في الأيام المقبلة بعد أن قرر أن تكون له هواية محددة كما طلبت المعلمة جاوانا. يريد أن يرى التفاصيل، تعب من سطوة العموميات التي عاشها هناك. وأول شيء خطر لليث هو تصوير مناظر الطبيعة ذات المظاهر الغريبة، والأشياء المهملة التي لا تلفت البصر. تعب من مشاعر الفعل ورد الفعل التي عانى منها في طفولته وشبابه. هو اليوم حر، يمتلك الوقت لاستجلاء سر ما يجري حوله، أو في حياته هو نفسه.

التجربة الأولى خاضها في البارك بحماس.

يقع البارك الذي قصده في طرف المدينة الشمالي، وحين مضى إليه وجده غاصا بالمتشمسين، رجالا ونساء. قرب البحيرات الصغيرة، وكانت تتخلل البارك، وبين مساكب الزهور المتألقة الألوان، انتحت الفتيات الجميلات ممددات على أفرشتهن، مستلقيات على ظهورهن لا يسترهن سوى لبسان صغيرة وحمالات الصدر، حتى بدين ببطونهن البيض الناعمة على خلفية العشب الأخضر، وكأنهن لوحات فنية رسمت بالباستيل. يتشمسن بصمت، وكأن هدوء المكان استولى على أجسادهن فرقدن متطلعات بذلك الامتداد اللانهائي فوق أغصان الشجر، وهن يضعن قبعات صغيرة على وجوههن تفاديا للحرارة والأشعة. بعض المجموعات من الشباب فضل الجلوس على العشب مباشرة واحتساء البيرة أو النبيذ الأبيض، وهم جميعا منغمرون بأحاديث لا يفقه ليث عم تدور، لكنه كان يسمع الضحكات المرحة المنطلقة نحو فضاء الشجر المتدلي على صفحات المياه الضحلة، مختلطة بذلك الفراش النباتي المتساقط من تلك الشجرة العجيبة وقد تناثر في مساكب الزهور.

ينبغي أن يكون إحساس الكاميرا مختلفا عن إحساسه هو المحروم من الجنس، والحب، والمتعة. ليس كل ما يراه جميلا يستحق أن يصبح لوحة فوتوغرافية ناجحة. الجميل في الواقع ليس بالضرورة جميلا في الصورة. وهو مبدأ عرفه عفو الخاطر من دون أن يدرسه في أكاديمية ما. ولاحظ خلو البارك

من الأجانب، وشعر بنفسه كما لو أنه يتطفل على المتشمسين، وفي الأعلى تتقافز طيور الشقراق من غصن إلى آخر، برقصات توحي بالحبور. الجميع يشعر بالحبور، الطيور والأشجار والبشر. وفي البحيرات الصغيرة المتناثرة داخل البارك كان البط يسبح برهافة، بط سعيد كما وصفه لنفسه، تاركا خلفه مويجات صغيرة تتلاشى قليلا قليلا حتى تصل الحافات المعشبة. قرر أن يسمي واحدة من الصور باسم "البط السعيد". هناك في الأرض النائية، بط فقط، بط للأكل، أما هنا، فيعيش بط سعيد وآخر حزين، ألست في أرض الأعاجيب؟ ألست في الفردوس؟ وراقب الإوز الأبيض يلتقط طعامه من الماء بحركات رشيقة. أخذ عددا من الصور لكل ذلك، وجذب نظره قرب الحافة المعشبة حصى غريب الشكل يتلامع بالألوان تحت المياه الصافية. قرّب اللقطة كثيرا حتى تمكن من تأطير تلك الألوان المندمجة مع المياه بصورة عرف أنها ستكون جميلة ومتفردة. في تلك الإشراقات الصورية لكاميرته، توفر لديه الوقت والهدوء للتحديق في داخله، لمعرفة نوع الحياة التي عاشها، ونوع الشخص الذي يسكن جسده، وتوصل إلى قراءة واضحة لشخصيته، وهي أنه كائن يعيش في قوقعته أكثر مما يجب، وهذا ما جعله ينكمش في قلعته الشخصية فقط، ويتهيب التعامل مع الآخرين بحرية كاملة. الاستقرار هو ما يدفع الانسان للتطور. بالتأكيد أن فكرة الشخص الباطني، هي ما دفعته لاختيار هذه الهواية، إذ توصل إلى قناعة جديدة اعتبرها مدهشة تقول إن التصوير سيتجه به نحو الخارج. حواسه ستحتضن الحياة التي يعيشها، من بشر ومناظر وسماء ومفارقات، مما سيدفعه للخروج تدريجيا من قوقعته. وهذا ما صار يعيشه فعلا بعد كل يوم يقضيه في تصوير مواضيعه.

صوّر رؤوس الشجر العائمة في الفضاء، وأصبحت تشبه المخالب البشرية، وصوّر التكوينات الصغيرة البارزة في الجذوع الميتة، وزهور الماء الطافية باستسلام على سطح البحيرة. صوّر نقوشا على واجهات الكنائس، وصوّر التماثيل المرفوعة على كواثل السفن الراسية في الميناء، وكذلك أطفال

الروضات وهم يخرجون صفا واحدا ماشين باتجاه الغابات. صور، وصور، وصور. عمر الانسان أيضا فقاعة، مقارنة مع مليارات السنين المتواصلة في المجرات والكواكب والشموس التي لا نراها.حتى تنامى لديه ما يشبه الهوس في تأبيد الواقع حسبما تراه عيناه. بعد كل فيلم يأخذ المنتج إلى المحل الذي اشترى منه الكاميرا، ويقع في شارع المشاة، فلكل مدينة شارع مشاتها وهذا ما اكتشفه لاحقا، ليسحبه على ورق لامع بحجم عشرين في خمسة عشر سم، ويضعه في ألبومات اشتراها لهذا الغرض من محل لبيع البضائع المستعملة دلّه عليه صديقه نيازي. شيئا فشيئا صار يحس بأنه وجد نفسه في تلك الصور، فكل صورة منها تأبيد لمشهد، لوجه زائل، لطير سيموت لاحقا، لمشرد ملتح ينام في الشوارع. واقتناص الصور تمثلت له على أنها مقدرة فائقة لديه ليصبح خالقا لمستوى آخر من الواقع. وراح يصور بهمة وهوس تلك المخلوقات المهملة، والأغصان المتشكلة على هيئات موحية، والفراشات النباتية وهي تتساقط راقصة على الأرض، وأمواج البحر المتلاطمة على صخور الشاطئ، والموجودات الصغيرة غير الملفتة للنظر العابر المتعجل، فهي وحدها من باتت تمنحه الثقة بقدرته على عمل شيء لا يجيده غيره، نعم، أصابه هوس بالتصوير، لم يعهده في روحه، وكأنه ينتقم من ليث الآخر الذي خلّفه وراءه. ليث الساذج كما تخيله في سويعات المواجهة مع روحه. لكن رغم انشغاله بصوره المتلاحقة شعر أن لديه دافعا لرؤية النساء. كارين غابت منذ زمن طويل. لذلك حين حل ذلك المساء الساحر، وبعد نهار رائق السماء، وشاهد الأفق يخلو من النوارس، وتضاءل البشر في الشوارع، قرر الدخول في بار للبحارة لا يبعد كثيرا عن الميناء. ينبغي عليه أن يصبح قويا، بعد فراق المظلة الأسرية التي حمته طوال حياته. سيقذف بروحه في أتون التجربة كما علّمه كمال الشاعر.

وصل إلى قناعة مفادها أن أول ملمح لقوة الشخص هو كيف يواجه الآخرين، الآخرون قوة ضاغطة تخنق الفرد. نحن أبناء أسر، نضيع ما أن نغادر كنفها، دأب على القول لأصدقائه كلما نقلهم الحديث إلى حنين الوطن

وذكرياته. تمنى كثيرا لو يستطيع إرسال رسالة إلى أهله يخبرهم بمكان وجوده، وبما جرى له في السنوات المنصرمة. لكنه يخاف عليهم. الرسالة ستقع حتما بين أيدي دوائر الأمن، ولن يتورعوا في التحقيق مع العائلة. الخروج من البلد بطريقة غير شرعية يعتبر جريمة تصل عقوبتها إلى الإعدام. هكذا كان ليث يفكر قبل ولوجه الباب، فيما بدا البحر الغربي لعينيه مسطحا رصاصيا شاسعا، هادئ الموج، غامضا ويدعو إلى السفر نحو المجهول. في نقطة ما بعيدة، تقع إلى الغرب المحمر الأفق جزيرة بريطانيا، كما أخبروه في هذه المدينة، وما على المرء إلا ركوب سفينة مسافرين، وتحمل مشقة سفر عشر ساعات، ليجد نفسه في أرض الامبراطورية التي كانت ذات قرن لا تغيب عنها الشمس. لقد شاع فيما بيننا عن المدينة التي يقطنها ليث بأنها غنية، غناها متأت من صيد السمك، سمك القد بخاصة، وقد اعتاد الفايكنغ صيده وتناوله ليمدهم بطاقة جبارة على القتال. الصيادون عادة ما يجففونه تحت الشمس لبيعه لاحقا إلى الميسورين. ومن يمش في شوارعها يشم رائحة السمك في كل زاوية، بل وتصل الرائحة حتى الحقول الزراعية المحيطة بالمدينة، وهي تغدق على لاجئيها مساعدات يسيل لها لعاب لاجئي العاصمة. برغم أن اللفظ في لهجتها صعب، وخشن، يختلف عن لفظ لغة العاصمة السلس والناعم. مدينة مفتوحة الأفق، تخلو من التلال والمرتفعات، وميناؤها أشهر ميناء على البحر، منه كانت تنطلق حملات الفايكنغ لارتياد البحار، وعبره اكتشفت أكبر جزيرة مأهولة على الكرة الأرضية وهي جزيرة غرينلاند، بسكانها المميزين بالشعر الأسود، والملامح شبه المنغولية، وفقماتها الغنية بالشحوم، وتماثيلها المنحوتة على عظام الفقمة. ومنها أيضا اكتشف بحارتها الملتحون، المغامرون، ذوو الشعور الشقر والعيون الزرق، جزيرة "آيسلاند"، أي أرض الجليد. وللمدينة جزيرة بحرية تقابل الميناء وتشتهر ببيوتها الصغيرة التي تحولت إلى منتجع صيفي يأتيها المصطافون من كل مدن البلاد، إضافة إلى أصقاع العالم المعروفة، وهي الوحيدة بين الجزر تمتلك سواحل رملية لاصفة ونظيفة. اسم الجزيرة هو

"فانو"، ويصل إليها المسافر بواسطة عبّارة تشتغل ليل نهار، وفي جميع أيام الأسبوع. وقد تناهى لسمع ليث أن واحدا من معارفه يقطن فيها وهو "حازم الأعرج".

ما زالت الساعة مبكرة على السهر، رغم أن الموسيقا تنساب ضاجة من باب البار.

وجد طاولات تتوزع المساحة الواسعة يجلس عليها أشخاص ملتحون غالبا، تبدو الفظاظة على وجوههم، والنساء ذوات وجوه منفوخة توحي باعتيادها على السكر، والسهر، والتدخين. عدد من المرتادين يجلسون أمام البار الطويل المرتفع على كراسي عالية، يضعون أرجلهم على عوارضها السفلية ويتحدثون فيما بينهم بمرح، والساقية المسنة بعض الشيء توزع الكؤوس، أو تناول قناني البيرة للمشترين. هناك طاولة تمتد بمحاذاة الجدار فيها فراغات، وكراسيها تنتظر الجالسين، جلس ليث في المكان الفارغ ووضع كاميرته جنبه، ونهض ليجلب قنينة بيرة من نوع "توبورغ"، وهي بيرة مشهورة من المنتوج المحلي تعلم احتساءها مع صديقته كارين. في العراق لم يكن يحتسي الخمور، كان يخاف من تذوقها باعتبارها محرمة على المسلمين، لكن هنا اختلف الحال، الجميع تقريبا يتناولها وبمتعة، خاصة النساء. جو البار كان مدخنا، وفيه شيء من اللزوجة بسبب الاكتظاظ، ودوي الموسيقا، والأنفاس الكثيرة التي تستهلك نصيبها من الأوكسجين. جاء مكانه قرب امرأة تحتسي كأسها وحيدة وتقلّب طرفها بمن حولها من الجالسين. أول شيء جذب انتباهه وجود عدد من الأجانب ذوي الشعور السود وهو ما خفف من غربته في المكان، فلا يود أن يكون الأجنبي الوحيد في البار، سيتعرض حتما إلى هجوم من النظرات الفضولية والمستطلعة، وأحيانا العدائية. أخرج سكائره وراح يدخن بمتعة، ويتأمل مترقبا في جو البار. المرأة ترتدي بنطلونا ضيقا من الجينز، وبلوزة تناسب الجو مفتوحة عند الصدر، ويبين ملتقى الثديين واضحا، شعرها

مقصوص حديثا ينزل على جبينها ويضفي عليها سمة التمرد والشباب وعمرها كما قدر، يقترب من الثلاثين. هي الأخرى تدخن بإفراط، ويبدو التوتر في ملامحها واضحا. قبل أي تعارف مع المرأة نبهته فجأة بصوت حنون قائلة: "انتبه إلى كاميرتك قد يسرقونها، هذا المكان مليء باللصوص والبحارة، وأنت غريب." أذناه لم تعتادا على سماع الأغاني التي يبثها الجهاز بصوت عال، كان معظمها أغاني أميركية من فترة الستينيات، وبعضها من أغاني الجاز القديمة غير المألوفة لذائقته. جاز، وغيتار، وصنج، وكمان ينوح في خلفية الصوت. آه لو يراه اللحظة كل من خالد وعادل ورعد، الأصدقاء الذين تركهم هناك، في "بغداده" النائية مثل حلم ضال. يقينا ستخرج عيونهم من محاجرها، هو حقا ليث الفقير، الخجول، يتساءلون بعيون مفتوحة دهشة، يجلس في بار يرتاده البحارة والفلاحون في أقصى شمال الأرض بين الجميلات وأنغام الموسيقا والقناني البارقة ذات الأحجام المتباينة، والألوان المشعة، المعبأة بالخيالات والتوهجات المنطلقة من أعماق الروح، القناني المسطورة خلف الساقية؟ هل حقا هو ليث نفسه الذي خرج مرعوبا من الحرب ذات يوم ليغامر بالوصول إلى أربيل؟ كم سنة ستمضي من عمره حتى يلتقيهم ثانية؟ أمه وأبوه وأخوته، وتلك الشوارع السائخة من الحرارة صيفا، المشبعة بالمطر الخفيف شتاء، بروائح غبارها ونكهة أطعمتها وحلاوة فتياتها السمر. شعر وسط هذا الدهليز الضاج بالضحك، والموسيقا، وقرع الكؤوس، والدخان الكثيف المتراكم قرب السقف مثل غيمة ماطرة، بأنه يحن إليهم ويفتقدهم، لكنه قرر أن يدفع ثمن مغامرته هذه لوحده. حتى الجنة عليك أن تدفع ثمن دخولها. أحيانا يكون الثمن هو الحياة ذاتها. ثم فكر أن المرأة تود الدخول في محادثة معه، لغته الانكليزية ضعيفة بعض الشيء، هذا عدا الخجل والتردد المستولين عليه، وهذا ما دفعه لتناول البيرة بسرعة، أنهى القنينة الأولى وجلب الثانية، وهو يريد الوصول إلى مرحلة الانتعاش، وامتلاك الجرأة للتوغل في عالم هذه المرأة التي جلبتها له المصادفة على طبق من ذهب. فهو منذ فارق صديقته كارين في

ذلك المجمع لم يقم علاقة مع امرأة. لم تسأله، كعادة أهل البلد، عن المكان الذي جاء منه، بل بدأت الحديث والسؤال عن الكاميرا، وسألته إن كان يمتهن التصوير.

– أنا أحب الألوان، وما أقوم به مجرد هواية، أرشدتني إليها معلمتنا جاوانا، لكنني أفكر بإقامة معرض لصوري ذات يوم، قال لها بتردد.

– صورني، قالت له ضاحكة، لدي رغبة في أن أتحول إلى موديل تصوير.

لاحظ تعبيرا عميقا في عينيها، قرأه على أنه اعجاب مبكر به، واستغرب من جرأتها في الحديث، وأخذه خياله إلى امكانية تعريتها في غرفته والتقاط عشرات الصور لجسدها، وقد شاهد هذه التجربة في كتاب للتصوير قلّب صفحاته الملونة اللماعة في مكتبة المدينة وكان يرتادها بين فترة وأخرى. نهضت "آنا" من مكانها وجلبت قنينتين من البيرة التوبورغ، وضعت واحدة منها أمامه وقالت له حازمة بغنج: هي ضيافة، وحديثك ممتع. ولأنه لم يكن من محترفي الشراب بدأ ليث ينفصل تدريجيا عن المكان، وشرع يحلّق في سماوات آنا ووجهها، وملامحها الناعمة، وابتسامتها الواسعة، وضحكاتها العالية التي تعانق ضحكات السكارى وضجيجهم. إنه يفشل دائما في مخاطبة الأنوثة، ولم تعتد تربيته على ذلك. ثم تعالت مشاهد المرح والمتعة بين الحضور، بين راقص مع صديقته أو زوجته وبين شخص يتمايل وحيدا في الفسحة الصغيرة أمام حاجز البار، وبدأت آنا تلتصق به مع مضي الساعات، تداعب يديه وأصابعه وشعره، حتى حانت لحظة غائمة خارج الواقع، اقترب فيها وجهاهما، فأطبقت بشفتيها على شفتيه، ولبثا عميقا في قبلة تزاوجت فيها الشفاه، واختلطت في أبديتها الأنفاس، وتشابكت الأيدي. الزمن المتبقي من الليل كان فائضا، فقررا الخروج من البار من غير مناقشة للبرنامج القادم، وفكر ليث أن يترك لآنا حرية القيادة، وكان يخشى من أي مقترح كي لا يفسد الليلة.

سلكا الشارع المحاذي للبارك الكبير، ويمكن من هنا الإحساس بوجود البحر القريب والسفن الراسية عبر رائحة السمك، وضوضاء الميناء الذي لا ينام، والموج غير المرئي المتردد في الروح مثل أغنية نائية. والمدينة يستولي عليها هدوء آخر الليل، وأضواء جزيرة "فانو" تتغامز في الأفق كأنها قادمة من سماء بعيدة الظلمة. مشيا متماسكين بالأيدي، يتبادلان القبل عند كل خطوة، وهنا أخبرته آنا أنها لا تستطيع الذهاب معه إلى البيت، فولداها ينتظرانها هناك مع "الجليسة"، وهما بعمر عشر سنوات وست سنوات، لكنها ما أن حاذت الغابة حتى قادته إلى العتمة ليس بعيدا عن الشارع، حيث تنتشر مصاطب خشبية وضعت لراحة المارة من كبار السن. منحت نفسها له بقوة وهي تحتضنه، وتلصق جسدها بجسده، كما لو كانت لا ترغب في انتهاء هذه اللحظة. سيمضي الليل حتما برطوبة شجر السرو، ونقيق الضفادع، وهسهسة الحشرات الليلية، وصوت الموج القادم من البحر القريب، لكن لحظة الحب لا ينبغي لها الغياب والتلاشي، أرواح المكان كما لو أنها تجتمع هنا قادمة من عصور سحيقة ماضية. ها هو "أودن" يبتسم من ذرى الجوز البري، و"فرايا" ترش الموجودات بجوهر الخصوبة. همست له بنبرات دافئة منبعثة من عمق روح أنثوية بلا زمن: "أتوق لممارسة الجنس معك"، وشعر بأنفاسها تتدافع برغبة محمومة. ومن ثم نهضت من بين أحضانه، وخلعت بنطلونها الجينز، وجلست ثانية في حضنه بكامل عريها.

جنس في العراء؟ هل ما يحدث له حقيقة أم أنه سكران؟ حلقت روحه في عتمة الغابة من دون معرفة ما يختبئ وسط شجرها، وهي عادته من زمان، مثلما فعل حين هرب من الخدمة ورحل إلى الجبال. المغامرة تفتنه. وكان مأخوذا بهذه المباغتة من قبل أنثى تفوح من جسدها رائحة مخدرة. ماذا لو خرج لهما شخص ما من بين الشجر؟ وماذا لو فاجأتهما الشرطة؟ على أية حال تلك كانت تساؤلات سكران، وسرعان ما اندمج في دوره غائصا في سديم روحه العارية. اعطته ظهرها وكأنها تراقب الشارع، ولم يتمالك ليث نفسه فأتم

مواقعتها بلحظات سريعة. الإثارة مشت في جسده منذ أن التصقت شفاههما، وراودته خيالات هذه اللحظة منذ أن كانا في ذلك البار. الليلة فاصلة في حياته، وقد أبرزت له الوجه الجميل من المدينة البحرية. متى تتحول الموانئ والشوارع والحدائق والبيوت المغلقة بعتمتها إلى أصدقاء حميمين؟ متى يزايلك النفور من الوحدة، فلا تشعر بالرعب من ثقل السكون، والظلال، وحفيف الشجر؟ متى تنتمي إلى المكان مهما كان جديدا؟ فتش عن المرأة، الخيط الوحيد الرابط بينك وبين كل ما سبق، ولم يعد يفكر بكارين، الصغيرة التي هجرته بعد ليلة المعركة. وهو يضع رأسه على المخدة ثملا، سابحا برائحة المرأة تسامح مع مراد، ولم يضجر من أغاني مهستي القادمة من غرفة نيازي، وسيمجّد غربته من اليوم فصاعدا. وفي الخارج تمطت ليلة متألقة، كان قمرها يفيض على الكائنات ضوءا أزرق فيه الكثير من السحر والخلود، وتضحك لتلك الأشعة الزرقاء ليلة ناجحة، مضمخة بجوهر الأنثى.

قبل أن ينفصلا على طريق الغابة الصغيرة، ضربت له آنا موعدا في اليوم الثاني عند مقهى "دالاس"، وهو محل شهير يقع وسط شارع المشي، طابقه الأرضي، أو جزء منه، تحول إلى كافتيريا فسيحة يجتمع فيها المتبضعون والمشاة التعبون، والعشاق، وطالما ارتاده لوحده، وأحيانا مع بعض الأصدقاء ممن يدرسون معه في مدرسة اللغة. الخيط بينهما لم ينقطع إذن. زارته في غرفته ولاحظت الضيق الذي يعانيه من السكن، وبحثه عن خصوصية يفتقدها في الشقة المشتركة، وحدثها عن ضجيج مسجلة صديقه نيازي، وليالي السهر التي عاشها في غرفته الصغيرة نتيجة لذلك، ورأى الدموع في عينيها وهو يبث لها حنينه إلى أمه. بادرت آنا إلى طرح فكرة الحل، قالت إنها ستقرأ الصحف التي تنشر اعلانات عن الشقق والغرف الفارغة، وستتصل برقم التلفون المرافق عادة لتلك الاعلانات. أكدت له أن الحصول على سكن ليس صعبا، فهناك شقق فارغة كثيرة في هذه المدينة، وليس هناك غرباء بلا سكن في مدينة ثرية تفوح برائحة السمك.

خلال تلك الفترة، "ربيع الروح" كما أطلق عليها، استمر ليث بدراسة اللغة، وصار يزور آنا في بيتها، وتعرف على ولديها، وحدثته عن حياتها الكئيبة، والوحدة التي تعاني منها بعد أن طلقت زوجها الذي كان مدمنا على الكحول. كانت تدعوه على العشاء أحيانا، وتعد له طعاما محليا يتكون عادة من البطاطا المسلوقة ولحم الخنزير والسلطة، وأحيانا الرز مع كرات اللحم بالكاري والصوص. يحتسيان بعض قناني البيرة ويشاهدان التلفزيون، ويكون الولدان في غرفتهما يلعبان. ينام الطفلان باكرا، على عادة أهل البلد، فيتضاجعان بعنف ورغبة فائرة، وينام ليث في سرير آنا أو يعود إلى بيته المنزوي في الطابق الخامس. يجد نيازي يرسم في غرفته ويستمع إلى أغانيه الفارسية بصوت "مهستي"، وهو يناسب ساعات هدوء منتصف الليل، كما أخبره مرة، فيدس جسده بين الأغطية وينام بعمق.

واستكمالا لبحثه عن ذاته، وبلورة شخصيته، قرر ليث تسجيل نفسه في مدرسة لتطوير اللغة الانكليزية، وكأنه يروم القفز ذات يوم إلى حلمه القديم، حلم الرحيل إلى عاصمة الضباب والأساطير، لندن: "الفيش أند جبس"، و"الهامبرغر"، والباصات بطابقين، و"الأندر غراوند"، والغابات الخضر للأمراء الريفيين، ومتحف "مدام توسو"، الأعاجيب المترسبة في عقله، والتي لا يفصلها عنه سوى بحر الشمال. أخيرا وجدت له آنا غرفة في وسط المدينة. تقع ضمن بيت بطابقين، يقطنه لاجئ آخر من العراق كان يحتل الغرفة الأرضية الفسيحة، بينما احتل هو الغرفة الصغيرة في الطابق الأعلى، ويصلها المرء عبر درج ضيق من الخشب. رتبت آنا كل شيء، نقلت أغراضه إلى الغرفة، وتخلص من الأغاني المكررة، وآهات صديقة نيازي الصغيرة، وذلك المنظر المرعب الذي كان يراه من الطابق الخامس، منظر البحر الهائج المليء بالسفن ونداءات الأعماق القاتلة.

ولكن المشكلة التي واجهته بسكنه الجديد كانت تكمن في جاره. أول ما وقعت عيناه عليه كاد يسقط من المفاجأة. وسام ذاته، أنكيدو العراقي، سمع بحكايته تلك الليلة البعيدة، حين وقف وسط القاعة ممسكا بقنينة الفودكا المكسورة منتظرا المعركة، لم يتبادل معه في تلك الفترة حتى كلمة واحدة، وجهه لا يمكن له أن ينساه.

سيعيش مع وسام إذن!!!!

١٢

عرف أنكيدو بيننا باسمه هذا منذ تلك المعركة الشهيرة التي جرت بين مراد وليث. والتصق الاسم به من غير أن نعرف السبب، وراح اسم أنكيدو يغيب يوما بعد آخر، لكن ليظهر فجأة على طاولات الشرب وفي المقاهي، ربما بسبب كثرة المشاكل التي دأب على أن يخلفها وراءه. سمعنا عن معركة حصلت له في واحد من بارات المدينة، اشتبك فيها مع شلة عنصرية من أهل البلاد كانوا يرسلون له إشارات بذيئة طوال السهرة، وكتبت الصحافة الصفراء وقتها باستفاضة عن تلك المعركة، واعتبرته نموذجا للعدوانية التي انتجتها مجتمعات غير مستقرة، وحروب تلتقط أنفاسها زمنا ثم تستعر من جديد. وهو أول شخص من بيننا اشترى عدة صيد للسمك يحملها في بعض الأيام الدافئة إلى ساحل رملي قرب الميناء حالما بكيس وفير من السمك. ولأنه سريع الغضب، نزق المزاج، تفاداه القريبون منه خلال الجلسات في المقاهي والمناسبات التي تخص الجالية. إضافة إلى نزقه اكتشف ليث أنه ثرثار كبير، فما أن ينزل ليث إلى المطبخ ليقلي بيضه، أو يطبخ لحمه، أو يعد الشاي، حتى ينبري له من باب غرفته، بسيجارة مضغوطة بين شفتيه ووجه صلد وعضلات ثابتة، صلعة لاصفة عريضة، ليبدأ موالا طويلا متعبا من الأحاديث، والمونولوجات السياسية، والتذمر من الغربة.

أنكيدو لم يكن له أصدقاء. يعيش بعزلة مطلقة، حتى أن ليثاً لا يراه في مدرسة اللغة، يجده في غرفته في أي وقت يصل به إلى البيت. وذات مساء نزل ليث إلى المطبخ ليعد عشاء خفيفا لنفسه، وفيما هو ينحني على قدر الطبخ سمع صوت الباب ينفتح وإذا بأنكيدو يدخل المطبخ ويقف على حافة المجلى. بسيجارة يتلوى دخانها قلقاً من بين يده القابضة، واعتاد أن يجمع أصابعه حولها كلما رام امتصاصها، وبلا مقدمات سأله عن آنا قائلا: صديقتك من

الفايكنغ أليس كذلك؟ سؤال اعتبره ليث غبيا ومتطفلا، فهي من خلال مظهرها فقط يمكن معرفة جنسيتها. أجابه: نعم. فبدأ أنكيدو يشرح له الصورة التي كوّنها حول النساء قائلا: إنهن وسخات لا يهتمن بنظافة أجسادهن، ولا يغتسلن بالماء بعد الذهاب إلى الحمام، يمسحن مؤخراتهن بالكلنيكس فقط ثم يمضين!! عدا ذلك فهن يفتحن أرجلهن لأي رجل يقابلهن، وسمعت أن نساء هذه المدينة، ومنذ مئات السنين، اعتدن على معاشرة البحارة القادمين من جميع بلدان العالم. رقص وجعة سوداء وبعدها ليالٍ حمر في أقرب فندق أو بيت. بعض الأحيان يمارسنها في الطبيعة من دون أي تأنيب ضمير أو وازع أخلاقي. تخيل أن يصبحن أمهات لأطفالنا، أنا لا أفكر أبدا بالاقتران بواحدة منهن. لا أتخيل أن امرأتي تحتسي البيرة أو النبيذ، فما بالك بالمشروبات الثقيلة كالبراندي والويسكي والسنابس، والمشكلة أن عائلاتهن معتادات على ذلك، والنساء يتعودن على حياة الفسق منذ الطفولة. طبعا، فالمدارس مختلطة، والبارات في الويك إيند تغص بالنساء والرجال، والجميع يحتسي الخمور ويرقص، فماذا ينتج من كل ذلك؟ أكثر من خمسين بالمئة من العائلات هنا تقتصر على الأم وأولادها، لأنهم سرعان ما يطلّقون، وتدفع الحكومة رواتب للأولاد ومساعدات للنساء إذا ما كن عاطلات عن العمل. بلدنا غير ذلك، نحن نمتلك تقاليد تختلف. هناك أخلاق، وخجل، وخوف على شرف النساء. هنا لا، الشرف كلمة معدومة في المجتمع. وقتها لم يجد ليث أي كلام للرد، ووقف حائرا حتى نضج طبخه، ومضى صاعدا إلى غرفته تتملكه حيرة عميقة مما سمع.

هل يمكن لشخص عاقل تكوين صورة سوداء بهذا الشكل عن نساء مجتمع برمته؟

وفي مساء آخر حدثه أنكيدو عن تجربته في العراق بمونولوج طويل كالمعتاد، بدون أن يتدخل ليث بالحديث، فهو يسمع فقط. حتى حين يحاول

اعطاء وجهة نظره أو الاعتراض على معلومة خاطئة، أو رأي غير صائب، لا يترك له أنكيدو المجال للكلام. وإن صادف وسمح له بالتداخل فهو لا يسمع الحجج، ولا يريد مناقشتها. استغرب من قدرته على الاستمرار بمونولوجه الداخلي وكأنه وليد ليال طويلة من الصمت، والتأمل، والغوص في الماضي.

قال له بكلمات واثقة وبتعابير فيها عدوائية كامنة: خدمت في أوائل الحرب كجندي في أشغال بعقوبة العسكرية، وكنا نرى الدبابات والمدرعات تتجه في الطريق العام إلى الجبهة. تعرف هناك في تلك الجهة تقع الحدود الايرانية، وهي قريبة جدا، ما أن تخرج من خانقين حتى تصل إلى قصر شيرين، والقتال نسمع دويه أحيانا من مكاننا في المديرية. وفي الليالي الدامسة تضيء الآفاق حمرة مصفرّة تلوح في الشرق البعيد، وكأن هناك من يلعب بأعصابنا. وقد اعتدنا على الجلوس عصرا تحت ظلال النخيل، وأشجار اليوكالبتوس، بحثا عن برودة تزيح قطرات العرق من وجوهنا، وكنا نراقب الطريق الرئيسي المتجه إلى الجبهة. كان ذلك في أول صيف حدثت فيه الحرب. هل تصدق أننا كنا نرى صواريخ أرض أرض التي يطلقها الجيش على الإيرانيين، من سطوحنا، وكنت شخصيا أحس بالفرح، فأولئك لا تردعهم سوى القوة.

راحت شخصية أنكيدو تثير اهتمام ليث وفضوله وخوفه وهو يسترجع تلك الليلة الدامية. كان يعرف أنه يشرب البيرة بإفراط، يجلس وحيدا مغلقا الباب على روحه، منزويا في غرفته، هو والأغاني فقط. كتلة من الحزن. كتلة من الموت الحي. وما كان يدهش ليثاً كيف يتحول الفرد إلى كتلة مصمتة من الحزن، من الكآبة، من الاحباط، من الفراغ المرعب. نموذج لم يلتق به في حياته قط. الأغاني العراقية التي كان يسمعها كئيبة وباكية وحزينة طوال السهرة، تنتمي إلى عقد السبعينيات، ثم يسود الصمت في غرفته، وينطفئ المسجل، ليبدأ صوته واضحا يحاور شخصا ما في غرفته، بنبرة فارغة، فولاذية الوقع، منطلقة من قبر. صوت مرتجف وكأنه يقف أمام فصيل من فرقة

الإعدام التي كانت القوات العراقية تنشرها خلف الخطوط الأمامية لقتل من يتراجع عن المعركة. وحيد، إلا أنه يحاور أشباحا، فهل يحاور الشيطان؟ هل يحاور أمه؟ هل يحاور الشوارع التي ترعرع فيها؟ أم سمك بحيرة سبح فيها ذات يوم؟ هل يحاور برتقالة رآها تتأرجح أعلى غصن في بستان يلفه الغبار؟ لم يخطر على ذهن ليث أن يكون الرجل مجنونا، كيف لشخص وصل سالما إلى هذه الأصقاع أن يكون مجنونا؟ أول من يقتل في الحروب هم المجانين، المجانين الذين يمضون إلى المعركة بقلب بارد مطمئن. وقود الحرب إما يهربون أو تلمّهم القبور والفيافي، وليس هناك سوى المجانين من يؤمن بالحرب أو يدافع عنها. حتى غرفته تشي بصحراء روحه، غرفة عارية الجدران تخلو من الصور واللوحات، والشيء البارز الوحيد فيها ذلك الملصق الكبير الملون لنخلة عراقية باذخة، مثبت جنب النافذة العريضة المطلة على الشارع، وكانت النافذة بستائرها العتيقة تشي بعبور الزمن. كل ما في الغرفة سرير ضيق لشخص واحد، وخزانة خشبية للملابس جلبها له مكتب مساعدة اللاجئين حين سكن الغرفة، وهناك الطاولة الصغيرة جنب السرير ويقف عليها مسجل ضخم تحيطه أشرطة الأغاني. غرفة أنكيدو، بمجملها، تشف عن وحشة قاسية لروح رجل مقتنع تماما أنه نزيل مؤقت فيها، على أن تلك القناعة كانت متأصلة لدينا جميعا تقريبا، وبسبب ذلك ظلت مساكننا، وغرفنا، ومشاريعنا، مؤقتة، قلقة، لسنوات طويلة من أعمارنا. تأوهات وغمغمات مكتومة، ومسارات، وكلمات ناعمة، وظن ليث مرة أن جاره أدخل صديقة إلى غرفته، وشعر بالفرح، فها هو أنكيدو يخرج أخيرا من شرنقته. والنساء عادة ما يجلبن الطراوة إلى الأرواح الناشفة. لكنه اكتشف لاحقا أن ظنه كان وهما. كلمات الغزل المتخيلة الصادرة من غرفته لم تكن تصوّب سوى إلى جدار، جدار بعيد مرتسم في عقل أنكيدو.

نظرات الشوق المتخيلة المنطلقة مثل قذائف آر بي جي لم تكن موجهة إلى فتاة، بل إلى ساتر معاد، والرموش الراقصة في الخيال ما هي إلا أصابع موت

تومئ من بعيد لروحه المتعبة. استمر ساعات بمناجاة هامسة أحيانا، وبصوت عال بعض الأحيان، لأشخاص قد يراهم مرتسمين على ورق الجدران وستائر النافذة، ليرتكس بلا سبب إلى لحظته، يتعب من الحوار ويمضّه السكر، فيهدأ وينام. لا بد أن الرجل في قرارة نفسه يطمح بعمق إلى أن يكون جثة، فكر ليث بذلك وهو يجلس على سريره متسمعا، قلقا من الوضع البالغ التعقيد لصديقه. في بعض الليالي يبكي بصوت عال، ولم يتجرأ على سؤاله عما يجري له، وفسّر الأمر على أن الوحدة هي الدافع وراء حزنه وبكائه، أو أنه شخص يعيش في الماضي روحا وذاكرة، ثم كيف يمكن قراءة دواخل إنسان يرقص على حافة الموت؟ يستحضر بالتأكيد ضفاف النهر المعشبة، ويشم طلع النخيل في أول تفتحه، وتعنّ على باله جولات العصر مع أقرانه في شوارع شاحبة.

بدأ ليث يحنو عليه، ويستمع إلى هلوسته حين يقف في المطبخ بمشاعر خليطة من الدهشة، والعطف، والفضول، فهو نمرة عراقية جديدة لم يمر بها سابقا. التقى بمن يسكرون ويحرقون أيديهم بالسكائر، ومن يتحولون إلى وحوش عدوانية تثير الزوابع بسبب تافه جدا، ومن يتجهون إلى تقمص الخفة واللطف الغريبة على شخصياتهم المألوفة. التقى بمن يتذكرون الأطعمة الوطنية بهوس، أو يتذكرون أمهاتهم بوجد مبالغ به، أو أولئك الذين يقصّون أحلامهم الليلية وكلها جرت في العراق، وهذه أول مرة يلتقي فيها بشخص يحاور نفسه، أو يحاور أشخاصا يختلقهم خياله. اكتشف في تلك السنة، ومن خلال مراقبته لأنكيدو، حقيقة أن الأزمات تنكشف عند الانعطافات الحادة المفاجئة. نعم. هي صدمة الحضارة كما سمتها إنكا ذات شتاء بارد، وتلك الفكرة من بديهيات المعرفة من دون شك. زمنهم في هذه البلاد لا يمتلك تعرجات وانعطافات مثل زمننا، بل يخطو سلسا، متشابها، كأنه موسيقا ناي ناعمة. زمنهم له علاقة وثيقة بأمور لم نكن نعيرها أهمية، كالعمل والسفر للسياحة، وشراء بيت جديد، وتربية أطفال، والبحث عن روضة لهم تلائم مكان السكن، وأفضل الفرص لدراسة اختصاص جديد يوفر عملاً في المستقبل. لذلك كان

زمنهم غير مفهوم لدينا، بل وعمد البعض إلى السخرية من كل ما سبق. كنا نعيش في زمننا نحن فقط.

وفي تلك التحولات التي عشناها، عرفنا أن ليثاً تآلف مع مطبخه، وبيته، وغرفته المطلة على شارع رئيسي في المدينة، وتآلف مع زيارات آنا، وتفاصيل حركته داخل البيت وقد أصبحت ذات وتيرة رتيبة مثل كل شيء هنا. يذهب يوميا إلى مدرسة اللغة، يجلس مع لاجئين مثله أمام السيدة جاوانا لتعلمهم اللغة بجد ورزانة، بوجهها الأمومي، وشعرها الرمادي، تسيح معهم في خبايا المجتمع الذي يعيشون بين ظهرانيه، وتنقل لهم، مثل صديقة كبيرة، خبرتها الحياتية في هذا المجتمع، وبسعة أفق تثير الإعجاب. ليست مغترة بجمالها مثل السيدة إنكا صديقة كمال، فهذه امرأة تقترب منهم كإنسان فقط. أخبرها ليث بالصور الملتقطة، وعرض عليها عددا منها، ومن بين ما رأت رأس فيل في حديقة الحيوانات، وأبراج كنائس ملونة الشبابيك وهي تعكس الضوء الخفيف في العصاري الناعمة فيخرج الرائي إليها من شراك اللحظة حتى يشعر بنفسه خالدا، بلا زمن. اعتبرت صورة صخرة الرونغستين صورة إعجازية لهاو مثل ليث. ورأت نهاية الخشب المثبت لأسلاك شائكة في أحد الحقول زاره مع آنا بعد أن استعارا دراجتين هوائيتين من أحد أصدقاء آنا. وكذلك حصى البحر المختلف الألوان، والطيور الجديدة المعششة في غابات كثة الشجر، وغابات بدت لعينيه كما لو أنها موجودة منذ بدء الخليقة، أو على الأقل منذ انحسار الجليد عن الشمال. وعرض لها صور سمك "القد" وهو يتدلى ميتا من حبال متينة في باحة بيت صياد من الريف يركن قاربه مقابل جزيرة "فانو"، وقد شم في ذلك المكان الريفي الرائحة النفاذة الملتقطة من مسافة عشرات الأمتار. اللقطة التي اعتبرتها "جاوانا" فريدة من نوعها، وكشفت الموهبة الكامنة لدى ليث كما قالت، كانت لخشبة عريضة تربط بين جرف الميناء وسفينة راسية تحمل علم البرازيل، ويظهر في العمق سطح المياه اللامعة في الأسفل، وثمة طحالب كانت طافية مصادفة هناك، وسطها علبة معدنية فارغة للبيرة

الشهيرة "كارلسبيرغ". الألوان بديعة وتبدو كما لو أن رساما محترفا لوّنها بفرشاة، قالت له هي تحمل العين إلى التأمل في ايحاءات الموضوع وظلاله. لا تنس أن لكل صورة ظلالها. ونبهته جاوانا إلى هدف بعيد لم يفكر به حتى تلك اللحظة كونه خارج مداركه الغضة، فهو لم يزر في حياته متحفا للصور أو معرضا للوحات التشكيلية. وتلك عادات لم تكن مألوفة في البيئة الضيقة التي عاش في كنفها. كانت من عادات النخبة فقط، وليث لم يكن في يوم ما من النخبة أو قريباً منها. اقترحت عليه تكبير بعض الصور بأحجام مناسبة لكي تؤطر، وتعرض في مكان ما، كأن يكون في المكتبة المركزية، أو مكتب مساعدة اللاجئين، أو حتى في دار من دور حضانة الأطفال. فنحن أمام عين أخرى وعلينا الاحتفاء بها، قالت له. إعجابها بالصور حمل مشاعر التشجيع بشكل واضح.

ومع خيوط البسمة الصباحية المرسومة فوق الأبراج وذرى أشجار السرو، ذهب مع آنا في يوم سبت إلى محل المصور الذي باعه الكاميرا، واعتاد تبييض الأفلام عنده. قال له العامل في المحل: فقط اجلب لي الصور التي ترغب في تكبيرها، وما دمت تمتلك "النيجاتيف" فيمكن انجاز العمل بسرعة، وبسبب آنا الواقفة جنبه راعاه بالسعر. اتفقا على المضي بالمشروع مع الشك في النجاح. وفي تلك الليلة نبهته آنا، وهي تحتسي البيرة معه في غرفته، أنه يمكنه الحصول على دعم مالي من مكتب مساعدة اللاجئين، فلديهم الإمكانية لدفع التكاليف، التحميض والإطارات والأفلام، ضمن بند "دمج اللاجئين". قضى ليلته سابحا في أحلام الشهرة، متخيلا الصور وما تلاقيه من إعجاب من قبل الجمهور، ثم المقالات التي سيكتبها نقاد الفن في جريدة المدينة عن الموهبة العراقية القاطنة بينهم. سيسمع كمال الشاعر بنجاحه، ويوقن بأن نبوءته كانت في محلها، لكنها اتجهت إلى حقل الفوتوغرافيا لا حقل الكتابة. وسيأسف مراد بالتأكيد على الجريمة التي مارسها بحقه. وسيتناهى الخبر إلى نائل أيضا رغم سكنه في العاصمة. أما تدفق المال فلم يأبه له كثيرا، فلم يكن من النوع المأخوذ بالثراء.

اختار مع جاوانا خمس عشرة صورة من ملتقطات صوره في الأسابيع والأشهر السابقة، الصور الناجحة كما سمّتها جاوانا، الصور الخالية من الخلل سواء بتناسب الألوان أو الموضوع المثير المغري لعين المشاهد. فكرة المشروع بحد ذاتها أعطته دافعا هائلا لمواصلة العيش، واهتم أكثر بدراسته للغة الانكليزية، رغم أنه لم يعجب كثيرا بالمعلمة المسؤولة عن التدريس بسبب سمنتها، وكانت مثل برميل من اللحم، تتقرب منه بطرق غير مباشرة. لم يرتح لنمط الأشخاص الدارسين في "الكورس"، وكان أغلب الموجودين من النساء، العجائز خاصة، اللواتي لم ينلن حظا من التعليم، فالجيل الشاب كما فهم من آنا معظمه يتقن الانكليزية، وهو ليس بحاجة لدراستها في المدارس الشعبية. استمر بالدراسة تساوقا مع قراره بعدم تضييع الوقت، وعليه أن يملأ فراغ ساعاته بفعل ما يضيف له كل يوم جديدا. علاقته مع أنكيدو ظلت تراوح في مكانها لا هي بالباردة ولا بالحميمية، وكان يسمعه في ليالي القلق والوحشة، وحين يجن الليل، وينام الناس، وتغلق النوافذ، وتخف الحركة في الشارع المحاذي للبيت، يسمعه والجا في مستنقع هلوساته المتلاحقة، ومحاوراته مع شياطينه الغامضة وشخصياته المتوارية فيما وراء الغيب. تقبّل جيرته مثل مرض طارئ لا يمكن تفاديه. وكثيرا ما كان يشعر بالأسف نحوه، شخص خرج من معارك بشعة طاحنة، واجتاز حدودا ملغومة بالموت، وتنقّل بين بلدان، ركب طائرات وقطع بحارا، ينتهي به الحال على سفح الجنون! مصير عدّه غير منصف ويفتقد للرحمة. مصير لا إنساني. وفي نهار صيفي مشمس، وعند الصباح، نزل إلى المطبخ لإعداد قهوة عربية لآنا بعد أن اتصلت به وأخبرته أنها ستزوره ليشربا القهوة التركية، كما تسميها، حيث أحبتها ووجدت أنها تختلف عن قهوة المكائن التي يتعاطاها الجميع هنا. وكان ليث واقفا جنب الطباخ يحرك القهوة في الدلة النحاسية التي اشتراها من محل بيع الأنتيك ووجدها ملائمة لصنع القهوة. كان بمزاج رائق، يراقب الطيور من شباك المطبخ تتنقل

من غصن إلى آخر، بأشكالها الغريبة عليه. فيما يشرد ذهنه أحيانا إلى فكرة المعرض، والأحلام المرافقة لها، من شهرة وثراء واعتداد بالنفس.

جاء أنكيدو إلى المطبخ بغتة، ألقى عليه تحية الصباح، وكان كعادته يشفط سيجارته كما لو كانت السيجارة الأخيرة في حياته. بدون أن يتريث ولو لحظة واحدة راح يلقي مونولوجه غير المترابط، بصوت تعب جدا هذه المرة، صوت مشروخ من الشراب والدخان والغربة والحنين، كما لو أنه يتابع حوارا سابقا معه: لماذا جلبتنا الرياح إلى هذه الشواطئ؟ ينبغي على كل عراقي أن يسأل نفسه، بل على كل عربي. نحن نختلف عنهم. في طفولتي كانت ألعابنا مثل حلم. نذهب صباحا إلى النهر، نقضي الوقت مع السمك، والجنادب التي ترفرف بأجنحتها على سطح الماء وكنا نراها وكأنها واقفة، وأجنحتها تخفق وهي تتملى في السمك، والغرين، والرمال المحمولة بالمياه الجارية. سحر يأخذ بلب المرء. نترقب الغاق وهو يسبح في مسيل الماء، كأنه راقصات غجريات. الرمال قرب الشاطئ تلسع أرجلنا بالحرارة، كنا سعداء على رغم أننا لا نرتدي أحذية. نرمي بدشاديشنا على الشاطئ ونلقي بأجسادنا الضامرة إلى الجنة. تلك هي الجنة، لا الحياة التي نحياها. هذه البلاد ليست جنة، فنحن غرباء فيها. حتى لو عشنا مائة سنة فيها نظل غرباء. عيوننا لا تغير ألوانها، وسمرتنا ملتصقة بجلودنا، وتأتأتنا باللغة لن تزول، فهي ليست لغتنا التي رضعناها مع حليب أمهاتنا. تخيل أن طفولتك ترتكز على الصيف، على صيد السمك بالشص، وعلى تتبع أعشاش اليمام في رؤوس النخيل. كنت أمتلك قفصا في البيت أملأه بفراخ اليمام كل صيف، يكبر اليمام ونلتهمه مشويا على نار السعف والكرب، مملحا بنكهة الدخان. كيف يمكن اقناعي بمكان لا يوجد فيه يمام في رؤوس النخيل؟ بل ولا يوجد فيه نخيل حتى؟ آنذاك، في زمن الحرب، كنا ننهي واجباتنا في دائرة الأشغال الواقعة على مشارف بعقوبة، ننزع بدلاتنا العسكرية في غرف الدائرة ونمضي إلى البارات المنتشرة على نهر خريسان. ربما لم تزر أنت المدينة، كانت هناك عشرات البارات منتشرة على ضفاف النهر، ادخل وسترى الزبائن

الفلاحين الجالسين بكامل عدتهم، الدشداشة والحزام القماشي و"الجرّاوية" والقطاعة المثبتة في الحزام، والتوق الهائل لطعم البيرة. حول الطاولات الخشب المحروقة بنيران السجائر، يتحلقون مثل ملوك آشوريين ركنوا للراحة. زنخة الكباب والتكة وطيور الحمام تفوح في فضاء البار، اللبلبي والباقلاء واللبن الحامض ورائحة المستكي، الضحكات تتصاعد والموّالات الحزينة والذكريات تسيل من بين شفاه الرجال قساة التعابير، مدموغة بمرارة الزمن. تعرف يا ليث ما هي مرارة الزمن؟ إنها الذكريات الحلوة الجميلة التي لن تعود مرة ثانية، وهل يمكن استعادة الزمن؟ الهندسة والعلوم الفيزياوية ونظرية آينشتاين، لم تصل إلى حقيقة استعادة الزمن. مجرد نظريات. أما في الواقع، في الملموس، فما غاب من السنين لن يستعاد ثانية، اللهم إلا في الأحلام. لو تعرف الكوابيس التي تزورني في المنام. مرعبة، تهبط على الروح مثل مخالب متوحشة، لا تعرف من أي جب أو كهف تنبعث. لا تلغيها كل نساء هذا البلد الشقراوات، ولا بساتينه، ولا حدائقه، ولا شوارعه النظيفة، ولا نقوده التي تعطى لنا كل شهر. كوابيس لا أعرف كيفية التخلص منها. أتمنى لو تمتلك دواء شافيا لحالتي. أتصدق أنني أرى الموت على شكل سلك رفيع؟ سلك رفيع يتسلل إليّ من ثقوب الشباك وشقوقه. أراه يتقدم نحوي، يتوهج بلون قريب من الأحمر، فأمتلئ رعبا ولا أعرف أين أضع نفسي. تكاد روحي تخرج من جسدي، ويقف التنفس في رئتي، وتتوتر خلاياي وكأنني أقف أمام فصيل غاضب يمسك بنادقه لإعدامي. لم أكن هاربا من الجيش مثل الآخرين الذين وصلوا إلى هنا، كلا. في عز الحرب نقلوني إلى "ربية" في رأس الجبل قريبا من سيد صادق، وهي قضاء يتبع محافظة السليمانية، قرب الحدود الإيرانية. لماذا نقلوني إلى هناك لا أعرف. كنت مؤيدا للحزب، ولا أنتصر لرأي معارض للدولة، لكنهم نقلوني من مديرية أشغال بعقوبة إلى ذلك المكان البعيد. ووجدتني أقطن في رأس الجبل، داخل حفرة كنا نسميها الموضع، معي سبعة من الجنود، يقودنا عريف بسيط من سكنة العمارة. وذات ليلة غاضبة، هطل بها الثلج حتى غطى باب الموضع تماما،

وعوت الريح كأنها ذئاب جائعة تروم التهامنا، هجم علينا "البيشمركة" وأمسكوا بنا كما تمسك بالدجاج في آخر الليل. حارسنا كان نائما ملتفا ببطانية سميكة. أسرونا من دون مقاومة، ونقلونا إلى مقراتهم الخلفية، وبمصادفة غريبة تعرفت على واحد منهم ينتمي إلى الحزب الشيوعي، كان من مدينتنا، ويعرف عائلتي، فتوسط لي عند القيادات العليا وأنقذني من الأسر، وسهّل لي العبور إلى إيران. ومن هناك تدبرت نفسي للوصول إلى الجنة، ألا تسمونها الجنة أنتم العلمانيون المعارضون؟ إنني أختنق يا أخي ليث. في الليل خاصة. اعتدت أن أشرب عشر قناني بيرة، ثم أتذكر كل ذلك الماضي، ويتجسد لي بين فراغات الهواء أشخاص أعرفهم. يحضرون إلى غرفتي، أراهم رؤية العين، يجلسون على الأريكة التي حوّلتها إلى سرير. أمي، أبي، أخي الكبير، وهو مقاول درجة ثانية يشتغل مع الجيش، أصدقائي الذين كنا نجلس سوية في البارات المطلة على نهر "خريسان" ونتفكّه على الحياة بالنكات والطرائف، ونتناقل أخبار المعارك الدائرة في الشرق، ونذكر أسماء من نعرف من الشهداء أو الأسرى، وننمّ على بنات المنطقة، ونحلم بلقاء فتاة نتزوج منها لنؤسس عائلة. أراهم بوضوح. كيف أقسم لك؟ أراهم في غرفتي، وأتكلم معهم، ويسألونني عن غيابي الذي طال، وأسألهم عن الأشخاص الذين يهمونني، إن طواهم الموت أم ظلوا أحياء، وأشهر شخصيات المدينة والمنطقة التي عشت فيها. يجاوبونني، باختصار شديد، يقطّرون لي المعلومات ببخل كبير. وأنا لا أرتوي من الأسئلة، في داخلي فضول لمعرفة أدق التفاصيل. وأنت تعيش في الغربة لا يبقى لديك سوى الذكريات، فعمرك صار وراءك. لكن أصعب لحظة أعيشها حين أضع شريطا في مسجلي لإحدى الأغاني، ثم لا أمتلك سوى الدموع، أسحّها على خدي كما لو كانت ماء. لا أسمع سوى الأغاني العراقية، فهي تعبّر عن أحزاننا بشكل صادق. تخيل شخصا يعيش وسط بشر لا يشبهونه، ويرطنون بلغة كلغة النمل، يطعموننا ويسمنوننا كما لو أنهم يعدوننا للذبح. شفطوا نفطنا طوال عقود من السنين، وامتصوا خيراتنا، وباعوا لنا سلاحا من أجل إدامة شركاتهم، ومن أجل أن يقتل

بعضنا بعضا. هم جنوا علينا، نحن القادمين من الصحراء، بدو التاريخ، القرود الحديثة العهد بجنسها البشري. نحن أبناء الشوارع المغبرة، والدبابات والصواريخ أرض أرض، والسمتيات، وسواتر التراب في قاع المعركة، وتمور الزهدي ونبات الحلفاء والطرفاء، والسائرين بلا أحذية في طرقات القرى وأزقة المدن المنسية. نحن غجر هذه الأزمان الرمادية التي تمهد للقيامة. هي أموالنا. وجلبونا لكي نلقح نساءهم فهم في طريقهم للانقراض. هم لا ينتجون سوى طفل أو طفلين، وخلال عقود سيكون الأموات منهم أكثر من المواليد. ولهذا جلبونا إلى هنا. ليس من أجل سواد عيوننا، هؤلاء شياطين، لهم خطط بعيدة المدى. ألا تذكر ما صنعوه بالهنود الحمر؟ وملايين الأفارقة الذين حولوهم إلى عبيد في مزارع القصب؟ مليون إنسان ذبحوا في الجزائر. يبيعون السلاح للطرفين، العراقيين والإيرانيين، هل تدرك اللعبة؟ مصانع السلاح هي ما تتحكم بحياة البشر على هذا الكوكب.

أنقذ ليثا من وتيرة الإنثيال المدمر وصول آنا، حين فتحت الباب الخارجي بضجيج مسموع لافت للانتباه، فانسحب أنكيدو إلى غرفته تاركا ليثا مبهوتا، يحمل القهوة الجاهزة، المتصاعد منها البخار برائحته الفاغمة، الرائحة التي تحبها آنا. وجدته ذاهلا، يلوّن الشحوب بشرته كلها. "عينا صديقك تملؤني بالرعب"، قالت له وهما يصعدان الدرج، ولم تكف من التحديق في ملامح ليث، فيهما تعابير غير بشرية، "أحسست وكأنه يرغب في التهامي، لديكم تعابير قاسية في وجوهكم، أنا أتفهم الظروف التي عانيتم منها، وأعتقد أن لديكم فرصة ذهبية للانسلاخ من الماضي". ولاحظ وجهها الفرح وهي تحتضن رزمة كبيرة من ورق بحجم ضخم، مستأنفة حديثها بوجه مضيء: لقد جلبت الصور المكبرة من المحل. خمس عشرة صورة، سماها ليث لوحات، تلخّص عمله وجهده طوال الأشهر الماضية في مغامرته التي دخلها بلا معرفة مسبقة بفن التصوير، وأصوله، وجمالياته. لقد اعتمد على حدسه الداخلي، وعلى عينيه، وإصراره على الخروج من أسواره المتخلفة لبناء ذاته المسحوقة، المصادرة،

والمغيبة. واتفق مع آنا على شراء أطر لملتقطاته المصورة من سوبرماركت دالاس، وأخذ فكرة المعرض بجدية.

ما كان هواية يترسخ مشروعا واضح المعالم.

وفكّر أن عليه قراءة مزيد من الكتب حول فن الفوتوغراف، وسيستعير من المكتبة المركزية كتبا تتناول أهم التجارب في تاريخ فن التصوير العالمي. وربما سيبحث عن دورات في هذا المجال، وهي منتشرة بكثرة حسب ما سمع من المشرفين الاجتماعيين وبعض الأصدقاء، وقد يكون ذلك ذريعة مناسبة لدراسة التصوير في لندن، هناك هم بارعون في هذا المجال مثلما أخبرته المعلمة جاوانا، وقرر مفاتحتها بأمر المعرض ما أن يضع الإطارات ويجهز نفسه للحدث الكبير. وراودته أحلام ملونة طوال الفترة، سواء حين يكون في المدينة أو حين يكون وحيدا في غرفته. سيعرض ذات يوم صوره في واحدة من الصالات المنتشرة في بغداد، وكيف سيفخر به أصدقاؤه ومعارفه وجيرانه وأسرته، لكنها مجرد أحلام في النهاية.

١٣

أقيم المعرض في صالة المكتبة المركزية، وأشرف على إعداده وتكلفته مكتب مساعدة اللاجئين. افتتحه مدير المكتب، حيث أشاد بكلمة الافتتاح بقدرات اللاجئين الفنية، واعتبرهم الدم الجديد المضاف إلى خبرات البلد، ووصل إلى تساؤل مهم حول هذه الظاهرة الحاضرة بينهم: كيف يمكن الاستفادة من الكفاءات الوافدة التي قررت مدّ جذورها على هذه الجزر؟ وألقى ليث كلمة قصيرة شكر بها المكتب والمدينة التي احتضنته وصديقته آنا التي كانت عونا له في ترتيب المعرض، ولم ينس معلمته جاوانا. ثم مضى الحدث بسلام لولا عثرة غير محسوبة من أحد المدمنين، ولا يعرف كيف دخل إلى مبنى المكتبة، ولا كيف وقف أمام الحضور وهو يحمل قنينة بيرة توبورغ بملابس رثة وذقن طويل. أخذ يصيح بصوت عال مخاطبا الحضور: "هؤلاء العلق جاءوا إلى بلدنا لسلب نسائنا منا. نساؤنا يفضلن العضو الأسمر، وهذه حقيقة مجرّبة. فوق ذلك يأخذون نقودنا بدون أن يقدموا أي عمل مفيد للبلد. يمكنني أن أقدم لهم كسرة خبز إذا كانوا جائعين، نعم. لكنني أعلن أمامكم أن من الأفضل لهم العودة إلى بلادهم. نحن لا نحتاج إلى المحمديين، فلدينا من العاطلين عن العمل ما فيه الكفاية، ولدينا شحة في الشقق، واكتظاظ بالبارات والأسواق." تنفس المدمن بعمق، وحدق شزرا بالموجودين، حيث ران عليهم سكون متشنج وقلق، وكان أغلبهم من أصدقاء ليث في المدرسة، وموظفي مكتب مساعدة اللاجئين، والمتعاطفين مع الأجانب من أحزاب اليسار، ومناصري البيئة، والشواذ. ثم أحتسى رشفة من قنينة البيرة وواصل كلامه بثقة هذه المرة: "دعوا حروبهم هناك، لا تنقلوها إلينا. دعوا جوعهم في بلدهم فلسنا بحاجة إلى عاطلين إضافيين عن العمل. نحن لا نفهم حتى لغتنا التي يتحدثون بها، فلهم لكنة ثقيلة تخدش الأذن. أيها الأجانب الخنازير عودوا إلى

بلادكم. نحن لا نحبكم. نحن مسيحيون وأنتم مسلمون. يخرج صياد السمك بقاربه منذ الفجر إلى عرض البحر لكي يصطاد السمك، يدفع الضرائب الباهظة، نصف ما يحصل عليه، وتأتون أنتم لتعيشوا على جهده. نبني السفن في الميناء، نربي البقر ونصنع الحليب والجبن، نزرع الحدائق ونشيد الجسور، ثم تأتون إلينا تمتصون جهدنا مثل العلق. أقول لكم بوضوح: لا تقربوا نساءنا." صمت متأففا، نافخا، زافرا غضبه، وبدأ يسحب دخان سيجارته بقوة ومتعة، وكأنه تخلص من واجب ثقيل، وكان الدخان ينتثر من فمه كمدخنة. وبوغت الحضور بدخول عدد من أفراد الشرطة اقتادوا السكير خارج الباب.

"صدمة"، كانت هي الكلمة الوحيدة المعبرة عما استولى على الحضور مما حصل، وكأنهم شهود على نهاية عرض مسرحي سيئ التوقيت. ثم بعد دقائق مضت الحفلة قدما إلى نهايتها، وأظهر الحاضرون مشاعر النسيان والتجاهل لتلك الكبوة. ولمس ليث الاعتذار غير المنطوق في عيني آنا الزرقاوين، وألقى مدير المكتب كلمات لطيفة تدين بشكل غير مباشر العنصري السكير، فاقد الوعي والضمير، الذي تكلم ببذاءة لم يألفها المجتمع حسب تعبيره. وزّعت الحلويات وتبادل الحضور كؤوس النبيذ الأحمر، وشراب البرتقال الطازج، واعتبرت الفعالية ناجحة، حتى أن الجميع، تقريبا، تجاهلوا الفاصل المزعج الذي قدمه السكير. وانشغلنا ردحا من الزمن في الحديث عن مغامرة ليث في حقل التصوير. وفي الوقت ذاته، وعينا حقائق كثيرة في تلك الفترة. أقل ما توصف بأنها مرّة وجارحة.

هناك شريحة واسعة من المجتمع لا تحبنا، لقد عبر السكير بالكلام عما يدور في خلد البعض، لكننا كنا نلاحظ إشارات رفض واستهجان لوجودنا. ثمة من كان يبصق على الأرض أثناء مرورنا في الشوارع، وثمة من يرفع اصبعه الوسطى في وجوهنا من بعيد حين مرورنا في الدروب والغابات والشواطئ. وثمة من ينظر إلينا بحقد وغضب، أو يتعمد عدم الفهم حين نخاطبه بلغته، وكأنه يستنكر حديثنا بلغة تخصه وحده. وثمة نساء يتجاهلننا في المراقص كأننا

أشباح غير مرئية، ويرفضن مراقصتنا أو حتى الجلوس معنا على الطاولة ذاتها. وكنا نردد عادة: كلا. ليس الجميع، البعض فقط منهم يرفض وجودنا.

لم يمر يوم من حياتنا إلا ونشعر بأننا غرباء. تلك المشاعر القاتمة وقد راحت تتغلغل في أجسادنا وعقولنا مثل سم بطيء. صحيح أنهم وفّروا لنا كل ما نحتاجه إلا أن الغربة لم تزايلنا يوما. أجل، لكل مجتمع عاره، وهو لسان حال أبناء البلد. أما ليث فعاش بعد تلك التجربة ذاهلا فترة من الزمن، تتخاطفه مشاعر متناقضة لم يستطع فهمها.

وذات يوم نزل ليث الدرج بخطوات متمهلة كي لا يوقظ صديقه أنكيدو، وشرع بإعداد فطور من البيض المقلي والنقانق. وضع إبريق الشاي على النار ولقّمه بحفنة من الورق الأسود وصعد ليتناول فطوره بسلام، وكان يوم أحد. يوم بغيض، تقفل فيه المحال والدوائر فيتحول شارع المشي إلى مسطح فارغ يخلو من الحياة. الشارع تحت شباكه كان يركن إلى سكون عميق، وحين يحدق من شباكه لا يرى سوى مارة قليلين، فتيات يجرنّ كلابا للفسحة، متريضين يستغلون الفراغ للركض، وعجائز يمضهن الجلوس وحيدات في شققهن فينزلن إلى الشارع لتحريك أرجلهن المتخشبة، بعد أن تعبت عيونهن من التحديق في أثاث بيوتهن الذي مرت عليه عقود السنين بدون تبديل. البريد في عطلة، ولا يتوقع ليث أية رسالة. الرسالة يد ممدودة للمصافحة، خبر يأتي من بعيد، يد تلوح من مسافات شاسعة، من وراء القارات والبحار. يصعب جدا هضم الشعور القائل أن لا أحد يفكر بك. لا أحد يهمه إن كنت حيا أو ميتا. بعض الأوقات يعيش بهذا الشعور، ويستولي عليه تماما. يحس بجسده ميتا، ويحس بروحه خاوية. هل هو أنكيدو بنسخة أخرى؟ الجدران تضغط على صدره. الصمت ينخر في خبايا نفسه. مرة شعر أنه صرصورٌ خائف ما أن رأى واحدا في الحمام، كان لابدا تحت البانيو. الوحيد يتماهى مع الأشياء في محيطه، كالجدار، والورق المصفر، وحافات النوافذ المتآكلة، والحشرات النادرة الظهور في ألفة البيت وهي تشاركه هذا المنزل. لم يسمع أي حركة في المطبخ، ولم تكن

هناك موسيقا لفيروز كما اعتاد جاره أنكيدو سماعها بصوت عال. فأفضل مغنية تليق بالمغتربين، كما قال له ذات يوم، هي فيروز، يتلخص الشرق في كلماتها، وألحانها، لتجعل المرء يحس وكأنه يعيش في بيته الأول. جذب الصمت الذي يلف بابه نظره وذهنه، ولم يسمع أي صوت في الأسفل، وقد اعتاد جاره النهوض باكرا كعادة السكيرين لإعداد فطوره، وشايه العراقي، وتناول سيجارته الصباحية بعد الشاي. لقد اعتاد أن لا يدخن قبل أن يفطر ويشرب شايهُ الثقيل المطعَّم بـ "الهيل" الذي يذكّرهُ بشاي العائلة. راودته فكرة أنه مات في سكره وهو ما يسمونه الشرب فوق التحمل، مثل الهيرويين والكوكايين، وسمع عن أشخاص ماتوا بسبب تناولهم جرعة زائدة لا يتحملها قلب الشخص. مرت الساعات الطويلة، ولبث الباب مغلقا، وتلاشت الأشباح من دون أن يرى ليث جاره الغريب المسمى أنكيدو.

غاب أنكيدو الأحد والإثنين والثلاثاء، ولم يظهر في الأربعاء والخميس، ومرت نهاية الأسبوع وظل الباب صامتا، والطباخ ميتا، ووجه أنكيدو الأسمر المدبوغ برشة خفيفة من اللؤم لم يبن في البيت. حتى الضوء لم ينر في غرفته، كما لم يسمع ليث، وعلى امتداد أيام وأيام، الشباك يفتح لتهوية الغرفة. طرق الباب مرارا ولا جواب، وأدرك أن جاره في أزمة، وأنه بحاجة لأن يسأل ويتحرى عن غيابه. التقى مصادفة بصديقه نيازي في كافتيريا "دالاس" برفقة صديقته، وعرّج حديثهما عن أحوال المعارف في المدينة ففاجأه نيازي قائلا: "لم تركته يرحل؟" تطلع ليث في وجه نيازي مستفهما غير مدرك لما يقصده، فسأله بسيماء مستغربة:

– ماذا تعني؟ ومن هو الذي تركته يرحل؟

– صديقك وجارك أنكيدو، عاد إلى العراق، غادر الجنة متجها إلى الجحيم، لن تقنع الشيطان في دخول الجنة يا صديقي. مستحيل. الصرصار يموت في الأماكن النظيفة.

تلقى صعقة الخبر فأدخلته في شلل تام، ولم يبق فيه حيّ سوى عينيه المتراقصتين المدهوشتين بما أخبره به نيازي. للحظات أعاد الشريط الذي يظهر فيه أنكيدو، أحاديثه، أحلامه التي اعتاد أن يقصها عليه، كوابيسه، الأشخاص الذين كان يحاورهم في لحظات السكر وفقدان الخيوط بالواقع، إلا أنه لم يجد نتفا من قصصه توحي بمخططه للعودة إلى العراق. أخبره ذات يوم أنه عادة ما يسمع أصوات أمه وأبيه وأخواله وأقربائه، وأصوات أصدقاء أبيه، ترن في أذنيه بنبراتها القديمة، وجرسها المميز وكأنها حاضرة أمامه. يميز صوت هذا عن ذاك، والبعض منهم مات قبل عشرات السنين. واستولت عليه الحالة لدرجة أنه راح يتسلى بها، ليختبر ذاكرته فقط. لكنها، وكما تأمل ليث بحادثة أنكيدو، قفزة جبارة إلى الهاوية. سوى أن ما لم يعرفه ليث، وانتشر بيننا نحن القاطنين في المدينة، ووصل إلى العاصمة، أن أنكيدو بلغ نقطة اليأس في البلد. سكنه هاجس الرفض للحياة التي يحياها، وكان يختنق كلما هبط المساء. ترك دراسة اللغة واتجه إلى السكر، والعزلة المرافقة له عادة، وشكا لأكثر من شخص أنه لم يعد يحتمل البقاء. "بقعة لا تلائمني" كان يردد دائما. هي جحيم بالنسبة له، بردها ولغتها وناسها. الجنة هناك خلف ظهره، في تلك الشواطئ المزهرة بالثيل والبردي، والحلفاء الغاصة بالسمك والغاق، والبساتين الفائحة برائحة القداح، والبارات التي يرتادها فلاحو الهويدر، وخرنابات، وبهرز، وشفته، وأبي صيدا، بقطّاعاتهم المرعبة، وعيونهم العوراء بسبب سلاء النخيل أثناء التلقيح، ودخانهم المتصاعد من أفواههم مثل أبراج معامل طابوق. حياته هناك خلف البحار والجبال والصحاري، في تلك البقعة المشهورة بإنتاج البرتقال، والتمر الخستاوي، والرمان.

عودة أنكيدو إلى الوطن ذكّرته بكلمات ذلك السكير، سكير المكتبة. كانت راسبة في عقله، تنقر مثل طائر الخشب في السنديان، ويسترجعها في الباص حين يمضي إلى المدرسة، وفي المقهى الذي اعتاد الجلوس فيه، مقهى "دالاس" حين يلتقي مع بعض الأصدقاء، وحتى حين يضع رأسه على الوسادة. الرفض

لهم عادة ما يتمظهر برموز، وإشارات، وجمل ملغزة، ونظرات تحمل المقت والكره السافر أحيانا، لكنه مع الرجل السكير، أسفر عن نفسه بكلمات واضحة. المدينة كانت تتوجس منهم، تحتقرهم، وجاء التوجس والاحتقار على لسان شخص مهمل من قاعها. يستولون على نسائهم، يعيشون على حساب دافعي الضرائب، يخرّبون تناسق مجتمعهم بأفكار وافدة دينية، واجتماعية، لا تتسق مع ما بنوه خلال قرون من منظومات للقيم، والسلوك، والأعراف. بعد هروب أنكيدو سافر ليث إلى العاصمة عبر القطار، ونام هناك، واستطاع مقابلة القنصل البريطاني في السفارة، وشرح له مشروعه في تمتين لغته الانكليزية، ومقدار عشقه لها، وتوقه كي يتواصل مع بيئتها الأصلية. وأطلعه على كتاب تأييد من المدرسة يثبت اشتراكه في دورة اللغة الانكليزية في مدينته، وملأ استمارة طلب الفيزا، وثبّت لهم عنوانه، ثم عاد مع قطار الليل في اليوم الثالث من دون أن يفكر بلقاء أي شخص من أصدقائه القدامى. النشاط الوحيد له خارج ذلك الإطار زيارته مع نائل لحديقة "الفيليباركن" حيث تسكعا عصرا بين خيم المحتفلين بعيد العمال. لكن بسبب الزحمة الكبيرة، وفوضى الاحتفال، والمطر الغريب الذي هطل على المحتفلين بغتة، سرعان ما فض التجمع الهائل وأنزلت البالونات الطائرة من السماء، ولملمت الفرق الموسيقية أجهزتها، وتبعثر الراقصون والمهرجون بين الشجر، وأصحرت الحديقة إلا من المياه المتدفقة من السماء. واكتفى ليلا بالجلوس في كافتيريا المحطة مع نائل، وقد استرجعا خلال ساعتين أيامهما في الجزيرة، وكان سرير ليث يقع فوق سرير نائل بالضبط في القاعة المجاورة للمطبخ. تأخرت الفيزا شهرا كاملا، وأصبح ليث مؤهلا للرحيل، خاصة بعد أن غادر أنكيدو عائدا إلى العراق، وظل وحيدا في دهاليز البيت. لم يخبر آنا بأنه ربما لن يرجع إلى البلد، لكنه هيأ روحه لفراقها فراح يقلل من فرص رؤيتها، حيث يمضي بعض المرات أسبوع كامل من غير أن يلتقيا. أوضح لها أنها سفرة لأسابيع ثم يعود بعدها، وقد أصبح تطوير لغته الانكليزية هاجسا يوميا، أليست هي اللغة العالمية الأولى على هذه الأرض؟ وشرع يتخيل

الهايد بارك، و "الفش أند جبس"، ومتحف الشمع، ونهر التايمز، والبيرة السوداء، وحي سوهو، مستعيدا ذلك التاريخ العريق للإمبراطورية الذي اطّلع عليه في العراق أثناء الدراسة. وإن تهيأ له ظرف مناسب قد ينضم إلى كورس في لغة التصوير وفنه. ولتأكيد سرعة العودة سلّم المفتاح لآنا، وطلب منها انتظاره. سيعود حتما. كما طلب منها أن لا تودعه في الميناء، فهو شخص لا يحتمل العواطف في مثل هكذا مناسبات. كان يعشق اللغة الانكليزية منذ الخامس الابتدائي، لا يدرك السبب، لغة يشعر بها تنطبع في ذهنه بسهولة، وحين دخل فترة المراهقة والشباب بدأ يبحث عن قصص مبسطة، كان يقرأها بمساعدة قاموس المورد الصغير، وخلالها عاش ساعات كانت تشعره بالتفوق الشخصي، وظل حلم العيش في مدينة إنكليزية كامنا في روحه طوال هذه السنوات. ذات مرة حصل على مسرحية لشكسبير، إلا أنه لم يوفق في فهمها، لقد اكتشف أن اللغة الانكليزية مستويات، وأن لغة شكسبير لغة قديمة قد لا يفهمها حتى الإنكليز المعاصرون. ينبغي عليه أن لا يلتفت إلى الماضي بعد اليوم. يتقدم إلى الأمام فقط. وهذه الفرصة لن تمنح له ثانية، فالحياة لا تكرر نفسها في الجسد الواحد مرتين. ثم قرر مع روحه أن لا يعود إلى الخلف مهما حدث. سيبتعد عن كرة النار التي تلاحقه منذ أن وعى على الدنيا، كرة تلاحقه حتى في نومه. وهي ذاتها ما دفعه نحو الشمال، نحو برد وصقيع وضباب، وعليه ألا يشعر بالندم. ها هي مدينة أخرى يغادرها. يعتقد بعض الأوقات أن لكل كائن قدر لا يمكنه التهرب منه، النجاح يحصل حين يفهم المرء سر ذلك القدر، والفشل، بل قل المأساة، حين يعاكس المرء قدره ويتنكب الطريق غير المهيأ لاجتيازه. وقد اقتنع ليث بأن طريقه الصائب يتمثل بالمغادرة، بالرحيل نحو أفق جديد.

١٤

عند صباح الرحلة ألفى الرصيف عاجا بالمودعين من أهل المدينة، والسفينة تقف في الميناء مثل جبل حديدي. كان وحيدا بين الجميع، وسيرفع المرساة ويرحل. كان واقفا قرب حاجز السفينة، وفكر في أن رحيله أليم من غير مودعين يبادلونه قبلا، وابتسامات، ونظرات ندية تستجلب حظا مؤاتيا لرحلته، وعودة قريبة إلى النوارس والشوارع المعبأة بالأضواء. لا مغامرة من دون ثمن، هي تشبه التقاط الصورة بكاميرا، إذ على المرء أن يمتلك الشجاعة لتأبيد الزمن، والمغامرة تأبيد لذاكرة جديدة تضاف إلى مخزن الفرد.

طقس شتوي يلف المدينة، ضباب ونثيث من المطر وبيوت وعمارات تتلاشى نهاياتها في غيوم داكنة تتحرك في الإتجاهات كلها، وبدا البحر مندغما مع تلك الغيوم، واللون الرصاصي طاغ على الآفاق. على الرصيف شباب نزق يرتدون حللا من الجلد الأسود تغطيهم غيوم من الدخان تتصاعد من سجائرهم، وفتيات حليقات الرؤوس، ملونات الأجفان والشفاه، مقبلات على الحياة بسعادة. عجائز يضعون سماعات لاقطة للذبذبات الصوتية، معوّقون يمتطون كراسي سيارة من دون صوت، وكلاب عملاقة وأخرى مقزّمة تدب دبيب ديدان ربيعية. رؤوس مغطاة بقبعات فرو الثعالب أو عارية يلسعها الصقيع، صقيع كان يشيع في أعطافه الحنين إلى لهيب الصحاري، وأشعة الشمس، ووقر الأصياف الهاب من البساتين. قبلة قادمة من الرصيف تقذفها أم إلى ابنتها الواقفة في زاوية ما على السطح. تلويحة على شكل جناح يمامة يقذفها شاب إلى حبيبته. همسات، وحنين، ووداعات، يدور ذلك كله حول جسده، من غير أن يداعب روحه المنشدّة إلى عالم آخر يراه أمامه واضحا وضوح الرافعات في الميناء، والمودعين المرحين، وشوارع المدينة الضائعة خلفه وسط الضباب. أذنه لا تسمع وعينه لا تغتبط، والقبل والابتسامات موجهة

إلى آخرين، ولا غرابة في ذلك، هو لا يمت بصلة إلى هذه الشوارع، جاء إليها غريبا وسيغادرها غريبا. كان بلا خيوط تربطه بها، فكم ضلت عنه قبلات وكم تاهت بعيدا عنه إيماءات، بينما كان الموج يضرب المصدّات الكونكريتية للمرفأ بقبضاته المسطحة، ويعابث حيزوم السفينة بألسنة من زبد.

الصورة التي أعجبت المعلمة جاوانا التقطها في الميناء وتركها في غرفته، وكانت الريح تدوّم في المداخن، والسفينة تترجرج بفعل الموج والريح برقصة لم يجربها سابقا. تتوتر السلاسل وتشد الحبال، وقبضة الأرصفة العملاقة تتمسك بالراحلين. ارتفع الجسر الخشبي عن حافة السفينة، وتجلت له الأسئلة كأنها موجة عارمة. لماذا يرغب الاقلاع سريعا مثل قرصان؟ لماذا تطرده المدينة مثل دخيل غير مرغوب فيه؟ ترك خلفه الصور والذكريات، وتكومت بقايا المعرض تحت سريره، قد يلتقي بتلك الصور وقد استغرقت منه الأيام والشهور لصنعها، مرة أخرى، وقد تبقى محفوظة في أرشيف الذاكرة. من يدري؟ التقط من ماضيه كله في المدينة كاميرته فقط. عشرات النسخ من أفلامه التي حملت ذكرياته في مدينة السمك والنحل. شاهد جزيرة فانو الصغيرة تغيب بين لجة الموج، ثم تلمس بأصابع مرتبكة حقيبته الجاثمة على السطح، وود لو يصرخ على الفلك العملاق آمرا بالوقوف، بالتريث هنيهة، بدون أن يعرف السبب، ثم انتبه إلى رجل هندي واقف جنبه، ينم وجهه عن عمر مديد. سأله الرجل بابتسامة ودود: هل أنت ذاهب إلى لندن؟ أجابه بالإيجاب، وحين طال صمته، واستغرقه البحر المنفرش في الأفق كأنه لوحة مائية داكنة هائلة الحجم، بادره الهندي ثانية قائلا: وجودك على ظهر السفينة يبهجني، فنحن غرباء، وسنقضي الرحلة معا. نحن أبناء شرق واحد، وراح الهندي يتحفه بقصص مسلية عن دلهي، وكلكتا، وأفيال الغابات، وقساوسة الهنود، والأنهار المقدسة الشافية للهلوسة والأوهام: "حياة البشر على هذه الأرض تمر بتحولات هائلة، الملايين يهاجرون من بلدانهم بحثا عن حيز صغير يوفر لهم الأمان والراحة، هذا لم يحدث سابقا، وأفسر الظاهرة بقلق الانسان ما أن

اكتشف أنه جزء ضئيل من كون شاسع فصار يفتش عن أمر ما لا يعرفه، يكون سببا لتواجده على الكوكب، لماذا يولد ولماذا يموت، والأحجية الكامنة وراء ذلك. والأنبياء حاولوا الإجابة على السر عبر الأديان، لكن ما أن جاء العلم حتى رجع السؤال ذاته".

لقاؤه مع الشيخ الهندي لم يكن عابرا، إذ صادفه بعد ساعات ليلا، ما أن وجدوا أسرتهم في كابينات السفينة، ومضى ليث يتسكع في الممرات. وجده في مشرب السفينة يحتسي الكوكاكولا ويرمق بعينيه الحكيمتين جموع المسافرين المشغولين بلحظتهم الراهنة. أخبره أنه لا يشرب الخمرة، لكنه يدخن الحشيشة بين الحين والآخر. هو في زيارة لأقاربه في لندن. سيلبث أسبوعا ثم يكرّ عائدا إلى المدينة، فابنه يمتلك متجرا صغيرا قريبا من سوبرماركت "دالاس". قال له بحزن:

– وضعكم صعب هناك، أكلتكم الحروب، لكن هل يتسنى لك زيارة أهلك؟

– كلا. كل من خرج بدون علم الحكومة محكوم بالإعدام، لذلك فلا أمل لنا في المستقبل المنظور.

– نحن على الأقل يمكننا زيارة بلدنا بين فترة وأخرى، وهذا يخفف كثيرا من عناء الغربة. الهند أرض متسامحة. لكن إن سمحت لي بالسؤال هل تزور لندن للسياحة أم لعمل ما؟

– كلا. رد عليه ليث بخجل، جئت لأدرس اللغة الانجليزية. سأسجل نفسي في معهد لتعليم اللغة، عادة يستغرق الكورس ثلاثة أشهر، خلال ذلك قد أجد عملا يعينني على تحمل المصاريف. اللغة هنا لا أحد يتكلم بها خارج

الحدود، أما الإنكليزية فهي لغة عالمية يستخدمها الشخص في كل بقاع الأرض. هي مغامرة على أية حال.

- وأين ستقيم إذن؟

- آه، أعطاني صديقي واسمه نيازي، وهو رسام، عنوانا، وتلفون أحد أصدقائه يقيم هناك، وسأتصل به حالما أصل.

- لقد ارتحت لك، قال له الهندي وهو يوضب نفسه للمضي إلى النوم، سأعطيك رقم هاتف قريبي، هو يسكن في منطقة "نوتنك هل"، لا تبعد كثيرا عن مركز العاصمة، وهو يؤجر غرفا للأجانب في بيته، إذا ما احتجت إلى غرفة أو مساعدة، ما عليك سوى الاتصال به.

ذكر ليث اسمه ودونه الشيخ في مفكرة صغيرة أخرجها من معطفه الصوفي، ثم صافحه بحرارة ومضى إلى الممر.

تأكد لليث أن الحياة ليست سوى سفينة عملاقة تمخر عباب بحر شاسع، ينحشر البشر في داخلها بدون أن يعرفوا بعضهم، تتلاقى مصائرهم ثم تفترق بمصادفات غير مفهومة، يتناولون طعامهم في زوايا المطاعم المعتمة، يرقصون على أنغام موسيقا لا يختارونها، يحدقون إلى السماء الغاصة بالنجوم والمجرات، وهي تومض للفرح والحزن، الموت والولادة. يصابون بالدوار حين تترجرج السفينة بأمواج عاتية، وتمر سنينهم مرّ السحاب. يتعبون من طول الرحلة ثم يمضون إلى أسرتهم حالمين بيوم جديد. وفكر ليث قبل أن يتمدد في سريره الصغير القابع في قعر السفينة، أن المرء ما أن يتغرب عن بلده حتى يجد كثيرا من الأخيار يسدون له يد المساعدة، وكان يفكر بذلك الهندي الطيب، المحشو بالحكايات، وبهذه الهدهدة الخفيفة لجسده على سرير قاس، كان وجه آنا آخر وجه رآه في خياله قبل أن يستله النوم من عالم اليقظة.

صباحا أحس بارتجاج السفينة وهي ترسو، واللغط الكثيف المنطلق في الممرات، وأدرك أنهم رسوا على الرصيف. بعد تناول فطوره الصباحي مضى إلى باب الخروج مثل المئات من المسافرين. وعند المدخل توزعت على الأرض حقائب ذات أحجام مختلفة وأحمال لا تشي عن دواخلها. شاهد أصحابها متأهبين لاستقبال عالم آخر، وكانت رائحة الكحول تنبعث من الأفواه. هناك المرأة المتصابية ابنة الأربعين بقبعتها البلاستيكية المزينة بالعناقيد، شاهدها البارحة ليلا تدخن سيجارتها بمبسم أنيق، وتحدق إلى الأفق الغاص بالنجوم والضباب بنظرات ذابلة. وشاهد شابا مراهقا منزويا مع صرره في زاوية قريبة من سلة المهملات. فتش عن الشيخ الهندي فلم يعثر عليه، يبدو أنه ذاب في الحشد المتجه إلى اليابسة باحثا عن أقداره. إنه الخروج الوشيك إلى عالم آخر.

وضع قدميه على أرض "الامبراطورية" وشعر بالرعدة تسري في جسده، فها هي بكل ثقلها وضخامتها تقف إزاءه، وتمثل له في عقله تاريخها الاستعماري وشموخها الملوكي، برموزها وأسمائها ووقائعها وأحداثها، فورد في خياله اسم الجنرال مود، متجسدا بتمثاله أمام السفارة البريطانية على كتف دجلة، ومعركة الكوت، والمس بيل، ونوري السعيد، والملك فيصل، والجنرال لجمن، والشيخ ضاري، وقاعدة الحبانية، والعقداء الأربعة، وكل تلك الأسماء والأحداث، حلوها ومرها، وقد مرت مكتوبة في مناهج التاريخ المدرسية، والحكايات المتناقلة جيلا بعد جيل، حول الإمبراطورية التي لم تكن الشمس تغيب عن ملكها، ومستعمراتها. ومثل جندي مطيع حمل حقائبه ومضى نحو أرض المعركة.

مع ليث توارت روح أخرى من حكاياتنا، وسقطت واحدة من لبنات ذكرياتنا. الأمر الذي سنعتاد عليه سنة بعد أخرى. سفر وموت واختفاء وجنون. والغريب في أمر ليث أنه لم يخلف فراغا ملموسا في مدينته السابقة، كما لم

يكن محسوسا بيننا بحيث يشكل هزة في وعينا كما جرى الحدث عند غياب أنكيدو. وغياب الأخير كان له مدلول سياسي، له تداعياته على الجميع. أما غياب ليث فلم يفسر إلا بأنه نزوة شخصية تدفع الفرد لتغيير الأمكنة. هذا هو الفرق. وقيل إن أنكيدو، وكونه لم يكن معارضا أبدا، سافر إلى السويد قاصدا العاصمة ستوكهولم، فلا وجود لسفارة عراقية هنا، فيها فقط خطوط جوية تقع في الشارع القريب من محطة "فيستربرو" للقطارات وسط العاصمة، وكنا نتجنب المرور في الشارع خوف أن تلتقط كاميرات الخطوط وجوهنا. في ستوكهولم طرق باب السفارة العراقية هناك وأخبرهم بماضيه، ومعاناته القاسية في الغربة، وقّع استمارات عديدة، واجتاز أكثر من تحقيق مع أركان السفارة، ثم رتبوا له أمور العودة إلى الوطن، وهذا ما شغلنا في تلك السنة، السنة التي أصدرت فيها حكومتنا البعيدة عفوا عاما عن الجميع، وشمل حتى الهاربين من الخدمة الإلزامية، ومجتازي الحدود والمعارضين، وهذا ما أعطى دفعة جديدة لأنكيدو لتنفيذ مخطط العودة. البعض منا اعتبره خائنا، من وجهة نظر سياسية، فكيف يقدم على الرجوع إلى بلد يقتل العاهرات، ويعلّق رؤوسهن على سياجات البيوت، ويصادر جنسية أبنائه ليقذفهم خلف الحدود، ولنا في صديقنا "مراد" نموذجا، ويفتح من السجون أكثر مما يفتح من المدارس؟ يقتل غيلة، يدمر المدن، يكمم أفواه أبنائه فلا يعودون يفتحونها إلا في عيادة طبيب الأسنان؟ فرشنا قائمة بالجرائم التي ارتكبها النظام على مر سنوات حكمه، وقارنا بين الحياة هنا والحياة هناك، وكيف استولى الوهم على عقل أنكيدو حتى غابت عنه الامتيازات التي يحظى بها اللاجئ من راتب شهري، ومساعدات طبية وسكنية، واحترام لحرية الرأي وحرية المعتقد. قلنا في جلساتنا بأن الفرد يتمتع بحرية شبه مطلقة، ألا يحق له حتى تغيير اسمه رسميا، عدا حرية تغيير دينه من دون أن يقتله أحد باعتباره مرتدا؟ ثم حرية البصر وهي نقطة فائقة الأهمية، قال واحد من الحالمين، فأنت تستطيع أن تمتع بصرك في أجساد الجميلات المستلقيات في الشمس داخل الحدائق

والغابات، وعلى شواطئ البحار، ببياض أفخاذهن، ونعومة بطونهن، واستدارة أوراكهن التي لا يسترها سوى ألبسة صغيرة ملونة تسر النظر وتبهج القلب، والجمال الذي تسكبه التماثيل الرائعة المثبتة على واجهة القصور والأبنية العملاقة المبنية خلال قرون ماضية. وهل هو أمر قليل أن يتروى الواحد منا بذلك الأفق البحري وهو يعبر بالعين نحو الشمال المكلل بطيور النورس والإوز المهاجر واليمام المتنقل من جزيرة إلى جزيرة والأشرعة العملاقة المتوغلة بين الجزر؟ وهل يمكن لشخص عاقل ترك كل ذلك الجمال والعودة إلى المقبرة؟

وفيما كنا نترصد حيوات أصحابنا الذين وفدوا معنا إلى هذه الجزر الكريمة، نمي إلينا أن نائلاً استقر في العاصمة. وجودنا في هذه الجزر مثّله واحد من الأذكياء على أنه يشبه شبكة عنكبوت عملاقة، متقاطعة الخيوط، منسّقة الشكل، ذات حساسية فائقة، فأي تغير في نسق تلك الخيوط، يشكل اهتزازا في الشبكة كلها. وإلى ذلك الاهتزاز تتجه آلاف العيون لرصده، آلاف العيون لعنكبوت غير مرئية يعرف الجميع أنها هناك، حية، تكمن مثلنا، في الهواء. واستقرار نائل في العاصمة سرى مثل رجرجة عنيفة في تلك الشبكة العنكبوتية، وشاع بين الجميع تقريبا. توسط له صديقه جميل البصراوي وزوجته سوزان لدى منظمة مساعدة اللاجئين لإبقائه قريبا منهما، فهم أصدقاء، واشترطت المنظمة عليهما ايجاد مكان للسكن فنجحا في ذلك، إذ وجدا إعلانا في صحيفة شعبية تسمى "بلو أفيس" أي الجريدة الزرقاء، عن غرفة فارغة تحتوي على بعض الأثاث، اتصلا على التلفون المرفق مع الإعلان، وضربا موعدا مع صاحب الإعلان لرؤية السكن وتوقيع عقد الايجار، وهكذا كان. سكن في غرفة تقع في الطابق الثالث مع أشخاص آخرين، ضمن بناية عتيقة تعود إلى بدايات القرن الماضي تخلو من التدفئة المركزية، ولا يوجد فيها مصعد. هي غرفة تنزوي في منطقة بشرق العاصمة، تطل على مساحة زرقاء من البحر، أعجب منظرها نائلاً كثيرا. واتخذناها مكانا نجتمع فيه للعب الورق، وتبادل الأخبار عمن مات أو رحل، وعمن تبدلت مصائره فجأة بغفلة عنا.

واعتدنا على تناول وجبات سريعة نعدها في مطبخه، مع احتساء البيرة والنبيذ والويسكي، بالترافق مع لعبة ورق حامية.

عشناها تلك الحقبة بلا مسؤوليات تذكر، وكرسنا نهاراتنا للثرثرة في المقاهي والحانات والمراقص، والضياع في شارع المشي ودهاليزه، والجلوس في مقهى المحطة المركزية للقطارات نتأمل بالمسافرين، ونتسقط أخبار جماعتنا القاطنين في المدن البعيدة، وجميعنا ينتظر معجزة ما تعيدنا إلى أهلنا. لم يخطر لأحدنا أن يتوصل إلى قناعة صلدة في أن هذه البقعة ستكون لاحقا بقعة موتنا، حتى حين ندفن واحدا منا كنا نردد إنها حالة استثنائية، محزنة، فكيف يمكن لفرد أن يحتمل برودة التراب، ووحشة الليالي الشتوية المظلمة؟ وهل يموت الانسان بعيدا عن عائلته؟ هذا على رغم أن الشيب راح يغزو رؤوس البعض منا جهارا، ويذكرنا بمرور الزمن، وتلك البديهيات حدت بنا للبحث عن أصدقائنا في دروب الحياة، والتشبث بهم ولقائهم على مدار الأيام والشهور، وكأننا بهذه الطريقة نمارس لعبة الاختباء من الموت، ومن مصير الدفن في تربة باردة. كنا نجلس في ساحة "الكاملتورف" أي الرصيف القديم، وهي ساحة تقع بين مبنى البلدية وساحة اللقالق، ولا تبعد كثيرا عن مقهى "الحذاء الصيفي"، وكانت تلك الفسحة محببة لنا، مقابل النصب البديع وهو يتوسط الساحة، وتنتشر حوله مصطبات لجلوس المتعبين، ومدخني الحشيشة، وشاربي البيرة. تختلط في الساحة السحنات بين بيضاء وسمراء وزنجية وهندية، نساء ورجال. موسيقيون، وحواة يركبون الدراجات العالية، وممثلون يقفون بأوضاع متجمدة كما لو كانوا تماثيل حقيقية، ينظر إليهم الأطفال بنظرات مندهشة، ويقتربون منهم، يمدون أصابعهم ليلمسوا الحجر الثابت، ويشعرون بالرهبة إذا ما تحرك التمثال الحي حركة مفاجئة، فينطّون إلى الوراء مذعورين، محتمين بآبائهم ومرافقيهم.

كنا نستظل بالنصب العتيق، الذي وضع في المكان قبل مئات السنين، حسب الشروحات المثبتة على قاعدته. واعتبر كنزا وطنيا بامتياز، وفي العصور الحديثة تحول إلى محج للسائحين وهواة الفن. بالحقيقة كان أغلبنا يجلس حول النصب ساهيا عن جمالياته، وهناك القلة المثقفة من جماعة مقهى "كراسنابولسكي" التي عرفت تفاصيل النصب، ومقدار الفن المنصبّ في تصميمه وتناغماته المتشكلة من كتله المختلفة. لكنه يسحر عيوننا دائما كعادة الفن في كل زمان ومكان. يتموضع النصب وسط بحيرة ماء، وهو كتلة كونكريتية دائرية ينتأ من بعض جوانبها أعمدة مستطيلة عليها بروزات ملساء، ويلتصق بتلك الكتلة تنينات صغيرة رأسها إلى الأسفل، تدلق الماء إلى البحيرة بدون توقف. ثم ترتفع من الكتلة أسطوانة تحمل النقوش الملكية بارتفاع متر، تنتهي الأسطوانة بقاعدة مستديرة أعرض من الأسطوانة تحمل التفاحة الذهبية، كما توصف في الشرح.

التفاحة الذهبية تعبير ديني، اعتقدنا أنه مستلهم من النصوص الإنجيلية باعتبار أن حضارتهم نشأت قديما من معطف الدين. تطورت في الكنائس والطقوس والاحتفالات، وقد استغرق وصول رموزها إلينا، إلى حاضرنا الذي نعتبر أنفسنا جزءا منه، مئات السنين، بعضها مظلم وبعضها مضيء أشعل نار البحث والفضول في إنساننا الحديث. سماها بعض مثقفينا بتفاحة الفضاء الحضاري، وكنا نعتقد أن جمالية هذا النصب تتركز في التفاحة الذهبية تلك، برغم أننا لم نكن من الضليعين في الفن، تلهمنا بالتحليق مع خيالاتنا، بتوريقاتها الملصقة على ظهرها. وجاءت على هيئة سلاسل أغصان ذات استطالات تشبه الورق، فيما تتدلى من الحافة العليا تكوينات مذهّبة تصل منتصف الظهر وتنتهي برؤوس حيوانات تدلق الماء نحو البحيرة. كانت حافة التفاحة مرقّشة بنتوءات بيض دائرية أشبه بالمصابيح، نصف الكرة تلك ينتأ من وسطها درّة النصب، امرأة تحمل على ذراعها طفلا صغيرا، بينما يلتصق برجلها طفل آخر يتمسك بثوبها.

قيل والعهدة على "نائل" الجالس ممسكا بقنينة بيرة "توبورغ"، هارشا لحيته، إن المياه قبل مائة سنة كانت تتدفق من ثديي المرأة، ومن عضو الطفل الصغير المتمسك بأذيال أمه. الروح التقليدية لذلك العصر عدّت الفكرة، أي خروج الماء من ثديي المرأة، وعضو الطفل، خادشة للحياء. قطعت السلطات الأنبوب الواصل مع عضو الطفل، وكذلك الأنبوبين الواصلين إلى حلمتي المرأة. وحين مالت شمس النهار نحو المغيب، وعقب فترة صمت في الحوارات، وكأن الجميع غفا مستغرقا بفكرة التفاحة الذهبية التي يبلغ عمرها مئات السنين، طلب نائل منا التوجه إلى الغرفة، فأمامنا عمل كثير ينبغي إنجازه.

اجتماعاتنا في البيوت أو في الساحات والمقاهي، وهي حالة نادرة في هذا المجتمع، لها علاقة بالألفة الجماعية المبنية على الود، والمزاج المشترك، والتواصل الاجتماعي. لكننا شيئا فشيئا بتنا نتحسس الحقيقة، وهي أننا محكومون بروح قطيعية، يدفعنا إليها خوف من التواصل مع الآخر المختلف، وخوف من تأثيث حيز فردي يمكن للشخص بناؤه لنفسه بوعي وعناية. هشاشة متأصلة في أرواحنا، أفرزتها تربية أجيال على مفاهيم واحدة، وطقوس متشابهة، وردّات فعل تكاد تكون واحدة، أوصلتنا جميعا تقريبا إلى حالة الامتثال. مما جعل تلك الألفة الزائفة تقودنا إلى معارك صغيرة ذات أسباب ضئيلة لا تستحق الذكر. تلك الألفة هي التي جمعتنا في الباص المتجه إلى المنطقة الشرقية من العاصمة حيث يقطن نائل منذ حصوله على حق المواطنة الصالحة. اشترينا الدجاج والبيرة والمقبلات والدخان والخبز وشدتي ورق جديدتين من "سوبرماركت نيتو"، واتجهنا إلى الغرفة، متذمرين مسبقا من ارتفاعها، وصعوبة تسلق السلالم التي لا تحصى، كما قال "حازم الأعرج". انتقل حازم قبل شهرين إلى العاصمة، وسكن في شقة صغيرة بواحدة من البنايات العتيقة المقابلة للمسرح الوطني. سألناه في مقهى "الكليب تري"، وكان زبونا دائما فيها، عن سبب تركه لجزيرة "فانو" فقال موضحا: تعرفون أنني اخترت تلك الجزيرة لكي ابتعد عن البشر. قررت حينها تحويل بيتي الصغير

الممنوح لي من البلدية إلى حقل دواجن. أردت التوحد مع الطبيعة. وطمحت دائما إلى تربية الخرفان والبط والدجاج، وعلى رغم أن بيتي كان يطل على البحر في حقل يقع قريبا من مركز الجزيرة، إلا أنني اكتشفت صعوبة في تنفيذ هذا المشروع. ينبغي أن يحصل المرء على موافقات من أكثر من جهة كي يتحول إلى راع، فصرفت نظري عن المشروع. وبدأت بمشروع آخر هو فتح مطعم صغير لبيع "الكص"، ويسميه الشاميون بالشاورما، وفعلا استأجرت مكانا صغيرا ورحت أبيع لفات من الكص للسواح. وسرعان ما لاقى إقبال السكان المحليين. كان أول مطعم لبيع الكص في الجزيرة. لم يطل الأمر أكثر من نصف سنة حتى تم غلق محلي، أغلقته الرقابة الصحية. قالوا بعد فحص اللحم المقدم إنهم اكتشفوا آثار براز بشري في الطعام، تلك الفترة لم نكن نستخدم القفازات المطاطية أثناء العمل. وهكذا توصلت إلى حقيقة أن لا مستقبل لي في تلك الجزيرة. سوء الحظ يلاحقني في كل مكان. بالمناسبة جزيرة فانو مقابلة تماما للمدينة التي قطنها صديقنا ليث. لقد زارني مرة واحدة في بيتي مع صديقته آنا، ذات صيف، ونزلنا سوية إلى البحر، لكن جسده تحسس من الملوحة وكاد يموت، وكان يصيح وقتها: النار في جسدي، الملح أشعل خصيتيّ، ولولا أنني أسعفته إلى أقرب مستوصف لربما فارق الحياة، ولم يعد لزيارتي حتى غادر إلى بريطانيا. نستعيد الحكايات ذاتها. جميعنا. نستمرئ الألم ونشق طرقنا في العتمة. وعتمة الأبنية القديمة كئيبة، ورائحة الطعام تهب من أبواب الشقق السكنية المتوزعة على الطوابق، وكنا مدفوعين بروح المغامرة، والثرثرة، وقتل الوقت حتى يحين وقت الخروج للسهر في الحانات. تحدثنا عن بار "هوند إي هنكه" القريب من مقبرة نوربرو، حيث يقع قبر الفيلسوف العتيد "سورن كيركغورد"، وسط ذلك البحر الأخضر من الشجر وشواهد القبور المعتنى بها. وتذكرنا بار الهندي المقابل للمسرح الملكي الذي قضينا فيه عيد رأس السنة، وتأسفنا على مرور الزمن بهذه السرعة. وفيما كنا نثرثر دون موضوع محدد للحديث، وهو ما يجري معنا دائما، شعرنا بالهواء رائقا في الخارج، وزرقة

السماء غير مألوفة في هذا الوقت من السنة. ومن بعيد يتبدى البحر خيطا أزرق صافيا رقيقا لأعيننا، وفي المسافة النائية تبحر سفن للشحن يمكن رؤية خيط رفيع لدخانها وهو يتشتت في الفضاء الحليبي.

غرفة نائل تبعث على الضيق، ووجدنا كل ما يحيطنا ينم عن التلفيق، الأثاث غير المتناسق الألوان، رثاثة الجدران وقدمها، الغبار المنتشر على الأرضية الخشبية، السرير مبعثر الأغطية، بخشبه الكالح، زجاج النوافذ المتسخ، برغم أنها لا تختلف عن الغرف والشقق التي نعيش فيها. ليس في منازلنا جميعا ما يدل على الاستقرار، الطاولات، والأرائك، والخزانات الخشبية، والتلفزيونات العتيقة، كلها تنم عن أنها تنظر لحظة إلقائها في المزبلة، وذلك ليس غريبا في حياة مؤقتة تتسنم طريقها للزوال. رن الهاتف وكان المتصل مراد، أخبر نائل برغبته في المجيء إلى الجلسة، فرحب به نائل وهو يتطلع في وجوهنا وكنا أخذنا أماكننا على السرير، والكراسي، والطاولة الوحيدة في المكان. رحب به نائل بضحكة متوترة، وصمت برهة يستمع إلى مراد فقال له في الأخير "ننتظرك"، ثم أقفل الخط. وأخبرنا أن مراداً قادم بصحبة صديقته "دوتا".

وجود فتاة في الجلسة عادة ما يضفي الانشراح على أرواحنا. واتفقنا على أن لا يتحرش بها أحد، وأن نجلس مؤدبين، ونعكس سلوكا متحضرا يليق بسمعتنا كأجانب. وتذكرنا معركته تلك الليلة مع ليث في مبنى الدمج. صحيح أنها صارت ذكرى بعيدة، إلا أن الجميع يستعيدها بين الحين والآخر. نعرف مراداً، شخصا مأزوما، مرتبكا، يمكن له أن يفتعل معركة من سوء فهم بسيط، أو حتى كلمة غير مقصودة. انشغلنا بتجهيز السلطة، وتبهير الدجاج للفرن، ووضع الكؤوس على الطاولة، وصفّ المشروبات، ومداعبة النخلة المنتصبة قرب الباب، وكأننا نداعب فتاة سمراء قدمت من زمن بعيد. الغريب أن معظم أصحابنا يضعون نخلة في بيوتهم وغرفهم، وإن لم يحصلوا على نخلة حقيقية يضعون صورة كبيرة لها كما فعل أنكيدو في غرفته. وعدّوها رمزا

لتمسكهم بالوطن البعيد وماضيهم الشبحي. مراد لدى وصوله كان في حالة نشوة لم تكن مألوفة لمن يحتسي البيرة، فراحت العيون تتأمل في السمات، والآذان ترصد تعثرات الكلام، ومخارج الكلمات، والعقل كان يحلل كل تلك المعلومات لوضع الشخص المراقب في خانة ما. هكذا نحن. نلاحظ كل شيء. نتشمم كل الروائح. نستقصي ما تحمله الكلمات والحوارات، وما تضمره وقفات الصمت، والضحكات، والابتسامات الصفر. جلس على السرير، هو ودوتا، وأخبرنا بأنه قادم للتو من "كرستيانيا"، ولاحت ابتسامة على وجهه وراح يخرج المشروبات من حقيبته، قنينة ويسكي من نوع "بالانتاين"، وقناني من البيرة التوبورغ، وبعض النقل. جلسنا مؤدبين، نتبادل النظرات مع البنت ونتكلم بصوت خافت ونضحك، ونترجم بعض الأحيان حواراتنا لدوتا، وفهم جميل باعتباره أفضل الجميع باللغة المحلية، وأفضل الجميع بخبرته مع نساء البلد، أن دوتا تدرس علم الاجتماع في جامعة العاصمة، ربما لهذا السبب عقدت صداقة مع الوافدين الجدد.

قال حازم الأعرج، وهو يلوي شفتيه بعيدا عن دوتا: "خطر في ذهنها أننا مستحاثات ولذلك دفعها فضولها للاقتراب من مراد". مراد وسيم حقا، وتقاسيم وجهه متناسقة، واعتاد أن يطيل شعره حتى يغطي رقبته من الخلف. عيناه ناعمتا النظرة، وضحكته عميقة وتسفر، إذا ما ضحك، عن سعادة حقيقية بالحياة. يمتلك بشكل عام جسدا رياضيا متينا، وقواما رشيقا، فضلا عن ولعه بالنساء، والنساء تحس بهذا. وضّب مراد الطاولة، وهي الوحيدة في غرفة نائل، وتكفل بتنسيق شؤون لعبة الورق، فيما انهمك نائل بوضع الدجاج في القدر، وعادة ما يغيب دقائق في المطبخ ثم يعود. ومطبخه يقع في نهاية الممر، يشترك فيه مع القاطنين الآخرين، ويحاول عدم استخدامه إلا في الحالات الضرورية. أما جميل فسافرت زوجته إلى أهلها القاطنين في الشمال، واستغل الفرصة ليعود إلى أيام السهر مع الشلة. اشتاق كما أخبر نائلاً إلى الحوارات السياسية، وتتبع شؤون المعارف ممن توزعوا في المدن البعيدة. كنا

ننظر إلى "جميل" باحترام، كونه واحدا من المترجمين المعروفين بيننا، والمترجمون موجودون دائما في كل زمان ومكان، منذ وصول البشرية إلى مرحلة العقل وصياغة ظروف الطبيعة كي تناسب هذا الكائن الضعيف المفكر. مترجمون بين اللغات، وبين الحضارات، وبين الأديان، جاءوا بسبب ازدواج الدماء في مصادفة عمياء، أو نتيجة هجرة رافقتها ظروف قاسية. خلال عيشنا هنا كان هناك مترجمون اكتسبوا الموهبة هذه لأنهم ولدوا في هذا البلد، تعلموا في روضاتها ومدارسها وجامعاتها، فاحتفظوا بلغة الوالدين، وأصبحوا يجيدون اللغة الجديدة مثل لغتهم الأم. ومنهم من تزوج واحدة من أهل البلد مثل جميل، ونتيجة مرور الزمن وتراكم الكلمات، نما لديهم قاموس واسع يؤهلهم للعمل في حقل الترجمة. والبعض درس اللغة شابا في المدرسة وكان يمتلك موهبة الحفظ لموسيقا الكلمة ولفظها وكيف تنتظم في عقد الكلمات لتشكل جملا صحيحة مفهومة، ومن هؤلاء المخرج "علي الشمري"، على رغم أن قليلا منا التقاه، لكن ذكره كمترجم ما فتئ يتردد بيننا خاصة بعد عمله مذيعا في الإذاعة العربية للعاصمة. وكان جميل من هذا النوع، وهذا ما ترك أثره على لغته الأم فبدأت اللكنة الخفيفة تدخل في لسانه واضحة لمن يمتلك سمعا رهيفا وملاحظة دقيقة. بل وتستعصي عليه كلمة بالعربية خلال الحديث فيستبدلها بكلمة محلية مما أعطاه لغة محببة ظريفة في نظر الأصدقاء.

تحلقنا حول الطاولة، وجلس البعض على السرير، ووضعنا المشروبات في متناول أيدينا، وتلك هي لحظة المتعة في اجتماعاتنا. لعب الورق، واحتساء الكحول ذات البهجة السماوية، وتناول الطعام على الطريقة الشرقية، والثرثرة في كل المواضيع، بما في ذلك تبادل النمائم والأسرار حول ما يجري لأصدقائنا ومعارفنا، ثم النزول بعد ذلك إلى حانة "هون إي هانكه" المستلقية أمام قبر الفيلسوف سورن كيركورد، أو حانة "جمهورية الموز" المجاورة للبحيرات. وأثناء ما كنا ننسق الورق لدورة جديدة فاجأنا نائل بالخبر: لقد أرسل لي ليث رسالة قبل يومين يخبرني فيها أنه يقيم الآن في غرفة مستأجرة مع عائلة هندية في

منطقة اسمها "نوتنك هل". ويشتغل غاسل صحون مساء، وفي الصباح يدرس اللغة الانكليزية في معهد قريب من شارع "أجور رود". كتب لي: إن عاصمتكم تعتبر قرية مقارنة بلندن. وهو مصرّ على أن يكتشف المدينة التي تختصر العالم. وتعرّف إلى فتاة يابانية زميلته في معهد اللغة. تلك هي المرة الأولى التي يحتك فيها بشخص ياباني، وقال إنه ماض في مغامرته لكي يكتشف الجانب الآخر من الأرض. لم يقل شيئا عن علاقته بآنا، هل تركها، أم هرب منها، أم وعدها بشيء ما؟ كما لم يذكر شيئا عما ستكون اقامته في عاصمة الكرة الأرضية مؤقتة أم دائمة، خاصة ويبدو أن المدينة أعجبته. كيف يقدم شخص بسيط، ومسالم، وخائف مثل ليث، على تغيير مصيره بهذه الانعطافة الحادة، والمصيرية؟

"إنني أشعر بالخجل كلما سمعت اسم ليث. فكرت به كثيرا وآمنت أنني ارتكبت معه خطيئة كبيرة"، قال مراد متمتما، وهو يكرع كأسه دفعة واحدة كأنه يشعر بالعار، ويطلب عونا من مملكة ويسكي البالنتاين الساحرة. "هل من المعقول أن أرفع سكينا بوجه مواطن من بلدي؟ أنا عشت الظلم بتفاصيله، وتعرفون ما مر بي وبعائلتي. لكن تلك الليلة كانت ليلة شاذة، والشيطان يوسوس أحيانا في نفوسنا، ليلة سكر وخيالات وتهويمات، وقد رأيت البنت ترمقني بلهفة، فظننت أنني أعجبتها. وسط تلك البناية المثلجة، والغربة الجارحة، كنت أحلم بليلة حمراء". جلساتنا عادة ما تتحول إلى جلسات اعترافات، هكذا نحن، ما أن نسكر حتى نصبح عاطفيين، رقيقين، وذوي ضمائر ناعمة. والاعترافات ليست كلها حقائق، ففي بعض المرات يشتط المعترف في بوحه ليخلط الواقع بالخيال، ويستعير مغامرات أشخاص آخرين ليضفي القوة على شخصه أو النزاهة أو الشجاعة، بل حتى الأهمية بعض الأحيان. تلك ميزة صارت شائعة بيننا. ويدعم تلك الحقيقة غياب الشهود على ما يرويه المتكلم، وبعد الزمان والمكان على الأحداث التي يرويها.

وضع نائل شريطا منوعا في المسجل، وبدأ الشريط بعزف منفرد على العود نال استحسان دوتا، ورضي الجميع عن الخيار الصحيح. وبدأت الأنغام تنتشر في فضاء الغرفة مثل برد يتساقط من السماء، ولا تلبث أن تسيل من الشباك المفتوح لتتهاوى كأنها قصاصات ورود ثقيلة حتى تصل إلى شارع الميناء، لتذهل بكل تأكيد أحاسيس القاطنين في الطوابق الدنيا. نفرت نوتات فريد الأطرش نحو الحدائق القريبة، والواجهات العتيقة، وكأنها فرحة في الوصول إلى مجاهيل هذه البقعة من الكرة الأرضية. هدير الحياة تحت الشباك يصل إلى مسامعنا بوضوح. الحياة تمشي على قدمين، وتتحرك نحو المجهول. الحركة في الشارع لا تتوقف. والحياة تصنع أحداثها وشخوصها. يذهب نائل إلى المطبخ بين الحين والآخر لمعاينة الطبخة كما سماها، ويواصل احتساء البيرة فهو من العاشقين لهذا المشروب السحري كما سماه، لكنه كان يرمق دوتا الجالسة على السرير بعينين راغبتين، ويترجم لها بعض الأحيان حوارات الجالسين المثيرة، خاصة تلك التي تبعث الضحك أو تثير نقاشا ساخنا بيننا. يترجم الجو العام بلغته الانكليزية الجيدة. ترجم لها أننا نتكلم عن شخص رجع إلى العراق اسمه وسام، ونلقبه بأنكيدو، سكن في مدينة الميناء، وروى لها الحالة النفسية التي مر بها، وكيف انزوى في الأشهر الأخيرة في غرفته، ولم يعد قادرا على اللقاء بالناس. وكيف أصبح يتخيل أشخاصا يجلسون قبالته يحاورهم بصوت عال بعض الأحيان، وكيف اعتبره البعض جاسوسا للنظام. واعتبره البعض الآخر شخصا هشا، ضعيفا، أكلت صبره، وشجاعته، وإرادته، الوحدة والغربة، فقام بفعلته تلك بليلة ظلماء، غاب قمرها كما يقول المثل. وبدأ مراد يغني مقاما لمحمد الكبنجي، يغنيه بحرفية عالية، "لما أناخوا قبيل الصبح عيسهم"، وظل مراد يعيد الشعر مرة بعد مرة، ويرتفع بصوته ثم ينخفض كما لو أنه يعيش زمن الشاعر ذاته، أو العاشق فاقد حبيبته. كرر مقطع: "بالأمس كانوا هنا واليوم قد رحلوا"، عشرات المرات، يعيده ثم يبكي وقد استولت عليه حالة من الوجد لا يمكن فهمها. والرؤوس كانت منحنية تمتص الحزن المتساقط من

صوت مراد. وكانت دوتا تنظر إلينا بعينين دامعتين، وتنقل بصرها بين الوجوه لا تعرف كيف تواسينا، وخلال ما كان يدور في الغرفة يستطيع المرء رؤية الجناح الأسود، العملاق، المعتم، الزاحف على وجه البحر، وعلى البنايات العالية ذات السقف القرميدي وقد راحت تستعير السواد من أفق الشرق الذي نأت عنه الشمس، حيث يمكن رؤية الغربان الضخمة، والنوارس العاشقة، وهي تؤوب من الشواطئ إلى أشجار الغابات المحيطة بالبحيرات، وفي الحدائق الواسعة. طيور تعرف أنها حازت على يوم آخر في حياتها، كي تمجد الحياة، وضوء الشمس، وموسيقا الغيم الرمادية وهي ترسل البرد والمطر، في هذا الحيز الضيق من الكوكب.

مضينا في احتساء المشروب، ونقاشاتنا لم تعد تأخذ صيغة محددة. الحوارات تشبه أجنحة النوارس في نهار عاصف. يتحاور اثنان حول موضوع معين، ثم فجأة يشتركان في موضوع آخر يتحاور به الباقون، أو ينسحب شخص من الحوار ليصمت مع نفسه محدقا بالنافذة المطلة على المجهول، على الأفق اللامتناهي وهو يقود المخيلة إلى بلدان أخرى، وجزر بعيدة، وبارات، وحانات، ومقاصف، ونساء. هناك مليارات النساء كلهن قابلات للضم، والتقبيل، والمضاجعة، إذا ما احتسى المرء عشرات الكؤوس. الجمال يتجلى فيهن دائما. ومن دون أن نشعر، رانت علينا لحظات من الذهول، ووجدنا أنفسنا نصغي بفضول إلى مراد، وهو يروي سيرة من حياته الماضية بنبرة تشبه الاعتراف، وتعلقت العيون به حين قال: كنت أعيش في مدينة الثورة، وأدرس في ثانوية الكرامة، في السادس العلمي. وكنت امتلك طموحات وأحلاما، حالي حال الشباب الآخرين من أقراني. حدثت الكارثة وبدأنا الحرب مع ايران. وانفتحت بوابات الجحيم. ما ذنبي أنا حين وجدت نفسي وعائلتي على الحدود بحجة أننا من أتباع إيران؟ أنصتنا إلى المأساة بحذر، وكنا ندخن سجائر البرنس، ودفعنا الخشوع إلى مزيد من الخمر. ورقة الشايب، والسنك، والشاب والكوبة، والماجة، والجوكر المتواري تحت الورق، كلها ترقد نائمة، وكأن الرغبة في

المواصلة غادرتنا على وقع المأساة التي يرويها مراد بصوت مختنق بين السكر، والتهويم، والخيال. وقع التجربة المرة يتحول إلى حكمة بشرية لا يمكن الطعن بها. وكانت دوتا تسمع النبرة، وتقرأ التعابير الحزينة في وجه مراد، وخالجها شعور بالرغبة في ضمه إلى صدرها، وخطر في ذهنها طريقته الشرقية في المساج، وشعرت بآثار أصابعه على جسدها، ورصدت ما يشعر به حتى من دون كلمات، ومن غير أن تطلب من جميل أو نائل ترجمة الحديث.

ثم اتجهت النظرات إلى النخلة الجاثمة جنب الباب وهي تقف حزينة لوحدتها، تجلت وكأنها رمز لذلك البلد الذي تسبب بكل هذه المآسي. صمت عميق، وإذا بأرواحنا في حضرة البوح وكأنه الملاك الوحيد وسط صمت المدينة: تخيل عائلة تعيش على جهد الأب وهو يعمل حمالا في الشورجة، ينقل بالات الملابس والأكياس والمحركات على ظهره كي يوفر الخبز لأربعة أخوة وأختين، وصادف أن جاء أبوه ذات يوم من أيام "الملوكية"، قادما من جبال إيران ليستقر في بغداد بحثا عن حياة أفضل، وهو بالكاد يتكلم العربية. ماذا يعني أن تتكلم العربية لكنك لست من أصول عربية؟ السكين أوغلوها عميقا في كرامتنا، وفي قلوبنا. هل يحق لهم أن يحكموا عليك بالموت، ويأخذوا منك مالك ومقتنياتك التي حرصت على جمعها خمسين سنة، ثم يطردوك إلى الحدود، حدود دولة لا تعني لك شيئا. لا تتكلم لغتها، ولا تربطك بها وشيجة اللغة، والتربية، والذكريات. ذكرياتي ظلت هناك في تلك الشوارع الضيقة، والبيوت الفقيرة المكتظة، والوجوه السمراء المتعبة من العمل اليومي، والغبار المتصاعد على واجهات البيوت وأغصان الأشجار ورموش العيون، وملاعب الطفولة على ضفاف قناة الجيش. هناك ساحات لعب كرة القدم، ومقهى المنطقة، وبنات الجيران الواقفات على السطوح، والجرائد التي أحببت، والملابس الجديدة التي كنت ارتديها لجذب نظر فتيات الزقاق، وتنظيمات الطلاب السرية، والاجتماعات الممنوعة ولذة الخوف في حضورها. جاءوا ذات ليلة وأخذوا عائلتي كلها، فيما احتجزونا نحن الذكور. كان عمري عشرين سنة، احتجزونا

في سجن "أبو غريب"، فيما ألقوا بأمي وأبي وأختيّ على الحدود قريبا من منطقة خانقين. أركبوهم سيارة عسكرية من نوع إيفا، رافقهم فيها عناصر أمن، وقالوا لهم لا تعودوا، هناك مكانكم، أنتم لا تنتمون إلينا. لم يسمحوا لهم بحمل طعام أو شراب، كما لو يرسلونهم إلى الموت عمدا. عشت سنة ونصف في معتقل "أبو غريب" الرهيب. وضعونا مع المجرمين والمنحرفين، ونحن ننتظر كل ليلة قرار إعدامنا. قرار دفن الفضيحة التي ارتكبوها. وتلك السنة بلغت الحرب الأوج من اشتعالها. مدافع تقصف، طائرات تغير، غازات سامة تنفجر في الجهات والجبال، صواريخ تدك المدن، توابيت تصل فجرا إلى البيوت. ونحن لا نعرف مع من نقف. ومن نناصر من المتحاربين. بالنسبة لنا كان الجميع أعداء، كلهم يسنّون السكاكين لذبحنا. وما كان يحز في نفوسنا أن جريمة تهجير مئات الآلاف لم توقظ هذا الشعب الساكت. ولم يجرؤ أحد على مناصرتنا، أو الوقوف ضد هذه الجريمة البشعة. لم تخرج مظاهرة واحدة ضد جريمة تهجير هذا العدد الهائل من العراقيين. كانوا خائفين. بل قل مرعوبين. أو هم متواطئون. وتلومونني على الحياة التافهة التي أحياها؟ تلومونني لأنني أستخدم الحشيشة ترياقا، وأسكر حتى أسقط في مكاني؟ الشيء الوحيد النادم عليه وأفكر فيه كل لحظة غلطتي في طعن صديقي ليث. كان صديقي، سكنّا في الغرفة ذاتها، في تلك البناية الواقعة بين تلافيف الغابة. هل تصدقون الشائعة التي ألصقت بي وكيف كنت استمني على مضاجعتهما؟ أتذكر المعلمة إنكا والشاعر كمال، ويقال أنه انتقل من السكن لديها ويخطط للاستقرار في العاصمة، ولا أحد يعرف السبب. كنا مثل أخوين. لا أنتظر شيئا، المستقبل بالنسبة لي سواد كامل، شاشة بشعة تحيط بنا أينما حدقنا أو مشينا. لا ألوم ليث على هروبه إلى لندن، فهو على الأقل يرجّ شيئا من ركود حياته، يرى مناظر جديدة ويلتقي ببشر مختلفين. ولا يركن إلى حياة لا معنى لها. وهل هناك معنى في حياة خارج الوطن؟

وغابت غربان البحر ونوارسه، بغتة، كما صمتت الحركة في الممر، وساد السكون على البناية كلها، وانشغلنا بالحديث عن المكان الذي سنقضي فيه بقية الليلة. معظمنا يتسرع الهروب من جو الحزن الذي صنعه حديث مراد. نتوق إلى نسيان تلك الحقبة من تاريخنا. اقترح مراد ودوتا جمهورية الموز، من أجل الرقص، وسماع أغاني بوب مارلي، ورؤية الرقصات القادمة من أميركا اللاتينية وأفريقيا. واقترح جميل " هون اي هانكة"، فهو أهدأ ويوفر وقتا للنظر والحوار. فيما ظل حازم الأعرج صامتا كما لو أنه يوافق مسبقا على الاحتمالات كلها. عاد نائل من المطبخ بوجه مربد وسحنة ضاحكة، وكأنه سمع للتو نكتة فذة سيرويها لهم. وقف في منتصف الغرفة وقال بصوت لا هو بالحزين ولا بالفرح: "احترقت الدجاجة يا رفاق". وسط ذهولنا وانتظارنا لتناول وجبة العشاء بعد أن نالنا الجوع. لقد أنساني مراد بحديثه الحزين مراقبة الطبخة قال نائل. تفحمت الدجاجة وصارت مثل جندي محترق على ساتر ترابي بين إيران والعراق. والآن ماذا نفعل؟ ألقى سؤاله بشيء من السخرية وجلس قرب دوتا وانتظر ردنا.

– لنسهر عند فريد نافع، بيته يمتلك إطلالة جميلة على البحيرات.

– عسى أن نجد لديه شيئا من الحشيشة لتكتمل متعتنا.

– ونلتقط بعضا من عصيّات السل التي تقطن رئتيه.

– سمعت أنه شفي.

– تحوّل من كتابة الشعر العمودي إلى مقامر في سباق الخيول.

– فضلا عن أن بيته لا تدخله النساء، وماذا نفعل هذه الليلة من دون نساء؟

١٥

وبعد خروجنا من باب البناية اتفقنا على المضي إلى الحانة، بينما قرّ قرارنا على أن اللقاء القادم سيكون في شقة مراد. حصل مراد على شقته من البلدية حين أنهى محكوميته وطلب الإقامة في العاصمة، وتقع الشقة في جزيرة آما، ولا تبعد كثيرا من مطار البلد الذي جئنا إليه ذات سنة، وكنا نرتجف من برده، مسحورين برؤية السحنات الغريبة لشرطيات المطار وموظفيه، والمسافرين الذين كانوا يحتسون البيرة في المقاهي وهم يحدقون إلى لوحات المغادرة والوصول متمنين البقاء فيه أطول فترة ممكنة. وتقع الشقة قريبا من كرستيانيا، وتلك بلدة العجائب والسحر، كرستيانيا الأكاسيا والبلوط والكرز والمقاهي فاتحات الأبواب حتى ساعة متأخرة من الليل، ونقيق الضفادع الصادر من البحيرة القريبة، ورائحة الطحالب والأسماك في البحيرة، ورائحة الحشيشة وأنفاس النساء العابقة بالبيرة والتبغ واللبّان بعد كؤوس لا تعد من حانة السهر. سمعنا عنها الكثير منذ وصولنا، وجرب لياليها عدد منا، واعتبرناها واحدة من الأماكن المسحورة التي قرأنا عنها في كتاب ألف ليلة وليلة، كتاب أجدادنا الباهرين القدامى. نعم قضينا تلك الليلة في حانة مجهولة تقع في زقاق جانبي قرب البحيرة الأولى القريبة من المرصد الفلكي. والحانة مكان لا يقتصر على شرب البيرة وأنواع الكحول الأخرى فقط، بل وجدنا فيها فلسفة عميقة، كما عبّر واحد منا ممن امتلك القدرة على تفسير نمط الحياة الذي صرنا نعيشه بعد أن تغلغلنا في نسيج البلد، وتوغلنا في شرايينه. وفضاء الحانة مثّل فرصة لنا لاكتشاف روح البلد، ويتسق، في ذات الوقت، مع عيشنا المفتقر لهدف واضح.

التنوع المتوفر هناك، والحوارات التي تدور عن نمط السياسة والأحزاب والطقوس، والتكلم بأكثر من لغة لمن لا يجيدون اللغة المحلية فيجربون لغة

أخرى، ورؤية الموضات الجديدة التي ترتديها النساء، من ملابس وأحذية وأقراط وأساور زينة، وصبغات شعر وألوان شفاه كانت تخلق لدى البعض منا صدمات حضارية. الحقيقة هي أننا تعلمنا هذا التعبير الفذ من المعلمة إنكا، إذ عادة ما كانت ترردده أثناء الحديث عن توصيف هجرتنا إلى الجزر. شكلت موضات النساء وتقليعاتهن صدمة للبعض، كونهم يرونها لأول مرة في حياتهم. مقاهي مثل "كراسنابولسكي"، و"السمر سكو"، و"الكليب تري"، وسط العاصمة، لم تكن حانات بالمعنى التقليدي للكلمة، برغم أنها توفر الخمور على مدار اليوم. كانت مقاهي تستقطبنا في أوقات النهار، عكس الحانات التي نأوي إليها في الليل، وكأنها مغناطيس هائل يزنّ في دمائنا. وكنا نملك سجلا لأغلب الحانات في العاصمة وهو ما جعلها تمثل حالة استكشاف إضافية لأحشاء المدينة وزواياها الخافية، على رغم أننا لم نفارق النظرة السائدة بيننا وهي أن الحانة الجيدة هي الحانة التي نستطيع فيها الحصول على امرأة. الشيء المزعج في كل ذلك، وشكل هاجسا مرا لنا، هو أن أجسادنا لم تعتد الرقص، ووجدنا الأمر عائقا أمام مراقصة الفتيات، والرقص تحليق وسمو وتحرر من قيود الجسد، وكسر للتابوهات لدى البشر. وكلنا يتذكر نائلاً حين راقص صديقة سوزان المدعوة "تينا" تلك الليلة الثلجية البعيدة، وكيف أخبرنا أنه كان يحس نفسه أثناء ما كان يقف على ساحة الرقص كما لو أنه بغل يستمع إلى الموسيقا.

أجسادنا متخشبة، وهذه حقيقة لا تحتاج إلى برهان أو فلسفة، وتفتقد إلى المرونة، والمرونة ركيزة أساسية للراقصين. وفسّر كمال الشاعر هذه الصفة على أنها ناتجة عن تيبس الروح في الحقيقة، عكسهم هم، الحرية التي تمتعوا بها لقرون سرت في أجسادهم، حولتها إلى أجساد مطواعة، موسيقية الحركة، حرة في الهبوط والصعود. ترنيمة الجسد الحر تشبه قطعة سمفونية كتبها موزارت، وصفها كمال بشاعريته الأخاذة. وقال إن رقصنا قطيعي بينما رقصهم فردي، ومعروف أن ذلك ناتج عن الحرية الشخصية لأفراد المجتمع، وأن المجتمع يتعامل مع أفراده كذوات حرة، ناضجة، لا كقطيع محكوم بموروثات

متكلسة. وهي وجهة نظر مقنعة لحد كبير، لكنها وجهة نظر مثقفين لم تصل إلى رواد مقهى الكليب تري من اللصوص، والحشاشين، والعبثيين. ورواد الحانات منا أغلبيتهم غير متزوجين، ولا يمتلكون أسرا في البلد لأنهم نجوا بجلودهم حين غادروا أرض المعارك، البعض ترك زوجته خلفه، والبعض خطيبته، فما فائدة زواج ينتهي بموت الشاب على جبهات القتال؟ والحانة في النهاية مجسات لاستكشاف مقدار الكراهية الموجهة ضدنا من قبل بنات البلد وشبابه، ولشدّما كان يؤلمنا طلب الرقص من فتاة لكنها ترفض مبتسمة، برغم أن رفضها يجيء مؤدبا كأن تتعلل بالتعب، أو انتظار صديقها، أو النعاس. عانينا من العنصرية كثيرا، فنحن نقف على ضفتين مجهولتين، لا نعرفهم ولا يعرفوننا، لندرة الحوار بيننا. والحوار له علاقة باللغة، ونحن نجهل لغتهم وأسرارها وظلالها وأمثالها وألغازها، وكانت أول حادثة جرت في فضاء الكراهية ذاك ما عاشه صديقنا "معين" في حانة "جمهورية الموز".

كانت تلك الحانة تجذبنا لوجود خليط من الزبائن: بحارة انجليز، وأفارقة، وعرب، وايرانيون، وأتراك، والأغلبية بالطبع من أهل البلد. لكن فرق الموسيقا عادة ما تكون من الأفارقة، أو من أميركا اللاتينية. فرق لم تكن موسيقاها مألوفة لأذهاننا، ولا أدواتها من طبول وفلوتات وصنّاجات وأجهزة غريبة لم نسمع بها من قبل. ويبدو أنها أدخلت من تراث موسيقي محلي سواء هندي أحمر أو أفريقي من الغابات. حدثت القصة في ليلة سبت، حين عنّ ل"معين" السهر هناك. دخل من الباب الضيق بخطوات ثابتة وجلس في فراغ متروك بين امرأتين، بينما احتل الجانب المقابل رجل في الثلاثين يجلس مع صديقته الشقراء، وجذب أنظاره أول شيء ذلك المصباح الطويل المدلى من السقف الصناعي. والمصباح يحتل منتصف الفضاء، بين عينيه وبين الرجل والمرأة، أي مقابله تماما. ومن غرائب الانسان كيف تكون العينان نافذتين مشرعتين على ما يفكر فيه، وما يشعر في قلبه، وكانت عينا ذلك الرجل مثل بركانين متقدين بالكراهية، تكاد الكراهية تشتعل فيهما وتبعثان رسائلهما نحو معين دونما

سبب. تلك الكراهية المتوهجة أرعبت معين، وحاول تجاهل تعابير الرجل بالنظر إلى الفرقة الموسيقية المؤلفة من مجموعة من الأفارقة. ويحتفظ معين عادة بسكين صغيرة في جيبه الخلفي من أجل الطوارئ، وقد تحسسه ليتأكد من وجودها وهو يتقلى بوهج الكراهية المنطلقة من الرجل. حاول جهد الإمكان تفادي النظر إلى الرجل وصديقته، والتركيز بأقصى ما يملك من إرادة على الموسيقا الأفريقية، ووجوه النساء الجالسات قرب ساحة الرقص، والتحديق أحيانا لصورة كبيرة لجيفارا وهي تبرز ابتسامته الخالدة التي ألهمت أجيالا من الثوار. تأمل دقائق بالسقف المعلق الذي تتدلى من قضبانه الغريبة البناء تلك الأضواء الدائرية المنفتحة على الموائد مثل عيون متوهجة. كل ذلك لم ينفع. وظل الرجل يوشوش مع صديقته، وينظر إلى معين تلك النظرة المستعرة بالحقد. لم يعد معين يطيق الهروب من نظراته، وتصاعدت توتراته الداخلية وقرر المواجهة، فالتفت إلى الرجل بعينين ثابتتين، سرى فيهما نثار من الكراهية، وصار يحدق في عينيه هو الآخر وكان التوتر قد وصل إلى حافة الهاوية.

ما الأمر يا رجل؟ سأله بلغة انكليزية ركيكة، تعلمها من الأفلام الأميركية الويسترن التي يحبها وتعوّد رؤيتها على شاشة التلفزيون. دأب على ترديد الحوارات القصيرة لأبطال الأفلام، بعض الأحيان حين يكون في مطبخه الصغير أو عند فترات الضجر والوحدة مفتقدا غياب الأصدقاء.

"أكرهك"، رد الرجل متحفزا، أصابعه الغليظة المشعرة بزغب أشقر تقبض على كأس البيرة المدور بشكل أنيق. لم أفعل لك شيئا، لماذا تكرهني؟ لا أطيق وجودكم في بلدنا، رد الرجل بصلافة غير متوقعة. وعلى حين غرة مد يده بحركة استفزازية ودفع المصباح نحو معين. بدأ الضوء المائل إلى الصفرة يتأرجح في الفسحة الفاصلة بينهما، مما ذكّر معين بمشاهد مشابهة رآها في أفلام الويسترن الأميركية. الرجل في بداية الثلاثينيات، وله شاربان شقراوان خفيفان، وجسد رياضي مفتول، ومن الجالسين قربهم لم يلاحظ أحد الحوار

المتوتر بين الرجلين، ومضت إيقاعات المكان تحلّق عاليا فعاليا، مع احتدام الرقص ودمدمة الطبول. وبدأ عدد من الراقصين يتلوون على ساحة الرقص الصغيرة بحركات جنونية فاقمها السكر، وأصوات الطبول المتواترة، والموسيقا الصاخبة. ومن دون أن يفكر بشكل سوي نهض معين من مكانه وقذف الرجل ببصقة في وجهه، وأردفها بجملة: عنصري حقير، ثم وجّه خطواته إلى خارج المكان، وقد قرر فور خروجه إلى الشارع أن يتجه إلى البيت، فالليلة لم تكن موفقة كما فكر مع نفسه، لكنه ما أن حاذى الكنيسة المجاورة للحانة حتى سمع دمدمة غاضبة، وطرقات حذاءين تتبعانه من غير تردد، فالتفت إلى الوراء وأخرج بدون وعي أو تفكير سكينه من الجيب الخلفي للبنطلون. شرع يهرول محاولا الهرب باتجاه البحيرات، ولاحظ أن الرجل مصر على اللحاق به، عندئذ واتته جرأة مباغتة وشعور عارم بالمواجهة، واستل سكينه بيده اليمنى ووقف متأهبا، واستدعى هذا المشهد وقوف بعض المارة الذين أثارتهم الضجة والصراخ، وهم ينتظرون ما ستسفر عنه المعركة. حدث اشتباك بالأيدي، وصراخ عال، وارتفعت كلمات غير مفهومة من الرجلين، ولم يدم الاشتباك سوى لحظات خاطفة تداعى الرجل على الرصيف وهرب معين نحو البحيرات، عكس اتجاه شقته القديمة الواقعة بمواجهة الكنيسة.

لم يعرف أحد منا ما حدث بالضبط سوى في اليوم الثاني. وذلك حين خرجت جريدة شعبية عادة ما تتصيد هكذا أخبار، ومعروفة في أرجاء البلد كله بأنها جريدة يمينية معادية للأجانب، واضعة على صدر صفحتها الأولى صورتين، إحداهما لمعين بوجهه الحليق وشاربيه الأسودين وعينيه الحادتين، وكتب تحتها القاتل، بينما كتب تحت الصورة الثانية كلمة القتيل. وعرف عن هويته بأنه شرطي. ثم تناقلت التلفونات الخبر بين أصحابنا القاطنين في المدن البعيدة والجزر القريبة من العاصمة، وأصبحت الحادثة مدار سهرنا لأيام طوال. ووجدنا أنفسنا، بعد تلك الأحداث الفضائحية، تحت مجهر الصحف، والحوارات التلفزيونية عن مخاطر وجودنا على نسيج البلاد وحضارته. وتشعبت

الأفكار، والنظريات، والتحليلات، حول وجودنا. وجرى تصنيفنا، وشرحنا، وتفسيرنا، وقراءة نوازعنا الشريرة على ضوء آخر نظريات الحداثة، وما بعد الحداثة. ها هو أول اصطدام حقيقي لنا مع فكر الحداثة، قال الشاعر كمال لواحد من أصدقائه وهما يجلسان على مصطبة تشرف على ميناء بعيد عن العاصمة. أجل تفصلنا عنهم قرون من التنوير. فيما بثت القناة الوطنية الثانية ندوة تلفزيونية عن الحادث، أسهب فيها واحد من المفكرين بشرح المخاطر القادمة التي تنتظر البلاد. تناول المشكلة من زاوية الدين.

لا يخفى أن حضارة البلد بنيت على المسيحية منذ أكثر من ألف عام، الحضارة التي نشأت في الكنائس، والكتب الدينية، وفن الأيقونات، وتصاميم المذابح والنوافذ في الكاتادرائيات، والمعاهد الثيولوجية، والصراعات بين الكنيسة والطبقات الجديدة الناهضة بعلومها، وعقلانيتها، واكتشافاتها. فليتصور المرء ما سيؤول عليه الحال بعد خمسين سنة، حين يتكاثر أتباع الدين "المحمدي" ويشكلون نصف السكان عددا. حين يجلبون مساجدهم وشريعتهم وتعاليمهم وفرائضهم إلى مجتمعنا هذا. لا تنسوا، يقول "المفكر" محتدا وهو يواجه الكاميرا: "إن هؤلاء يتوالدون مثل الأرانب، ولا يفكرون بتحديد النسل مثلنا. تخيلوا مسلسل الرعب الذي سنعيشه حين يعلن قادته الجهاد على أسلوب حياتنا الذي شقينا، وناضلنا، وخرجنا بمسيرات، وكتبنا مئات، وآلاف الكتب من أجل تثبيته وإيصاله للنقطة المضيئة التي هو عليها اليوم. وماذا سيحل بمصير جامعاتنا يا ترى؟ تخيلوا معي كيف تنتهي حياتنا إذا ما منعت الخمور على هدي شريعتهم. الحانات ستختفي، وعددها آلاف في طول البلاد وعرضها، وستتوقف مئات المشاغل الخاصة الموزعة في قرانا، ولا نعود نحتسي سائلها السحري، وفكروا بالشركتين العملاقتين المعروفتين، لا في البلاد فقط، بل عالميا، وهما شركتا "كارلسبيرغ وتوبورغ"، وقد تربت أجيال وأجيال على مذاق جعتها المميز. فكروا بآلاف العمال والموظفين الذين سيفقدون وظائفهم. وماذا عن منع لحم الخنزير؟ تلك العربات المنتشرة في

الشوارع تبيع النقانق بأنواعها لمواطنينا، ستختفي من شوارعنا ونعود نتحسر على نكهة ال"سنب"، وال"كجب"، والخبز المسخن بعبيره اللذيذ. أكلتنا الشعبية المعروفة، وقد توارثناها منذ الملك كرستيان الرابع المسماة "فراكاديلا"، كيف ستزول عن موائدنا وزوادات طعامنا التي نعدّها لأطفالنا الذاهبين إلى المدارس".

وعلى صعيد اللون، بدأ باحث آخر في علوم البشر حديثه، تلك البشرات الذهبية والشعر الناعم العاكس لشعاع الشمس، والعيون الزرق الشبيهة بصفحة بحارنا الساكنة في نهار صيفي مشمس، كيف يتغير كل ذلك خلال عقود فقط، ليحل محلها الشعر الأسود المفلفل، والعيون السود الشبيهة بحبات العنب، والبشرة النحاسية السمراء. لا نعود نميز بين مواطنينا الأصليين والوافدين إلى هذه الديار، لذلك أقترح أن نصنف السكان منذ اليوم بنوعين: "السكان الأصليين" ممن يحملون ثقافة القارة المجيدة، ممن لهم خلفية تقوم على مدماك المسيحية الصلدة، وفكر الحداثة، و"الوافدين" من غير الخلفية الأوروبية.

وبرغم وجود مشارك آخر في الحلقة تلك، وكان مدافعا عن ثقافة الاختلاط الحضاري، والديني، والعرقي، إلا أن الدفاع ظل ضعيفا. الضيف النافر عن الجو المشحون بالعنصرية عدّ الاختلاط العرقي في المجتمع إغناء للبيئة ومصدر ثراء حضاري. اعترض على وصف الوافدين بالمحمديين، وقال إن هذا النعت استخدم منذ مئات السنين، وقت الحروب الصليبية، ويحمل ايحاءات سلبية تنم عن عدم الاعتراف بهذا الدين: إنهم مسلمون، برغم أن كثيرا منهم ليسوا متدينين، ويمارسون حياتهم اليومية طبقا لطقوس مجتمعنا هذا. يحتسون الخمور، ويعقدون صداقات مع النساء، ويأكلون لحم الخنزير. ومن بينهم كتّاب وشعراء ورسامون تشكيليون مهمون، تصنيفاتكم تلك ومقارباتكم لم تعد تصلح لواقع اليوم، ربما كانت جزءا من تصورات أوروبا القديمة وأوهامها

حول النقاء العرقي والتفوق الحضاري. علينا أن نستثمر في الجيل الثاني على الأقل، سيكون من دون شك أعمق انتماء لهذا المكان. قبل فترة حضرت معرضا لرسامة عراقية اسمها "بسمة"، في صالة "شامبالا" وسط المدينة، أذهلتني بألوانها. جسّدت في المناظر الحلمية التي رسمتها بألوان الباستيل المشعة كالشرق، مناظر القرى التي عاشت فيها، وحافات الأنهار المليئة بالورود، وغروب الشمس على الريف الأخضر، ونباتات المياه في البرك، وغذّت تلك المناظر بدفق من مشاعر الحنين تجعل الشعر يقف من روعتها. لن أنسى ما حييت لوحتها تلك في ذلك المعرض، ونسيت تماما أثناء ما كنت أقف إزاءها دين الرسامة وبلدها وقوميتها، وشعرت أنني في معبد الفن الخالص: شجرة كثيفة الأوراق لوّنت الفنانة تلك الأوراق باللون البنفسجي الموحي بالحلم، تنتصب وسط جزيرة صغيرة يحيطها الماء من جوانبها، وتنتشر على الضفاف نباتات عريضة الورق خضراء، والسماء كثيفة الغيوم تظلل نباتات ساحرة، وما أدهشني تلك الألوان السماوية المتناغمة وإيحاءاتها الروحية، وذكّرني المشهد بالفنان "كلود مونيه"، وقرأت ما أرادت الرسامة تجسيده على اللوحة على أنه المكان الخيالي الذي حلمت بالوصول إليه، بعد خروجها من جحيم بلدها. وينبغي لنا كمجتمع متحضر ألا نحرم موهبة مثل تلك من حياتها الجديدة. كلا. هناك رؤية سلبية في النظر إلى الوافدين وتقييمهم، ثم لا تنسوا أنهم خرجوا من أفران الحروب، وما زالت الحروق بارزة على وجوههم، والرعب في عيونهم. وجاءت مداخلة عاطفية تدمي القلوب الناعمة، لكن آراءه بدت شاحبة أمام رفيقيه، وحجته لم تصمد إزاء الحجج، والوقائع التي أوردها، ومنها جريمة اغتيال واحد من الشرطة على يد المدعو "معين"، وعدّت الحادثة عارا وطنيا ينبغي الوقوف أمامه بجدية ومسؤولية، فمصير البلاد في خطر.

سمعنا بخبر العقوبة أثناء ما كنا نتفرج على المهرجان في حديقة "الفيليباركن"، وهو مهرجان سنوي اعتادوا اقامته في الواحد من أيار، عيد العمال. ويتضمن عرضا ملونا للأشكال الغريبة، والمخلوقات القاطنة في غياهب

الماء أو على أديم الأرض. كان العرض يحمل سمات فنية جديدة على عيوننا، لكن البعض منا جاء ليتفرج على الفتيات، وايجاد فرصة لالتقاط امرأة قد تكون سكرانة أو تستهويها سحنات الأجانب. حكم على معين بعقوبة خمس عشرة سنة سيقضيها في السجن. ونتذكر ذلك اليوم جيدا، ونحنّ إليه على رغم المسافة الزمنية الهائلة التي تفصلنا عنه، وبرغم انتقالنا من عالم الأحياء إلى عالم الأموات، وعلى رغم أن البقعة المجهولة لنا لم تعد كذلك بعد أن عشناها عرضا وطولا. وكان يوما من أيامنا الساحرة، امتلأت فيه السماء بحمير صغيرة ضاحكة، وحلزونات مخددة بالأحمر والأصفر، وجراد بحر كل رجل تختلف بلونها عن الأخرى، وثعابين عملاقة تبتلع الهواء، وتنينات تنفث النار من أفواهها، وكانت النار على هيئة أشرطة حمر وبرتقالية، وأخطبوطات ذات عيون واسعة تطل على البشر بغضب، وأسرّة مريحة بلا حواجز دائرية تغري بالنوم والأحلام. ثم رأينا رأس قط ضخم، بشاربين سائبين يتلاعب بهما الهواء، وعينين فاقعتي السواد، يتلوى على ذرى الأشجار في أشعة شمس هادئة السطوع كعادة الشمس في أرض الجزر. وكان أغرب جسم طائر من البلاستيك هو سفينة الفايكنغ بأشرعتها الملونة، ومجاديفها السابحة فوق السرو وأشجار الجوز البري. والمشهد برمته بدا كأنه وعاء "أكواريم" للسمك مضخّم مئات المرات، يرسم شفافية لماء غير مرئي، وألوانا مبقعة، وخيوطا سائبة مثل الطحالب في بركة صافية.

وسط ذلك المشهد الساحر، المتجسد لعيوننا في تلك الحديقة المزروعة بالثيل المقصوص والرطب من كثرة سكب البيرة والنبيذ الأحمر والأبيض، المحتشدة بآلاف المحتفلين أخبرنا واحد من الأصدقاء بالحكم الذي صدر بحق معين. تملكنا الأسف والغضب، وفقدنا بهجة المهرجان. مصير السجن لم يخطر ببالنا آنئذ، وحسبنا أرواحنا أطفالا مدللين للجزر. لكن ذلك الشخص روى لنا ما كتبته الجريدة الأسبوعية الملونة، الشهيرة والمعروفة في أوساطنا، المسماة "اسمع وشاهد"، عن معين، وحياته الماضية قبل أن يصل إلى الأرض الموعودة.

ذكرت تلك المجلة أن معيناً من مدينة الناصرية، وقد استطاع التسلل أثناء الحرب، عبر البصرة، إلى الحدود الكويتية. مشى طوال ليالٍ عديدة في الصحراء. وكان يكمن في النهار ويمشي في الليل، وزوّده بعض البدو بالماء والطعام إلى أن وصل إلى أقرب قرية كويتية. في القرية ساعده أحد الفلاحين في الوصول إلى العاصمة. وفي العاصمة كان يمتلك عنوانا لواحد من أقاربه عاش منذ السبعينيات هناك، ويعتقد أنه تجنس بالجنسية الكويتية ويعمل سائق حفارة في إحدى الشركات الأجنبية. حتى اسم الشركة أوردته الجريدة، وهي الشركة المعروفة "كتربلر". توصل إلى الرجل بعد جهد وحذر، والرعب من الوقوع بيد الشرطة فهم سيسلمونه بالتأكيد إلى الحكومة العراقية، وساعده في شراء جواز سفر مزور استطاع الوثوب به من نار الشرق ليصل إلى جنة الغرب. لم يعرف لمعين، كما قالت المجلة، أي اهتمامات سياسية، لا يؤيد اليمين ولا اليسار، وقرر بعد انتهاء رحلته المحفوفة بالمخاطر والأهوال، قضاء أيامه في التمتع بالشرب والرياضة واصطياد النساء، وهذا ما دأب عليه حتى تلك الليلة المشؤومة، الليلة الرائقة التي انتهت بقتله للشرطي.

١٦

حتى بعد سجنه بقي معين حديث مجالسنا، وكأننا نستمتع باجترار مآسينا. ففي مقهى الكليب تري، وسط ضوضاء لعبة "الطاولي"، وقد أدخلت حديثا إلى المقهى عبر بعض الأجانب المولعين باللعبة، ورائحة البيرة والقهوة والشاي، فنّد مراد ما كتبته المجلة، وتبيّن أنه يعرف معيناً جيدا. قال لأصدقاء يلتقيهم يوميا في المقهى إن معيناً كان شريرا وقاسيا، ولا يتورع عن فعل أي شيء، فظا ووقحا في سلوكه مع الأصدقاء. هو لم يأت إلى أرض الجزر من الكويت بل من سورية، وقد تكون المجلة خلطت بينه وبين شخص آخر. تأثر كما قال بصديقه اللصيق به منذ أن دخلوا إلى البلد، صديقه ذاك كان اسمه "نهار"، قتل هو الآخر صديقته قبل سنتين بمئة وثلاثين طعنة سكين، بما في ذلك الطعنات العديدة التي وجهها إلى رحمها، حتى أن الشرطة اعتقدت أن القاتل لم يكن شخصا واحدا، فكيف يمكن لفرد توجيه هذا العدد من الطعنات لجسد امرأة؟ الصحافة تلك الفترة لم تضخم الحدث كما فعلت مع قضية معين، ربما لأن القتيلة كانت أما لفتاتين، وتقطن وحدها في بيت ريفي وسط الغابة، قريبا من بناء "الدمج" ذاك في تلك المدينة الشمالية.

كان معين ونهار يتمشيان في الغابة حول السكن، يقول مراد، ورأيا البيت الريفي بسقفه المصنوع من القش المجدول، بالطريقة التقليدية التي دأبت عليها بيوت الفلاحين طوال قرون في هذا الجزء من العالم. وجدا المرأة تجلس على عتبة الباب الأمامية تحوك شيئا ما بين يديها، ويقعي قربها كلبها المشعث الوافر الوبر، وفجأة ترك نهار صاحبه معيناً ومال إلى المرأة وراح يداعب كلبها ويتكلم معها بإنكليزية طليقة. كان مهووسا بالنساء. ظل يحادثها أكثر من نصف ساعة، ثم عاد إلى معين وقال له ارجع أنت إلى السكن وسأبقى هنا لفترة قصيرة. مكث نهار صديقا لتلك المرأة ثلاث سنوات، وكان نهار شابا وسيما جدا،

يمتلك قدرة هائلة على استمالة الأنثى، له أسلوب ناعم وجرأة هائلة في التوغل إلى القلوب، لكنه كان يمتلك عيبا واحدا لم تستطع النساء اللواتي تعرفن إليه استيعابه أو التغاضي عنه. الغضب المفاجئ، والعدوانية غير المسيطر عليها، واللامنطق في سلوكه، واعتاد أن يعنّف صديقاته ويضربهن لأتفه الأسباب. ويبدو أن المرأة لم تعد تحتمل طريقته بالتعامل معها فقررت طرده من حياتها، واستمرت المشاحنات بينهما عدة أسابيع حتى تلك العصرية من ذلك اليوم الصيفي حين زارها في البيت، وطلب منها مرافقته للتمشي في الغابة، ومناقشة الأمر بشكل هادئ. قيل إن نهاراً كان مترددا في قتلها، اقترب من بيتها عدة مرات ثم تراجع عائدا إلى الشارع. كان رأسه مشتعلا بالأفكار، ونازعته نفسه حول إذا ما سيقدم على قتلها أم لا، هو يحبها، هكذا اكتشف حين طردته من حياتها، لكنه لم يعد قادرا على استرجاعها. وفي لحظة غضب وتهور، ومن دون أن يظهر على تعابيره ما ينم عن نيته في قتلها، إذ كانت نية مضمرة، مدفونة في بئر الكراهية المصاحبة لكل علاقة عشق، ووسط غيضة كثيفة من الشجر قريبة من الطريق الترابي الذي يخترق الغابة، ونتيجة لإصرارها على قطع العلاقة، وظهور تعابير التحدي والمقت الشديد في صفحة وجهها، فسّر نهار التعابير على أنها احتقار له باعتباره أجنبيا، كل ذلك دفعه لأن يستل في برهة غضب وحشي، وتهور، السكين من جيبه الخلفي بغتة، وطعنها في رقبتها، وصدرها، وبطنها، ثم بدأ فصلا مرعبا من الطعن المهووس. سقطت المرأة مضرجة بدمائها بلا مقاومة، ولم يسمع أحد حشرجاتها. اعتقل نهار فورا بعد الحادث لكنه لم يعترف بجريمته. وجهه كان مألوفا من قبل الجيران، غير أن الأدلة كلها كانت تدينه فتم الحكم عليه بالسجن المؤبد. وجاء اشتهار المحاكمة وبقيت تروى حتى اليوم، بسبب غرابة ما قام به نهار بعد أن نطق القاضي بالحكم. وقف بثبات أمام القضاة وراح يهتف بصوت عال: "يعيش الحزب الشيوعي العراقي"، كرر الهتاف ثلاث مرات إلى أن أسكتته الشرطة.

حدثت تلك الجريمة بعد مغادرتنا للمبنى المنزوي وسط الغابة. وقيل إن المبنى تم غلقه بسبب الجريمة، فقد قدم الساكنون حول المبنى بلاغا إلى البلدية بضرورة غلق المكان، فهم يعيشون برعب دائم، نساؤهم لم تعد تأمن الخروج إلى الغابة لالتقاط الفطر أو التريض نهارا، ورجالهم أخذوا حذرهم من تكرار الواقعة. كفت الغابة من أن تكون آمنة كالسابق، وتركت جريمة نهار سمعة سيئة حولنا بين سكان المنطقة، واعتبرونا قوما متوحشين، يحملون بذرة الجريمة في دمائهم، وطالبوا البلدية بنقل مكان الدمج بعيدا عن بيوتهم. بعض منا لم يلمهم على طلبهم، والبعض عدّها عنصرية مقيتة ضد الأجانب، وتعميما رخيصا يشملنا جميعا. صرنا نشعر بالعار من أنفسنا، وأدركنا أننا نحمل بقعا عفنة في تكويننا مدفونة عميقا في التربية التي نشأنا عليها. وراجع البعض منا نفسه مراجعة جذرية وقرر التناغم مستقبلا مع قيم المجتمع، فيما أفسح البعض الآخر لتلك العفونة مساحة حرة كي تتمدد وتلتهم شخصيته، وقد تحول هؤلاء إلى مجرمين، ولصوص، ومدمنين على الكحول والمخدرات، وهو ما انتهى بهم إلى السجون أو الموت المبكر، وقطنوا في قبور عتيقة. أسماؤهم يمكن رؤيتها على الشواهد المهملة المغطاة بالغبار، وبأوراق الصنوبر والجوز البري وفتيت براز الغربان والنوارس البحرية، وصدأ السنين التي درجت على موتهم.

"ولكن، معين لم يكن أفضل من نهار صديقه": قال مراد لجلاسه في مقهى الكليب تري وهو يحتسي البيرة من فم القنينة. ولم ينقطع من تأمل وجه النادلة الشابة، المبتسمة دائما، الواقفة وراء البار توزع مشروباتها على الزبائن. ومقهى "الكليب تري" يشبه الكهف الطويل، طاولاته تتراص على امتداد الحيطان، فيما اتخذ البار واجهة دائمة أمام أعين الجالسين. ويسمح المقهى لرواده الجلوس على فنجان قهوة لساعات بدون أن يطلب منهم شراء مشروب جديد. لذلك صار بؤرة ملائمة للمتسكعين والعاطلين عن العمل. ويكتظ عادة في ساعات ما بعد الظهيرة. هنا ترسم الخطط للسرقة، ويتم بيع غرامات

الحشيشة المجلوبة من المهربين أو من منطقة كرستيانيا، وكذلك التنسيق حول سهرات الليل واختيار الحانات المناسبة. أما الشائعات، والنميمة، والتقولات، فهي خبز الزبائن الدائم، بالذات جماعتنا الأجانب. ومن النادر جدا رؤية زبائن الحذاء الصيفي، أو الكراسنابولسكي، في المكان. مراد تعرّف على صديقته دوتا في المقهى هذه. وقتها دخلت دوتا وجلست على الطاولة المجاورة له. أخرجت كتابا، وبدأت تقرأ وهي تحتسي قهوتها المفضلة بأناقة، وتدخن سيجارتها بلذة. أعجبه شعرها "الكاريه" الملتمع بالانعكاسات الذهبية، ورقبتها البارزة من معطفها الشتوي السميك، وكان الثلج يومئذ يتساقط على المدينة كما لو كان فراشات بيض مرحة تتأرجح نازلة من الغيوم. ضبطها تختلس النظر إليه، ثم تعاود دس وجهها في كتابها إلى أن التقت عيونهما في اشتباك طويل فابتسمت له برقة، وبادلها مراد الابتسام ثم مال اليها وسألها عن اسمها. "دوتا"، قالت له وأطبقت الكتاب. حركتها في غلق الكتاب، ولغة جسدها العاكسة لابتهاج داخلي، دعوة صريحة لمتابعة الحوار. وكالعادة جاء السؤال ذاته: من أي بلد أنت، وماذا تعمل، والخ؟ وأصبحا صديقين منذ ذلك الشتاء. وبعد تلك السهرة في بيت نائل أخبرته بأنها استمتعت كثيرا بلقاء أصدقائه، هم شفافون، وصادقون في مشاعرهم، كما وصفتهم، لديهم حميمية نفتقدها هنا في أرض الثلج هذه: لاحظت استخدامكم للرموز والإشارات فيما بينكم بكثرة أثناء الحوار، وهذا يحمل دلالة واضحة عن ارتباطكم الوثيق بالطبيعة. لديكم هوس بالأصوات العالية، وكأن علو الصوت يغيّر من جريان الأحداث والمصائر، نحن نتكلم بصوت هادئ حتى في ساعات الإنفعال والغضب. غناؤكم يخرج من أعماق الروح، ورغم أنني لا أفهمه لكنه يلفّع السامع بالألم. لذلك قرر مراد جلبها معه لكي تلتقي بنماذج أخرى من أصدقائه المثقفين. سيجلسون غدا في جمهورية الموز بمناسبة زيارة كمال الشاعر إلى العاصمة، وسيكون المخرج علي الشمري حاضرا أيضا. واستغرب رواد المقهى من طريقة مراد باللبس اليوم،

فهو أنيق بشكل واضح، فتساءلوا متغامزين عن الأمر، فأخبرهم بضحكة مكتومة، موحية، بأنه سيغزو سوبرماركت "ماكازين".

وهو سوبرماركت هائل البناء يقع مقابل المسرح الملكي.

من عادة مراد أن يلبس ملابس تناسب المكان الذي سيغزوه. إذا كان المحل متواضعا يلبس ملابس عادية، وإذا كان فخما يلبس ملابس فخمة. والناس يحكمون على الشخص من مظهره، وهو قانون يعتقد مراد أنه يسري على البشر أجمع. قرر سرقة تلك الحقيبة الفخمة المصنوعة من الجلد في قسم الجلود بسوبرماركت ماكازين، وقد توقف يوم أمس أمامها طويلا وأعجبته، سعرها غال يكاد يصل الخمسمائة دولار، وتخيّل أن الأمر لن يكن صعبا عليه. لذلك أعد للأمر عدته ورتّب الرباط الأسود النحيف على قميص وردي وفوقه جاكيت من القطيفة الداكنة. "اسرقوا سارقيكم"، كان مؤمنا بهذا الشعار منذ تلك الأيام السود في العراق. ارتدى بنطلونا خفيفا من القماش الأسود، وحذاء أسود يعكس الضوء، وتعمّد أن يكون منخفض الكعب كي لا يضيف طولا نشازا إلى قامته. وبهذه الأناقة الملفتة للنظر، المنسجمة مع شعره الطويل ووجهه الحليق الوسيم بشفتيه الناعمتين وعينيه القهوائيتين ودّع أصدقاءه وخرج من المقهى.

صعد مراد الدرج المتحرك في الطابق الأول لسوبرماركت ماكازين، وواجهته برودة المكان وشعر بالانتعاش، واتجه مباشرة إلى قسم الجلود. وجد الحقيبة في مكانها تحيط بها حقائب أصغر من النوع ذاته، كما لو كانت أما حنونا يحيطها صغارها، هكذا تخيل الحقيبة وسط تلك الحقائب الأنيقة. ولحسن الحظ وجد البائع مشغولا في الطرف الآخر من القسم مع أحد الزبائن، فمد يده وانتشلها من الأرض المكسوة بالسجاد الأنيق وسار نحو صندوق الحسابات، موهما من يراقبه بأنه ماض إلى دفع النقود، بل مد يده بطريقة احترافية في التمويه والتضليل إلى محفظته الصغيرة كما لو كان يستخرج النقود فعلا.

وعلى بعد أمتار من الصندوق استدار فجأة نحو اليسار، وعاد ماشيا إلى الدرج النازل بكل ثقة، ومن دون أي تردد. إذا ما شعر بشخص ينادي عليه أو يتبعه سيرمي الحقيبة ويهرب، لقد فعلها مرة واحدة منذ أن امتهن سرقة سارقيه، وظل سائرا حتى الباب الخارجي. لم يلتفت للنساء الشقراوات، لم يلق نظرة على قسم الخمور الفاخرة أو يتعطر من أفخر أنواع الزجاجات المفتوحة للزبائن، لم تنل دهشته تلك الديكورات الأنيقة أو الموسيقى الهادئة المتساقطة من السقوف والزوايا، كما كان يحدث له في جولات سابقة. خرج من الباب العريض بخفة، وأفضل ما يقوم به هو الانعطاف يسارا كي يدخل إلى شارع المشاة ثانية. توغل في الشارع بروح المنتصر، مهمته أنجزت بنجاح، "مهمة بيضاء". وغادر التوتر جسده واختلط بلمحة بصر مع الماشين نحو ساحة اللقالق.

العملية سهلة، وخالية من المخاطر، وفسّر سهولتها بالحظ، والنية الطيبة. النية الطيبة هي التي أعمت العيون والكاميرات عن مراقبته. منذ أشهر وهو يهيئ نفسه لجمع كمية كافية من النقود كي يرسلها إلى عائلته العالقة في طهران. أخبروه أن الحل الوحيد للخروج من هذه البئر هو شراء جوازات سفر مزوّرة، عبرها فقط يمكنهم الوصول إلى أوروبا. وكان المبلغ خياليا بالنسبة لمراد، لكنه بعد ليال من الأرق والمعاناة والسهر في شقته وحيدا، سكران بالبيرة والويسكي، أو منتشيا محلّقا بدخان الحشيشة، الذي يتسلل إلى الخلايا بخفة ورشاقة، قاده عقله لركوب هذه الطريقة لتحقيق مأربه. ليس هناك من سبيل أسرع وأضمن. الأمر بحاجة إلى قبضة من الشجاعة والمغامرة، وهو قد غامر بوطن، فعلى ماذا يخاف بعد اليوم؟ الحقيقة المرة التي رآها تجلت في وجوده المنبت في هذا البلد. سيتوب حتما من هذه العادة السيئة ما أن يصل الأهل إلى بلاد الفايكنغ. وأقسم مع نفسه أن يلتزم بوعده حال تحقق هدفه.

توغل بخفة في الشارع العابر إلى جزيرة "آما" حيث يقع بيته. التفت وراءه ثلاث مرات ظانا بأن أحدا ما يلحق به. كان يتطلع بين الحين والآخر إلى الحقيبة ويبتسم، هي حفنة من الدولارات، سيبيعها ذات يوم إلى واحد من الأصدقاء أو المعارف. ستضاف إلى خزينه في تلك الغرفة التي أصبحت أشبه بالمخزن. لم يطلع دوتا على محتوياتها برغم ترددها أكثر من مرة على الشقة. انصرف ذهنه نحو منطقة كرستيانا ما أن لمح أشجارها، وبحيراتها، وكنيستها ذات البرج الشبيه بملوية سامراء. شاهد برج الملوية كما أطلق عليها دائما في نفسه، وفكر بأنه محتاج إلى الاحتفاء بنجاح العملية، وتمثلت له كرستيانيا فتاة مغناجا تدعوه إليها، فقرر الذهاب إلى هناك. ترك خلفه القناة الضيقة المتوغلة في المنطقة، وقواربها المهجورة المربوطة إلى الخشب العتيق للضفاف، والشباب الخارج توا من الواحة، واحة كرستيانيا كما سمّاها. شباب يغذّون السير نحو ظهر الجسر بملابسهم الممزقة، وشعورهم المصبوغة، وأشكالهم التي يصعب من خلالها تمييز الإناث من الذكور. تجاوز رصيف "آما" العتيق بنصبه المنحوت منذ مئات السنين، وانعطف إلى اليسار. مر من أمام بوابة الكنيسة، "ملوية سامراء الفايكنغية" كما دأب أصدقاؤه على القول، ثم انعطف يسارا مرة أخرى ليدخل الواحة والجا قوسها المرصع بأماليد الشجر والخشب.

كرستيانيا، مكتوبة بخط قوطي متعرج على قطعة طويلة من الخشب المسطح، ثبتت على عمودين خشبيين بنهايتين سائبتين، وقاده الممر الحجري إلى الساحة. "كرستيانا" مثل وردة ضخمة تظلل المباني المتناثرة، ومحال بيع الأقراط النسائية، والأطعمة الشرقية، والحارات المكتظة ليلا ونهارا. الرائحة ذاتها، رائحة الحشيشة: حشيشة كشميرية، جامايكية، مغربية. تحوّل الصالات هنا إلى مدخنة حشيشة حقيقية نتيجة لغلق الشبابيك واكتظاظها بالزبائن شتاء، بحيث أن المرء لا يحتاج كي يصل إلى النشوة سوى الدخول إلى حانة ما والوقوف خمس دقائق فقط، ثم يجد نفسه وقد حلقت إلى السماء. السياسيون، رواد مقهى "الحذاء الصيفي"، و"الكراسنابولسكي" من أصحابنا

يعتبرون المكان مرتعا للبروليتاريا الرثة، وهوامش المجتمع من عاطلين، ومومسات، ولوطيين، وسواح من دون نقود، ومطلوبين للشرطة، وعناصر المخابرات المدنيين. وهم لا يرغبون في تلويث سمعتهم، وتاريخهم النضالي، في هذه الأماكن. ينبغي أن يحتفظوا بمصداقية أفكارهم أمام جمهورهم ومريديهم، واليسار عادة ما يضع المصداقية، والأفكار الكبيرة السامية، فوق كل متعة ونزوة. مات مئات، بل وآلاف الأشخاص في السجون وتحت التعذيب وفاء للفكرة والمبدأ. المثقفون من رواد "كراسنابولسكي" يأتون أحيانا لكي يعيشوا جوا جديدا عسى أن يستلهموا منه قصيدة، أو لقطة روائية، أو خلفية غرائبية لمشهد مسرحي. وأكثر من يرتاد المكان هم زبائن مقهى "الكليب تري". عدا شرائهم للحشيشة، أو تدخينها عند حافة البحيرات القريبة من السوق، إذ يجعل مشهد الضفاف الساحرة مفعول الحشيشة يسري بسرعة إلى تلافيف المخ، يتعمد البعض منهم، في حالات كثيرة المجيء في ليالي "الويك إند"، وفي ساعة متأخرة بعض الشيء، للاصطياد، وهو الوقت الذي تكون فيه النساء ارتوين من الخمور ودخنّ الحشيشة وأصبحن سهلات، منهن خاصة المستمتعات بالجلوس على المرتفع، وشكّل سياجا للمنطقة من ناحية البحيرة، ومراقبة البحيرة الساكنة التي ينعكس في مائها ضوء البيوت الخشبية المتناثرة على الضفاف. يسهل سحبهن من نشوة الخيال إلى نشوة الواقع، وذلك بمضاجعتهن وسط الشجيرات القريبة من الماء، أو في غيضة الأشجار البعيدة عن الطريق المحيط بالبحيرة. واصطلحنا على تسميتها ب "المضاجعات الطيارة"، وفي ذلك الوقت المتأخر من الليل، وفي العتمة الخيالية المستولية على المكان، لا يعود ثمة فرق بين شابة في العشرينيات أو امرأة ناضجة في الأربعينيات، وحتى في الخمسينيات. مارس مراد هذا الفعل أكثر من مرة مع عدد من أصحابه في الشتاء على وجه التحديد، حيث تخف حركة البشر خارج الصالات والمطاعم بسبب البرد الشديد.

منظر الجداريات الملونة على واجهات الحيطان صار مألوفا لعينيه، وكان أكبر جدارية مرسومة على واجهة تلك الحانة المعتمة، وتمثل شجرة ضخمة تتفرع في استطالات غير واقعية، وكأنها رمز يدل على روح تلك الحانة. إيقاع المنطقة هو ذاته، لم يتغير منذ سنوات، ليس هناك هوية محددة له، بدا هذا المساء كما لو كان عالما مصغرا للكرة الأرضية، سواء بالجنسيات الموجودة فيه أو ألوان البشرات، أو حتى من خلال تباين الأبنية وغرابتها. سار متمهلا أمام الطاولات، قطع مستطيلة من تلك المادة البنيّة، جنبها مقادير قليلة بالمفرد، واستغرب من وجود كل ذلك السحر في تلك القطع المرصوفة بعناية، ثم لمح فجأة صديقه المغربي. كان يعرفه باسم "الغبّار"، اشترى منه سابقا غرامات من الحشيشة المغربية وصار محط ثقة له وللشلة. وجه أسمر نحيف له هيئة جرذ، وعينان ضيقتان حادتان لا تستقران على نقطة محددة. يبيع الحشيشة لكنه لم يره يوما تحت تأثيرها مطلقا. وعادة ما يتخاطب مع العرب باللغة الفصحى تفاديا لعدم الفهم من استخدام اللهجة المغربية الصعبة. كيف قذفته السنون إلى هذه الجزر، وما هو عمله الحقيقي، وهل يمتلك أسرة، ولم اختار مهنة خطرة مثل تلك؟ أسئلة ظلت تراود عقولنا من دون أجوبة.

التقاه "الغبّار" بابتسامة عريضة وهو يناديه باسمه. رآه أكثر من مرة هنا وانعقدت معه وشيجة من المعرفة، وقال له بابتسامة عريضة: "لدي نوع مغربي فاخر وصل البارحة". ومراد لا يمتلك الخبرة بالحشيشة، وفيما إذا كانت القديمة هي الأفضل أم الجديدة. كم تريد؟ ربع كيلو؟ سأله الغبار بنبرة واثقة. ضحك مراد وقال له ممازحا: "هل تحسبني تاجر حشيشة، أريد غراما واحدا فقط لهذه الليلة". ناوله قطعة صغيرة ملفوفة بالسيلوفان، ولتمتين العلاقة رفض في البداية أخذ الثمن لكن مراداً ألح، وألقى أمامه النقود، ثم تناول القطعة منه ووضعها في جيب الجاكيت. قال له الغبّار بنبرة العليم وتاجر السوق: "صحيح أن الحشيشة ممتعة، وتعدّل الرأس، لكنها لا تقارن بالكوكايين. ذاك نشوته أعمق ويفعل الأفاعيل بالروح. تأخذ خطا أو خطين ولا

تعود الدنيا تساوي لديك قشرة بصل. نحن العرب همومنا كبيرة، وإلا لم نكن لنصل إلى شمال الأرض، وليس مثل الأبيض مادة تزيل الهموم وتجليها. أنتم العراقيين بالذات ألله يكون في عونكم. ركبتكم الحروب والمصائب منذ سنين". "الغبّار" يسترسل بالكلام لولا أن أوقفه مراد بحسم قائلا: "لا، لا، لم أصل إلى هذه المرحلة، ثم إن الكوكايين كما أعرف ممنوع من التداول في المكان فكيف تبيعه هنا؟" يمكنني تدبيره لك من خارج المنطقة إذا رغبت. لكن سعره كما تعرف أضعاف سعر الحشيشة. استفسر مراد عن أنواع الحشيشة، ومصادرها، وكيفية جلبها إلى هنا، وبعد أن استرسل الغبار في إيضاح كل ذلك بنشوة العارف للسوق، وما يجري فيه من صفقات، ودسائس، ومغامرات ترفع الشخص نحو قمة الثراء أو تقذفه إلى حضيض السجن، ودعه مراد بحرارة، وأخذ يتجول بين الطرق الواصلة بين ساحة وأخرى. وظل دقائق يفكر بحديث الغبار، وكان أثناء ذلك يتطلع بالجالسين الباحثين عن المتعة، وبالفتيات المتكئات على ظهور أصدقائهن وهن يرتشفن البيرة بطمأنينة، وراوده إحساس أنه سيلتقي بواحد من معارفه، لكنه كان مخطئا، فالوجوه كلها غريبة، وغائبة عن حاضرها. اتجه إلى طريق البحيرة العالي، رفع عينيه نحو السماء الزرقاء، ولفت نظره غيمة في الأفق المزرق فشعر بالحزن، وأحس كما لو أن حياته غيمة بيضاء تائهة. تطير مئات الغربان في رف كثيف السواد. تحلق فوق البحيرة لحظات ثم تحط ثانية بين أغصان الأشجار الكثيفة، يتم ذلك في حركة متواصلة بين الطيران والركون إلى الشجر. طيور محششة، يدفعها الغروب القادم إلى اللعب واستنشاق أكبر كمية ممكنة من الدخان المتصاعد من السجائر. لو يتحول إلى غراب أليس أسهل من هذه الحياة الفارغة؟ وظل في مزاج قلق متوحد حتى حين تنكّب طريق البحيرة المتوغل بين صفّين من الأشجار، الطريق المتعرج الذي كان بمنتهى الجمال، وينث سحرا غير محسوس تضاعفه نداءات الطيور، وأصوات الحشرات المترددة من بين أعشاب الضفاف وأشجارها.

ومن هناك، من رصيف الشارع الواسع استقل الباص متجها إلى البيت.

أضاء النور في المدخل فعثر على رسالة من دائرة الأجانب دسها موظف البريد أثناء غيابه في شق الباب. قرأها بسرعة، وأحس ببرودة تتسلل إلى جسده، فهم يخبرونه بأنهم يرفضون إعطاءه الإقامة الدائمة كونه أخل بقانون البلد، ولم يعش مواطنا صالحا في الفترة السابقة. ارتكب جريمة عنف لا معنى لها. لذلك ستؤجل الموافقة على طلبه حتى إشعار آخر، وسيظل تحت قانون الإقامة المؤقتة لسنوات قادمة. لقد استولى عليه الحزن حتى وصل إلى شغاف قلبه. "أينك يا مغني"، كان يدندن مع نفسه بلازمة متواصلة، وضع شريطا في مسجلته القديمة المسطحة وبدأ "يوسف عمر"، وهو قارئ مقام ذو صوت عميق، رجولي، يتصاعد في الشقة، وجلس على الأرض ودرج لنفسه لفافة رصعها بفتات الحشيشة وأشعلها بلهفة ثم راح يمصها منتشيا، مسافرا مع صوت المغني وهو يأخذه إلى مقاهي دجلة وخاناتها ونسائها وأغانيها. المقام هو ما يمثل روح البلد، أحزانه وعبثه وعشقه وذكرياته، والعتمة خلف الشباك تنسج غلافها على الساحة، وراح ينغمر في أفكاره لحظة بعد أخرى. وأول ما تبادر إلى ذهنه تلك الليلة المقيتة، وتمنى لو يحذفها من جيناته، ومن ذاكرته وسجلّه. وتجلى له وجه ليث المذعور وهو يعصره بين يديه ويوجه له في لحظات السكر، وغيبة المنطق، تلك الطعنات الخفيفة بقصد التخويف فقط، لم يكن ينوي قتله لا سامح الله، هو برغم جسده ذي العضل الرياضي لكنه يكره العنف، بل ويحذر جهد الإمكان الوصول إلى نقطة اللاعودة حتى في مشاجراته مع الأصدقاء. سماها غلطة "الشاطر"، من أجل فتاة قروية يمكن أن تنام مع أي كان، كان يفترض به أن يرى أبعد من أنفه، ماذا جرى لتلك المرأة صديقته "آنا"؟ يقينا أنها لم ترافقه إلى جزيرة الانكليز. بعد خروجه من السجن لم يتسن له اللقاء بليث، وقد اتخذ قرارا صارما مع نفسه أنه سيعتذر له بقوة، ويقبّل رأسه ويطلب منه المغفرة، ويشرح له مشاعره التي عاشها في السجن، مشاعر

الندم العميق. لكن كل ذلك لا ينفع، فما حدث لا يمكن محوه، لا من ذاكرته ولا من سجله الجنائي، وها هي رسالة دائرة الأجانب تؤكد ذلك.

صنع لفافة بما تبقى من الحشيشة، ووضعها على الطاولة الصغيرة جنب الفراش ثم اتجه إلى الحقيبة وحملها إلى الغرفة الثانية الصغيرة المجاورة للمطبخ. وبيت مراد يتألف من غرفة نوم، وغرفة صغيرة، ومطبخ، وحمام ذي مرحاض غربي ينحشر في الزاوية الضيقة. فتح باب الغرفة الصغيرة وأشعل الضوء واختار للحقيبة مكانا على السرير المكتظ بالعلب والكارتون والملابس. كشف الضوء عن أحذية، وأطقم رجالية معلقة أنيقة، وقبعات، وبلوزات حريرية، وجاكيتات من الجلد المبطن بالفرو، ومعاطف من القطن، وصنادل ذات تصاميم فنية، واصطفت على الأرض في زاوية الغرفة قناني مشروبات فاخرة من الويسكي، والروم، والجن، والنبيذ الفرنسي المعتق. لكل حذاء حكاية، ولكل قنينة عطر فاخرة ذكرى بعيدة في عقله. يتذكر جيدا اللحظات التي كان فيها أثناء سرقته للقمصان والجوارب والشالات الصوفية والبلوزات الفخمة وقناني العطر، أو كيف اشتراها من لصوص آخرين التقاهم في ساحة الرصيف القديم أو مقهى "الكليب تري" أو قرب نصب اللقالق، أو أثناء الاحتفالات في حديقة شرق المدينة المسماة "فيليباركن". كان كمن يطمئن إلى كنز، وقف دقائق متفكرا بأهله البعيدين، وشبحت ابتسامة حزينة على شفتيه، وهو يكاد لا يثبت على حال واحدة، ثم أطفأ الضوء وعاد إلى سريره ساهم العينين. استبدل الشريط القديم بشريط فريد الأطرش الذي اشتراه من القاهرة. وكان يحتوي منتخبات اختارها بدقة، تغطي فترة شبابه ثم صعوده النجمي في عالم الغناء. تناول سيجارته الثانية وأشعلها بعود ثقاب وظل لحظات زائغ الخيال، يسترجع الأحداث والصور والوجوه وهي تختلط في مزيج متغير يبزغ ثم يخفت. ماذا يعمل في هذا البيت، ولم ينام وحيدا، ومن جلبه إلى هنا؟ أسئلة عادة ما ترد إلى عقله ولكنه لا يصل إلى جواب لها. حاله حال قطعان السياسة في مقهى الحذاء الصيفي، وكراسنابولسكي، والكليب

تري، والمخيمات المتناثرة بين المدن الغاصة بالهاربين. يتوحدون في أنهم عاطلون عن العمل، يتعلمون اللغة كما لو أنهم يؤدون واجبا ثقيلا، وأغلبهم غير متزوجين، ولا يفكرون بالزواج، وهم يتقلبون في هذا البحر من النساء. اتكأ على يسراه، وراح يحدق في صفحة الباب أمامه. ينفث الدخان الكثيف بغضب نحو فضاء الغرفة، ونحو الباب والجدران الجرداء المسودة من تبغ الأصدقاء الذين عادة ما يجتمعون في بيته بين الحين والآخر للعب الورق، أو للسهر حتى الصباح. أصواتهم هناك، تلتصق بالجدران وأواني المطبخ والطاولة الأنيقة. فكر بكمال الشاعر وعلي الشمري ونائل ودوتا وكاد يسمع أصواتهم تطل عليه من عالم الغيب، وتذكر معلمه الفذ في علم المساج والتصوف في سوق الذهب، وسط مدينة إسلام آباد الإيرانية.

ومن الغيمة الدخانية المتلوّية فوق رأسه، أطل عليه وجه دوتا حازما مرحا، وأشعره بالسعادة. برغم عدم الانسجام الكبير بينهما لكنه ارتاح لمرافقتها، وفكر بالعيش معها، وعاد إلى ذلك اليوم البعيد، يوم موعدهما الثاني، فعلى أرائك مقهى الكليب تري، جلسا جنبا إلى جنب، وكان مراد في ذلك اليوم الشتائي، البارد، يفكر بالكيفية التي تجعله يستدرجها إلى الفراش. يشعر برغبتها فيه وبرغبته في ملامستها، وكان ذلك باديا من خلال الذبذبات غير المرئية المتشابكة بينهما. وهكذا بدأا يقتربان أثناء الحديث من المناطق الخاصة لكليهما، مثلا عرفت منه أنه يعشق الغناء، الشرقي منه على وجه الخصوص، وأنه بارع في مداواة الأجساد المتعبة عبر "المساج". استوقفتها فكرة المساج فطلبت منه التوسع في الموضوع. أخبرها أنه تعلم ذلك على يد صائغ ذهب عندما كان يشتغل بنقل الذهب من مدينة "شاه آباد" التي أصبح اسمها "إسلام آباد" بعد الثورة إلى أسواق طهران. كان ينقل الذهب العتيق والمصوغات المكسورة لمحلات الصياغة إلى طهران ليبيعها هناك، ثم يشتري المصوغات الجديدة بطرزها الحديثة المرغوبة من الشابات والعرسان. وقد اكتسب ثقة باعة الذهب بعد سفرتين أو ثلاث فقط. وكان من ضمن المتعاملين معه ذلك البائع

الخبير بالمساج. واعتبره تجربة روحية جديدة أعطته نتائج مذهلة في شفاء المرضى. الجسد والروح شيء واحد دأب على القول له، وقد امتلك موهبة الإشفاء من مجموعة صوفية يلتقيها في المدينة، كانت تمارس اليوغا، والمساج، لشفاء الأرواح والأجساد، فكل ألم جسدي، كان يؤكد له، ما هو إلا نتاج ألم روحي أو خلل في مكان ما من روح الكائن. وذات يوم عاد فيه من رحلة طويلة مملة من مدينة طهران أحس خلالها بتيبس في ظهره، فبادر الرجل إلى عرض خدمته في المساج. ولأنه شاب جميل وقتها، داخله الشك في أنه قد يستدرجه لعمل مناف للأدب، وكان معتادا على وضع أريكة خاصة بالمساج في الردهة الخلفية للمحل. اشتغل عليه ساعة كاملة، "منذ تلك الساعة وأنا مهتم بهذا الحقل من العلاج، ولازمت الرجل في أكثر من جلسة. اعتبرته أستاذي الروحي". طريقة وصف مراد لهذا العلاج، أثارت فضول دوتا فاتفقت معه على اعطائها فصلا في المساج، وفضلت أن يكون في بيتها، وفكرت بأن ذلك أكثر أمانا، إذ لم تصل إلى رسم صورة واضحة لمراد حتى تلك اللحظة. وفي اليوم التالي وقف مراد أمام باب البناية عند ساعة الموعد تماما، وعلى ضوء العنوان الذي كتبه على ورقة صغيرة، وحين تأكد تماما من المكان بدأ يصعد الدرج بتمهل. كانت دوتا تقيم في القسم القديم من المدينة، قريبا من "تمثال النيل"، يحتل بيتها الطابق الخامس، وهو الطابق الأخير في البناية. الدرج كان مصنوعا من الخشب العتيق، بانت على درجاته الطبعات السود لآلاف من ارتقوا إلى الشقق، وتأكد مراد من وجود قنينة زيت اللوز الصغيرة في جيب معطفه الشتوي الطويل أسود اللون، وقد اشتراها من الأسواق الشرقية المقابلة للمحطة في شارع "إستدكاذا". كان الصعود مرهقا، ويبدو أن دوتا كانت تنتظره، فقد رآها واقفة في الباب ما أن ارتقى الدرج الأخير في البناية. دخل من الباب الضيق وواجهه باب الحمام مفتوحا، تضيئه نافذة مسطحة في السقف الواطئ تسرب الضوء الخافت إلى الداخل، ثم عبر ممرا صغيرا قاده إلى الغرفة الواسعة. سرير صغير مركون على امتداد الجدار البعيد، بينما احتلت طاولة طعام خشبية المكان

تحت النافذة الواسعة المسطحة هي الأخرى. اصطفت حولها كراس من الخشب العتيق. وفي الجانب المقابل للسرير أخبرته بوجود مطبخها الصغير ولا يفصله عن مساحة الغرفة أي حاجز، هناك المجلى والطباخ والثلاجة الصغيرة. ثم طلب منها وضع بساط على الأرضية واحضار شرشف خفيف لتغطية الجسد، وكانت دوتا تنفذ ما يطلبه منها بالرزانة نفسها، وكأنها تعيش تواطؤا صامتا مع مراد في أن ما يقومان به أمر لا علاقة له بالانجذاب الجسدي بينهما أو التجربة المثيرة في اللقاء الأول بين الذكر والأنثى. نزع مراد معطفه وقميصه، وطلب من دوتا نزع ملابسها والتمدد على الأرض، ولاحظ شيئا من التردد والشك ارتسما بسرعة برقية في عينيها، لكنها تبعت توجيهاته وتعرت من الملابس. بقيت في اللباس الداخلي وحمالة الصدر فقط. تمددت على الفرشة وأقعى مراد على جسدها، ومن أساسيات المساج هو أن يضع الممارس مساحة فاصلة بينه وبين الجسد الممدد تحت يديه. مساحة خالية من الرغبات، والمشاعر، والنوازع الشخصية. مرأى النمش في صدرها وأسفل رقبتها جلب له الدوار، وشم رائحة العطر اللذيذة من أبطيها، وتأمل في شفتيها الناعمتين المطليتين بكريم مانع البرد. تناول زيت اللوز من المعطف وفتح القنينة ثم وضعها جنب الفراش وأوصاها بالاسترخاء التام. راح يطلي الرقبة والظهر ومقدمة الصدر بالزيت، ويمسح برقّة على جسدها الأبيض المرقش بالنمش الخفيف. أوصاها أن تتوحد مع نفسها، لا تفكر سوى بحركة أصابعه على جسدها. تغلق عينيها وتتنفس ببطء، وتستمع إلى صمت روحها. وكان الصمت ثقيلا فعلا، فلا يفصل البيت عن السماء سوى سقف من القرميد الأحمر المسطح، وثمة رقائق ناعمة من الثلج تقع على زجاج النافذة لكن وقعها لا يحس لمن يجلس في الداخل. تعلم أن يغلق كل مشاعره وأفكاره ورغباته، ويتواصل مع الجسد بطاقة الحب وحدها، حيث تختفي الفروقات بين جسد وآخر سواء كان أنثى أم ذكرا. يضع نفسه في البرزخ المحايد. وهكذا مضى في عمله. ابتدأ بالرقبة والصدر ثم نزل إلى الأسفل حيث الفخذ والساقين

والقدمين، ومن بعد ذلك قلب الجسد المستسلم ليديه على بطنه وبدأ عمله من الظهر. الأصابع تلامس العضلات والأوتار والمفاصل والفقرات بحنو كبير، وينتقل بعدها إلى المؤخرة ويحاول التغلغل بين طيات اللحم ثم ينزل إلى الفخذ، وهكذا صعودا ونزولا. وسط الصمت ورائحة اللوز التي انتشرت في الغرفة. كان يسترق النظر إلى وجه دوتا قارئا ما تحس به فألفاه هادئا وكأنه يطير في عالم غير هذا العالم، وثمة موجة من الأمان تحيط شفتيها، وانتظم تنفسها. في الرأس كما قال له المعلم تتركز أهم محركات الجسد، فالدماغ الجليل في الرأس، واللسان ملك الكلام وحوذي الصمت يرتاح في التجويف الساخن، والأسنان مصدر الحياة للكائن إذ يمر الطعام عبرها. أما الحنكان فلهما دلالات الشجاعة ومواجهة المصاعب في الحياة، ثم لا يمكن إغفال العينين ومحجريهما. هما الأداتان الكريمتان اللتان تمكّنان الكائن البشري من اكتشاف محيطه، والتمتع بالطبيعة وجمالها. وكل عضو من تلك الأعضاء بحاجة إلى الحب والملامسة والترويض، فلا يحس يوما بأنه مهمل من مالكه. الأعضاء تشعر وتحس ولها روحها. يمسد الشفتين، وتحت الأنف، وأعلى الحنك، في يديه تيار غريب من الأحاسيس، وسمعت أذناه أنة خفيفة مثل نسيم بري في ليلة ربيعية قادمة من روح دوتا. سمعها من العمق الكامن خلف ما يصح وما لا يصح. أنة معبأة بطاقة الجنس والرغبة، تفيض عليه وتوقظ فيه جماح رغبته. عيناها مغمضتان، ساعداها يتمددان بجانبيها باستسلام، والآن وقد أطل على زوايا جسدها، رأى الثنية الخفيفة فوق العانة الشقراء، وتلاصق الردفين المنفتحين مثل تينة ناضجة، والسرة الغائرة في البطن الأبيض الرشيق. شدّه النداء فهبط بشفتيه نحو شفتيها، وغابا بعناق حار لم يعبأ للتعاليم، والطقوس، والفيوضات الروحية والتقاليد الصوفية للمساج. كان ذلك بداية الطريق إلى قلب دوتا وجسدها.

رن التلفون فجأة، وعاد مراد من بحر رائحة اللوز وعطر الآباط الأنثوي. وكان المتكلم ذلك الرجل المريض "فريد نافع"، وهو واحد من أصدقائه الذين

يعيشون وحيدين في بنسيون يقع على كتف البحيرة. لا يتصل بمراد إلا حين يتعتعه السكر، ويرغب في شخص يثرثر معه بقية الليل. و"فريد نافع"، كما عرفناه رجل قميء مريض، وثرثار في نظر مراد، دبق، ويكتب الشعر العمودي، ويتحاشى مراد إدامة العلاقة معه. حفظ موّاله المعاد نفسه كلما اتصل به: "لا أحد يتصل بي، أنت لا تتصل إلا إذا بادرت أنا، العالم كله يتجاهلني، أنا والبحيرة وتمثال النيل". لم يشأ مراد مقاطعته وتركه يسترسل في كلامه، لأنه لا يجد جدوى في مقاطعته. سهر معه ذات يوم في غرفته هو وحازم الأعرج، قبل أن يتعرف على دوتا، دخنوا الحشيشة حتى ساعات الصباح وهم يرقبون سريان الفجر على مياه البحيرة، محدقين صامتين بمسيرة البجع و"تمثال النيل" الذي كان يتراءى عبر أضواء البحيرات مثل حيوان أفريقي منقرض. في تلك الليلة غنى له مراد معظم أغاني فريد الأطرش، وحدّثه عن زيارته لقبر فريد بحماس، كيف واتته الفكرة فجأة حين سمع صوت فريد ينطلق عاليا من محل لبيع الفلافل في أحد شوارع القاهرة. دله حارس المقبرة على القبر، ووجده ضريحا معتنى به، يشبه بيتا ذا قباب شرقية الطابع، لكنه وجد الباب مغلقا، وأخبره الحارس أن القبر لا يفتح إلا عن طريق المشرف على القبر، وأوصى مراد بالبقاء أمام الضريح ريثما يتصل تلفونيا بالمشرف. وهناك وجد قبر أخته أسمهان، وهنا تداعت إلى ذاكرته تلك الألحان الساحرة التي راحت تعزف في رأسه، ودفعه بعضها إلى البكاء. شعر آنذاك أنه أدى واجب العمر تجاه أيقونة عمره في الفن والصوت الشجي، مما حدا به لشراء معظم تسجيلاته المتوفرة في السوق، واعتبر أن زيارته للقاهرة حققت هدفها. تطورت علاقته بفريد نافع بعد تلك الليلة فدأب على زيارته كل أسبوع تقريبا، ليسهرا سوية وحيدين أو مع شلة أخرى من أصدقائه، وصار يزوده بغرامات حشيشة من النوع المغربي الممتاز. على رغم أنه شاعر، ويحترمه الوسط على هذا الأساس، إلا أن مراداً لم يجد في غرفته سوى ديوان شعر ضخم لأبي الطيب المتنبي، جلبه، كما قال، من مكتبة "الساقي" في زيارته الأخيرة للندن. كان يقرأ عليهم بعض قصائد المتنبي

ويقارنها بقصائده، ويسألهم رأيهم حول تلك المقارنة. ولكن الجلسة معه في المقهى الذي صار يرتاده ويقع قرب مقبرة العظماء في "النوربرو" لم تعد تنال رضاه، فهي تقتصر على السباب، والتعريض بالأصدقاء والمعارف. "لست بحاجة إلى هموم الآخرين، ما عندي من هموم يكفيني"، حدث مراد نفسه وهو يلقي بالسماعة على الفراش، وترك فريد يثرثر كما يحلو له، وعاد إلى حلم دوتا البعيد. وانتبه بعد وقت غير معلوم ليجد السماعة تصدر صوتا متقطعا، وعرف أن صديقه أغلق الخط، فبادر مراد إلى وضع السماعة في مكانها. وكان بين النوم واليقظة حين اتصلت به دوتا، وسألته كيف قضى يومه فاخترع لها قصة خيالية عن لقائه بأصدقائه الجالسين حول بركة اللقالق، ثم رجوعه ماشيا إلى البيت بدون أن يذكر شيئا عن سرقته للحقيبة من سبورماركت "ماكازين"، أو تجواله لاحقا في منطقة كرستيانيا. وذكّرها بموعده مع الأصدقاء في حانة جمهورية الموز مساء، وقبل أن تغلق السماعة تمنت له ليلة سعيدة مع قبلة صوتية طويلة، ثم قرر مراد بعدها أن يسحب موصل التلفون وينام بلا مضايقات، فهو يشعر بالإنهاك، ويحتاج إلى نوم عميق بعد يوم اعتبره متعبا وطويلا.

١٧

توجه في اليوم الثاني برفقة صديقته دوتا إلى جمهورية الموز. من الحاضرين في الحانة تعرف دوتا نائلاً فقط، أما كمال الشاعر فلم تلتق به سابقا، وكذلك المخرج المسرحي علي الشمّري، بوجهه المشدود، وعينيه الحادتين، وشعره الأسود الفاحم. عرّفها مراد على كمال وعلي، وجلسوا عند الطاولة المركونة جنب الجدار. في هذه الأثناء واصل علي حديثه لكمال، بعينين ترتسم فيهما جدية بدت متكلفة بعض الشيء في مكان مثل جمهورية الموز: قرأت قصتك في مجلة "الاغتراب الأدبي"، وأعجبتني، وأفكر بإخراجها للمسرح. "الكابوس" عنوان مثير للقصة، وهي ستكون مثيرة على المسرح. الفكرة مبتكرة وتتساوق مع ما يعيشه الأجانب في هذا البلد، وأي بلد آخر ربما. أي تغيير هويتهم سعي الاندماج في المجتمع. إذا قارنا مسرحية جلجامش التي أخرجتها للمسرح مع مسرحية الكابوس، لوجدنا شيئين متباينين. جلجامش كان يبحث عن الخلود، لا يريد الوصول إلى نهاية مأساوية مثل التي وصلها صديقه المتوحش أنكيدو، أي "الموت"، بينما يعيش بطل قصة الكابوس هاجس إلغاء هويته وتبديل شكله الذي يعتقد أنه سيقوده إلى الاندماج مع المجتمع. الفكرة تحمل نقيضا كاملا للموت. شخص يعيش في غرفة كئيبة وينام على سرير بائس كأي لاجئ هجر وطنه. يتخيل نفسه يقف على طاولة أو منصة محدقا إلى جمهور يجلس أمامه صامتا، ثم يبدأ بنزع شعره الأسود ليضع بدلا منه شعرا أشقر. هنا تلعب "المرآة" دورا هائلا في تجسيد تحولات البطل، ستكون المرآة مثبتة على الجدار المواجه للسرير وكأنها رمز للآخر الذي يعكس صورتك كل لحظة. انظر إلى تلك المرآة المثبتة خلف المنصة التي ستقف عليها فرقة أميركا اللاتينية، قال علي مشيرا إلى مكان الفرقة التي ستعزف الليلة، مرآة ضخمة عاكسة للواقع، هل تلاحظ؟

يترجم مراد بعض الكلمات من الحوار لدوتا، ثم يستدير إلى نائل ويبتسم بنفور وكأنه يحتج على هذا الموضوع الممل. وتعود دوتا لارتشاف كأسها ببطء، وعيناها الصغيرتان الزرقاوان الحادتان تحدقان بالجالسين كأنها ترغب في قراءة شخصياتهم الداخلية. تسأل من هؤلاء المثقفين وكيف يفكرون؟ تبتسم بخفة متعجبة من جلوسها بين مجموعة الأجانب هؤلاء. وظل علي الشمري يواصل كلامه بالجدية ذاتها، فيما بدأت الفرقة تدوزن آلاتها استعدادا لبدء السهرة: يضع الشعَر الأشقر ثم يحدق في المرآة، ليحس أن عملية التحولات ملائمة لشخصيته الجديدة. بعد ذلك ينتزع عينيه السوداوين القلقتين ويضع مكانهما عينين زرقاوين، تتلاءمان مع الشعر الأشقر، ويسكن لحظات يحدق بمظهره الغريب، لكنه يجد أن ما عمله هو عين الصواب. وهنا يعود إلى الحقيقة مرة أخرى، فثمة اللون الأسمر في الوجه، وهنا ينبغي التفكير بالمعالجة المسرحية لهذه النقطة. كيف نحول بشرته إلى اللون الذهبي؟ بالطلاء، أم بالأصباغ النسائية، أم بلصق جلد صناعي على الوجه؟ تلك الأفكار يمكن تطويرها لاحقا. نعرف أن النص لغة غير النص عملا على الخشبة، وتحضرني هنا تجربة المخرج المسرحي الفذ، "بيتر بروك"، وكان يستوحي لقطاته من المشاهدين، تتذكر جيدا رحلته إلى أفريقيا وكيف كتب عنها كتابا عن تجربته في تحويل المشاهدين إلى ممثلين، لأننا في الحقيقة ممثلون، ناجحون وفاشلون، في مسرحية عملاقة اسمها الحياة، أو الزمن أو الظروف، سمّها ما شأت. في مسرحية جلجامش لم أعان من نمط الشكل في البطل، بل ركزت على تساؤلاته الروحية الداخلية حول جدوى الحياة، والمصير المؤلم الذي ينتظر كل كائن بشري: الموت. في جلجامش كشف الحوار الداخلي، المونولوج، عما يعتمل في ضمير ملك أوروك، وهو يبحث عن سر الموت. لماذا نولد، إن كنا سنموت في نهاية الرحلة؟ عبثية الوجود من أساسها تثير الأسئلة. لكن بطل قصة الكابوس يصعب تتبع مشاعره الداخلية، أي تحولاته. الفرد هو مجموع تحولاته. لأن التحول الداخلي يستغرق وقتا طويلا، وفكرة الاندماج تستعجل تغيير الفرد

الأجنبي، لأن تطور البشر في بيئتهم المحلية استغرق مئات السنين، بل آلافا، وهنا تظهر عقدة الإثارة في القصة. سأختار امرأة لتؤدي الدور، النساء حساسات أكثر من الرجال لتغيرات الواقع الجذرية. قد أختار الممثلة "نماء" لهذه "المونودراما". قصتك موت الجد التي وعدتك ذات يوم بإخراجها إلى المسرح شعرت أنها لا تنسجم مع الذائقة الشعبية هنا. بعيدة عن ذهنية الشعب المنزوي على هذه الجزر. الكابوس ملائمة أكثر وهي تهمّ الجميع.

جميعنا يعرف المخرج المسرحي علي الشمري، وجدناه يعيش في العاصمة قبلنا، وقد تمكن جيدا من اللغة، وكنا ننظر إليه بحسد وتبجيل، وحضر بعضنا مسرحيته جلجامش التي عرضها على صالة "المتحف الوطني" بدعم من منظمة مساعدة اللاجئين، ونالت استحسان الجميع تقريبا. وتناولتها صحف البلاد باعتبارها دليلا ساطعا على الكفاءات التي يمتلكها الوافدون إلى البلد. كل عمل ناجح ينجزه واحد منا يدخل في قلوبنا السعادة، والثقة بالنفس. صحيح أن البعض منا توغل بصعوبة إلى سوق العمل فصار سائق باص، وعامل سكك حديد، ونادلا في مطعم، ومترجم لغة، وحتى طبيبا، لكن أن يخترق فرد منا سوق الفن والثقافة هو ما دعانا للعجب والمفاخرة. لمحناه أكثر من مرة في مقهى الحذاء الصيفي، ومقهى كراسنابولسكي، لكنه لا يعقد صداقات إلا مع أشخاص منتخبين من قبله. حسبناه على شلة المثقفين أكثر مما حسبناه على شلة السياسيين، ونمي إلينا أنه متزوج من امرأة سورية من طرطوس، تعرّف عليها في مطعم "القنديل" الدمشقي، حينما قام بزيارة خاطفة لسوريا، ونجح في عمل جمع شمل لها، ويعيش معها في شقة تقع في " بلوكوسكاذا" القريبة من حانة جمهورية الموز. وكان علي الشمري من تلك القلة القليلة التي هجرت متعة المغامرات الليلية واتجه إلى ارتباط الزواج، وفسرنا الأمر على أنه كبر في العمر، وبلغ سنا تؤهله للاستقرار. وعلمنا ذات يوم أنه كان متزوجا من امرأة من أهل البلد، وأنجب منها بنتا هي الآن بعمر عشر سنين، لكنه طلقها وأخذت البنت معها حسب القوانين هنا. لم نكن معجبين بعلي،

لمسنا في سلوكه وحواراته شيئا من العجرفة، والادعاء بمعرفة عميقة للمجتمع. كان ينظر إلينا كما ينظر إلى أطفال حديثي الخروج إلى الحياة الجديدة. وأبرز ما في علي شعره المنكوش الأسود وعيناه النفاذتان الحادتان، ووجهه المشدود وضحكته العريضة الخالية من الصوت. أما كلامه الرتيب فيبعث الملل بسبب الأفكار الواثقة التي يحملها. اشتغل فترة كمذيع في الإذاعة التي تبث من العاصمة باللغة العربية، ساعة فقط عند المساء، لكنه لم يوفق بالاستمرار بسبب صوته الأجش المتلكئ. وأنهي عقده لعدم صلاحه كمذيع. توثقت علاقته ب"فريد نافع" شاعر العمود، بعد أن التقاه مصادفة في ساحة البلدية أثناء وقفة احتجاج على الحرب، وأصبح مترجما له في الدوائر الرسمية، ويشاركه الطاولة عصرا في المقهى الصغير المقابل للمقبرة. عرفنا أنه خريج معهد الفنون الجميلة قسم المسرح في بغداد، وعادة ما يسهر في نهاية الأسبوع في بارات المدينة، ويدخن بإفراط. أما كيف وصل إلى البلد فسمعنا حكايات مختلفة عن الموضوع، قائل يؤكد أنه مر كمعظم العراقيين بطريق الحرير الجديد، أي كردستان وايران وسوريا ثم طار إلى هنا بجواز سفر مزور، وقائل يجزم أنه خرج إلى لبنان قبل الحرب الأخيرة واستقر فترة في بيروت، حيث اشتغل زمنا مع الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، وما أن اشتدت الحرب الأهلية حتى رحل مع المقاومة إلى قبرص ثم جاء إلى هنا. وادعى البعض أنه أرسل ضمن وفد رسمي عراقي إلى العاصمة، وفضّل البقاء وطلب اللجوء السياسي، وهي رواية ضعيفة، مشكوك في حدوثها. الشيء المؤكد لنا، وبعد نجاح مسرحيته جلجامش التي قدمها بلغة البلد مع ممثلين أجانب، أنه مخرج مسرحي فعلا، ويتحدث البعض عن دور سينمائي لعبه في واحد من الأفلام الدعائية تدور قصته عن عصابة من "الارهابيين" الشرق أوسطيين، لها علاقة بالقضية الفلسطينية. ووجد المخرج أن مواصفات "الشخصية الارهابية" تنطبق تماما على علي الشمري، بوجهه الأسمر خشن التعابير، وعينيه الحادتين ساطعتي البياض، وشعره المجعد الأسود، وبصمة العدوانية البارزة في تلافيف بشرته

المتغضنة. كلها مواصفات يحملها صاحبنا علي فأسند إليه ذلك الدور. لكننا لم نر الفيلم، سمعنا عنه فقط، وقيل إنه بث على القناة الأولى ذات يوم. هذا هو علي الشمري، وقد اتصل به كمال في يوم وصوله إلى غرفة نائل وسأله عن قضية اخراج قصة "الجد" التي وعده بإعدادها إلى المسرح، فاتفق علي مع كمال على اللقاء في حانة جمهورية الموز للحديث أكثر عن الموضوع، مما يفتح ربما تعاونا مستقبليا بين مخرج وكاتب، كما فعل الإيطالي "بازوليني" في أفلامه مع الكتّاب من جيله. وكان كمال متفاجئا بنيّة علي تحويل قصته الكابوس إلى مسرحية بدلا من قصة الجد. لكن في كلتا الحالين عدّ الأمر شهادة على جودة ما يكتب، واهتمام القراء والمختصين برؤيته الفنية لقضايا العصر وهواجسه، سواء ما كان يجسدها شعرا أو قصة أو مذكرات شخصية أو حتى رواية.

في آخر المطاف، علي الشمري ليس من النمط الذي يحبه الجميع، أما بالنسبة لمراد فيحس به وكأنه ينظر إليه باحتقار، وبعض المرات بحسد كونه يرافق فتاة ناجحة من أهل البلد. شعر مراد بالراحة حين بدأت الفرقة عزفها البطيء، وتمنى أن يصمت مونولوج الشمري الطويل والممل، خاصة وهو يرى التململ في وجه كمال وسكوته، ونظراته القلقة التي تتنقل بين الجالسين، ومنهم المرأة الأربعينية التي تقابله على الطاولة وبدأت تبادله الابتسام.

كالعادة، وفي أغلب الحفلات التي تقيمها فرق من أميركا اللاتينية، بدأت الفرقة بأغنية بوب مارلي "**No woman no cry**"، وقد ألهبت مشاعر الجالسين فتكالبوا على البار متمايلين في طلب البيرة، والتثنّي مع إيقاعات الآلات المميزة للفرقة. جعلت تلك الايقاعات العالية الحديث مستحيلا، فاتجهت العيون كلها نحو الفرقة. أكمل علي كأسه الأخيرة من البيرة ثم نهض عن الطاولة، واعتذر من كمال والآخرين، وقال بصوت ضاحك: "زوجتي تنتظرني، أنا مضطر للمغادرة"، والتفت إلى كمال قائلا وهو يغمز بعينه: سنلتقي قبل سفرك، ثم انسل من بين الحشود المتكاثفة في الممر وغادر الحانة.

نائل من جهته فكر أن ذلك الكابوس في قصة كمال، ما هو إلاّ كابوس دور الشخص، وهويته، في مواصلة الحياة الناجحة في هذا المكان، ما فتئوا يعيشونه حقيقة، ليس في الحلم على طريقة كمال إنما في الواقع، وكل يوم. بجلستهم هذه، على سبيل المثال، ألا يضعون قناعا على وجوههم، وسيرتهم، وأصولهم، هم أنفسهم بالذات؟ كيف استحضر المخرج ذلك الطاغية جلجامش ليجسده في أرض الجليد؟ ألم يكن المخرج نفّاجا مع نفسه؟ من خلال حديثه يمكن لمن يسمعه الجزم بأنه ينفخ الأمور لتأخذ حجما أكثر مما تستحق. المخرج لا يختلف بشيء عن جلجامش، ذلك الحاكم المستبد الذي لم يترك فتاة لحبيبها، سافر لأقصى الدنيا لكي يهرب من قانون سماوي قدري يسري على الجميع، حالما بالوصول إلى عشبة الخلود. أي عنجهية تلك؟ إنسان مكتوب عليه الموت كحال البشرية كلها، لكنه بلحظة تجبّر، وطغيان عقلي، وتضخم للذات، يتحدى القانون الأزلي، ويطمح للبقاء مخلّدا على عرشه. هل يختلف كثيرا عن جلادنا، حاكمنا، ديكتاتورنا الذي أوصلنا إلى آخر بقعة في عنق الأرض؟ هواجس نائل السكرانة مثله لا تريد الوقوف عند المخرج علي ومسرحية جلجامش فقط، بل راحت الأسئلة تتراقص في داخله مثل تراقص النساء على خشبة المكان: هل تربينا على أغاني بوب مارلي، ورقصات "التانغو" و"الفالس" و"الصلصا" و"الروك أند رول"، على سبيل المثال؟ يدخن سيجارته بعمق، يستبقي الدخان في فمه إلى أن تنتفخ وجنتاه لحظات، ثم ينفث غيمته نحو الفرقة والصور واللوحات والاعلانات المثبتة في كل مكان وزاوية، وبروح ضجرة لا تنتمي إلى ما يصخب في فضاء الحانة، يعود ثانية إلى تساؤلاته الباطنية: هل راقصنا نساء وهن ثملات في ساعة متأخرة من الليل؟ وهل نشأنا على دخان الحشيش ونشقات الكوكايين؟ هل تسنى لنا مضاجعة النساء في الحدائق، وباحات الكنائس، وفي عمق الغابات؟ هل اشتغلنا أذنة وماسحي أرضيات مدارس في بلدنا، مثلما أفعل أنا اليوم في مدرسة " ستوديوسكول"؟

وفيما كان مراد ودوتا غاطسين بموسيقا الهنود الحمر المحملة بنفحات آلهتهم السحرية، وطقوسهم الجسدية، ويقتطفان القبل بين هنيهة وأخرى، كان نائل من طرفه يغوص بتلك التأملات التي خلّفها علي وراءه، يرمق وجه كمال ليجده هائما بجليسته المقابلة، يحتسي البيرة بإفراط، محدقا بأعضاء الفرقة المتحمسين لأداء وصلاتهم القادمة من تراث المايا، والإنكا، وهنود البرازيل وأميركا الشمالية. ومن موسيقا الخلاسيين القاطنين قرب الأمازون، ورعاة البقر في سهوب الأرجنتين، وحاصدي القصب في مزارع السكر الكوبية. وبعينين مثقلتين، دخانيتي النظرات، وروح معتصرة بالغربة واللاجدوى، جذبت صورة كبيرة لجيفارا معلقة على الجدار خلف الفرقة نظر نائل، ووجد أنه بتلك اللحية الخفيفة، والقبعة الحاملة للنجمة الحمراء، والغليون الداكن في فمه المبتسم، يلائم إيقاعات الموسيقا اللاتينية القادمة من البلدان التي حلم في تحريرها من الامبريالية العالمية. أحس كما لو أن جيفارا يبتسم من السعادة هو الآخر للموسيقا البوليفية التي تعزف في ليل واحدة من أهم المدن الامبريالية في العالم. هو غير دار بما آلت إليه ثورات العالم وأفكاره ونضالاته. تمخضت عن حروب، وتصفيات عرقية، وانهيارات مريعة للمثل التي دفع حياته ثمنا لانتصارها. كان الراحل، الذي روت دماؤه ثرى بوليفيا، جلجامش هو الآخر. حلم بتغيير إيقاع البشرية على الأرض ببندقية عتيقة، وكان حلمه أكبر من رصيده الثوري، وأكبر من الأرض الهشّة التي وقف عليها في جبال بوليفيا. ثم انتبه من بين الصحو والسكر، إلى حوار ساخن بين دوتا وكمال، لم يكن يتبين فحواه أو موضوعه، بسبب الضجيج، تشترك معهما بعض اللحظات تلك المرأة الجالسة مقابل كمال. وكان مراد منتحيا جانبا وفي عينيه ثمة ضجر من الجلسة كلها وثمل واضح. وكان غائبا في أفق غرفته الصغيرة المحشوّة بالمسروقات. بالتأكيد فكر نائل بأن مراداً حلم بانتهاء الجلسة في غرفته لكي يسمعهم أغاني فريد الأطرش وبستات يوسف عمر، لكن المخطط لم يأت كما أراد وتخيل. ولاحظ بدهشة اشتراك الجليسة الأربعينية في الحوار بعد دقائق

من مغادرة علي الشمري، لكنه لم يول كل ذلك أهمية. يسبح عقله دقيقة بعد أخرى في نسيج الكحول المنتشر مثل فيضان مباغت في تلافيف دماغه. أصبحت فكرة مغادرة المكان ضرورة ملحة بعد أن شعر بجسده منهارا من التعب والسكر والضجر، حتى أنه لم يعر أي اهتمام للفتيات المتراقصات على الحلبة بأجسادهن البضة، المشتهاة، وشعورهن الذهبية الشبيهة بسبائك من اللذة، وشفاههن الطرية من سوائل الليلة الماجنة، وقبلها المختطفة بين استراحة وأخرى.

الجميع لبث منشغلا بأمر ما، الفرقة بالضرب على الآلات، وجماعته بالحوارات العالية بسبب الموسيقا والضجيج، والرجال بالتودد إلى نساء آخر الليل، وكمال مع تلك المرأة. وخطرت لنائل فكرة مغادرة المشرب بعد أن وصل إلى قرار بأن ليلته انتهت، وهذا ما دفعه للنهوض فجأة ثم التفت إلى كمال وقال له بصوت ناعس: سأذهب إلى البيت، تعبت، بإمكانك المواصلة، وهذا مفتاحي الإضافي يمكنك العودة إلى البيت متى شئت. رفع كمال رأسه من مسارّة ناجحة مع جليسته، ووجد أن الفكرة جيدة، هو لا يرغب في المغادرة. ثمة غيمة في الأفق. قصيدة لم تكتب بعد. قصة في طريقها للظهور. تناول المفتاح منه ثم وضعه في حقيبته الجلدية البنية وبادل نائلاً ابتسامة تواطؤ وهو يشير بعينيه إلى المرأة، ثم ودّع مراداً ودوتا معتذرا، وغادر الحانة مترنحا.

ليلة مثل تلك تحدث بين الحين والآخر لكنها لا تقهر الضجر اليومي الذي كان البعض منا يعيشه من تكرار، وعبثية، وفراغ. تتشابه القصص، والزمن لم يعد يحصى بالأيام بل بالسنين، مدارس اللغة، المقاهي، البحث عن امرأة في نهاية الأسبوع، تتبع أخبار الأصدقاء، انتظار رسائل من مكان بعيد قد تساهم في تغيير مصائرنا. ونادرا ما كان أحد منا يفكر بالشروع في عمل ينقذه من سمعة العوق والمساعدة الاجتماعية التي تخصصها الدولة للعاطلين عن العمل. ونائل لا يحسب على مجموعة السياسيين أو المثقفين، لكنه الأول بين من حصل على عمل، كسر القوقعة ونفذ إلى نسيج المجتمع، وقد شاع صيته

بيننا وصار مثلا على المغامرة والجدية، وشغل فترة أحاديثنا. اعتبرنا الحدث مفارقة، فهو من باب يعشق السكر ويفضل الشرب على الفتيات والأصدقاء وأحاديث السياسة والفن والشعر، ومن باب آخر أول من تحسس الإذلال الذي وجدنا أنفسنا فيه باعتبار أننا نتلقى مساعدة شهرية بدون أن نقوم بعمل ما. مساعدة لا تكفي سوى لدفع الايجار وشراء الطعام والدخان والخمرة والملابس المستعملة. ترك نائل الجلسة لأن عليه أن يفيق في الصباح الباكر للذهاب إلى عمله في مدرسة اللغة. فالثرثرة الفارغة في المراقص والبارات لم تعد تجدي نفعا كما كان يفكر طوال الطريق الذي مشاه وحيدا، مترنحا، نحو بيته. الدنيا تتطلب أقصى درجات الجدية، والحركة أساس النجاح، والتكيّف. والتكيف يتطلب من المرء اختصار أنانيته والرضوخ لشروط الواقع. الشعر لا يأتي بالخبز، والمسرح ادعاء ونفخة كاذبة، والسياسة تبادل اتهامات وتشدق فج بالكلمات عمرها لم تغير واقعا سيئا. هناك آليات لا يفهمها، لكنه يحسها بغموض وعدم وضوح، تكمن في كل مجتمع، تتضافر ذات يوم بدون سابق إنذار لتقلب الطاولة على الجميع.

حصل نائل على العمل عن طريق "جميل البصراوي" فهو على رغم انتقاله إلى الجزيرة الثالثة مع زوجته، بعد معركته مع جماعة محمد خوجة بسبب ألبانيا وخطها المتفرد بتطبيق الإشتراكية، لكنه احتفظ بعلاقات متواصلة وجيدة مع الدوائر العاملة في الترجمة، ومؤسسة مساعدة اللاجئين، والمشرفين الاجتماعيين في البلديات، وكل ما يخص المسؤولين عن شؤون اللاجئين. أما نحن أصدقاءه ومعارفه، فقد هللنا لخطوة نائل ونجاحه في الحصول على عمل، ومغادرة شرنقة المساعدات الاجتماعية، ومهانة الوقوف على أبواب المشرفين الاجتماعيين لطلب المساعدة في أمور تافهة بعض الأحيان. الطريقة برمتها كانت شبيهة بالاستجداء، مثل طفل معاق يعتمد على الآخرين. وصار حدث حصول نائل على العمل في مدرسة اللغة "ستوديوسكول"، وتقع قريبا من كنيسة السيدة العذراء، ومقابل نصب "التفاحة الذهبية" المنتصب وسط

ساحة الرصيف القديم، على كل شفة ولسان، في الجلسات الليلية التي تنعقد في غرف الطلبة، وفي سهرات لعب الورق، وفي البارات والمقاهي، فليس ذلك بالأمر الذي يحصل كل يوم. في حياتنا اليومية قلما رأينا أجنبيا يشتغل في مرفق عام، لا تقع أبصارنا على شخص بشعر أسود، وعينين سوداوين، وبشرة سمراء، ويشتغل في مستشفى أو مدرسة أو دائرة بلدية أو في باص لنقل المسافرين، تلك الوظائف كانت محصورة في أبناء البلد، وقد أطلعنا نائل على تفاصيل عمله بدقة بعد أن قابل لجنة القبول في المدرسة، وتكونت من المدير وسكرتيرته صغيرة الحجم وبعض المدرسين. وتمت الموافقة على تاريخ بدء العمل.

أفهموه أن عمله يتطلب منه فتح المدرسة في الساعة السابعة صباحا، ثم عليه أن يكنس ممرات المدرسة ويمسحها بالماء، ويجهز القهوة والشاي للطلاب ويكنس الصفوف ويرتب كراسيها، ويلقي القمامة في حاوية القمامة، وهي تقع في فسحة البناية الداخلية. وينبغي أن يكون موجودا ما إن يبدأ الطلبة بالتوافد صباحا، لينتقل بعدها، حين يبدأ الدرس، إلى مكتبه الواقع في نهاية الدرج عند الطابق الأعلى. مكتبه في المدرسة يشبه مخزنا صغيرا، فعدا وجود آلة لاستنساخ المحاضرات، هناك كرسي وطاولة عريضة يضع عليها نائل قوائم الشراء من السوبرماركتات القريبة كالقهوة، والشاي، والبيرة، والنبيذ، والبسكويت، وهي تهيأ عادة للاحتفالات داخل المدرسة، وللمناسبات الخاصة كعيد الميلاد، وعطلة الصيف، وتخرج واحد من الصفوف بعد أن أتقن طلابه اللغة. والمهم في كل ذلك بدأ يمتلك حريته في التصرف والابتكار إذا ما رأى أن يدخل طريقة جديدة في نظام المدرسة الإداري وتحسينها، سواء صبغ جدار أو معالجة باب عتيق، أو جلب نوعية بسكويت تلائم مزاج الطلاب وأذواقهم. وهو من يجلب شجرة عيد الميلاد ويزينها بطريقته لتوضع في الممر، حيث تظل قائمة حتى انتهاء ليلة رأس السنة. اعتبرنا ما حدث لنائل خطوة متقدمة في تحولاتنا

الاجتماعية، ومحاولة لكسر الدائرة المحيطة بوجودنا. والعمل في النهاية تأطير لحياة الفرد.

يطلع الضوء فيستيقظ نائل بعزيمة قوية، خاصة في أيامه الأولى من العمل، ينظف أسنانه ويرتدي ملابسه، ويدخن سيجارة مع الشاي، ثم من دون أن يتناول فطوره ينزل من غرفته المعلقة في الطابق الأخير، وبالكاد يتلمس خطواته على الدرج، فالعتمة تترسب في زوايا البناية، ولشدة شروده بعد ليل قلق، يفتح عينيه فجأة وسط الدرج فيستغرب من وجوده في هذه البناية. يستغرق الأمر لحظات حتى يعود إلى وعيه، وهي حالة لم تلازم نائلاً فقط، بل لازمت أغلبنا ممن تنقلوا بين البلدان والبيوت والغرف. ففي لحظة ما يفقد واحدنا الصلة بالحاضر وتختلط عليه الأزمان والأمكنة. يقطع الشارع إلى الجهة الثانية ويقف في موقف الباص. لا ينتظر طويلا فهنا كل المواعيد منتظمة، ينزل في محطة "نوربورت"، ويتمشى من المحطة إلى المدرسة مرورا ببداية شارع المشي، وقبل أن يلج باب بناية المدرسة يطالعه برج الكنيسة الضخم، وذلك الناقوس العملاق الرمادي اللون، ويسمع بعض الأوقات قرعه يمتد إلى شارع المشاة والرصيف القديم، ويسري حتى يصل ساحة اللقالق. فيزيل جرس الانذار من الباب ويبدأ عمله. أكثر ما كان يزعجه في العمل تنظيف المنفضتين الضخمتين الموضوعتين واحدة جنب الباب الخارجي والثانية في نهاية الممر، وهما منفضتان واسعتان مستديرتان من الخرسانة، قيل له أن من صممهما العامل السابق، تجنبا لفوضى الطلاب في رمي أعقاب السجائر من الشبابيك أو في أصص الشجيرات الصبارية الموزعة بعناية قرب أبواب الصفوف، أو حتى بعض الأحيان على الأرضية الخشبية. لهذا لاحظ ثمة حرائق صغيرة في الأرضية تركتها السجائر المشتعلة، وبانت بقعاً سوداً بشعة. عليه كل صباح أن يزيل تلك الأعقاب من الرمل الموضوع في المنفضتين، ليضعها في الكيس الأسود الواسع المخصص لجمع الورق، والأعقاب، وبقايا الأطعمة التي يتركها الطلاب وراءهم. وعلاقة نائل المباشرة مع السكرتيرة حصرا، وهي امرأة صغيرة الحجم،

سمراء البشرة بعض الشيء، توحي ملامحها باللؤم، وبشعر يقترب من السواد، ولا يربطها بقومها سوى العينين الزرقاوين الصغيرتين. تعطيه أوراق المحاضرات لكي يستنسخها، توجهه نحو تنظيف صف من الصفوف أو مكتب الإدارة، تزجي له ملاحظة ما وتنقل له طلبات المعلمين أو المدير "ستين" حول قضية ما تخص المشتريات. العمل اليومي دفعه كي يختبر الطمأنينة المفتقدة في حياته طوال سنوات. كانت أعماله اليومية تتشابه، وعادة ما ينتهي من شؤون المدرسة عند الظهيرة حيث يصعد بعدها إلى مكتبه في الطابق العلوي، وهناك يجلس متفكرا في حياته اليومية، ويمد يده إلى قنينة من البيرة "توبورغ" الموضوعة في صناديق خشبية، حيث سمح له المدير بتناول البيرة كلما شعر بالعطش، أي أعطاه الضوء الأخضر ليطفئ عطشه وتوقه للسكر، لكن لم يدر في خلده أن غرفته ستتحول إلى ما يشبه المقهى لأصدقائه. طلاب المدرسة كانوا خليطا من مختلف البلدان، والألوان، واللغات. أميركان وبرازيليون وصوماليون وعراقيون ولبنانيون وسيريلانكيون وجنوب أفريقيين ممن عارضوا نظام التمييز العنصري، وإيرانيون هاربون من الحرب، وفلسطينيون فلتوا من أنياب الحرب الأهلية اللبنانية. وكان نائل يسمع كل صباح اللغة الانكليزية والسواحيلية والعربية والفارسية والكردية، حتى ظن أن هذه المدرسة لا تعدو أن تكون كرة أرضية مصغرة.

كان أول من زار نائلاً من شلتنا صديقنا مراد، وحين لم يجده في ممر المدرسة سأل عنه السكرتيرة فأخبرته أن نائلاً يجلس في غرفته، ووجهته بالقول امش حتى نهاية الممر، ثم اصعد الدرج، وسيقودك إلى الغرفة.

وجده جالسا على كرسيه يدخن سيجارته البرنس، بلذة، ويتيه بصره في الفراغ، وأمامه قنينة بيرة أوشكت على النفاد، وقد شعر نائل بالفرح لرؤيته مراد، وكانت الساعة تقترب من الثالثة، وهو الوقت الذي ينصرف فيه نائل من عمله. " كنت في "آما" مع كمال"، قال له مراد وهو يجلس على كرسي إضافي وفّره نائل للزوار الطارئين. في "سوق البراغيث"، لا يبعد كثيرا عن سكني. فيه

كل ما يحتاجه البيت، قبو واسع جدا يضيع فيه الانسان، أسرّة، كهربائيات، طاولات، خزائن، سجاد، كراسي، ملابس، أحذية، دراجات، ثلاجات، طباخات، إلخ. بعضها لم يستعمل، وبأسعار بخسة. يقال إن السوق يبيع بضاعته لصالح الكنيسة. تعرف الكنائس هنا، لديهم علاقات مع أفريقيا والهند وأميركا اللاتينية، وأغلب البلدان الفقيرة. حتى صديقتي دوتا كانت تشتري منهم ما تحتاجه. قبل أسبوع اشتريت لها مرآة ضخمة لتعلقها في غرفة النوم. حدثني كمال عن حياته في غرفة إنكا، قال إنه كان يختنق، في الليل خاصة، وفي ذلك السرير كثيرا ما تخيل نفسه "صرصارا" لا أكثر، لو بقي هناك لتحول إلى مجنون، أو إلى ظل بشري. كمال بحاجة إلى بعض الأغراض. سرير وكرسي وطاولة كتابة وعلاّقة ملابس وما إلى ذلك. أعطته "ميتا" أفضل غرفة لديها، أنجزت له معاملة النقل بسرعة قياسية. تلك الليلة في مشرب جمهورية الموز ازدادت طمأنينة ميتا أكثر بوجود دوتا. بعد خروجك سهرنا حتى الفجر، أخذته المرأة إلى بيتها وقررت أن لا تتركه، وطلبت منه الانتقال إلى العاصمة. أقنعته بطريقة ناعمة بأنه كشاعر مرهف الحس، وككاتب يمتلك طموحات إبداعية، عليه أن لا يبقى في الجزيرة الثالثة. العاصمة مركز النور، وتقع في القلب من القارة العجوز. امرأة تحب القراءة وتحمل فكرا يساريا، وتعمل مشرفة اجتماعية في إحدى البلديات، ولديها خبرة بمشاكل اللاجئين، تزوجت مرتين ثم اكتشفت أنها عاقر لا تنجب فقررت أن تكسب حريتها ولا تفكر بالزواج. أخبرته في لحظة بوح أنها أحبت فيه لونه البرونزي وشعره الطويل وعينيه الرقيقتين الصادقتين وابتسامته الساحرة. عدا ثقافته الموسوعية الثرة. اشترينا الأغراض واتفقنا مع سيارة نقل ستصل غدا إلى العنوان ثم تركني كمال أمام المحطة المركزية عائدا إلى "عشه"، وجئت أنا إلى هنا. عندي رغبة بالسكر، فما رأيك؟

فكر نائل بالعرض، وتخيل، بلمحة مباغتة، الجدران الكالحة التي تنتظره في غرفته، والسكون المخيف في البناية، وصوت الريح المرعب وهي تصفر على

قرميد السقف. نهض إثر تلك الأفكار البارقة في عقله، ونظر إلى ساعته ووجدها تجاوزت الثالثة. اتجه نحو كارتونات متراكبة مركونة على الجدار، وعبأ حقيبته بأكثر من عشر قناني من البيرة. فتح كارتونة تحتوي على النبيذ واستل قنينة وضعها في حقيبة مراد ثم أغلق الباب. "هيا إلى البيت"، قهقه نائل بسعادة، فـ"الخمرة تنادينا".

ومثل كل مرة يجلسان سوية استذكرا الأيام الأولى التي التقيا فيها في الجزيرة، وذلك الزمن الذي شهد دخولهما الحثيث إلى متاهة الجزر، والأصدقاء الذين تفرقت بهم السبل، وقدر المهاجرين وهم يفيقون كل صباح ليجدوا دواخلهم وقد تحولت إلى مقبرة للقصص، والحوارات، والذكريات، والمشاهد الشاحبة. وباح له مراد بصعوبة العلاقة مع فتاة من أهل البلد تتمتع بحريتها المطلقة. وبقيت دوتا وسيرتها ساعة على طاولة التشريح. طبخ نائل أفخاذ دجاج، وعمل سلطة من الطماطم والخس والخيار، أضاف لها مخللات حامضة كان يشتريها من محل عربي يعود إلى واحد من الفلسطينيين يقع في شارع "إستيد كاذا". ثم بدأ مراد بعد كؤوس جعة مترعة، بأغاني فريد الأطرش كالعادة، أعقبها بمحمد عبد الوهاب، ويوسف عمر، وفاضل عواد، وسيتاهاكوبيان، وعرج إلى أغاني السبعينيات التي وصفها بأغاني "الزمن الجميل"، زمن طفولته وشبابه في مدينة الثورة. وأمام دهشة نائل العارمة، وبعد أن شربا البيرة كلها وقنينة النبيذ، أخرج مراد من جيبه كيسا بلاستيكيا صغيرا وضعه على الطاولة، ثم استل أنبوبة نحيفة من جيبه وطلب من نائل إعطاءه ورقة بيضاء.

تسمر نائل يحدق بدهشة، وأنكر ما يقوم به مراد، وكان يرمقه من خلال السكر والعجب المستولي على حواسه، فوجده يفرش المسحوق الأبيض على سطح الورقة، ويقسّمه بيد مدربة إلى خطوط رفيعة، ثم راح يضع الأنبوبة النحيفة على واحد من الخطوط، والنهاية الثانية داخل أحد منخاريه ثم يستنشق الذرات البيض بقوة تشفطها الأنبوبة حتى آخر ذرة فيها.

- هل ترغب في المشاركة؟ جرب على الأقل. بالنسبة لي نشوة الكحول ما عادت كافية. ولا الحشيشة.

- لم أصل إلى هذه المرحلة، إنها علامة من علامات الانتحار، ولا أريد أن أنتحر، ثم وجّه حديثه ساخرا إلى نديمه مراد: لم أر غابات الأمازون بعد، ولا تجولت في دهاليز سومطرة، ولم أحتس خمور الأرجنتين، ولم أشاهد قبر بوب مارلي الذي أحبه وأحب أغانيه، كما أنني لم أشاهد ناطحات السحاب في نيويورك، ولا تمثال الحرية. ولطالما تقت إلى رؤية أفيال الهند وتماسيح النيل، ولا أرغب في الموت قبل الصعود على واحدة من أهرامات القاهرة. هذا مسحوق سيقودك نحو الهلاك، وهو النفق الذي لا يعود منه والج. ولكن كيف حصلت عليه؟

- من صاحب محل باكستاني، رد عليه مراد باستسلام.

- وكيف استدللت عليه؟ هذه الأشياء تدخل المرء في دائرة الخطر.

- عرّفني عليه "الغبّار" بائع الحشيش المغربي الذي يقف في شارع كريستيانيا. قلت له أحتاج إلى عنصر أقوى من الحشيشة، فنصحني بالكوكايين، وقادني ذات ليلة إلى محل الباكستاني، وكان قريبا من كنيسة "آما" ذات البرج الشبيه بملوية سامراء. لم أعد أحتمل حالة الصحو. أشعر بنفسي صفرا على الشمال. ريشة لا تنتمي إلى الأرض، طائرة فقط ما بين الشجر والبنايات والغيوم. لم يعد هناك خطوط تمسكني بالأرض. حتى مشروع جلب عائلتي من إيران وجدته متعثرا. أخبرني أخي قبل أسبوع أنهم سيقومون بمغامرة أخيرة ليست مضمونة النتائج. سيرحلون إلى أوكرانيا، عبر تركيا وبلدان المعسكر الاشتراكي، وهناك سيلتقون قريبي ويشتغل حلاقا بأجر يومي في العاصمة كييف.

السوداوية، وردات الفعل المبالغ فيها، هي في النهاية لحظة فراغ وجودي محض خبرناه جيدا ويلمّ بمعظم المغتربين في العالم. أولئك الذين فشلوا في

الاندماج بمحيطهم، ويفتقدون إلى هدف في حياتهم وفضّلوا الإنحدار إلى دهليز مرعب من الإدمان واللصوصية، حتى انتهى بالبعض منهم إلى الجنون، أو الهجرة أو الجريمة. كان طريق مراد مع الخمور والحشيشة مقبولا بعض الشيء، ويمكن العثور على أعذار تخفف من الحكم الصارم عليه، أما المخدرات فهي طريق باتجاه واحد، ثم أنهى الخطوط الصغيرة من سطح الطاولة وتوهجت عيناه وانتصب جالسا على الأريكة، وشعر به نائل وكأنه لم يعد في الغرفة، ولا في المدينة، وراح يغني بغتة، بصوت شجي، مؤلم، جاء كأنه ينبع مثل مياه دافئة من أعماقه، أغنية زهور حسين المشهورة: "غريبة من بعد عينج ييمه، محتاره بزماني، يا هو ليرحم بحالي ييمه لو دهري رماني"، وانثالت على خديه الحليقين دموع غزيرة لم يستطع إيقافها وكانت تتواصل خلال أدائه للأغنية، ولم يلبث بعدها أن توقف، وأحس نائل أن مراداً عاد إلى مكان بعيد في داخله، مكان أبعد من هذه القارة الباردة. قد تكون هناك، عند دربونة ضيقة من درابين مدينة الثورة، أو منحدر جبلي يقبع تحت نجوم ليلية خافتة لم يعد يتذكر إلى أي بلد ينتمي. وربما كان يتسكع في زقاق من أزقة "كوجه مروي" الطهرانية في ليلة ماطرة، وقد مثّلت له هذه اللحظة مقطعا صغيرا في تاريخ طويل يقبع في ذاكرته المنهكة.

– عليّ المغادرة، جسدي لم يعد يطيق الجلوس في مكان واحد، أرغب في المشي بشوارع فارغة، واستنشاق هواء بارد ومشاهدة أشجار تقف حزينة في ليل هذه البلاد. أرغب في رؤية نجوم لم تتلوث بما نعيشه على هذه الأرض، إنني أغص بذكرياتي، تخنقني، ولا دواء لها سوى الخمرة أو الحشيشة، لم يعد في حياتي ما هو مجد أو يستحق مني مواصلة الشوط. أنا مجرد لص لا غير.

ولم يفهم نائل ما قصده مراد بكلامه، أهو يسعى للانتحار مثلا؟ أم المضي في طريق المخدرات من دون أن يلتفت إلى الوراء؟ هل ينوي الهجرة إلى بلد

آخر؟ وكيف وصــل إلى هذا الحضــيض من تحقير الذات حتى ينعت نفســه باللص؟

– هي مرحلة حرجة وتمر، تمسك بعقلك يا صديقي، إذا ما عدنا إلى الوطن ذات يوم ستصبح الأحداث التي نعيشها مجرد حكايات.

وانعطافات أصدقائنا هنا لا يمكن تخمينها، وكأن روحا شيطانية تسوس عقولهم فلا يمكن التكهن بما يأتي لاحقا. كانوا مثل أحصنة جامحة غير مروّضة تذوب في طلاقة الريح بعد أن تخلصت من أغلالها، وكان مراد واحدا من هؤلاء. ولكي يثنيه عن المغادرة المفاجئة، ويغيّر مزاج اللحظة، حزنها ووحشتها، أخبره نائل بآخر رسالة وصلت من غريمه ليث. وعند هذه المباغتة جلس مراد مرة ثانية وتحول إلى أذنين صاغيتين. ظل يستمع صافنا، كما لو نكص إلى عالمه الداخلي هاربا من الغرفة، ونائل معتاد على حالات الرجل، وعلى عينيه السابحتين في المجهول. غرائب البشر سماها مع نفسه، تقضي مع شخص عشرات السنين، تظن أنك عرفته جيدا، ثم في لحظة خاطفة يفاجئك بتصرف لا تستطيع تفسيره ولا فهمه، إذ أنه لا يخص الشخص الذي تعرفه. عيناه شعتا، وثبتتا في محجريهما، تعابيره جمدت على مشاعر بعيدة الغور، وكأنه انتقل خلال لحظات إلى مكان آخر. ليلة أوحت لنائل، ما أن غادر مراد المكان وسمع خطواته تنحدر إلى الأسفل، بأن ثمة خطأ في حياته، هو الآخر، ينبغي عليه تداركه. ينبغي عليه أن يغير نمط الخيارات المتاحة له. ينبغي عليه أن ينسى الوطن. هو العائق الأكبر أمام البدء بحياة جديدة. ظل لسنوات كابوسا ليس أمامه وحده، بل أمامنا كلنا تقريبا. "كابوس الوطن" هو ما وقف طوال السنوات الماضية أمام إيجاد ذواتنا، وهنا يكمن سر الفشل العام المرافق لنا على أديم هذه الجزر.

لن يبقى أمامنا من حلّ سوى الإعتراف مع أنفسنا بأننا جيل أول، مهزوم، عليه أن يدفع الثمن حتى نهاية العمر.

١٨

دهشة تلك الليلة، حين عرف أن مراداً يستنشق الكوكايين، جلبت معها دهشة أخرى بعد أيام فقط من ذلك التاريخ. فأثناء ما كان ماشيا في ممر المدرسة، طالعه فجأة وجه فتاة واقفة قرب الشباك تدخن بلذة، وتحتسي الشاي بأناقة لافتة. وحدس أنه رأى هذا الوجه في مكان ما، أو في وقت ما بعيد. مثّلت المرأة هما عميقا من هموم نائل الكبرى، وعذابا يوميا يعيش في قبضة مخالبه ليلا ونهارا. وتضافرت أسباب كثيرة لجعله يصل إلى اليأس من إيجاد علاقة مستقرة مع الجنس الآخر. حجم نائل صغير نسبيا، ومزاجه كئيب، البؤس يشع من وجهه على مسافة أمتار، ولا يمتلك روحا متوهجة في حضرة النساء. اعتقد دائما أن من المبكر جدا وضع جسده في قفص الزواج، وحرم طويلا من لذة الجنس وتأسيس عائلة. تجرأ أكثر من مرة على الذهاب إلى شارع الجنس، "استيدكاذا"، ودفع نقودا لكي يضاجع امرأة لا على التعيين، مع شروط مسبقة تمنع التقبيل من الفم، وعلى المرء أن يكتفي بمداعبة قصيرة جدا، وينبغي عليه أن يرتدي الواقي الذكري، وعليه أن ينتهي بسرعة، وهذا ما دعاه لتفضيل العادة السرية على الذهاب إلى ذلك المكان. ارتاد منطقة كرستيانيا أكثر من مرة فلم يستسغ جوها الليلي ولا ايقاعها المأزوم في باراتها، وحدائقها. لقاؤه بأية امرأة مثار تردد ونكوص، وهو ما شعر به حين حدق بالوجه المألوف لديه. كان وجها ناعما بقامة صغيرة وعينين بنيتين ضاحكتين، وشعر يميل إلى الشقرة يمكن أن تكون ناتجة من صبغة شعر. مع ذلك وقف بمواجهتها، ولا يعرف كيف خرج من فيه سؤاله عما إذا التقيا سابقا أم لا. أجابته بابتسامة خفيفة وهي تنفث دخانها في فضاء الممر: أعتقد أننا التقينا في مقهى الحذاء الصيفي قبل فترة، كنت جالسة مع زوجي السابق.

كان اسمها "منى" وهي من العراق. وجود منى بعد ذلك اليوم بدأ يشده إلى العمل كما لو كانت مغناطيسا خفيا يمتلك قوة جذب هائلة، وصار يتوق لتبادل الحديث مع تلك المرأة الناعمة. أخبرها أين يقيم والغرفة التي يقطنها، وتبيّن أنها سمعت باسم الشاعر كمال ومراد، وحضرت مسرحية جلجامش التي أخرجها على الشمري برفقة زوجها. وكونها تعرف عددا من أصدقائه اتسع فضاء الحديث مع "منى"، وأخذت الحوارات تحفر الجدران القائمة فيما بينهما. كانت تسكن في شقة تقع جنب البحيرة، وتقيم مع طليقها وهما ينتظران الحصول على سكن لكي يترك الآخر الشقة لصاحبه. علاقات نائل مع النساء لم تكن مزدهرة، لا يعود الأمر إلى شكله الكئيب وحجمه الصغير فقط، يرد السبب مع نفسه إلى أسباب كثيرة أخرى، وعلى رأسها خلو ملابسه من الأناقة، فحسب قناعته تلعب الأناقة في الملابس، والأحذية، والنظارات، والعطور، دورا حاسما في جذب انتباه المرأة والحصول عليها في النهاية. وبما أنه بالكاد يعيش على الراتب الذي يتسلمه من العمل، فهنا تبرز مشكلة أخرى، حتى لو اهتم بأناقته، وهو ما فعله ما إن بدأ العمل في مدرسة اللغة، لكن ذلك لا يعفي المرء من شراء المشروبات للمرأة أو دعوتها إلى مطعم فخم، وهذا يتطلب مصاريف مضاعفة، لا تتوفر لديه الإمكانية للقيام بها. فوق ذلك تأتي الجرأة والاقدام على التقرب من المرأة، الشجاعة الذكورية التي ينبغي عليه أن يمتلكها لكي يضع نفسه بكل ثقة في طريق المرأة المطلوبة. والشجاعة لا تتوفر عند الجميع، وكأنها موهبة يمتلكها شاب معين من دون الآخر، جرّب ذلك في أكثر من مناسبة. لا تنمو الشجاعة في روحه، وتبرز في سلوكه إلا حينما يصل إلى حالة السكر.

مع منى، وبتوالي الحوارات اليومية بينهما، اكتشف أنهما يتقاسمان الأسئلة ذاتها: لماذا لا نمتلك مثلهم شوارع نظيفة؟ لماذا لا نستطيع الاستلقاء على الشاطئ كما يفعلون هنا؟ ونستقل باصات منتظمة الوقت وتنعم بالهدوء؟ لماذا يزرعون حدائق في كل زاوية من المدينة تذكّر الفرد دائما أنه حقا في جنة،

وينعمون بالأمان والسكينة والسعادة ونحن نفتقد كل ذلك؟ وهل قدر لنا أن نطلع من تلك المقبرة الموحشة ذات القبور المتآكلة، والرمال الجافة، والسراب الخادع، ثم يمضّنا الحنين إليها؟ لماذا لا نملك مسابح مختلطة يتشارك فيها الصغار والكبار، النساء والرجال؟ لماذا نعيش في هذه الغرف البائسة بعيدا عن غابات النخيل، ورمال الشاطئ الملونة بالقواقع، وأمواج النهر الساحرة، وساحات كرة القدم وشاي العصر؟ لماذا لا نستطيع الحصول على النساء في البارات والمراقص؟ لماذا لا نمتلك مراقص وبارات مثل هؤلاء؟

في أول موعد مع منى خارج المدرسة جهز ذلك اليوم أوعية القهوة والشاي ووضعها على طاولة المطبخ، وأخبر المدير بأنه سيخرج قبل نهاية دوامه لأمر ما. استفسر منه المدير إن كان أعدّ ما يكفي من الشاي والقهوة للوجبة المسائية من الطلاب، فأكد له أنه فعل ذلك، وأكمل طبع المحاضرات، ومسح الممرات بالماء، فسمح له بالخروج، وبدأ جرس الكاتدرائية يدق في الفضاء، معلنا الساعة الثالثة عصرا. غادرا المدرسة سوية متجهين إلى مقهى كراسنابولسكي، وقد بدت بقامتها القصيرة، وشعرها الولادي، والحقيبة المدرسية المعلقة على ظهرها، مثل طالبة مدرسة ثانوية من مدارس بغداد ما قبل الحرب.

المدينة تبدلت بمجيئنا قالت، لم تمر سوى بضعة أعوام حتى انتشرت المطاعم الشرقية ومطاعم البيتزا في كل زاوية منها، قالت وهي تحدق إليه جانبيا فيما كانا يمشيان على الرصيف الضيق. أما النوادي فبدأت تتزايد هي الأخرى، ناد للعرب وآخر للكرد، والإيرانيين، واللبنانيين، وللعراقيين كذلك، هل زرته؟ اسمه البيت العراقي ويقع قريبا من المحطة. اخبرها نائل أنه زاره مرة واحدة وكان بمناسبة العيد، وكانت هناك حفلة غنائية أحياها واحد من عازفي العود، واعتبرها ليلة جميلة أعادته إلى الطفولة.

– حضرتها أنا أيضا، الغريب أنني لم أرك هناك.

- لم نكن نعرف بعضنا في ذلك الوقت.

ضحكت منى وأخبرته أن لديها قصة مؤلمة عن ذلك المكان ستحكيها له لاحقا.

امتلأ الفراغ بينهما بحكايات المدرسة والمعلمين والسكرتيرة التي لا تشبه نساء البلد، وغرائب شعوب العالم الذين تجمّعوا حول لغة لا يتكلم بها أحد خارج حدود الجزر. وشيئا فشيئا بدأ نائل يسترد هدوءه، وشعر بذوبان الجليد بينه وبين منى، ولمس قدرتها على إزالة الحواجز. لا يعرف إن كان ذلك معه فقط أم مع الجميع. دخلا الباب الزجاجي للمقهى وفاجأ نائل وجود كمال الشاعر وعلي الشمري المخرج المسرحي، جالسين على طاولة قريبة من الباب، مما دفعه بعد أن حياهما بسرعة إلى ترك مسافة بينهما، وجلسا إلى طاولة نائية بعض الشيء، متجاورين، ووجهاهما يتجهان نحو البار الطويل حيث تقف نادلتان جميلتان تنتظران طلبات الزبائن. طلبت منى "كافيه أوليه"، ومضى نائل إلى البار واشترى لنفسه قنينة بيرة توبورغ وفنجان كافيه أوليه لمنى. في مثل هذه المواقف كان ذهنه ينشغل باختراع حديث مناسب، هل يتغزل بقصة شعرها القصير أم ببلوزتها الخمرية المنفتحة عند الصدر بقليل، أيخبرها بضحكتها الرنانة العميقة المحببة أم يمد يده إلى قرطها المتدلي على رقبتها كما يفعل بعض معارفه، ويبدي إعجابه بالقرط وفي الوقت ذاته يلامس أذنها ورقبتها بحركة عفوية؟ هل يستعيد معها أسئلتهما المشتركة ومقارناتهما بين الهنا والهناك؟

أهم ما في العلاقات الحميمية هو كسر الحواجز. ولا يمكن له أن يجلس ساكتا محدقا في الفراغ. أما السؤال عن حياتها الشخصية فهو أمر يستدعي جرأة أكبر. استلطفها بسبب نمنمة شفتيها وحاجبيها وضحكتها وأسنانها المنضودة باتساق رائع، إلى كل ذلك سحرته السلاسة التي تدير بها حواراتها وهي تتنقل من موضوع إلى آخر. رمق كمال وعلي ورآهما منشغلين بحديث جاد،

عن الشوط الذي قطعه المخرج بتنفيذ مسرحية كمال، الكابوس، بينما تنتثر على الطاولة جرائد وكتب وأوراق بيض وقلم كان علي يمسكه بين أصابعه، ويخطط بعض الرسومات على الورقة البيضاء بين الحين والآخر، وتناهى إلى سمعه صوت علي الجهوري، المسرحي بافتعال، وهو يخاطب كمالا: المسرح العربي يعتاش على نصوص الكتاب العالميين، من أمثال شكسبير وتشيخوف وبراندلو وجان جينيه وغيرهم، وهؤلاء يعكسون إشكالات مجتمعات أخرى، إنه مثل حياتنا المتخلفة التي تعتمد على الصناعات الغربية في ملبسها، ومأكلها، وأفكارها الحديثة، كلها مستوردة من الغرب. قصتك الكابوس تنبع من معاناة حقيقية يعيشها ملايين المغتربين، والمهاجرين من ثقافة إلى أخرى، أي إلغاء الشخصية، أو الحلم بإلغاء الشخصية حتى لو جاء ذلك عبر استبدال العينين السوداوين بعينين زرقاوين، أو طلاء البشرة السمراء باللون الذهبي. وللتذكير فهي معاناة متأصلة تقريبا في الجيل الأول من المهاجرين فقط. أظن أن المسرحية ستنال اعجاب البلد هنا، والممثلة "نماء" تجيد بحذق تجسيد الشخصية.

– أنت تعرف "ريبوار"، أليس كذلك؟ أقصد زوجي القديم؟ سألته منى فجأة.

– كلا. لا أعرفه إلا من خلال حديثك عنه.

– هل عندك فكرة كيف تعرفت عليه؟

– كلا.

– هناك في "براغ"، كنا ندرس سوية، وهو من مدينة السليمانية، جاء مثلي ببعثة من الحزب الشيوعي العراقي نهاية السبعينيات. تطلقنا، رغم أننا ما زلنا نعيش تحت سقف واحد. تمزق الأسر أصبح ظاهرة مألوفة هنا. تفتح

عينيك فجأة وتكتشف أن شريكك لم يعد ملائما لك. تكتشف أنكما لا تتفقان على أبسط الأمور، كرفع صوت التلفزيون، ومذاق الطعام، ونمط الملابس، وألوان شراشف السرير، وطريقة المضغ، واختيار الأصدقاء، وليس انتهاء بالخيانات الزوجية والهوايات الشخصية. هنا تظهر التباينات الفردية بأقصى تجلياتها. لا أعرف لماذا. الخيانات الزوجية شائعة بسبب الحرية المطلقة التي يوفرها المجتمع والقوانين، وهي حرية مغرية على أية حال سواء للرجل أو المرأة. العقلية الذكورية للأسف ما زالت مهيمنة على الرجل، رجلنا مقتنع مع نفسه أنه سلطان، هو ذاته من كان يتربع في صدر المضيف البدوي، يحق له كل شيء ولا يخطئ أبدا.

تنفخ منى دخان سيجارتها بطريقة أعجبت نائل كثيرا: تكوّر شفتيها المطليتين بالأحمر الخفيف، وكأنها تهم بتقبيل فم وهمي، وترفع رقبتها إلى الأعلى، ثم تنفخ عمودا رماديا رفيعا نحو السقف، وتنقل الحديث من زوجها إلى صديقاتها. قالت إن الموضة اليوم هي الزواج من السوريات والمغربيات، تعرف أن هناك شحة بالشابات العراقيات، أغلب الذين خرجوا من العراق هم من فئة الشباب، وحين تفشل علاقتهم مع البنت من أهل البلد يتوقون إلى العودة إلى الجذور فيسافرون إلى دمشق ليجدوا زوجة لهم. طبعا في دمشق يوجد عراقيون كثر يسهلون لهم مهمة ايجاد زوجة المستقبل، يعقدون عليها في المحكمة هناك، يجلبون عقد الزواج معهم ويقدمون أوراق جمع الشمل، ولا تمر سوى ستة أشهر وتكون الزوجة هنا في العاصمة، ثم لتبدأ دورة النفور، ثم الانفصال، ثم الطلاق وهكذا. لا نستطيع التكيف هنا، ولا نستطيع نسيان عاداتنا، وأفكارنا القديمة، وثقافتنا المتخلفة. الثقافة عندنا هي قراءة كارل ماركس ولينين، والانتظام بالحزب الشيوعي والايمان بالأممية، والتشدق بمقولات سارتر والإعجاب بجيفارا، هكذا حشوا رؤوسنا. هنا نرى الأمر مختلفاً. الثقافة لها طعم آخر، لها علاقة بالطعام، النظافة، الصحة، الحاجات البيتية، المدارس، رياض الأطفال. ثقافة الفرد من نمط آخر، يستطيع أن

يعرف ما هي أنواع الطعام المفيدة للجسم، وكيف يتفادى المرء السمنة والسكر وارتفاع الكولوسترول، وما نوع الأنشطة المفيدة للجسد كالركض، والسباحة، والهرولة، وركوب الدراجات الهوائية. اسأل أي شخص هنا، حتى لو كان شحيح التعليم عن المستلزمات التي ينبغي توفيرها في البيت لأخبرك عنها جميعا، ما يختص بالكهرباء وصبغ الجدران ومعالجة تسرب المياه. واسأل أي شخص عن الإسعافات الأولية اللازم وجودها في صيدلية البيت لأجابك بسرعة عنها. هكذا الأمر مع نوعية الطبخات، ومستلزمات المائدة وآداب الحديث. مجتمعاتنا تفتقر إلى هكذا نمط من المعرفة. قد تكون المرأة هي من تحس أكثر من غيرها بالفروقات بين مجتمعهم ومجتمعاتنا المتخلفة على كل الصعد. ونائل يسمع، يكرع كؤوس البيرة، ويعاود الإصغاء إلى منى وأفكارها التي وجدها جريئة وممتعة. وفي لحظة خاطفة انتبه إلى كمال وعلي وهما يلملمان جرائدهما، وكتبهما، وأفكارهما من الطاولة ويتهيئان للخروج، وعندما التقت عيناه بعيني كمال أشار له بيده تحية الوداع وكأنه يخشى من التدخل في جلستهما الحميمة. لكنه قال له بصوت عال قبل أن يخطو خارج الباب: حاول الحضور في عطلة نهاية الأسبوع، يوم السبت، هناك جلسة ممتعة. ابتسم له من بعيد ثم غادر خلف علي متجهين إلى ساحة البلدية. لبثا صامتين وكأنهما ينتظران غياب كمال وعلي، الغياب الذي أشاع الراحة والطمأنينة في كليهما.

– أي جلسة يقصد صديقك؟ سألته منى فجأة.

– صديقته افتتحت صالونا في بيتها، لجمع أصدقاء كمال من المثقفين، كي لا يهرب من بين يديها كما أظن. كمال رتب وضعه مع تلك المرأة وسكن في بيتها، ولأنها لا تريد أن تخسره اقترحت عليه فتح صالون أدبي ينعقد كل بداية شهر، يمكنه أن يدعو إليه أصدقاءه المثقفين بدون مشكلة. هي أيضا كانت في توق للتعرف على أصدقائه. المطلقات يعانين من فراغ دائم.

عند عودته إلى البيت مساء فكر نائل أن الجلسة معها كانت ناجحة، إلا أنه ندم على ذلك الحكم الذي شمل به المطلقات وكيف يعشن في فراغ روحي خانق، فمنى مطلقة بالنهاية. وخلال جلوسه مع كأس البيرة، وتحديقه المتواصل في الشباك، ما لبث أن أعاد شريط هذا اليوم وشرع يتأمله ببطء، ببطء مثل نملة تتسلق ورقة يقطين ضخمة. عيناه غائمتان، وعقله يشتغل في الاتجاهات كافة. لم يتطرقا إلى أي جانب شخصي، لا كلمات أعجاب، ولا جمل غزل موحية، هو لا يجيد مثل هذه الأدوار على أية حال، لكنها هي الأجرأ في حديثها. حين تقبل المرأة دعوتك للجلوس معها في الكافتيريا معناه قبولها برفقتك، وهذا يقود إلى علاقة ما بين الأثنين. حتى الآن لا يقتنع بمفهوم يقول بوجود صداقة بريئة بين رجل وامرأة. أم يمكن التساؤل إن كان وجود كمال وعلي هو السبب الذي دفعها لتجنب الحوار المباشر في شؤون جلوسهما سوية على طاولة واحدة؟ لقاءاته بكمال أصبحت نادرة، وتناهى إلى سمعه أن كمالا عادة ما يتواجد في المكتبات، مفتشا عن كتب جديدة لم يقرأها، وابتعد عن شلة الحذاء الصيفي والكليب تري، ونقل عنه أنه قرر أن يكرس حياته للقراءة والكتابة، وهي الترياق الناجع الذي يبعده عن مشاكل الأجانب، وهمومهم، واهتماماتهم، السياسية خاصة. لكنه سيزوره في ذلك الصالون على أية حال. وبيته يقع في نهاية منطقة أوستبرو، ليس بعيدا عن محطة "سفينمولن" للقطارات. خطر في ذهنه مراد أيضا، ذلك الرجل التائه في دروب روحه وأسرارها وموبقاتها، انقطعت أخباره وكف عن زيارته في المدرسة أو البيت. اتصل به أكثر من مرة تلفونيا، يرن التلفون لكن لا أحد يجيب. حازم الأعرج الذي التقاه مصادفة أمام بوابة "التيفولي"، قال له إن مراداً صار يستخدم الكوكايين، ومن المرجح أنه راح يشتغل بتجارته هو والحشيشة، وهنا تكمن الخطورة. القوانين هنا لا تتسامح مع مروجي المخدرات. رآه، كما أخبره حازم، أكثر من شخص يتسكع في شارع الجنس، استدكاذا، الواقع خلف محطة القطارات، لحيته طويلة، وملابسه رثة، وعيناه لا تركزان على شيء. وربما يكون

في السجن، مسكوه في واحدة من سرقاته. تعرف أن القانون يسامح في المرة الأولى لكنه لا يتهاون في التهمة نفسها مرة ثانية. قال إنه التقى بصديقته دوتا وأخبرته أنها تركته. هو شخص مأزوم وصفته، أحيانا يسكر ويبدأ بضربها من غير سبب. خلال علاقتهما القصيرة، حاولت جاهدة معرفة ما الذي يريده هذا الرجل من الحياة فلم تستطع الوصول إلى جواب. تظن أنه هو نفسه لا يعرف بالضبط هدفه، والغاية من وجوده في البلد. إنه شخص ضائع كما وصفته، وأخبار مراد، غير السارة، كانت آخر ما شغلت ذهن نائل وهو يرقد في سريره. وكثيرا ما تساءل مع نفسه عن الأصدقاء الذين راقب انحدارهم ببطء نحو الجحيم، وفسر السبب الرئيسي الكامن خلف ذلك الانحدار بأنه العطالة عن إنجاز عمل يومي يجنبهم السقوط في هاوية الفراغ. وتأكد لنائل لاحقا عبر الرسائل أن ليثاً يشتغل في مطعم هندي، غاسل صحون، ويقطن في المنطقة ذاتها، أي "نوتنغ هيل". استأجر غرفة من شخص هندي يعيش مع زوجته، ويشتغل معه في المطعم ذاته. غاسل صحون في لندن، ما أتعس هذه النهاية.

كل سنة من وجودنا في هذا المكان تنتج لنا قصص جديدة لأشخاص عرفناهم، أو سمعنا بهم فقط. تتقاطع المصائر أو تفترق فلا لقاء بعدها، يموت أشخاص عرفناهم في سنة ما، ويبزغ في وسطنا أشخاص آخرون ظلوا، لسنين، منزوين في قرية نائية، أو مدينة معزولة. يهاجر البعض نحو بلدان أخرى، ويفد بعض آخر من أرض الوطن بطرق غريبة، كي يعيدوا الدورة ذاتها. ما شهدناه من أحداث في وطننا البعيد، وكلها ترتبط بالحروب والتهجير والحياة القلقة، أهال ركاما من النسيان على "أنكيدو"، حتى غاب اسمه من جلساتنا المسائية، وتناهى إلى أسماعنا أن جميل البصري فتح مطعما صغيرا لبيع الشاورما، والفلافل، في مدينته البعيدة، كان يديره مع زوجته. وغامر عدد ممن لم يطيقوا الاستمرار في العيش هنا في الهجرة إلى كندا، وأستراليا، كون فرص العمل والنجاح هناك متوفرة للمهاجرين، خاصة من أصحاب الكفاءات العلمية.

وفي الوقت عينه لاحظنا تزايدا واضحا في قبور أصدقائنا ممن دفناهم في مقبرة "فالبي"، نساء ورجالا، وتم بجهود الناشطين الأحياء منا تأسيس ركن صغير في المقبرة سمي ب"مقبرة المسلمين". ولأن ديننا يختلف عن دين المدفونين في المقبرة الكبيرة، تم التوجيه بوضع علامة الهلال على شواهد القبور تمييزا لها عن علامة الصليب التي عادة ما دأب أبناء البلاد على نحتها وسط النصب المرمرية، المثبتة عند رأس الميت. السنة التي جن فيها مراد حملت معها تصدعات واضحة في نسيجنا القطيعي القديم، ولكن أقدامنا كانت تترسخ في تربة الجزر وتمد جذورها أعمق فأعمق، وشهدت ولادة أول مسجد للمسلمين على أطراف العاصمة، مع شرط واضح للجميع أصدرته البلدية، هو عدم رفع الأذان من منائره الصغيرة.

١٩

جنون مراد جعلنا نتأسف على مصائر جماعتنا ولكننا وقفنا عاجزين، فالتحولات في النهاية تجري داخل الفرد ذاته، ولا يمكن ليد محبّة انتشاله من جحيمه. نائل من بين الجميع ظل غير مصدق الروايات التي تحدثت عن جنونه. لكنه ذات نهار غائم رآه منتصبا بصورة تثير الغرابة، أمام مقهى "الكليب تري"، بمواجهة بناية المكتبة العمومية، واستغرب من وقفته المريبة تلك. وجد في هيئته سمات غير مريحة، لحيته كثة، عيناه شابحتان في الغيوم السود المتحركة فوق سطح المكتبة وتعد بمطر قريب، حتى شك في أنه عرفه حقيقة. وجده يشبه كائنا مخدر الحواس، ذاهلا عن المارة، يصالب ذراعيه على بطنه، وتلك الحقيبة الصغيرة معلقة على كتفه، حتى يمكن الظن بأنه لا يعدو أن يكون شبحا هاربا من مقبرة "فالبي". كان على موعد مع صديقه جميل البصراوي في الحذاء الصيفي لذلك لم يشأ الوقوف معه، تأخر ربع ساعة عن الموعد، فبادره بتحية عابرة ثم أكمل طريقه في شارع المشي.

وتأكيدا لتلك الشائعات قال واحد من أصدقائنا ذات يوم اسمعوا هذه النادرة: السبت ما بعد الظهيرة، كانت الشمس مشرقة، بوهج خفيف، وقد أخرج مقهى "الكليب تري" طاولاته وكراسيه في الفسحة أمام المبنى. كانت عيوننا مركزة على فرقة موسيقية غريبة، مصطفة عند جدار مواجه للشمس يقع على يسار المكتبة. فرقة البراميل، أطلقت عليها مع نفسي لأن آلاتها كلها من البراميل، طويلة أو مقصوصة من المنتصف، إطار برميل فقط أو ثلث برميل، انتصبت على الأرض، أو على حامل من الخشب. ويعزف عليها العازفون بمطارق من خشب أو براحات أيديهم. يجتمع حول الفرقة أناس من جميع الأعمار، يقفون لحظة يشاهدون الفرقة العجيبة فتطربهم الأصوات، أو يرضون فضولهم ثم ينسحبون. هكذا كان الجو حين ظهر "مراد". صوت عال، ولغة

مفككة، ويمزج اللغات مثل مهرج غير بارع، التقطت أذني من كلامه عبارات تدل على وعي وثقافة، الصراع الطبقي، الخيانة الزوجية، حروب الأقزام، أهداب الماضي، تجار حشيشة، غرف الجنس القذر، قلادات من الذهب، فن المساج. يتعب فيصمت هنيهات، ثم يرفع عقيرته بالغناء لفريد الأطرش، وسط دهشة المارة، وابتساماتهم، وتعليقاتهم.

بدت على ملامحه قدرة هائلة على تجاهل المارة، بل وكأنه لا يشعر بوجودهم، وفكرت أن مراداً أراد جمع المارة حوله بفعل غير معتاد، كما دأب الحواة والممثلون الجوالون، لكي يضع بعدها قبعته أمامه منتظرا العطايا من النقود. كان يلبس قبعة مكسيكية غير مألوفة لونها حشيشي لا ينسجم مع المكان، ولحيته طويلة مثل راهب. كل شيء جائز في هذا المجتمع، وإن سمعتم بأنه تحول إلى شحاذ فلا تستغربوا. الروادع كلها اختفت من رؤوسنا. ظل منغمرا بخطاباته، وأغانيه، حتى اقترب منه نادل المقهى، وهمس شيئا ما في أذنه فتحجر برهة محدقا بنا، ولم يتوانَ أن أدار وجهه وانصرف باتجاه ساحة اللقالق.

المرة الثانية التي جذب بها مراد نظري، وبدأت فعلا أهتم لأمره حدثت في مدرسة اللغة، ليست "ستوديوسكول" القريبة من كاتدرائية سيدتنا مريم، إنما المدرسة الواقعة في جزيرة آما. شاهدته في البهو، وكنت واقفا جنب باب الصف المفتوح أحدق بالطلبة متأملا ألوانهم، ولغاتهم، منتظرا واحدا من معارفي، وعلى حين غرة انفتح الباب الخارجي وأطل عليّ وجهه. هذه المرة رزانة في الجبين، ملابس نظيفة، وهو كما ألفناه أنيقا دائما، وكنا نتعجب من أين يحصل على ملابس بهذه الأناقة وهو لاجئ مثلنا. طبعا نمي إلينا أنه يسرق من المحال، ويجني ثروة من بيع مسروقاته، ولكننا لم نصدق قطعيا بالرواية. وقد أزال جزءا من لحيته، وكان يحمل رزمة أوراق بيده مع قلم جاف، وحسبته كاتبا من كتبة القرون الوسطى حياته تسبح ببحار من الحبر، وغابات من

الورق. لم ينظر إلى أحد، إنما غذ خطاه مباشرة إلى لوحة الإعلانات. انتخب ورقة عريضة من أوراقه، حجمها كبير، وفردها أمام وجهه، قرّبها من عينيه، حدّ فيها نظره برهة كأنه يراجع صواب ما كتب فيها. استل عددا من الدبابيس من قماش اللوحة، ثم شكها في الورقة، وبحركة سريعة استدار إلى الباب ومضى نازلا الدرج. قادني الفضول إلى الورقة، فألفيته وقد ملأها بجمل وشخوص مرسومة بدقة وبراعة، وبأزهار وأشجار وتخاريم وأيقونات، ثم منح لكل شيء هوية، أي علامة سالب وموجب، ثم وضع حول العلامتين دائرة مسوّاة بفرجال هندسي لا يخطئ، لم تمسكه يد مرتجفة إنما واثقة من نفسها.

اسمعوا ما وجدته مكتوبا عليها: الحرب الأهلية في لبنان سلبي، حرية الرأي ايجابي، تناول الجعة صباحا سلبي، عمل الباه مع الحيوانات سلبي، اللغة الجديدة الشبيهة بنقيق الضفادع سلبي، المساج إيجابي وكذلك زيت اللوز. وتخيلوا جملا مشابهة من هذا اللغو. وفي حواشي الصفحة مزيد من الرسومات، كتل وخطوط تعوم على خلفية من الأوراق والأزهار والعساليج النباتية، مردفة بآيات قرآنية وأقوال إنجيلية ومقاطع من نشيد الأنشاد. اعترف بالحقيقة أمامكم، لقد ذهلت من هذا الخليط المصنوع من حكم، وهذيان، وتفاهات، ورسوم، ففكرت أن الرجل قد جن لا محالة، فقد عقله نتيجة صدمة عاشها، ففصلته عن واقع البشر، وهو ما يحدث كثيرا في الأزمات، أو تناول على الأقل طنا من الحشيشة. أجل، تلك ليست أفكار شخص عاقل على الإطلاق. وعرفت لاحقا، ومن أكثر من مصدر، أن مراداً يوزع نشرته بأماكن أخرى غير هذه المدرسة. في مكاتب استقبال اللاجئين، في المقاهي، في البارات، في محال العرب التي تبيع المخضرات والبضائع الشرقية، بل وكان يقف أحيانا في شارع المشاة كي يسلمها للمارة. قد يكون وراء جنونه هذه الغربة الشاقة التي نحياها في البلد. أحاسيس الغربة إذا نبتت، ونمت بتربة خصبة، سرعان ما تقود إلى الريبة بالآخرين، ومحاكمة الظواهر حسب المزاج اليومي،

وهذا ما أودى به إلى النظر بعدستين لا غير، عدسة سوداء وأخرى بيضاء، سلب وإيجاب.

ورأيناه في يوم شتوي مشرق وهو يجلس على ضفة البحيرة الرابعة، مقابل السكن الذي يقطنه الشاعر المسلول "فريد نافع". كان يقبض على كيس مليء بفتات الخبز، يتناول منه على مهل حفنات يلقيها إلى الطيور المتجمعة حوله، أوز ونوارس وبط رمادي الريش، عيناه تبرقان من المتعة، ورأسه مكلل بالطيور، منظره وسط الطيور مهول.

ثم تتالت المواقف الغريبة لمراد وأثارت التقولات والفضول لدينا. فذات يوم قال واحد منا دخلت المكتبة العامة لقراءة الصحف فوجدته خلف مدقق الأرقام يلقي خطبة حول الحرب، ظل يعيد ويكرر جملها حتى وفدت مديرة المكتبة وطردته من هناك. ثم وقعت على سره بعد نحو شهرين من الاهتمام بحالته. كنت أجلس في مقهى "كليب تري" بمواجهة الساحة، وكانت الثلوج تغطي الأشجار فبدت مثل أياد متيبسة ممدودة إلى السماء، وكنت أضع أمامي فنجان قهوة إيطالية وفي فمي سيجارة، وفاجأني رأسه بشعره الطويل المشعث ينبثق من هوة الدرج. دخل بهدوء، ثم وقف في الممر ناظرا إلى الجالسين كمن يفتش عن وجه محدد في خياله. بدا وكأنه في عالم آخر، وفي زمان غير زماننا.

سيبدأ حتما محاضرته الشيقة عن السلب والايجاب في الحياة، لكنه وقف بدون أن ينبس بكلمة فأغراني هدوؤه إلى دعوته للجلوس وتناول القهوة. لدهشتي وافق فورا. سألته بعد أن وضعت فنجان القهوة أمامه عن اكتشافه الفذ لنظرية السلب والايجاب، وكيف وردت في خاطره، ومن أي المصادر استقاها؟ وكأنه كان ينتظر مثل هذا السؤال منذ وقت طويل، حيث راح يسرد خلفيات نظريته الفذة التي كرس نفسه واعظا بها: كنت أقطن وحدي في بيتي، قال، أعاني من وحدة وشعور بأنني حشرة ضالة، حياتها لا تهم أحدا من بشر المدينة. ذات ليلة، وبعد نهار أمضيته بلا طعام، إذ حدثت مشادة بيني وبين

صديقتي دوتا، تجرأت وصفعتها على وجهها بعد أن وصفتني بالفاشل، والمتسكع، واللص، ثم فارقتها نهائيا وعدت إلى البيت، قررت أن أطبخ لنفسي رزا ومرقة دجاج. تلك ليلة لن أنساها. الشعور العارم بفقدان الهدف، وفراغ أيامي، وبعدي عن الأهل، أمي خاصة، كلكل على روحي مثل سحابة سوداء. هرستني جدران البيت، بوحشتها، ولفتني خيوط العنكبوت المصنوعة من العبث، وتحولت نوافذي إلى ثقب ضيق لا أبصر منه سوى مذابح، ومعارك، وهجرات شعوب. خطر في ذهني أنني لست حيا، ولست أكثر من شبح. موات على الصعد كلها، موات وجدته وقد اتخذ سمة فراشة عملاقة، أطرافها مخالب، وبطنها ضخم يتقلص وينبسط، ولوامسها خراطيم ماصة، وجناحاها مناجل تتقصف من هولها الرؤوس. ذلك المساء أكثرت من تناول الحشيشة المغربية، وربما تنشقت معها كوكايين، أو غيره، لم أعد أتذكر. مضيت بطهو طعامي محاولا حصر ذهني بحبات الرز في القدر، وألياف قطعة الدجاج السابحة بالمرق. وضعت طبق الرز وصحن المرقة على طاولتي الخشب وجلست مهيئا حواسي للأكل، وقبل أن أغرز ملعقتي بصفحة الرز هالني ما رأيت. طبقي وجدته عشا لكائنات بيض صغيرة تتحرك وتتلوى، تميس شمالا ويمينا، تتسلق حافات الصحن في محاولة مستميتة للفرار. عش ديدان يبعث النفور، صحفة خزفية من الخيوط تطبق عليها ملعقة هائلة، فضية، مقعّرة، سيلتهم محتواها فم لحمي سيحولها إلى سوائل، وإفرازات، ونفايات. عندها تحولت معدتي بسبب المنظر إلى كائن حكيم. اندفعت بجدرانها، وشعيراتها، وغددها، هاربة إلى حلقي، فسارعت إلى دورة المياه متقيئا سائلا أصفر، مرا، كريه الرائحة. غامت نظراتي، وشعرت بالغثيان، وكدت أسقط على أرضية المطبخ، وكادت أحشائي تخرج من جوفي، فانعطفت إلى حنفية المياه وغسلت وجهي بمياه باردة وصابون معطّر. وبين الحلم والغياب راحت كائنات صغيرة تشبه البشر تتساقط من فم الحنفية، بعضها يبكي وبعضها يقهقه، وهو ما ملأ جوانحي برعب لم أعشه منذ أن دخلت إلى هذه البلاد. عند منتصف الليل حاولت النوم ثانية علني أتلاشى

عن كل ما مر على كاهلي. وجدت صنبور أفكاري ما فتئ يتدفق، ففكرت بورود فاقعة الألوان، وبحار صافية تحت سماء شاسعة، ونخيل طفولتي في حدائق بيوتنا، ووجه أمي، وليالي طهران في محلة كوجه مروي، وتصاميم الذهب التي أصبحت مثل سراب بعيد. واستحضرت معلمي الحكيم الذي علمني مداواة الناس بالمساج، ثم ولجت ساعات في بهو التأملات، ووجدت أن النهم عملية سلبية تحول المرء المتسامي إلى حيوان لا يختلف عن الشمبانزي وبنات آوى وفرس النهر. بهذه العملية البائسة، التي نرتكبها كل يوم، يتحول الانسان إلى قناة بفتحتين فقط، الفم في الأعلى والمخرج في الأسفل. بربك هل تختلف دودة الأرض عنا؟ وجدت الفكرة صائبة، سرعان ما اجتذبت أفكارا أخرى. شرب الخمر صباحا سلبي، كونه يبعث الدوار في الدماغ، ويشتت الأفكار. الحوار بالأيدي سلبي. الزواج سلبي. وهكذا. كما قادتني كشوفاتي إلى جوانب السلب في الحياة، أرشدتني إلى الضفاف المشعة الودودة المسماة ضفاف الإيجاب. حين توصلت إلى اكتشافاتي تلك نمت بعدها أكثر من خمس عشرة ساعة، وكان نوما أبيض خاليا من الأحلام. النوم الأبيض ذاك، هو ما افتقدته، منذ أن طردونا خارج الحدود بحجة تبعيتنا لإيران. وفي الأيام التالية شعرت أن كائنا جديدا ولد من رحم تلك المأساة. كائن له رسالة عليه ايصالها إلى الناس. وبعد أن أنهى كلامه، نهض فجأة حتى من دون أن يكمل قهوته، ومضى نحو الباب بجسد مثقل من شيء غير معلوم، ربما حتى له هو نفسه، مضى كما لو أن هاتفا يدعوه للهروب. ولغرابة الأمر، وما أن اختفى عن نظري في هوة الدرج، عمدت إلى جلب جريدة موضوعة على طاولة للزبائن، وتناولت قلما ورحت أدون مثله ما هو إيجابي في الحياة وما هو سلبي. استغرق الفعل نصف ساعة تقريبا، لكنني انتبهت إلى نفسي، وغصصت بالضحك، وشعرت بوقوعي في فخ مراد، وهلوساته، ثم أقلعت عن المحاولة.

وحين سمع نائل بحكايات صديقنا مراد شعر بالأسف، وقاطع الشرب ثلاثة أيام، وأجرى مثل كل مرة مراجعة عميقة لحياته. ورغم أن نائل لم ينحدر إلى

الدرك الذي انحدرت إليه سيرة مراد، فما زال متمسكا بعقله، ويتفاعل بمحيطه لهذه الدرجة أو تلك، إلا أن حياته سارت مضطربة متشظية، مثل واحدة من تلك القنابل الضخمة التي تنفجر وسط مدينة آمنة، حياته الشبيهة بقرع طبول بعيد، تختلط في إيقاعها بدون أن تفرز نغمة واضحة، صحيح هو يحتفظ على الأقل بعقل رصين حتى الآن على أقل تقدير، وصحيح أن منى تعجبه، لكن من الغريب أنها لم توح له بأية مشاعر جنسية كما اعتادت النساء الباقيات. رقبتها الناعمة البيضاء، وشعرها الداكن القصير، والعينان البنيتان الواسعتان، ثم تلك الحركات التلقائية أثناء الحديث، قد تكون هي ما أضفت عليها مسحة رومانسية تتناقض تماما مع الغيمة الشهوانية التي عادة ما يراها حول من يلتقيهن من النساء. البحث عن حياة ذات معنى هو ما يرغب في الوصول إليه، لكن كيف؟ هل يكمن الحل في أن ينتمي كلية إلى هذا المكان؟ سيؤمن برب الأرباب "أودن"، ويعشق آلهة الحب "فرايا"، ويتوق إلى دخول جنتهم التي يسمونها "فيلهالا"، وتمتلك نارا تدفئ الأفئدة، وطعاما عبارة عن نقانق ضخمة، خالدة، كلما تناول منه الجائعون تعود لتتجدد مرة ثانية؟ بصورة من الصور هي تشبه جنتنا، أنهار الخمر، واللبن، جارية دائما، والقطوف الدانية لفواكه لا تنفد، كلما قطف منها المرء واحدة حلت محلها واحدة أخرى. يا لهذا الكائن كيف يمتلك قدرة خيالية على التشابه، حتى في أحلامه وأساطيره. أيضع العينين الزرقاوين، والشعر الأشقر، والبشرة البيضاء، لكي يصبح مواطنا صالحا يندمج في هذا المكان، مثل بطل قصة كمال الشاعر التي سماها "الكابوس"؟ تمر في رأسه قصص وحكايات مثل تلك، أطياف نورانية لمآذن الجامع الأموي، وأضواء بعيدة شاحبة حلمية لجبل قاسيون، وممرات الجزيرة الشبيهة بأنفاق الجرذان، وغابات النخيل الشبيهة بالمراوح، ويستطيع سماع أصوات لأشخاص عرفهم في طفولته، وهو متأكد أنهم ماتوا، وممرات جبلية، وحكايات عتيقة حكتها جدات مرت عليهن سنوات طوال في قبورهن المنسية.

٢٠

حتى جاءت تلك الليلة لتكون فاصلة في حياته، واستراب من أن يكون سائرا في طريق مراد ذاته.

كان التلفزيون يعرض تظاهرات حاشدة في عواصم عربية، وغربية، منددة بالحرب، وتتعالى خطب وأصوات بلغات عدة تطالب بوقف ذلك السيل الهادر من الطائرات، والدبابات، والحشود. مئات السفن تمخر عباب البحر متجهة إلى هناك، تاركة خلفها أمواجا من زبد وقناديل بحرية. الجنود بدوا كما لو أنهم لا يمتون إلى العنصر البشري الذي ألفته العيون، كانوا أشبه بكائنات فضائية قادمة من الكواكب التائهة، والمجرات البعيدة، بخوذهم، وأقنعتهم، وحقائبهم المحمولة على الظهور، وأقنعتهم الواقية من الغازات السامة. وقد تردد من بين التعليقات التي كان نائل يصغي إليها بتركيز أن ثمة جهة ما قد تستخدم القنابل النووية في الحرب، وكان معلقون يحصون كم من ملايين البشر سيلقون حتفهم إن استعرت الحرب، وتقابلت تلك الجيوش المليونية على أرض المعركة. احصائيات تحدد المدن المهمة التي ستصير هدفا لتلك الهجمات. المدن ليست أبنية ضخمة وشوارع إسفلتية، إنها تاريخ موغل في القدم، وحكايات توارثتها أجيال من البشر، وأطفال لم يولدوا بعد، معلّقين ما زالوا على سحب أحلام أمهاتهم. من الجهاز العتيق المشع، الموضوع جنب نخلته الغالية، كانت هناك موسيقا حزينة تنطلق بعض الأحيان مصاحبة لمشاهد سابقة روت حروبا حدثت قبل عشرات السنين، وآثار تخريب لقنابل نووية ألقيت على مدن مأهولة. واستعرضت المشاهد تجارب أظهرت فتك التفاعلات الهيدروجينية، والنووية، والانشطارية، حتى على الطبيعة الميتة، بعد أن جربت في صحارٍ، ومحيطات، وجزر غير مأهولة بالسكان. البشرية تعيش في عالم ممتلئ بالرعب،

والأحلام المنكسرة، والتوحش، وقد فرض على هذه المليارات التي تتنفس الهواء قبوله والتعايش معه.

ولأن تلك المشاهد استولت تماما على عقل نائل، المتحول طوال ساعات من الشرب إلى غيمة دخانية بلا شكل، شعر بالرعب يتصاعد من داخله، رعب شامل حتى من الذباب الذي يطير حول المدفأة. رعب من السماء، من البشر العدوانيين، من الخوذ، من جراح الجسد والحروق الكيمياوية، من حجوم الطائرات الضخمة. إنه يتضاءل أمام كل ذلك، ويتحول إلى حشرة. حشرة مرتجفة تختبئ بين الأغطية لا تعني حياتها أي شيء لذلك العالم الممتد خلف نوافذه. وبرأس مزدحم بالنخيل والأنهار والألغام والبغال والزنازين وطيور النهر وباصات المصلحة الحمر ذات الطابقين، برائحة البارود وأصوات الجرحى خلف سواترهم الترابية والبيانات العسكرية والكثير الكثير مما يشبه ذلك، تسمّر نائل مراقبا ساحة الحرب على الشاشة.

تلك السنة، عشنا الحرب من بعيد، بعيد جدا، مثل أم تقف على الساحل وهي ترى ابنها يغرق في لجة الموج. لاحقتنا حتى في هذه الأصقاع النائية من الكرة الأرضية. حربنا نحن لا حربهم، فهم يعيشون حياتهم كما عاشوها طوال عشرات السنين. كنا نراها مثل نائل، في التلفزيونات البيتية، والتلفزيونات الموضوعة في المقاهي، ونقرأها في الصحف اليومية بعناوين عريضة جاذبة للنظر، ونتناقش حولها خلال جلساتنا الخمرية، أو أثناء ما نلتقي في المقاهي، وفي الباركات وسواحل البحار، وفي العبّارات البحرية المتنقلة بين جزيرة وجزيرة، بين بلد وآخر. لقد دخلت في وعينا وفي لا وعينا، وتغلغلت تحت جلودنا، فطبعت بشراتنا بميسمها البشع والمشوه. وتحولت لدى معظمنا إلى كوابيس بمشاهد كثيفة جحيمية، أو، قيامية، كما يطلق عليها المخرج على الشمري، وهي من مبالغاته الصائبة هذه المرة. صور ممزقة مختلطة يصعب علينا أحيانا الوصول إلى معانيها، أو رموزها ودلالاتها. حين وطئت أقدامنا

الأرض المحلوم بها، حسبنا أننا سنترك الحرب خلفنا، في المكان الذي تفصله عنا آلاف الكيلومترات. قلنا لأنفسنا دعوهم يتقاتلون هناك، ولننجُ بجلودنا، لكننا اكتشفنا عقم هذا التصور، وعقم تفاؤلنا الضارب عميقا في أرواحنا، وفضنا بالمرارة حقا حين اكتشفنا أن ذلك لم يكن سوى وهم من أوهامنا الكثيرة، المتساقطة على أرض الواقع كثمار تفاح جافة، كلما مرت، وماتت، سنة من أعمارنا.

يتذكر نائل ذلك الرعب الذي عاشه أصدقاؤه ذات صباح، حين وجدوا شوارع المدينة مليئة بصور "الديكتاتور" مهددا الناظرين بابتسامته الغامضة، وشاربيه الكثيفين، وخالوا أنهم لم يغادروا مدنهم، وما الحياة التي عاشوها في هذا البلد سوى حلم طويل استغرق سنوات. لم يكتشفوا المزحة إلا بعد حين، ففي حمأة الانتخابات البرلمانية التي تجري كل أربع سنوات ارتأى واحد من المرشحين أن يضع صورته جنب صورة الديكتاتور، وكتب تحتها كلمة "الأسوأ"، أما صورته هو فكتب تحتها "الأفضل"، ولم يدرك ذلك المرشح أن تلك الفكرة فتحت سيلا من الرعب على المواطنين الجدد، من ذوي الشعر الأسود. سرى الخبر سريان النار في هشيم الوافدين، وكأنهم في حلم جماعي وجدوا فيه أنفسهم هناك، في أرض الطفولة التي غادروها مرعوبين. التلفونات ظلت مجساتها تدق، وتتواصل، حتى انكشفت اللعبة، ولن ينسى ذلك اليوم المكفهر المرعب ما امتدت به السنون.

على وقع المارشات الحربية في التلفزيون، والقلق على عائلته البعيدة، وصور منى الممسوحة التفاصيل، نام نائل وهو يعاني من آلام في مفاصله، ورأسه، وجفاف حلقه وطنين أذنيه وكأن قلق الليلة الماضية لا يريد مغادرة جسده. حين استيقظ في الصباح قدر أنه لن يستطيع الذهاب إلى العمل فهو يفتقد التركيز، ويحس بالوهن، عدا ذلك شعور الفراغ الرهيب المستبد به، ذلك النوع من الفراغ الذي يمحو كل جدوى للمشاريع اليومية، وهي صفة من صفات

المغتربين عن بلدانهم كما سمع وقرأ في بعض التحليلات. مد يده متثاقلا إلى التليفون الملقى على الطاولة الصغيرة جنب السرير واتصل بسكرتيرة المدرسة. أخبرها أنه مريض، لا يستطيع المجيء إلى العمل. ولوهلة تراءت لعينيه تعابير المدير "ستين" المكفهرة حين أخبرته السكرتيرة بغيابه، ثم عاد إلى النوم ثانية، بمشاعر عدمية مشتتة، ولم يستيقظ إلا على تليفون "منى". سألته عن سبب غيابه عن العمل، فأخبرها أنه متوعك بعض الشيء، وسألته إن كان به رغبة في قضاء السبت سوية فوافق على الموعد فورا. تخيل كيف ستمتلئ ممرات المدرسة بقصاصات الورق وآثار الأقدام، وحتى بعض أعقاب السجائر، وسيفتش الطلاب أباريق الشاي والقهوة المرصوصة على المنضدة في المطبخ ولن يعثروا، مثل الأيام السابقة، على قطرات قهوة سوداء أو شاي أحمر اللون. وسينظر المدير "ستين"، إلى الكؤوس المتسخة شزرا، ويتفقد مكتبه في الطابق الأعلى، وكيف يجده سابحا في الفوضى، ثم يتأفف لتأخر طبع المحاضرات والأوراق الخاصة بالتدريس، وسيفسر غيابه على أنه تهرب من العمل، وكسل شرقي ملازم للأجانب، لا يمكن السكوت عليه. قال له مرة صحيح أنني سمحت لك بتناول ما يحلو لك من مشروبات، لكن لم أقل لك أن تأخذ قناني النبيذ والبيرة إلى البيت. ولم أعطك الضوء الأخضر بتناول ما تجده من مشروبات المعلمين الموضوعة في الثلاجة. هم يشترونها من أموالهم الخاصة. يفكرون بعض الأحيان بتناول كأس من "المارتيني" أو "الروم" مع الغداء لكنك تمد يدك عليها، وهذا سلوك غير مرغوب فيه. يريد "ستين" للمدرسة أن تشتغل مثل ساعة سويسرية، وعلى كافة المستويات، بما في ذلك نظافة الغرف، والممرات، وصناديق القمامة. ثم جاءت منى في خياله بشريط سريع، فتاة ذكية هي نموذج للبنت الشاطرة التي تخطط لبناء حياة جديدة في هذا البلد. قالت بعد أن أنهوا الدراسة صار أمامهم طريقان، إما العودة إلى العراق أو طلب اللجوء في واحدة من البلدان الأوروبية. هل يوجد عاقل في هذا الكون يعود إلى أرض المعارك، والسموم، والقنابل العنقودية، والعيون المليئة بنظرات التهديد والوعيد

والتسلط؟ طبعا لا. وهكذا حلوًّا ضيوفا، هي وريبوار، في واحدة من فنادق العاصمة كلاجئين محترمين يطمحون إلى بناء حياة جديدة في جنة "الفيلهالا".

وبانتظار يوم السبت صرف وقته يتسكع في مركز المدينة في اليوم الأول، وفي اليوم الثاني ترك الدوام ومضى إلى المحطة، وهو المكان الذي يفضل عادة الانفراد به مع نفسه ليتأمل حركة البشر، وتنوعهم، واهتماماتهم ثم ليفكر بمنى وما ستأول الأمور معها. وكانت المحطة لوحة ملونة عادة ما يجدها نائل جديدة كل يوم، يكتشف فيها علامات ودروسا وحكما، وعادة ما يجلس في مقهاها الزجاجي ليسمع ويبصر القطارات تتدفق في شرايين المدينة منطلقة إلى ضواحٍ هادئة شوارعها مظللة بالشجر، وإلى قرى كسولة تفيق على خطى ساعي البريد، ومدن حدودية تلطمها أمواج خلجان داخلية. والجلوس في المحطة يشبه ركوب بالون يطير بين الغيوم، فالإنسان يتحول إلى رقيب متقد الحواس، ينظر ويحصي ويصنّف، يندهش ويزن وينفذ إلى الأعماق، وكل ذلك ملائم لحالته التي هو عليها. وخطر في ذهنه وجه ليث الكئيب آخر مرة ودعه فيها إلى مدينته الشمالية بعد تقديمه على الفيزا. وكان مقهى المحطة الذي اعتاد الجلوس فيه عبارة عن ممر ضيق طويل، يتسع لصفين من الطاولات يفصلهما طريق في الوسط ينتهي بمطبخ يقدم الساندويش البارد والكيك والحلويات، معروضة بحاوية زجاجية مضاءة بشموع ناصعة البياض. يقدم كذلك، إضافة للمشروبات الكحولية، عصير الأناناس والمانكا والليمون والشاي والقهوة الثقيلة السواد. والممر مقبب بزجاج شفاف ذي انحناءة لطيفة في السقف حولته إلى ما يشبه الفقاعة، يأتيه مرات صباحا أو عصرا أو حتى ليلا، كلما ضاقت عليه جدران غرفته وهجره الأصدقاء وشعر بالسأم من كل ما يحيطه. يلذ له الجلوس مبحلقا بهوة السلالم المتحركة وهي تقذف المسافرين إلى بهو المحطة، باحثا عن وجه يعرفه من وجوه البشر الذين ألفهم في هذه المدينة. معظم أصدقائه، مثل جميل البصري ومراد وعلي المخرج وكمال الشاعر ومريض السل فريد نافع وحازم الأعرج، يجلسون هنا ساعة أو أكثر ثم يمضون.

أما هو فيراقب عالم المحطة بفضول ومتعة، بشرها، ساحتها، محالها المنتشرة وسط الساحة، المحال التي تبيع الصحف والسجائر ومن بينها مكاتب بريد وبنك خدمات ونقطة شرطة، فالمحطة مكان تشيع فيه المشاكل اليومية، كالسرقات والمتاجرة بالحشيشة والتحرش بالنساء. أما التليفونات العمومية فكانت مصفوفة بارتفاع واحد على جدار طويل ملوث بالعرق والاعلانات عند الباب الخلفي للمحطة.

يعتبر المحطة نهرا دافقا، مدينة صغيرة لا ينقصها سوى الأشجار، مدينة كل ما فيها مدهش. وسط ذلك الإيقاع المصبوغ باللون الشمعي، إيقاع الجوف المطوق بسقف زجاجي وجدران هائلة الضخامة، وفيما هو يرتشف شايه ببطء، استوقف بصره شخص يشك بأنه يعرفه، ملابسه عادية مكونة من بنطلون جينز أزرق وحذاء شتوي ضخم يمتد عنقه إلى الركبة وتنحشر نهاية البنطلون فيه حشرا، ويرتدي سترة من الجينز مبطنة بفرو أصهب بارز خارج القماش. بشرته سمراء، أو هكذا لاحت لنائل من خلال الحاجز الزجاجي، ولحيته نابتة قليلة الشعر شائبة، مختلطة بشاربين صغيرين. شخص أليف المظهر، إلا أن شيئا ما فيه استوقف ذهن نائل. وقفته غير واثقة، عصبية، كما لو كان يخشى أن يمسك بجرم ما. التفاتات سريعة، نظرات مستريبة، تحديقات بعيون المارة، ينخزه قلق عميق يدفعه إلى الانزواء كلما مر شرطي من جنبه. في البدء حسبه ينتظر دوره لمكالمة ما، أو ربما كان على موعد مع شخص ما، إلا أن ما أثار استغراب نائل أن التلفونات كانت شاغرة بدون أن يتقدم نحوها. ينهي المتكلم اتصاله ويرحل، يندفع الرجل "المألوف" إلى الهاتف، يمد أصابعه إلى الفتحة التي تتساقط فيها العملة الفائضة ثم يهز الجهاز مرات عدة. مرة أو مرتين رآه يقع على بقايا عملة يتناولها بسرعة ويدسها في جيبه، وكان الجالسون حول نائل منكبين على خمرتهم، وقهوتهم، وأحاديثهم، وهمساتهم، كأن "جامع العملة"، وما يقوم به، حدث مألوف لديهم. بالنسبة لهم كان جزءا من حياة المحطة اليومية بالتأكيد. ولقناعته في أنه يعرف هذا

الرجل، نهض من كرسيه ونزل الدرج مسرعا لرؤية جامع العملة، وحين اقترب منه ودقق في ملامحه جيدا تفشّت الدهشة في روحه، وكادت المفاجأة أن تشله.

– مراد أليس كذلك؟ سأله وهو يقترب منه متجاهلا الذعر المستولي عليه، وبصوت مرتبك، وعينين مذعورتين، رد مراد ببرود:

– أجل، أنا مراد، ألم تعرفني؟

– تغيرت كثيرا يا صديقي، حدثني عما جرى لك؟ لماذا غبت هذه المدة الطويلة؟

وقفا جنب الجدار وراح مراد يرد عليه بأجوبة مقتضبة وكأنه لا يرغب في الاستفاضة.

– اتصلت بك أكثر من مرة فلم يجبني أحد.

– لقد تركت البيت منذ زمن، قال مراد بريق ناشف وعينين كليلتين.

– وأين تقطن اليوم؟

– هنا وهناك، عند بعض الأصدقاء، ومع الطيور أحيانا، أفضل ما يفعله المرء أن يعيش في بيوت الخيال وهو أمر إيجابي، والأمر السلبي هو أن تحتفظ بعقلك وأنت بعيد عن العائلة. ولم يشأ نائل سؤاله عن أولئك الأصدقاء أو قصده بالطيور.

هيئته لا تنبئ على أنه بخير، لكن كل شيء في مظهره يوحي بأنه لم يعد مرادا القديم. أسدل على عينيه ستارا من زجاج، غيب مشاعره الفياضة، وأصبحت روحه تشبه المدفن. يلمح فيه فقط بقايا إنسان، عرفه متوهجا بالحياة ذات يوم. وقبل أن يواصل نائل حديثه معه قال له بعجلة: أنا اعتذر، هناك موعد

قريب، وعليّ الانصراف، وحتى من غير أن يصافحه كالعادة مضى مراد متوجها إلى باب المحطة المنفتح على مدينة الملاهي المسماة ب"التيفولي".

الشائعة التي ظهرت بين الأصدقاء القائلة بأنه أدمن الأبيض، أي الكوكايين، كانت شائعة مؤكدة، ولاحظ ذلك من خلال مظهر الرجل. لقد تساقط الكثير من أصدقائنا بهذه الطريقة في السنوات الأخيرة، البعض مات من القهر والوحدة، والبعض انتهى إلى السجن، وآخرون هجروا البلد نحو أماكن أخرى وانقطعت أخبارهم. الناجحون قلة، والمصائر صارت تميل إلى السواد كلما تقدم الزمن. وكان الوطن يتناءى بعيدا في أفق الحروب، والهجرات، والحصار. مرأى مراد الرث دفع نائل تلك الليلة إلى الرقاد بمزاج سيئ للغاية، بدون عشاء، واحتسى قنينة نبيذ نابليون كاملة، وتخيل أنه سينتهي إلى المصير ذاته، فاعترته رعدة خضت جسده كله وسقط في نوم عاج بالكوابيس.

وصل يوم السبت بطيئا جدا.

لبس نائل أفضل ما يملك من ملابس، حلق ذقنه بتمهل، لكنه افتقد للعطور، وقرر في الأيام المقبلة شراء كولونيا رجالية لمثل هكذا مواعيد. ومن أجل أن يكون حضوره عطرا، مضى إلى سوبرماركت "ماكازين"، وتوجه برغم الخجل إلى قسم العطور الرجالية، ووقف يتملى بالقناني ذات التصاميم الفنية المدهشة، والأسعار الخيالية مقارنة بمصروفه، وراح يفكر برش بعض العطر من القناني المفتوحة التي يضعها المحل لكي يجربها الزائرون. بخ على وجهه وملابسه، ثم توجه بخطوات مترنثة في شارع المشي نحو الموعد بدون أن يكترث للقالق المتأهبة على الطيران. لم يتوقف أمام المغني القصير الذي يجاور الكنيسة، مطلقا أغانيه على المارة من دون مرافقة موسيقية، شتاء وصيفا، منذ اليوم الأول الذي شاهده فيها وحتى هذه اللحظة من بعد الظهيرة الحاملة لشيء من البرد. كما لم يجذب اهتمامه تمثال الأم التي ترضع طفلها في ذلك النصب المعلق في ساحة الرصيف القديم "التفاحة الذهبية"، واخترق الساحة

على عجل متوجها إلى مقهى كراسنابولسكي، وكانت الساعة تشير إلى الرابعة عصرا، والهواء يحمل عذوبة غير مألوفة، وألوان السماء تميل إلى الوردي، وثمة نوارس تحلق على ارتفاع شاهق، فارشة أجنحتها برخاء، وكأنها تراقب ما يجري في الشوارع وأقنية الماء.

وجدها تنتحي ركنا بعيدا عن الباب، وهي بزينة كاملة، دفعته إلى الإحساس برغبة جنسية تجاهها. تزينت له وحده، وهو ما جعله يحس برجولته وثقة أكبر في نفسه. مواعدة امرأة تضفي لونا براقا على الذكر، فكر نائل، وتفتح ثغرة في جدار اللاجدوى. والحياة ليست جميلة دون المرأة، بل هي قاسية ومتعبة. قالت له أنا سأدعوك هذه المرة. ما أن جلبت الطلب وجلست على الطاولة المقابلة له، ونزعت معطفها الوردي، وساد بينهما الصمت برهة من الزمن حتى تكلمت بهدوء واضح: استكمالا لحوارنا السابق، أتعرف لماذا انفصلت عن زوجي؟ سؤال لم يدر بذهن نائل على الأطلاق، إضافة إلى أنه لم يتذكر إذا ما ناقش معها قبلئذ موضوع طلاقها. منى تدهشه دائما، والعلاقة مع زوجها السابق لها ثقل على أفكارها كما خمّن وهو يرسم ابتسامة تواطؤ معها. كان ذلك بسبب معرض تشكيلي اسمه "تأملات في الغربة"، وهو لفنانة عراقية كردية من مدينة بعقوبة، أعتقد أنها تنحدر من إحدى القرى المحيطة بالمدينة، لديها فتاتان وشاب مراهق، أقامت المعرض في البيت العراقي الواقع قرب السوق الإسرائيلي. ليلتها ذهب "ريبوار" بمفرده إلى المعرض لأنني كنت مريضة بعض الشيء، وفضلت البقاء في البيت. كنت أعرف تلك المرأة معرفة بسيطة، رأيت لها لوحات عديدة في واحدة من المناسبات في صالة اسمها "شامبالا"، تقع قرب المكتبة المركزية، بداية شارع المشي. معرض شامبالا ضم عددا من الفنانين العراقيين الذين قدموا أنفسهم على أنهم فنانون من بلاد الرافدين، يعيشون كلهم في البلاد. كانت مهووسة بالطبيعة والألوان، وترسم بألوان مائية، صحيح أنها شفافة وجميلة لكنها رومانسية أكثر مما يجب، وكأنها لا تعيش في هذا العالم الفظ. ملابسها مميزة لكن لا تتناسب مع عمرها، تضع في أذنيها أقراطا

عجيبة التصاميم، وترتدي أحيانا عمامة مملوكية توحي وكأنها واحدة من جواري عصر الحريم. وعيناها دائما مكحلتان، تضفيان على وجهها الأسمر هيئة الساحرة الأفريقية أو البدوية، خاصة وهي تضع في رقبتها عقودا من الخرز، والزجاج، والفضة. قيل إنها تشتريها من مزادات الصيف المنتشرة في الساحات والشوارع الغاصة بالبضاعة المستعملة، في "النوربرو" و"فريدريكسبيرغ" و"أوستربرو". امرأة رومانسية بكل ما تعني الكلمة. وفي ذلك المساء الذي تم فيه افتتاح معرضها في البيت العراقي، وحضره عشرات النساء والشباب والرجال ممن عرفوا الفنانة "بسمة" سواء في الوطن أو هنا في هذا البلد، قيل أنها كانت تتصرف مثل فتاة مراهقة. أخبرتك ذات مرة عن ارتباط البيت العراقي بحدث مهم يخصني، هل تتذكر ذلك؟ قدم النبيذ والمقبلات في تلك الأمسية بكرم، وأحضرت بعض النسوة الكبة والكباب والبرياني بالمناسبة، واندمج الجميع في أحاديث جلها ينتمي إلى الماضي، إلى تلك الجنة، حسب رأي البعض، التي فقدناها. لم يسأل أحد نفسه أي جنة فقدنا ونحن وقتها بالكاد هربنا منها وأنقذنا جلودنا!!! وإذا كنا نعتبر بلدنا جنة فماذا نسمي هذه البلاد الكريمة؟ حسبما قيل لي، ظل ريبوار يحوم حولها ويتكلم معها عن اللوحات، وجمالها، وبعض الأحيان يقودها للحديث باللغة الكردية، اللغة التي نسيت "بسمة" الكثير من مفرداتها، فقد تبنت العربية لغة لها منذ زمن طويل. "بسمة لا تعرفها، هل التقيتها يوما؟ هي امرأة سمراء الوجه، طويلة، ذات ملامح دقيقة، وهي ذات صوت ناعم وأعتقد أن تلك المواصفات هي ما جذبت ريبوار وأكمل الأمسية حائما حولها".

ما أدهش نائل أن منى حتى بعد الخروج من كراسنابولسكي تابعت كلامها حول تلك الليلة بدون توقف، وبالحماس ذاته، فيما ظل نائل يصغي بهدوء وصمت، منساقا لشعور لذيذ يتمثل بمرافقتها، والاحتكاك بجسدها، وشم عطرها، وتأمل يديها الصغيرتين وهما تستكملان المشاهد لتلك الليلة الفاصلة كما وصفتها. فرح بالخروج من المقهى، وأزاح عن صدره فكرة ترقب وصول

واحد من معارفه ورؤيته وهو يجلس قرب منى. لم يزل واقعا تحت هيمنة فكرة مجتمعه وهي أن العلاقة بين رجل وامرأة ينبغي أن تظل سرية طالما لم يقدما على الخطوبة أو الزواج، لذلك رافقها مستمعا حتى لو لم يكن يعرف لماذا تتجه إلى ساحة البلدية، أو إلى أين تقوده، وما الهدف من اللقاء.

شمس صفراء ذات أشعة من النحاس الأحمر، والساعة المربعة في واجهة البرج، والعمود المستدق ينتأ من قمة المبنى، والشبابيك البارزة في الواجهة، وتلك الفخامة المتوارثة خلال مئات السنين، كلها تغري العابرين بالتريث والنظر والتأمل. وكان السواح من جنوب شرق آسيا، واليابان، وربما بينهم صينيون، يصورون كل ما تقع عليه أعينهم المفتوحة على سعتها وهي تنز دهشة من رؤية المدينة المتربعة على عنق الأرض. ولكن، إلى كل ذلك لم تلتفت منى، وظلت تسير جنب نائل مواصلة كلامها عن السبب الذي جعلها تطلّق زوجها.

مرقا من أمام بوابة "التيفولي"، وواصلا السير نحو محلة الفيستربرو، وتجاوزا الشارع الذي توجد فيه الخطوط الجوية العراقية، وقربها تلك المسلة التي تتوسط ساحة صغيرة تقع مقابل المحطة المركزية للقطارات، وكانت مهداة إلى الملك كرستيان السابع ملك الشمال، وتحيط بعمود المسلة المرمري تماثيل لنساء ورجال بدت أشبه بالقديسين، لونهم أبيض تنعكس عليهم الشمس فتضفي على المسلة وهجا يوحي بالحلم. إلى كل تلك المناظر، والمجسدات، لم تلتفت منى.

ثم انحدرا بخفة نحو زقاق صغير يمر من تحت قوس ضخم، تقوم عليه بناية لطيفة تشرف على البحيرة الشهيرة المنتصب على رأسها مرصد فلكي نادر المنظر. اعتقد نائل أنها تقوده إلى مصاطب تلك البحيرة ليجلسا جلسة رومانسية تحت ظلال الغروب القادم على صفحة المياه بخجل، وتلكؤ. لكن لا، لقد خاب توقعه وظلت منى مسحورة بتلك الليلة: إن ريبوار أسرف في الشرب، الجعة والنبيذ الأحمر والفودكا، يجلس محدقا في وجهها، أو يتمشى

مع بسمة مثل ظلها، وقد لاحظ الجميع شغفه بها. وعلى رغم تناقص الزوار فقد استمر ريبوار متابعا رحلته الشبقية المنفرشة على اللوحات. وفي ساعة متأخرة من الليل جاء المسؤول عن "البوفيه" وطلب من المتبقين في الصالة الخروج، فالوقت متأخر أكثر مما يجب. خرج الجميع إلا بسمة وريبوار، قالت بسمة للمسؤول عن البيت اذهب أنت وسنخرج ثم نغلق الباب وراءنا. عاد ريبوار عند الفجر تقريبا، مضى إلى الحمام، وتمضمض ورش بعض العطر، وكأنه حاول أن يزيل رائحتها منه، ثم سمعته يتمدد على الأريكة في الصالون وينام. تخيلت أدق التفاصيل، ومنذ تلك الليلة انكسر شيء ما بيننا. لم يعد إلى طبيعته السابقة معي، والمرأة تحس بتغيرات مثل تلك، تقرأ الذبذبات بحدس سري لا يدرك الرجال كنهه. والحلم الذي عشته بعد أيام من تلك الواقعة أكد لي بشكل قاطع أن هواجسي كانت صحيحة، رأيتهما معا في السرير، سريرنا الزوجي نفسه، كلاهما عاريان، ويندمجان بقبل وهمسات وأوضاع حميمة لها أساس واقعي، وإلا كيف تشكلت بتلك الدقة في ذلك الحلم الرهيب؟ وكنت أقف هنا في الصالون أتفرج على ما يفعلانه بمشاعر غيرة قاتلة. عرفنا بسمة منذ سنوات، صحيح أنها جذبت نظرنا بسبب طريقة لباسها وزينتها، وتلك العمامة التي تصر على ارتدائها، وعرفنا من خلال أكثر من مصدر أنها رسامة، وتكتب القصص والمذكرات، لكننا لم نطلع على حكايتها الكاملة إلا بعد حين. حالها حال معظم الأشخاص البارزين من جماعتنا سواء كانوا رجالا أو نساء، ممن تتسرب حكايتهم عن طريق أشخاص يعرفونهم، أو أصدقاء سابقين ربما امتدت صداقتهم منذ وجودهم في العراق، أو منذ عيشهم في بلد من البلدان قبل أن يصلوا إلى هنا، وكأن كل شخص منا يتحول بمر السنين إلى أسطورة يمكن قراءتها من أوجه عديدة. ألم يتحول معظمنا إلى أسطورة؟ ليث، ومراد، ونماء، وسوزان، ومعين، وكراسنابولسكي، والحديقة الملكية، وحازم الأعرج، وأبو ليلى، وأنكيدو، ومحمد خوجة، وبار الهندي، وكرستيانيا،

وغير ذلك من الأمكنة والشخصيات، كلهم تحولوا إلى أساطير في وجودنا الأرضي البعيد.

بسمة لا تشذ عن أوهامنا، تحولت في حكاياتنا إلى أسطورة. فقدت زوجها أثناء واحدة من الحروب التي شهدناها وعشناها، ولم تمض فترة طويلة حتى بدأت تفكر بالرحيل، فيوما بعد آخر يصبح العيش صعبا، خاصة لامرأة تعيل ثلاث أنفس. والحياة كما نعرف كتلة من المصادفات، بعضها يقود المرء إلى الجحيم وبعضها يقوده إلى الجنة، وقد قادت واحدة من تلك المصادفات السيدة بسمة إلى الجنة، وجاءت عبر أخ لها خرج قبل زمن الحروب ليدرس في واحدة من الدول الاشتراكية، يعتقد أنها رومانيا، وحين أنهى دراسته حاول الحصول على عمل في الجزائر لكنه لم يلبث فيها سوى سنة، سافر بعدها إلى هنا ليحل لاجئا مثلنا في العاصمة. وفي أول اتصال معها طلب منها الخروج من الحفرة، وسيتكفل هو بالبقية. تلك الفترة تحول طريق الحرير للعراقيين إلى عمّان، قال لها حاولي الوصول إلى عمان بأي ثمن كان. باعت بسمة ذهبها، وأثاث بيتها، وشبابيك البيت وأبوابه بحجة الحصار الذي فرضته الدول العظمى وخنق البلد كما تخنق يد غليظة رقبة طفل صغير، واستدانت كميات إضافية من النقود، ونظمت وكالة عامة لأختها بكل ما تملك، البيت وقطعة الأرض الزراعية الصغيرة إرث زوجها، ثم عبرت الصحراء إلى الأردن، مغامرة بكل شيء حتى حياتها وحياة أولادها. حين استقرت في الأردن أرسل لها أخوها "فاخر" نقودا إضافية لإقامتها، وأخبرها في التليفون أنه سيرسل لها فيزا دخول إلى القاهرة. وهذا ما تم بعد أسابيع، عاشتها وسط لجة من الكوابيس والقلق والأرق، فشل المحاولة سيعيدها حتما إلى العراق، ولا شيء مضمونا في مسيرة المغتربين. وقتها تحولت عمّان إلى سوق مربد للعراقيين: مثقفون، غجر، تجار، رجال مخابرات، ومغامرون. أرسل شقيقها "فاخر" زوجته "سنية" إلى القاهرة، وهي من لاحقت قضية الحصول على الفيزا في الدوائر المصرية، منفقة مبالغ طائلة لتحقيق الهدف. وفي تلك الفترة، فترة الحصار، كان الحصول على فيزا

مصرية أمرا شبه مستحيل على العراقيين، لكن النقود تصنع المعجزات. ركبت بسمة الباخرة من ميناء العقبة إلى ميناء "نويبع" المصري، وتصف تلك اللحظات بنبرة من الحزن في كتابها الصغير الذي أطلقت عليه اسم "بريق الذكريات"، وتكفل أخوها فاخر بطبعه بعد أن اقتنى مطبعة صغيرة تقع في شارع نوربرو قريبا من حانة جمهورية الموز، هي أول مطبعة يمتلكها واحد منا: "كنت خائفة لحد الموت عندما وقفت أمام الضابط المسؤول عن تأشيرة الجوازات، وقد لاحقني بالأسئلة مرددا كل مرة كيف وصلتم إلى هنا؟ ومن أعطاكم تأشيرة الدخول إلى مصر؟ وهل أرسلتم في مهمة ما؟ وقادونا إلى غرفة قذرة خارج البناية، ليتأكدوا من أن الفيزا لم تكن مزورة. وبدا الخوف يغلي في دواخلنا، وران علينا صمت أخرس. كيف سيكون مصيرنا فيما لو أرجعونا إلى الأردن، ومن هناك إلى العراق؟ بعد ساعات من الرعب أدخلونا إلى الضابط مرة أخرى، وسمعته يقول أهلا بكم في مصر، أنتم ضيوفنا، وكانت تلك اللحظة هي الولادة الثانية لي. ومن هناك امتد طريق الحرير إلى أرض الجزر السعيدة".

وعاشت بسمة في هذا البلد كما لو أنها تسترد عافيتها الأنثوية مرة أخرى، فقررت العيش بطريقتها بدون قيود، سواء في حياتها، أو في فنها. صحيح أنها وقعت في أزمات شخصية كما أشيع بيننا، وراجعت أطباء نفسيين، ومرت عليها أشهر من اليأس والسوداوية حيث طبختها الغربة بمياه الماضي، وكادت أن تنهار، لكنها في النهاية غادرت البئر، وشع ضوء ذهبي في أفق حياتها، إذ وجدت في الألوان أفضل طبيب لروحها، حتى استحال حبها للرسم إلى هوس. حولت بيتها إلى مرسم، وكانت ذاكرتها بحرا تغترف منه الألوان، والمشاهد ذات المواضيع الحلمية، مما شكل عتبة الخلاص لروحها. لوحاتها في معرض شامبالا جذبت لها الأنظار بقوة من متابعي الفن والمثقفين المحليين وقدمت كنموذج باهر للأجانب. منى ونائل قد يجهلان تلك الخلفية المؤطرة لصورة الفنانة بسمة، كونهما ليسا جزءا من الدائرة المحيطة بها.

في ذلك النهار المشمس الذي حول الشوارع إلى كرنفالات لونية، والبحيرات القريبة إلى مربعات زجاجية تعكس الأشعة، وتجلب الراحة بعد شتاء ثقيل، ظل نائل منقادا لخطوات منى من غير أن يجرؤ على سؤالها عن الوجهة التي يقصدانها. في الحقيقة لم يكن يعي السبب الكامن وراء حديث منى عن زوجها، أو عن الرسامة بسمة التي لم يرها في حياته، حتى انتهيا إلى بناية تقع في زقاق قصير، ثم صعدا منه إلى درج. سيرافقها حتى النهاية، فكر وهو يبحر في شعرها الراقص على رقبتها العاجية، وخفتها المستوحاة من حداثة مكتسبة تجاوزت الأطر البائدة. ثم وقفت منى أمام باب خشبي ضيق في الطابق الأول، فتحته بسرعة وقالت له بثقة، "تفضل هذا هو بيتي". قادته عبر موزع مربع إلى الصالون، ثم طلبت منه الجلوس على أريكة طويلة تقع على يسار الباب.

"سأعد لك الشاي، على الطريقة العراقية، تعودت على شراء الورق من محال العرب في منطقة "استد كاذا". المحل الأفغاني. مهما غربنا، ومهما شرقنا، لا نحب الشاي إلا بالطريقة العراقية"، قالت منى ضاحكة وهي تتجه إلى المطبخ. لم يعد نائل قادرا على تخمين ما يدور في ذهنها، وظن أن منى ستأتي لتجلس جنبه على الأريكة، وهذا فقط ما يمهد له الطريق إلى الاقتراب منها. عسى أن تكون قد نسيت غريمتها بسمة. وربما ستجلب، كعادة النساء هنا، ألبوما من الصور لتريه تاريخ حياتها عبر لقطات ملونة لحفلات، وأعياد ميلاد، وسفرات قامت بها قبل أن تتعرف عليه، لكن الصمت ظل ثقيلا متوترا بينهما، وزاد منه إقدامها على الجلوس قبالته على كرسي عال بدت فيه وكأنها ملكة تنظر إلى رعاياها.

شربا الشاي الثقيل بصمت، وهذا ما أربكه كثيرا، ولم يعد يعرف كيف يتصرف، بل ولم يعد يجد موضوعا للحديث. نفذ من عجينة الصمت عبر نافذة التطلع في الأثاث العتيق، والصور الملصقة على الحيطان وكانت واحدة منها لملوية سامراء، التي بدت شبيهة جدا لبرج "كنيسة كرستيانيا". "أفكر

بالسفر". قالت وهي تنتصب وسط الكرسي بسمات جادة على وجهها، وظل نائل صامتا يمص سيجارته بقلق منتظرا ما تفكر به منى وتفضيه ببطء، "هل تفكر أنت بالسفر من هذه البلاد؟" "أين يمضي الشخص، البلدان غريبة جميعها ما دام الانسان خارج وطنه". التقط الإجابة من رأسه بدون تمحيص، ومن دون أن يدرك سبب سؤالها المفاجئ. مغامرة غير مألوفة للذهن الشرقي، أفكر أن أشتغل في سفينة تجارية، قرأت إعلانا عن حاجة إحدى الشركات إلى عاملات يشتغلن في المطبخ على متن سفينة تستغرق رحلتها عدة أشهر. تخيل أنك ستزور جزر الباهاما، وموانئ برشلونة، ومدن الكاريبي، وتمتع نظرك بأضواء هامبورغ، وترى غابات أفريقيا. تخيل نفسك واقفا على سطح السفينة وقت الغروب والشمس تختفي رويدا رويدا في صفحة المحيط. تخيل المساءات الذهبية، وقطيع الحيتان تنفث الماء نحو فضاء ساحر غير محدود. تخيل نفسك وأنت تقف تحت سماء عارية في ليلة مظلمة لا يعكر هدوءها سوى صوت السفينة وهي تشق عباب الماء، وفوقك تتلاهث، وتتغامز، وتبتسم، نجوم بعيدة تنتمي إلى مجرات تسبح عارية على حافة الكون، وفوق كل ذلك لا تقدم حسابا لأحد. هل تمتلك الشجاعة على مرافقتي؟ تساءلت ضاحكة بين الجد والهزل في نهاية حديثها.

ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه نائل، وامتلأ رأسه بدهشة المفاجأة. فسّرت منى ابتسامة نائل الخفيفة على أنها سخرية من أحلامها غير الواقعية، وهو يجلس أمامها كأنه تمثال من البرونز. إلا أن عقله لبث لاصقا في مكان آخر، في كتلة من التساؤلات. لماذا جلبته إلى بيتها، هل دار في روعها أنها تخطط لكي تقوده إلى الفراش؟ وهل ينبغي عليه أن يقوم بالخطوة الأولى؟ لا تتطلب القضية سوى المبادرة، أي النهوض من الأريكة والتقدم نحوها ثم معانقتها وجعلها تحس أنه راغب فيها. لكن ماذا لو كانت غير راغبة؟ أو لو صدته بعنف؟ المشكلة أنه يؤمن بالفعل بدون مقدمات، لم يمتلك القدرة يوما على تمهيد الطريق نحو قلب المرأة وجسدها بالكلمات، كما يفعل عامة الرجال، لم يألف

التعامل مع المرأة بلحظة كهذه، لحظة التوتر بين الذكر والأنثى، لحظة بروز شخصية المرء أثناء احتكاك الحواف بين كيانين، كما لو أنه ينتظر المبادرة منها، وها هو الموقف يقوده إلى الشلل، الشلل الروحي والجسدي، فظل صامتا، مترددا والتردد أبرز صفة من صفات نائل بين معارفه، وظلت تلك الابتسامة البلهاء متجمدة على شفتيه. لم يلامسها، لم يتغزل بشعرها ووجهها وعينيها، لم يعلق اعجابا بطريقة لبسها، ولا تصفيفة شعرها، ما الذي يريده منها إذن؟

ضوء الصالون أصبح أكثر تألقا، مما يدل على أن الليل قد حل على المدينة، واختفى المساء الذهبي من شوارعها وتماثيلها، ولم يكن ثمة هدف محدد من الجلوس وملء الفراغ بالمجسمات. وفي وسط هذا التوتر غير المحسوس سمع نائل قرقعة خفيفة في الباب الخارجي مما حمله إلى الاستدارة بذعر. قالت له منى بصوت هادئ: إنه ريبوار، زوجي السابق. صوت وجده نائل لا يتناسب مع حراجة الموقف، رجل يجلس منفردا مع زوجة رجل آخر في البيت نفسه، وبرغم أن ريبوار دخل بهدوء إلى غرفة ثانية ولم يلق عليهما التحية، إلا أنه أحس وكأن في الموقف كله رائحة غير محببة، وشعر بالرعب، ماذا لو هجم عليه بغتة؟ الغيرة تشبه نارا حامية تحرق كل ما حولها. ولم تجلس منى هادئة وكأن شيئا لم يكن؟ الهدف الذي كان يهجس به في الانفراد بها صار بعيدا، بل مستحيلا، خاصة وأن الصمت أحكم ستاره عليهما، وتفادى نائل حتى النظر إلى منى، وقرر الانسحاب سريعا. وضعته منى في موقف لن ينساه، موقف أدخله في دوامة من الشك والريبة، وتساءل مع نفسه عما تريده بالضبط. كان موقفا فيه ضياع وغرابة، لكنه سيمضي بالشوط حتى نهايته، هذا ما كان يفكر به وهو يستقل الباص من أمام المحطة الرئيسية عائدا إلى بيته. الموقف من وجوه عديدة يدخل المرء في دوامة الأسئلة، وظل نائل طوال الليل يقرأ اللحظات السابقة، يعيدها مرة بعد مرة مثل شريط سينمائي، وفشل في الوصول إلى استنتاج مقنع.

خرجا معا لاحقا إلى حديقة "فيليباركن"، وجلسا على مصطبة خشبية يحتسيان البيرة ويثرثران، بالأحرى هي التي دأبت على مواصلة الحديث حول كل ما يخطر على بالها، أحوال العراقيين في البلد والوطن، وصعوبة الحياة اليومية في المدينة، وأحس في لحظة ما أنها تدعوه كي يقترب من شفتيها، لكنه لم يفعل. تسكعا ذات نهار مشمس على الميناء، وراقبا السفن العابرة نحو البلدان البعيدة. يتخيلها واقفة على السطح، تراقب الأمواج، والآفاق المتحولة إلى خط يربط السماء بالبحر. مرة رافقها إلى منطقة كرستيانيا، وتبادر إلى ذهنه أنها رأتها من قبل أكثر من مرة، إذ لاحظ ألفتها للدروب والأبنية، وقضيا أمسية خرافية في التسكع بين المحال التي تعرض البضاعة النسائية، والمطاعم الشرقية، وراقبا النجوم وهي تزين السماء المتعالية بعيدا فوق ذرى الأشجار، وأنصتا إلى صوت البط البري في البحيرة بخشوع لا هدف له. ولم يعودا ثانية إلى أي مقهى من مقاهي المدينة، وذلك خوف الألسن المترصدة لأي حدث غريب. وأثناء مرور الزمن بطيئا متشابها، أخبره مدير المدرسة "ستين" أن أمامه ثلاثة شهور فقط لترك العمل، حسب القوانين، بدون أن يوضح له سبب الاستغناء عن خدماته، إلا أن نائلاً حدس بالأسباب، وتوقع نهاية مثل تلك. يدرك جيدا أنه فقد الاهتمام بتنظيف الممرات والغرف كما يجب، وكثرت عطله بأعذار واهية، علاقته مع طاقم التدريس أصبحت باردة، عرفوا أنه يتسلل إلى مشروباتهم في الثلاجة، بل كان يتحاشى الاختلاط بهم كالسابق. استهلاكه لبيرة المدرسة صار ملحوظا، بعد أن وجد أنها تساعده على قضاء الوقت بسرعة، وتسهّل له الهروب من روتين الأيام المتشابهة في حياته، وصار يحن إلى الكسل، ليتناغم وقته مع وقت أقرانه من العاطلين، ولم يجد الأمر سيئا.

٢١

في الجانب الآخر، ومنذ نهاية الصيف، وبداية الخريف، دأبت "ميتا" صديقة كمال الشاعر، على توفير كل ما يرسخ هيمنتها عليه، لإبقائه تحت سلطة قبضتها العاطفية. تأكد لنا أنها نقلته من الجزيرة الثالثة حيث كان يقطن مع إنكا، إلى الجزيرة الأولى، أي الجزيرة التي تقع بها العاصمة. تم لها ذلك بعد لقائهما في تلك الليلة بمشرب "جمهورية الموز"، وأفردت له مكتبا صغيرا في غرفة فائضة لديها، وضع فيها كمال كتبه، وطابعته العربية، ومسجله الضخم مع الأشرطة الغنائية التي داوم على سماعها، ووفرت له جو الكتابة والعزلة. وافقت على اقتراحه في تخصيص يوم من كل شهر تفتح فيه أبواب بيتها لعقد ملتقى مسائي لأصدقائه، المهتمين بالثقافة والفكر والقراءة والمواهب الأدبية الواعدة، حيث كانت تقدم القهوة والشاي والبسكويت على حسابها الخاص، وأتاحت لمن يعزم على تناول الخمور جلب ما يرغب في احتسائه. كل ذلك من أجل الاحتفاظ بكمال الشاعر، الذي يصغرها عمرا، وفيه شيء كثير من "الأنكيدوية" حسب ذوقها. وجود كمال اليومي معها يخدم عملها كباحثة اجتماعية، وموجهة في مكتب مساعدة اللاجئين، عبره تصل إلى حقيقة ما يفكر به هؤلاء، ودوافع تصرفاتهم في هذا المجتمع، والخلفيات العميقة لتكوينهم النفسي. محظوظة لوقوع هذه العينّة الفريدة، المتعلمة، تحت أشعة مجهرها الفاحص، المغامر، في النفاذ حتى أدق التفاصيل من رأسه، وأعمق الأغوار في الروح البشرية القادمة من هناك، من الصحراء، والحروب، والأمراض، وحقول البترول المحاطة بجمال ترعى وذئاب تعوي على الهواء، والزوجات الأربع الخانعات، والتوجه في الصلاة إلى الكعبة المقدسة. فارق العمر لعب دورا ملموسا في تمسكها به، وحرصها على قرينها. وهي عاقر ولا تطمح في تبني طفل كما تفعل معظم النساء العواقر. حتى أنها راحت ترتدي نظارة للقراءة أضفت

عليها عمرا أكبر. وهكذا نمط من العلاقات قلما يحدث هنا، فعادة ما يكون عمر الصديقين، أو الزوجين، متقاربا، أي من الجيل نفسه.

وكان لوجود غرفة خاصة به، قد وفر لكمال فرصة ذهبية للقراءة في ما يتوفر بين يديه من كتب وجرائد ومجلات عربية، إضافة إلى كتابة الشعر والقصص والرواية في الوقت ذاته. وأمدته بخلوة ذهبية لسماع الأغاني العربية، والعراقية منها خاصة، وهي المرجل المتأجج الذي يطبخ فيه قصائده، وحكاياته التي تتحول لاحقا إلى نصوص. يضع قنينة من النبيذ على طاولته، مع كأس زجاجي شفاف عليه نقشة لغزالة راكضة، ثم يبدأ بالكتابة مستمعا إلى فيروز ونصري شمس الدين وأم كلثوم ويوسف عمر وناظم الغزالي وياس خضر وزهور حسين. أجواء مثالية لم يكن ليحلم بها لو بقي في مدينته المهملة على الخارطة. ومن ذلك المصهر خرجت مجموعته الشعرية "قناع محمد إقبال"، صممها وطبعها له صاحب مطبعة قوس قزح "فاخر" بأبعاد غير مألوفة. عمد كمال إلى كتابة الديوان بخط يده، وهو يمتلك موهبة إعجازية بالخط، وتم طبع الكتاب بالمحافظة على الأصول المكتوبة بحبر أسود، وكانت الأبعاد تقارب الخمسين سنتيمترا طولا وثلاثين سنتيمترا عرضا، وهي واحدة من أفكار كمال في التميز واللا مألوف لإدهاش الوسط الثقافي، فيما كان الغلاف بورق سميك لونه أحمر ولا يحمل أي زخارف. طار الديوان بالبريد إلى كثير من دول العالم، ليقع بين يدي شعراء ونقاد وأساتذة جامعيين وإعلاميين، برغم أن الصحافة العربية تجاهلته تماما، فلم تكتب عنه أية مراجعة نقدية. وعند انتهائه من إصدار الديوان بدأ بتدوين رؤوس أقلام لروايته ومشاهد وأفكار تراجع التاريخ منذ نزول الرسالة المحمدية وحتى ثورة عبد الكريم قاسم التي قضت على الملكية، وأطلق عليها مسبقا عنوان "الوديعة". وقد كرس ليلة من ليالي الصالون لقراءة بعض القصائد، بإلقاء مؤثر نال إعجاب الجميع، والحديث عن الظروف التي أحاطت بكتابة الديوان، ودلالة العنوان الذي يشي بتغلغل روح الشاعر محمد إقبال، ومسحة التصوف المبثوثة في تضاعيف

القصائد. وكان الحضور في تلك الأمسية قد تجاوز العشرين، وهو رقم عد ناجحا وواعدا. وكان أول مطبوع يصدر لواحد من الجيل الأول من المهاجرين العرب ممن عاش في ربوع جنة البلد. وتحدث الجميع بعد تلك الأمسية بغرابة الديوان، والشعر الصوفي، ومقدرة كمال على الفرادة في كتابة هذا النمط الشعري بعد أن هجر العمود نهائيا. الوحيد من الحضور الذي أبدى امتعاضه من الديوان هو منافسه الشاعر "فريد نافع"، وقد وجّه نقده إلى شعر التصوف واعتبره هروبا من الحياة المعاصرة، وإغماض عين عما تعيشه البشرية من مآس، وعد قصيدة النثر استنساخا فجا للشعر المترجم، مما أزعج كمال كثيرا لكنه فضّل السكوت على المواجهة. يعرف أن غريمه، شاعر العمود، سليط اللسان ولا ينوي هو الوقوع تحت سطوة أنيابه الحادة، خاصة وهو ينوء أكثر من أيما وقت سابق تحت هيمنة أزمته الوجودية كإنسان. وعرّج البعض في تلك الأمسية على قصصه الغريبة التي كان ينشرها في المجلات والصحف، بعد أن صارت الكتابة والقراءة لديه طقسا يوميا. وحين لا تجد ما تفعله في الواقع فعليك بكتابة الأدب، الحكمة التي اختبرها جيدا، وكانت ميتا راضية عن كل ذلك، يمل من طقس الكتابة والقراءة، وتستهلكه الأغاني عاطفيا، وتستنزفه ذهنيا، فيبادر إلى دخول المطبخ وتهيئة وجبة شرقية تجدها ميتا ساخنة، وجاهزة، ما أن تعود من العمل. طبخ الرز على الطريقة الشرقية ينال إعجابها، كذلك أصناف المرق الذي ينوّعه بين الباميا، والباذنجان، والفاصولياء. بعض الأكلات لم تعجبها، تعتقد أنها تميل إلى البربرية، والفقر الغذائي، مثل مقادم الخروف ورأسه، أو الباقلاء المقلية بالزيت مع البيض، ودأب كمال على تناولها صباحا، مرتين في الأسبوع على الأقل. وكان إذا ما سكر، وأنهك نفسيا، ونضب من الداخل، يستلقي على سرير صغير ممدد على الأرض، في غرفة المكتب، فينام ليلته هناك بدون أي اعتراض من ميتا. ولأنه يحمل عقلا حضاريا، لا يميز بين المرأة والرجل، كان يساعدها في غسيل الصحون، وحمل الملابس إلى الغسالات الأوتوماتيكية التي تبعد مئتي متر عن البيت، ويجز العشب في

الحديقة بآلة صغيرة من غير أن يعاني من التعب، فأبعاد الحديقة لا تتجاوز الخمسة أمتار في عشرة، وكانت مسيجة بشجيرات من الدفلى وتنتصب قرب الشباك العريض المطل على الحديقة شجرة كرز صغيرة. ذلك الشباك كان مرصدا يطل على السماء في الفصول كلها، وذكّره بشباك "إنكا" الذي تلاشى من ذاكرته كأنه سراب. ولطالما تابع من جلسته هطول الثلج في الشتاء، ونبوغ الغصينات في الشجر عند الربيع، وسفر الغيوم نحو جهات الأرض أيام الصيف المضيئة، حيث يستعيد عبر تلك الغيوم أشكالا رآها ذات مرة وجلبت له الحزن تارة والفرح تارة أخرى. وفي لحظات تجليه يتوه عقله بحركاتها المتراكضة وهي تندمج معا، أو تفترق بجفاء، لتصنع من جديد بقعا زرقاً لسماء تضيئها أشعة شمس ناعمة.

غيوم رمادية دائما، غيوم بيض أحيانا، ولطالما تاق إلى أن يتحول إلى غيمة. توقه الذي لم يستطع تجاهله، ولازمه منذ أن كان في تلك "الجزيرة". وتحت تلك الشجرة، شجرة الكرز اليتيمة، كانا يحتفظان بوعاء حديدي للشوي، وهذا ما زين له دعوة أصدقائه صيفا للجلوس في الحديقة، وشي اللحم، وتناول النبيذ والبيرة، والحديث عن شؤون الجالية وأخبارهم، وما تجلبه الريح من حوادث الوطن البعيد. يستغرقون وقت الجلسة بالحديث عن الشعر العمودي والحر وشعر النثر، وآخر أخبار الروايات، والكتّاب، والمهرجانات، والقوانين الجديدة التي تخص الأجانب. تلك الجلسات ظلت لشهور عديدة متنفس كمال الوحيد في الاختلاط مع أصدقائه، وأقرانه، بعد أن هجر عادة الجلوس في المقاهي، أو السهر في البارات والحانات والمراقص. طبّق قراره في تكريس حياته للكتابة والقراءة بحذافيره، ووضع أمامه كبار الكتاب مثالا يحتذيه. فالكتابة بجانب من جوانبها تصوف واع، يتسامى فيه الفرد على صغائر الأمور، وهي في الوقت ذاته دواء ناجع للعبث اليومي، وفكرة الموت الخالدة، والعجز البشري أمام البؤس، والفراغ، واليأس. وتنشغل ميتا بقراءة كتاب في الصالون، أو تجلس لمشاهدة فيلم على القناة المحلية، أو تتحدث في التليفون مع أختها

وصديقاتها في العمل، تاركة لكمال فسحة للعزلة الابداعية. تسمعه ينقر على الآلة الكاتبة بدون توقف بحماس يقترب من الجنون، أو تسمعه يلقي شعرا بلغة لا تفهمها، عندها يتخذ صوته نبرة رثائية حزينة، أو نبرة حماس لا تدرك مصدره. حزن ينبعث من غابات مظلمة سحيقة الغور، حزن لا ينتمي إلى هذه الأرض. حزن له رائحة الطفولة، وشمس الظهيرات الحارقات، والمآتم، والحروب. يجعلها تتفجر بعاطفة أمومة ملتبسة، لها رائحة الغابات والبراري، والأماسي العذبة التي تلفّع التلال والكهوف. تتخيل أحيانا لوعة أمه، وأشواق أخواته، وذكريات طفولته، حينها لا تمتلك سوى دموعها، تطبق الكتاب وتمتص صوته مثل أرض عطشى.

صالون الاستقبال فرشته على الطريقة العربية، بحشايا ممتدة على طول الجدران، وضعت في الوسط منها طاولة واطئة ثبتت عليها أصص من نبتة الصبار، تصطف حولها أوعية الشاي والقهوة عند انعقاد الجلسات. كما لم تنس أعواد البخور الشرقي حيث اشترته من محال العرب، وفي كل ذلك تريد أن تذكّر كمال بالجلسة العربية التقليدية كي لا يشتاق إليها، وسمحت له بدعوة أي كان إلى الصالون الأدبي، كما أطلقا عليه، بينما زينت جدران الصالون بلوحات رخيصة لفنانين غير معروفين، دأبت على شرائها من أسواق البضاعة المستعملة، مما أضفى على الصالون مسحة ثقافية لا تخطئها العين. إلى ذلك الصالون حضرت منى ونائل مساء واحد من السبوتات الخريفية بمزاج مشرق، فهي المرة الأولى التي يزوران فيها المنتدى. رحب بهما كمال وميتا ترحيبا حارا، وكانت الجلسة، حسب ما أخبرهما كمال، حول لغة المهاجرين وحياتهم، سواء من الجيل الأول أو من الجيل الثاني، وسيتكفل بإلقائها المخرج المسرحي علي الشمري. فهو الأقدر من بين الجميع على إلقاء الضوء على موضوع حساس يهم الجميع، كونه الأقدم إقامة في هذا البلد، وتقلب في العمل بين الترجمة، والإخراج، والعمل بإذاعة العاصمة العربية، ويعد خبيرا بالاندماج مع المجتمع، وخبيرا بخبايا أبناء الجالية ومشاكلهم وأحلامهم. المسجل الموضوع على

"كومدينو" عال، كان يعزف مقطوعة موسيقية ناعمة للموسيقار الروسي "دميتري شوستاكوفيتش"، وقد أضفت غلالة أدبية وفنية على الصالون، وكمال يحب موسيقا هذا الفنان كونه حمل روحاً معارضة للأجواء الخانقة التي أشاعها "ستالين" بين النخبة المثقفة.

ولم تخل الأمسية من مفاجآت، إذ استدرك كمال بعد افتتاح الجلسة قائلا: قبل أن ندخل في مساحة الجد سيغني لنا "أفنان باباخان" وصلة ليوسف عمر، مغني بغداد وموالاتها التراثية والشعبية التي تذكرنا بمقاهي دجلة، وخانات شارع الرشيد، وليالي الصفاء القديمة إذ تتراءى خلفنا مثل شبح. وهنا نهض رجل صغير الحجم، أنيق الهيئة، ناعم البشرة، وعرض نفسه على الحضور، ثم جلس متجمعا على نفسه، واضعا كفه على صدغه ثم صاح بصوت رخيم: "صرمت حبالك بعد وصلك زينب/ والحب فيه تصرم وتقلب". اعتاد أفنان على الغناء في معظم الفعاليات التي تقيمها الجالية، وتخصص بأداء الأغاني التراثية وهو ما خلق له شعبية واسعة. ولرخامة الصوت، وتقمص أفنان وقع الكلمات ومعانيها، وجلال الحزن في مضامين الشعر، والبحة الحزينة في نبراته، أنصت الحاضرون مذهولين، بل وشاركوه في الوصلة التي أنهى بها الأغنية، وانطلقت عقبها الآهات والزفرات من حرارة ذلك الماضي الذي جلبته الأغنية. والمعروف أن معظم الحضور متعلق بذلك الحيز النائي لطفولته وشبابه، هناك حيث تنحصر الذاكرة بكل ما هو جميل.

وحين انتهى "أفنان" من أغنيته فاجأهم كمال بورقة يحملها وهو واقف جنب الباب قائلا: سأقرأ لكم مقطعا صغيرا من رواية أعمل عليها اسمها "الوديعة"، وجاء المقطع ليذكّر الموجودين بتاريخ نزول الدعوة الاسلامية، والصراع الذي دار خلالها في صلب الدعوة. وفهموا أن الوديعة تميمة سحرية رامزة، إلى السلطة، السلطة على مر الزمن. السلطة وهي تصنع المشاحنات والحروب والاغتيالات أينما وجدت. ولم تلاق الورقة، على قصرها، حماسا من

الحاضرين، فلم يكن الجميع يحب قراءة الرواية، ولا تستهويهم خوارق الأدب، إضافة إلى أن "إعادة كتابة التاريخ الرسمي يدخل البشر بصراعات جديدة لا طائل من ورائها" كما عبر عن ذلك واحد من الحاضرين. وبعد لحظة هدوء جاء دور علي الشمري ليلقي محاضرته. جالسا على حشية من الصوف، بصوته الأجش الممسرح دخل الشمري في لب الموضوع دون مقدمات: " تتآكل لدى الجيل الأول من المغتربين العرب لغتهم الأم، سنة بعد سنة، لتصبح اللغة التي يتخاطبون بها فيما بينهم خليطا غريبا من اللغة الأم ولغة البلد الذي يعيشون فيه، حيث تدخل المصطلحات العلمية في لغة التخاطب بسهولة، كونها الأقرب إلى ذاكرة المرء. جربت ذلك بنفسي. وكذلك أسماء الأمكنة والألبسة والساحات، ومن ثم بعدها القوانين الجديدة التي تخص تفاصيل الحياة اليومية لما لها من علاقة بمدارس الأطفال، والعمل، والدراسة، والسكن، وغير ذلك من قرارات ومتغيرات لها ارتباط بتغيّر الحكومات إثر كل انتخاب. والتخاطب باللغة الأم عادة ما يستمر بين الزوج والزوجة في البيت، وبين هؤلاء والأصدقاء القدامى من الجيل الأول من المغتربين. وهذا الجيل يستمر باستخدام اللغة الأم مع أبنائه لفترات طويلة، إلى أن يبلغ الجيل الثاني سن الرشد ويدخل في غمار الحياة العملية، وليكون، بطريقة أو أخرى، أول جيل مؤهل للذوبان النسبي في المجتمعات الجديدة".

صمت الجميع، وهم نساء ورجال، كانوا مهتمين بالمعرفة والثقافة، وكفوا عن الثرثرة فيما بينهم، وفتحوا آذانهم جيدا للمحاضر، وهم يعرفون جزءا كبيرا من شخصه وحياته ومنجزه كمخرج، ولم يعد هناك سوى نفثات الدخان والأنفاس المترقبة وهي تندغم مع الأفكار صعودا ونزولا، وكأن الجميع ينتظر ضوءا هاديا يدلهم على الطريق في عتمة المنفى. كان ناجحا في تحويل هواجسهم وأفكارهم وحنينهم إلى كلمات لها معنى، والعيون تنظر لعلي بإعجاب، وثبات يوحي له بالمتابعة والفهم، فاستفاض بمحاضرته قائلا: " الجيل الأول الذي جاء من بلدان بعيدة مثل العراق، ولبنان، وسوريا، وفلسطين، وتونس،

والمغرب، وتركيا وإيران، وغيرها من الأصقاع والأقاليم، يظل منشطرا طوال حياته بين حضارتين ولغتين، فهو لا يستطيع تجاهل ذلك النداء البعيد. نداؤه الداخلي المتحدر من بيئته الشرقية وعاداتها ومآكلها ومناسباتها، ولغتها ولهجاتها. فهو يظل متمسكا بالأكلات التي تربّى عليها، ويشاهد القنوات الفضائية التي تربطه بمسلسلات عربية وأغانٍ واحتفالات وريبورتاجات عن الحياة اليومية في بلدانهم. يمكن القول ثمة ثقل روحي يشده إلى الأفق البعيد. ألا تلاحظونهم في الليل وهم يديرون عيونهم نحو الشرق؟ يتقرّون النجوم البعيدة المعلقة بخيوط عنكبوتية على حافة الأفق؟ هل يمكن لأحد منا نسيان طفولته البشرية؟ المهاجر البائس، الفرد القادم إلى الجنة، الكائن المقتلع من قريته ومدينته وبلده وطقوسه وأساطيره، ويوصي حين يموت ألا يدفن في بلد الاغتراب، بل في بلده الأم. الأرض التي هاجر اليها يعدها غريبة، باردة، ولا تستحق الدفن فيها، بل ويمتلئ بالرعب من فكرة النوم الأبدي فيها، يفكر بحياته الثانية ما بعد الموت بالتأكيد. لا يمكن لشخص أن يقنعني أنك لم تولد هنا ثم تستطيع اتقان لغة هذا المكان. تلك خرافة. ولذلك يجاهد في صنع وطن مصغر ضمن الجالية التي يعيش في نسيجها. يقدم له الوطن المصغر، المصاغ من أوهام وأحلام، عزاء روحيا، ويرفده بتوازن يفتقده في مجرى الاحتكاك اليومي مع المجتمع الجديد الذي يختلف عنه في اللغة، والدين، والعادات، والثقافة. هذه هي "القطيعية" بعينها. لا تعنيه جنة "فالهالا" بنقانقها الخرافية، وثمارها الدانية المتجددة، ولا حكايات هانس كرستيان أندرسن عن الملك العاري وعروس البحر وحبة البازلاء، ولا طقوس حرق الساحرات في أماسي الصيف الباردة. وبطريقة ما، يعتقد أن الحياة الحقيقية هي هناك، في البلد الذي جاء منه. أفضل مثال على ذلك صديقنا كمال ". نظر علي إلى كمال الجالس جنب ميتا، قريبا من باب الصالون، ثم ابتسم ملوحا بيديه قائلا: كمال يتناول الباقلاء مع البيض في هذه الجزيرة صباحا، والباقلاء كما نعرف يقدمونها هنا طعاما للبقر والخراف والأحصنة، فكيف يستقيم الأمر؟ إن أردت

أن تنتمي جوهريا إلى هذا المكان عليك بتناول الجبنة والزبدة والمربى والبيض المقلي و"البيكون" صباحا، أو ربما نقول "كورنفليكس" مع الحليب، أما أنك تريد أن تعيش في الجنة وتأكل رأس الخروف والباقلاء المقلية، فأمر لا يستقيم مع روح البلد. ثم رجع علي إلى ورقته وبدأ يقرأ بصوت جهوري استعراضي رتيب: " هناك بيننا شريحة واسعة من المتعلمين. وكانوا قراء جيدين ومتابعين لما يجري في بلدانهم، أما عن طريق الصحف العربية أو الكتب، لكن الواقع الجديد الذي وجدوا أنفسهم فيه لم يعد يسمح بهكذا متع. فالكتب العربية غير متوافرة في السوق، والحصول عليها يتطلب بذل أموال طائلة قد تخرج عن طاقة الفرد ودخله المحدود، وكذلك الصحف. فبعد أن ابتكرت الميديا الجديدة وراحت تنتشر في الكون أجمع، لم يعد الفرد بحاجة إلى الصحافة الورقية، خاصة في البلدان البعيدة، لذلك لا يجد المرء، إلا نادراً، صحفاً عربية، وإن توافرت فهي لم تعد متعة كما كانت قراءتها في البلد الأم. وكم واحداً منا لا يفكر بمدرسة أبنائه، والرحلة التي يقومون بها، والساعة التي يعودون منها من تلك الرحلة؟ ألا تتذكرون قول الشاعر رامبو الفرنسي، "إن مسمارا في جزمتي يعادل كل خيال غوتة". تعرفون غوتة أليس كذلك؟ هو من كتب ملحمة فاوست، فاوست الذي باع نفسه للشيطان. هذا حديث آخر. في يوم ما سنقيم ندوة تقارن فكرة غوتة، وألبسها لفاوست، عن بيع نفسه للشيطان من أجل المعرفة، وجلجامش الذي غمر كيانه بفكرة البحث عن عشبة الخلود. بعض منكم شاهد المسرحية التي أخرجتها أليس كذلك؟ جلجامش مثل فاوست، يريد أن يبقى خالدا عن طريق المعرفة، لكن الآلهة لا تسمح بذلك. احتفظت بالمعرفة الكلية والخلود لنفسها، أما البشر فكتب عليهم الموت. وتلك سنّة الحياة في كوكبنا المريض، ونظامنا الشمسي الذي يقبع في زاوية مهملة من مجرتنا درب التبانة. لقد تغير الزمن منذ أن جئنا إلى البلد في ذلك الشتاء الثلجي، ونقلتنا الحافلات إلى مخيمات اللجوء أو فنادقه أو جزره، طريق الحرير أوشك على الانقطاع. أغلب الحروب توقفت في الشرق البعيد.

أتمنى أن لا يكونوا يجهزون لجولات أخرى. الأبناء يقضون جل أوقاتهم في حضن المجتمع: في المدرسة، والشارع، والفعاليات اليومية، والسفرات، ووقوعهم تحت التأثيرات الإعلامية، أكثر بكثير من الأوقات التي يقضونها تحت هيمنة سلطة الأب والأم، بما يمثلانه من رواسب الثقافة القديمة. الجيل الثاني، وبسبب تأثيرات المدرسة والزملاء والشارع وإيقاع الحياة اليومية، لم يعد يهتم إلا بما يجري هنا في البلد، حيث يقيم، الموضات الجديدة، الأغاني، التقليعات الكلامية، الإشكالات السياسية، "كيم لارسن"، برامج "التيفولي"، حواة شارع المشي، صرعات "كرستيانيا"، أفلام سينمات "فيستر برو"، أحداث "نيوهاون"، أي الميناء الجديد القريب من المسرح الملكي" .

ولم ينِ الملل على منى ونائل فقط، بل شمل الجميع تقريبا، حتى أن البعض راح يومئ للمحاضر بإشارات واضحة تطلب فرصة قصيرة لتدخين السجائر، أو لشرب الماء، كما تصاعدت بعض الهمهمات من زوايا المجلس، لكن عليا تابع محاضرته وكأنه قد حدس بثقلها وجديتها على الحضور، وتغيرت نبرة القول من البطء إلى السرعة: الصراع الآخر، الوجودي، في حياة الجيل الثاني من المهاجرين والمغتربين واللاجئين، هو مع بقايا أسرته التي تربى في كنفها، الأم والأب بخاصة، وأصدقاء الأبوين، أي الجيل الأول، المحافظ على عاداته وتقاليده ولغته وطقوسه الدينية. صراع مع ثقافة ماضوية، إن صح الوصف لذلك التلقين الببغاوي المنصب عبر أبوين عاشا، وترعرعا، في كنف فضاء حضاري مغاير. وهذا الصراع كثيرا ما قاد إلى مآس اجتماعية وصل قسم منها إلى الصحافة. مشاكل الجيل الثاني داخل الأسرة كثيرا ما قادت الأبناء إلى الانحراف والسجن والاتجار بالممنوعات، كالمخدرات والتهريب وما إلى ذلك، كما انعكست سلبا على تماسك العائلة ذاتها. ويعتبر الجيل الثاني هو رأس الحربة إلى ثقافة الآخر، الذي لم يعد آخر، نسبيا، على أرض الواقع. وتلك واحدة من قضايا العصر التي لا يمكن تجاهلها سواء عاش الفرد في موناكو أو في جزيرة سقطرى اليمنية. لسنا أول الشعوب التي غادرت موطنها بحثا عن عشبة

الخلود، حدث الأمر منذ جلجامش الذي سافر إلى لبنان أو أرض الأحياء في برزخ "دلمون" وحتى اليوم. قالت له سيدوري لا تلبس رداء أكبر من جسدك، ليس هناك خلود لبني البشر. حين أخرجت مسرحيتي ملحمة جلجامش كان السؤال الذي أرقني هو ما الذي أريده من جلجامش؟ لم أخرجه للعراقيين فقط، بل لأبناء البلد كذلك، وارتسم أمامي التساؤل الكبير ألا وهو ماذا وجد ابن البلد في بطل عاش قبل أربعة آلاف سنة؟ ما هو المشترك بين المشاهد ذي العينين الزرقاوين وبين ملك أوروك؟ كيف أقدمه على مسرح بلدان الشمال الذين بالكاد عرفوا أو سمعوا على الأقل بمملكة سومر؟ هل تهمهم فعلا صاحبة الحانة سيدوري؟ أو أنكيدو البطل البري؟ أتونابشتم، خمبابا حارس الغابة، الثور السماوي، أحراش الأرز، الأفعى الخالدة التي تستبدل جلدها كل عام، والعذراوات اللواتي اغتصبهن ملك أوروك جلجامش الذي ثلثه بشر وثلثاه إله؟ تلك أسئلة تقلقني دائما.

انتهت المحاضرة بتصفيق حاد، وقامت ميتا، باعتبارها سيدة الصالون والمضيفة للنشاط، طالبة من الجميع التمتع باستراحة مدتها ربع ساعة، حيث ستستأنف النقاشات بين الأستاذ علي الشمري والحاضرين، وطلبت من الجميع تناول البسكوت وشرب القهوة أو الشاي، أو حتى المشروبات الأخرى لمن يود ذلك. ووجدها نائل ومنى فرصة سانحة للمغادرة، ثم انسلا، أثناء فوضى الخروج إلى الحمام أو تدخين السجائر، نحو الباب الخارجي، ومن هناك إلى محطة الباص.

٢٢

أمضيا الطريق في مناقشة ما جاء من "لغو وثرثرة"، حسب وصف نائل للمحاضرة، والنفاجة، والمفهومية، والتبجح لدى المحاضر حسب قناعة منى وانطباعها عن الأمسية. وكلاهما لم ينكر أن لعلي الشمري خبرة عميقة في الظروف السائدة لعيشهم في البلد أكثر من سواه. لكن ما فاجأ نائل وهما يستغرقان بمناقشة الأفكار التي جاء بها علي، وكانا يستقلان الباص باتجاه المحطة المركزية، هو طلب منى من نائل قضاء الليلة في بيته. لا تود الرجوع إلى بيتها، قالت، ورؤية ذلك "الشخص". أذهله الطلب الذي جاء في ذهنها بدون تكلّف أو تصميم مسبق، وصرف أنظاره عن أضواء الليل المشرقة في الساحات وهي تتوهج بألق حلمي يناسب قوام الخريف، والغيوم التي لا يراها لكنه يحسها معلقة فوق أغصان البلوط، والفتيات اللعوبات السائرات على الأرصفة متجهات إلى حفل في بيت أو مرقص يغص بالفتيان والرجال. أنساه المكان والزمان، فظن نفسه في غيبوبة لذيذة تتشكل من الخيال والوهم. هي في شباكه أخيرا. الوقت تأخر للرجوع إلى البيت، وهي لم تعد تطيق البقاء منفردة مع طليقها في البيت ذاته، وهذا ما حدا بنائل أن يقرأه على أنه انتقال مفاجئ في علاقتهما. كان يلتصق بها في المقعد. ويتنسم عطرها. ويختلس النظر إلى رقبتها العاجية الملساء الأنيقة المصنوعة من فن خالص.

ستكون ليلة فارقة. ستكون ليلة عامرة بالغرام، مضمخة بالجنس، والقبل، واللمس. تمت المعجزة، وانكشف السر، وهي مهيأة لليلة حمراء، سترى سريره، وتطل من شباكه على البحر الأجاج. غرفته غير جديرة باستقبال منى، لكنها حتما ستقدر الوضع الذي هو فيه، أي حياة العزوبية التي اختارها لنفسه. شعر نائل أن العاصمة أصبح لها طعم خاص جدا، الباصات والقطارات تخترق لحمها في كل الاتجاهات، حاملة العمال الليليين والسكارى والعائدين من سفر

طويل، الشوارع فارغة فثمة برد حاد يخترق العظام، الإعلانات الضوئية تملأ واجهات الأبنية والأبراج بالألوان، وتضفي الحياة والحركة على تفاصيلها، اعلانات تلعب وحدها في الليل البارد. في ذلك الزمان، وقبل أن ننتقل بعد موتنا إلى هذه المقبرة، تغلغل سحر العاصمة في أرواحنا، السحر الكامن في شخصيتها المعروفة بها. البعض منا لم يكن مستعدا لتحسس السحر، لأنه مشغول البال بأمور أخرى، وهو يسير مغمض العينين حتى لا يكاد يلمح أي تفصيل جميل من تفاصيلها. لا يلمح قنواتها ولا أبراجها ولا حدائقها ولا صباحاتها النشطة، ولا ثلوجها التي تحيل العيون إلى عالم طفولي. كانت كما خبرناها في تلك السنوات البعيدة مدينة منبسطة المزاج، يسري عليها الزمان رخيا بل ويكاد يكون بطيئا. رحيمة بسكانها، توفر لهم أية متعة يطلبونها، والأهم من كل ذلك أنها توفر سقفا، وطعاما. لم نستطع مقارنتها مطلقا بالمدن التي جئنا منها، إذ لا وجه للمقارنة. ناعمة، لعوب، منسقة مثل ساعة سويسرية، تسفح الخمرة في شوارعها بكرم، حتى وصفها كمال بأنها "أنثى رقيقة لا يتطلب الدخول إلى قلبها سوى معرفة المفتاح المناسب". وكثيرا ما اعتبرنا خريفها واحدا من أجمل فصول السنة، فمن ينظر إلى الغابات والحدائق والملاعب الرياضية ير تلك السجادة اللونية العجيبة، المنسوجة من اللون الأصفر، لون الورق الذابل الآيل إلى السقوط، واللون الأحمر والبرتقالي وحتى الأسود، وهو ما تبدو عليه السيقان العارية الرطبة، الناتئة في الفضاء مثل أصابع.

وليل الخريف بارد في المدينة، واستغربت منى وجودها وسط غرفة خالية من اللوحات الفنية والصور والتحف. ليس فيها منحوتات أو ديكورات، ولولا تلك النخلة القصيرة، حزينة السعف، لحقّ لها تسميتها بالتابوت. ليس سوى ورق الجدران الكالح، والزوايا التي تحولت إلى بيوت للعناكب، والرطوبة، والعري. طلبت منى من نائل تدفئة الغرفة بأي طريقة، فهي لا تحتمل رطوبة البيوت. "أنت تعيش في العصر الحجري"، قالت له ضاحكة، وهي ترمق الأثاث، والجدران الرطبة، والسرير المبعثر الأغطية، والمدفأة المنتصبة في الوسط كأنها

تمثال خرافي قادم من عالم آخر. خيوط العناكب القديمة معلقة في الزوايا، وبقع الرطوبة تمتد من السقف إلى الجدران، والشيء الوحيد الذي يدل على هوية، على خصوصية للمكان، وعلى ذوق أصيل، تلك النخلة بسعفها الغض المتهدل، ثبتها نائل في فسقية كبيرة خمرية اللون، تنتصب على يمين الداخل إلى الغرفة، وتجاور الخزانة الوحيدة. هناك ليف، وأشواك صغيرة، وكرب قزمي الحجم، وقلب تنبع منه سعيفات ناعمة. هذه هي حياة العازب فكرت مع نفسها، وأخرجت علبة دخانها كما لو أنها ترغب في مداراة حرجها، وأشعلت سيجارة ذات لون بني، ظنها نائل في البداية أنها سيجارة حشيش، فيما لف قسماتها سكون التأمل والتوجس.

وخلال ذلك جلب نائل كرسيا وضعه قبالتها، ثم مضى إلى الممر لحظات، وعاد بقنينتي بيرة، وصحنا من المقبلات، وضع ذلك بصمت على الطاولة، وقال لها كما لو أنه يرغب في إزالة الصمت الثقيل: "فعلا الغرفة باردة. ثوان وأشعل النار". عاد إلى المطبخ الواقع في نهاية الممر، وتناول كيسا من الفحم وقطعة من ورق الجرائد، ثم رجع إلى الغرفة وأقعى أمام المدفأة. كوّم الفحم من خلال الفتحة على حاجز حديدي مخرم، وتناول قنينة صغيرة مركومة جنب المدفأة وسكب قليلا من النفط على الورقة وأشعلها بقداحة غازية، وما أن تصاعدت النيران في الداخل أغلق باب المدفأة الصغير وكان ذهنه مشغولا بذلك الصمت، وفكر كيف يواصل الحديث مع منى. "هؤلاء يحاربون بسيوف من خشب"، قالت له منى وهي تنفخ دخانها بفم مكور، "من هم؟" سألها بعينين مستطلعتين، وهو يحتسي كأس البيرة المغطاة بالرغوة: "المثقفون. تخيل أنك تعيش هنا، في هذا المكان، وسط شعب لا تنتمي إليه، ولا تعرف لغته جيدا، ثم تنشغل بهمّ شعب آخر، ذاك الذي جئت منه. لا. وفوق ذلك تكتب رواية تريد بها تغيير التاريخ المروي لدينك، كما فعل كمال الشاعر، ألا تجد في ذلك ادعاء مقيتا؟ الادعاء، هؤلاء مدّعون. أو ذاك الآخر يظن نفسه ينتمي إلى جلجامش الذي عاش قبل آلاف السنين، بدون أن يلتفت إلى ما يجري حوله

في بيئة عاش فيها عشرات السنين، بيئة نقلته من عصر الحروب إلى عصر السعادة. حتى زوجته جلبها من سوريا. ثم المدعو أفنان، القصير المغرد كديك منتصف الليل، بأغاني يوسف عمر ومحمد القبانجي وناظم الغزالي، لكنه لا يستسيغ موزارت وبوب مارلي وبيتهوفن وكيم لارسن وسيناترا، إن كنت تعشق باب الشيخ، والحيدرخانة، وبؤس محلة الذهب، لماذا "تركت الحصان وحيدا؟" استغل نائل دقائق من الصمت بينهما فمضى إلى المطبخ، وقبل أن يتناول زجاجتين من البيرة، بحث عن نصف قنينة الويسكي المخبأة خلف كيس الطماطم في الثلاجة، وهي من نوع "بلاك ليبل"، وعبّ من فوهتها مرتين. يريد أن يسكر، السكر يرفع منسوب الشجاعة لديه عاليا، حينها يمكنه امتلاك الجرأة على المبادرة والهجوم. امتلاك امرأة يشبه المعركة، يحتاج إلى الشجاعة. وشعر بالسائل الحارق يتسلل إلى رأسه، ومعه تتسلل الشجاعة التي سيبتكرها الكحول بأصابعه السحرية الناعمة، وينثها إلى كيانه كله.

"الحياة تحتاج إلى الفلاح والنجار والطبيب والمهندس والعامل لكنها، بربك، هل تحتاج إلى مسرح أو شعر؟ كأنه يجيب عن تساؤلات منى واصل كلامه قائلا: ألم تعش قطعان البشر ملايين السنين من دون شعر ورواية وموسيقا وفن تشكيلي؟ صمت نائل برهة، ثم تابع بوضوح فكري نادر، حتى هو نفسه تعجب من وجوده: هناك في بلداننا يعتبر المثقفون أنفسهم آلهة، ببساطة لأنهم ولدوا، وترعرعوا، وتثقفوا، وسط مجتمع أمي، بمعنى الكلمة. هنا يختلف الأمر. الجميع متعلمون، يسمعون الموسيقا، يقرأون الجرائد، ويستعيرون الكتب من المكتبات العامة. لذلك قررت أن أدخل دورة تعليم لسياقة الباصات، أبتعد تماما عن شلة العاطلين. عملي في المدرسة انتهى. ومهنة سائق باص وجدتها مريحة، وجميلة، ونظيفة، ومضمونة، فمؤسسة النقل لا تستغني يوما عن وسائط النقل كالباصات والقطارات، البشر بحاجة إلى التنقل من مكان إلى آخر، صحيح هناك ملايين يفضلون الدراجات الهوائية في هذا البلد، لكن

فكري بالعجائز والأطفال، وفكري بأيام الثلج والعواصف، يصبح ركوب الدراجات شبه متعذر".

منى توافقه على كل ما يقول، تحتسي وتدخن وتفرط بالكلام، وشاع الدفء في الغرفة، فأضفى شيئا من الاسترخاء على كليهما، وبادر نائل إلى جلب شمعتين وأشعلهما بقداحته ثم ثبتهما على الطاولة، وسألها إن كان يستطيع إطفاء الضوء، فوافقت على ذلك. العتمة تحول الأفكار إلى كائنات لطيفة تموج وتميس مثل ضوء الشمعة يمينا وشمالا، سطوعا وتلاشيا، فلا تلبث أن تختلط بتموجات الظلال للمدخنة ورأسيهما المنغمرين بحديث يفتقد لأي محور ذي أهمية، ومن كل ذلك يتفاديان المساس بتلك المساحة الحمراء التي يتجهان إليها، ماذا نعمل حين تحين ساعة النوم؟ ظلال الأشياء المتحركة الراقصة في نور اللهب، هدوء الحياة في الشارع، والتوتر الروحي بينهما، كان كل ذلك إغراء لا يحد للقيام بالخطوة الحاسمة. إلا أن ذلك لم يحصل. وقد بذل نائل طاقة جبارة، وإرادة فولاذية، كي لا يوصله الخمر إلى القطيعة بين وعيه، والمكان المحيط. لكنه لم يستطع مقاومة التحديق في وجهها، وعينيها، وتعابيرها عند الحديث. وراحت تحدثه عن حزنها في المساءات: " حزن الغريب يشتد في الغروب، نمتلك شباكا في مطبخنا يطل على البحيرات، كان الشباك مكاني المفضل للنظر إلى الخارج. هل شاهدت كيف يهطل المساء على البحيرات؟ مشهد يضاعف الحزن، الأضواء وهي تنعكس على سطح الماء، راكبو الدراجات وهم يجتازون الجسور الصغيرة الثابتة الرابطة بين الضفتين، الباصات المليئة بالناس العائدين من عملهم أو مشاويرهم، الفتيات وهن يفسحن كلابهن. وتلك البجعات تعوم مثل قوارب بيض برقابهن المشوقة، وذلك الشفق الدموي وهو يطير بثبات فوق ذرى أشجار الكستناء البرية، وكنت أشعر بروحي وحيدة، معزولة، منبوذة خارج سيل الحياة المتدفق. شعور أنني أعيش في مكان لا أنتمي إليه، ولن أنتمي، شعور يستدر الحزن من أعمق نقطة في الروح. مكان لا يخصني، هذا الهاجس هو الذي أعاقني من معادلة شهادتي ودراسة اللغة

بشكل جاد. حتى لو رزقت بأطفال يتعلمون هنا، يكبرون، لكنهم لن يكونوا أولادي حقيقة، بل هم أولاد هذا المكان. أفكار مثل تلك أعيشها كلما حدقت من ذلك الشباك، وتراءى لي ذلك المشهد".

لم يعد نائل يسمع كلامها، صحيح أن عينيه تحدقان بوجهها الناعم وشعرها الأنيق وجيدها العاجي، إلا أن فكره مشغول بطريقة الهجوم وتوقيتها. سألها بوجه متوسل التعابير: هل تحبين أن نرقص؟ وترافق طلبه مع نهوضه من الكرسي، وإزاحته جانبا، ثم وقوفه في الفسحة الممتدة بين المدفأة والجدار. وبكامل بؤسه المندلق على بشرة وجهه السمراء، وقف بظل ابتسامة شاحبة، متكلفة، لونت شفتيه النحيفتين، وبدا مثل من يتأهب لمعركة لم يكن مستعدا لها. من الواضح جدا لمنى أنه ليس من نمط الأشخاص الذين يعيشون الحياة باعتبارها معركة متواصلة، هو سليل الهزائم المتلاحقة، ويؤمن بذلك من صميم كيانه. حدقت فيه غير مصدقة، وابتسمت، ثم قهقهت بصوت عال، وقالت له بنبرة ذات جرس مرح: "كلا شكرا، أنا لا أجيد الرقص". لم يعر أهمية للرفض، وشرع نائل يتخيل نفسه واقفا على منصة وهمية، ويسمع موسيقا ضاجة يرسلها خياله. الجيتار والطبل و"الساكسفون"، والجمع المحتشد حول الفرقة الموسيقية المتوهمة.

فرد ذراعيه كالنورس المحلق فوق بحر الشمال، وبدأ ينقل قدميه على الأرض، بفتور أول الأمر، وكان الكحول قد طار به للحظات في هواء قادم من أزمنة بعيدة، ثم صفّق ودار حول نفسه، وضمّ ذراعيه كما لو كان يحتضن فتاة حقيقية، ومنى تنظر إليه مذهولة، وفكرت بأن الرجل جنّ لا محالة. جنون الخمر، فالخمر بودقة الجنون، ونائل شاهد هذا المشهد كثيرا في الحانات والمراقص التي ارتادها هنا خلال السنوات المنصرمة. ثم تخيل فيلم زوربا وارتسم "أنتوني كوين" في أفق بعيد، وحاول تقمص رقصته، ورسم في ذهنه ساحل البحر "الكريتي"، والنوارس تزعق في السماء الزرقاء، والرمال تعكس

بريق المتوسط وتروي دبيب قواقعه. ووجد نفسه يقف وحيدا بين قمم الجبال المحيطة به مثل سوار من العقيق. الجبال الكريتية التي شاهدها مرة في فيلم زوربا. رأى الفيلم قبل سنوات مع جميل البصري، في واحدة من سينمات دمشق القريبة من ساحة المرجة. أيام ما اشتغل دهانا مع صديقه، وقادته رقصة زوربا إلى أخرى محلية شاهدها في طفولته بأحد الأعراس، فبدأ يدبك ويرتفع في الهواء، على دوي طبول، وعزف مزمار بدوي. ويرسم جسده على ضوء الشمعة ظلالا على الجدار، تأخذ هيئة شياطين تتوالد من بعضها، حتى إذا تعب جسده اختل توازنه وتهاوى على الأرض، رأسه تجاه منى ورجلاه تجاه الباب. فزت منى من مكانها وصاحت به برعب: هل أنت بخير؟ وحسبته أصيب بسكتة قلبية مفاجئة، كما حصل للكثيرين في السنين الأخيرة.

غير بعيد عن ذلك المشهد الشبحي، كان سعف النخلة الغض يتمايل بخفة، عاريا يحتفي بالظلام في ريح ناعمة غير مرئية ظلت تتسرب من شقوق النافذة غير محكمة الإغلاق. ذلك السعف نفسه الذي دأب نائل لأكثر من ليلة يتخيله وهو سكران مكتظا بالعذوق الصفر، ذات الثمار نصف الناضجة، تحوم عليها زنابير صفر وحمر، تمتص الرحيق العسلي، وتلعق بمجساتها الماصة سائل التبرزل، والخستاوي، وأصابع العروس، السائل الملوث بغبار خفيف. "الكرب" هناك، السعف اليابس المتدلي هناك، والعروق الغليظة تتشبث في الأرض كانت هناك، في الخيال الجامح للياليه الكابية. كانت الصورة تلك صناعة متقنة لخياله المنفلت، استغرقتها سنوات من العزلة، والضياع، لتثبيتها في ذاكرته. وبعد صمت ثقيل، نظرت إليه منى وتحدثت متأففة عن الخواء، والضياع الذي نعيشه جميعا كما قالت. تحدثت عما تشعر به، وتعيشه من رتابة بعد الطلاق من زوجها، ووافقها نائل على أن المرأة هنا تعاني الوحدة أكثر من الرجل، فهي لم تعتد حياة البارات والمراقص، لا أقرباء ولا وظيفة تشغلها عن الفراغ المهيمن على روحها. والشيء الأهم من كل ذلك جميع العيون مفتوحة على حركتها،

كأنها حصان للفرجة، أو لوحة مرسومة على جدار. ما أن يروها تلتقي شاباً حتى تمضي التقولات والمبالغات إلى حافة الهاوية.

وخلال فترة صمت قلقة تثاءبت منى بكسل، والتقط نائل الرسالة. سألها بعينين ناعستين ضبابيتين:

– هل ترغبين في النوم؟ الفراش جاهز.

– كلا قالت له، سأنام هنا على الأريكة، نم أنت في فراشك ولا تفكر بي، هل لديك غطاء إضافي؟

– أجل، سأجلب لك بطانية ومخدة، ولكن أليس من الأفضل لو نتقاسم الفراش مثلما تقاسمنا هذه الليلة؟

– لا شكرا. سأكون بخير.

جلب نائل البطانية ومخدة نظيفة ثم طلبت منه إطفاء الشموع، والذهاب إلى الفراش، قالت له أنت بحاجة إلى النوم. وحين ساد الظلام، لا يتذكر نائل سوى سرير عريض، خشن، وأغطية سميكة، ودفء ينثه الظلام، أدخله إلى ديماس تضيع فيه الحدود بين الوهم والحقيقة، بين ما هو دخاني وما هو ثابت يمكن التشبث به. ومن خلال الظلام سمع حركة منى على الأريكة وتخيل أنها تجهز نفسها للنوم، وظلت هسهسة النار شاهدا وحيدا على الدفء.

وكالعادة، تطايرت حول رأسه وجوه قديمة، يعرف بعضها ويجهل بعضها، موسيقا كأنها تأتي من مجرات بعيدة، وثلوج تتراكم على سيقان وأغصان، طيور ملونة تهاجر نحو الجهات كلها، تنتظم برفوف منسقة عجيبة، ومراكب بحرية يضربها الموج فترتفع معانقة الأفق، أو تغوص حتى تصل أصابع المرجان، وهياكل عظمية مزرقّة من الرطوبة والعفن. لم يعد يتذكر مكانه، وها هو ينسلخ من وجوده البشري ليتحول إلى غيمة سابحة فوق الجبال والوديان.

وبمرور الساعات تترى في رأسه ذكريات مختلطة غير مفهومة وحوارات صاخبة، حينها شعر في لحظة صحو، لا زمن له، بالغطاء يرتفع قليلا، وجسد ما يندس جنبه. في تلك اللحظة انتبه إلى أنه لا يحلم، وأن الجسد الذي اندس جنبه هو جسد منى. أجل. إنه لا يحلم، برغم الغبش الدخاني المستولي على عقله. مفاجأة لم ينتظرها، ولم يتوقعها. سمع شيئا واحدا فقط، سمع جملتها الراعشة وهي تقول: "أحسست بالحنان نحوك، لا تقرأني خطأ"، وكانت تحتفظ بملابسها الداخلية فقط. بعد أن قالت له جملتها، تمددت مولية له ظهرها. استدار إليها، وبدأ يتحسس جسدها في لحظة لم يعد فيها من سماوات ثمله وعالمه الدخاني، بل كانت ردة فعل على وجود أنثوي يرقد بجانبه، بدون توقع. رأى النخلة تتمدد في حلم ما زال معلقا بين جفنيه، امتلأت الغرفة بسعف النخلة ورآه يفيض من الشباك، ويطوّق رأسه الثقيل، ومن مستنقع النعاس تحسس جسدها الصغير ابتداء من السوتيان مرورا بالبطن، ثم توقف عند اللباس الصغير الحريري الملمس، وبادرت هي إلى ابعاد يده بخفة ونعومة، ورددت جملتها ذاتها: لا تفهمني خطأ شعرت بالحنان. وقد وجد هذه الحركة نوعا من الرفض، وتأكيدا لشكوكه في أنها لا تحبه، ودوافعها غير مفهومة، أو الأرجح أنها تبحث عن نمط آخر من الرجال. تستولي على الشخص أحيانا، بسبب دوافع داخلية مفاجئة، لا أبالية كثيفة، فلا يعود يعبأ لشيء، وهي ما حدا بنائل إلى إدارة ظهره لها والسقوط في نوم عميق يشبه السحر، منساقا مع رائحة السعف الكثيف وغبار الطلع في فضائه الداخلي. وكل ما حدث بعد ساعات أنه فتح عينيه وحدق إلى سقف الغرفة، وكان هناك دفء لذيذ، وضوء يتسلل من نافذته، وصمت. صمت بدون منى، لقد رحلت، في ساعة ما، من الصباح، وكل ما تذكره، بوضوح، أنها غادرت السرير متجهة إلى مرقدها على الأريكة. كيف لبست ثيابها، كيف انتعلت حذاءها، كيف أطبقت الباب بلا صوت، كل تلك التفاصيل لم يتذكرها نائل. هل كان المشهد كله حلما لا غير؟ أين هو من رقصة زوربا، والجبال الكريتية، وعيون النخلة المتغامزة، والشموع

المضيئة مثل مجرات بعيدة. والأغرب من هروبها الصباحي هو اختفاؤها من حياته كلها. إذ لم يرها بعد ذلك، لا في مقهى الحذاء الصيفي ولا شارع المشي، ولا في ساحة البلدية أيام المسيرات والاحتفالات، وهجرت المدرسة نهائيا. ثم اختفت أخبارها تماما، وتحولت إلى حكاية من حكايات الخريف لتلك السنة، الخريف الذي شهد موت عدد من أصحابنا، دفناهم في أكثر من مقبرة. مات واحد منا أثناء ما كان يرقص على خشبة عرض في احتفال بعيد الأضحى، ولم يتجاوز عمره الخمسين سنة، وقيل لنا إنه مات من الفرح، وقد استقبلته مقبرة العاصمة الكبيرة، "مقبرة فالبي"، بحزن، وتم دفنه في زاوية صغيرة من المقبرة خصصت للمسلمين. شخص ثان مات في السجن وهو يقضي عقوبة طويلة لقتله زوجته، مات قبل شهر من انتهاء محكوميته ونسبنا موته إلى سوء حظ هائل، فالحرية كانت قاب قوسين أو أدنى من عذاباته. ماتت الممثلة "نماء" هي الأخرى قبل أن تتم مسرحية الكابوس، وتم دفنها بجنازة مهيبة، ووضعت لها صورة تبرزها باسمة على رأس القبر، وكان سبب موتها المباغت هو سرطان الرحم. لاحظنا كيف بدأت تنتشر بيننا أمراض لم نكن نعرفها، مثل ارتفاع السكر، والضغط، وتصلب الشرايين، والذبحة الصدرية، والجنون، والسرطان.

٢٣

وفي ذلك الخريف، وربما الخريف التالي، نمي إلينا أن صديقنا حازم الأعرج رؤي في أكثر من مكان وهو يجمع القناني الفارغة عقب كل احتفال عام أو تجمع في الساحات والحدائق العامة والطرقات، يعيدها إلى السوبرماركت ويجني من ورائها مبالغ ضئيلة، ولكن بمرور الزمن تصبح ثروة لا بأس بها. وأكد البعض أن حازماً حصل على التقاعد، إلا أن راتبه الشهري لا يسد رمقه، ولا يكفي دخانه ومشروبه، وهو مبرر مقنع لاشتغاله في هذه المهنة التي كنا نعتبرها معيبة تشبه، في وجه منها، الكدية والتسول. ويحتج البعض الآخر مؤكدا أن حازما يرسل المبالغ التي يحصل عليها من جمع القناني الفارغة إلى عائلته في العراق، حيث بدأت الناس هناك تبيع شبابيكها، وأبوابها، ومصوغاتها الذهبية، وأثاث بيتها، لكي تؤمّن لقمة العيش، وكان الحصار في أوجه. وسمعنا أن مراداً يقبع في مخيم التسفير بعد أن تم ضبطه في المطار، وهو عائد من رومانيا، وقد جلب معه لفافة من الكوكايين، وضعها في جوربه، وشاء له القدر السيئ أن تسقط على الأرض في اللحظة التي كان الضابط فيها يفتش ملابسه، ما دعا الحكومة إلى إلغاء إقامته، وحجزه في المخيم ليقضي سجنه وسيتم تسفيره إلى بلده لاحقا. لكن الحكومة كانت حائرة في البلد الذي ستسفره إليه، فهو في العراق تبعية إيرانية، وطرد من هناك لهذا السبب، لكن إيران لن تستقبله كونه عراقي الجنسية، لذلك سيمكث مراد في ذلك المخيم حتى يزوره الموت في قادم الأيام.

في ذلك الخريف تهاوت قلاعنا واختطف الموت مزيدا من أصحابنا. وبدأنا نحدس بنهاية الرحلة بعد أن تجلت لأعيننا ضفاف الزمن الموحش الذي عشناها بين أذرع الجزر المباركة هذه. وتناهى إلينا خبر الرسامة بسمة، اشترت بيتا عتيقا في دمشق القديمة، حولته إلى مرسم لها، ومكان لتعليق الرسومات

وإقامة المعارض لأصدقائها، ولا يبعد البيت سوى مئة متر من مقهى "النوفرة" المجاور للجامع الأموي. ذلك المقهى نعرفه جيدا، وقد جلس فيه البعض منا ساعات ذات مرة، متمتعا بشرب القهوة العربية، أو متنشقا عبق دخان الأراجيل الدمشقية في ظل مآذن الجامع، وتحت دوالي العنب وزهر الياسمين.

ولأننا غرباء دوما شتتنا سبل الحياة ومشاغلها، وجعلت ليل الخريف في العاصمة حزينا جدا، ثقيلا على الروح، ولم يعد فيه عشاق وحالمون ومتسكعون، وأذهلنا في تلك السنة، خبر سفر ليث إلى كندا، جلبه واحد من معارفه إلى مقهى "الكليب تري" ذات نهار خريفي. كنا نعرفه بكنيته فقط، "أبو ليلى"، وعرف ليث في الفترة التي أطلقوا عليها فترة الدمج، وكان حاضرا في ليلة المعركة حين أصيب ليث بجروح سكين، وقد كان الوحيد الذي راح يزور ليث في المستشفى كل يوم، إلى أن تعافى وانتقل إلى مدينة الميناء والسمك والنحل. أبو ليلى تعرّف مصادفة على امرأة تعيش وحدها قرب المجمع ذاك، وأخذ يتردد عليها بين الحين والآخر، حتى أنه راح يساعدها في ترتيب الحديقة وقص العشب وزراعة الأشجار، وما أن اطمأنت إليه حتى دعته للسكن معها. علاقته بليث لم تنقطع، وأصبح التيلفون والرسائل هي الوسيلة المثلى للتواصل معه.

ذكر أبو ليلى لنا أن ليثا تقدم بطلب إلى "الهوم أوفس" البريطاني، لتمديد الفيزا بسبب تسجيله في معهد للغة، ووافق الهوم أوفس على طلبه لكنه احتجز جواز سفره حتى تنتهي مدة الدراسة. سكن ليث لدى عائلة هندية مستأجرا غرفة صغيرة يدفع إيجارها أسبوعيا، ووفر له صاحب البيت عملا ليليا كغاسل صحون في مطعم هندي. لذلك كان يومه عسيرا ومتعبا، ولندن مدينة ضاجة، مشغولة على مدار اليوم، وكأنها ملخص للحضارة الحديثة. يصل إلى المعهد في الساعة التاسعة صباحا بالمترو المكتظ دائما، ويلبث هناك حتى الثانية بعد الظهر، بعدها يعود إلى غرفته، يتناول غداءه ويرتاح قليلا ثم يمضي بالقطار إلى المطعم، ويقع في قلب لندن لا يبعد كثيرا عن حديقة "الهايد بارك". على

هذا المنوال المتعب أمضى الخريف والشتاء، وكان الشتاء الذي قضاه في بيت الهندي صعبا وعانى من البرد الشديد، في الليل خاصة. غرفته قبل أن ينام دافئة بسرير واحد وفّره صاحب البيت وأغطية معقولة، لكنه كان يفيق في منتصف الليل ويلفي جسده متجمدا من البرد. استغرب من هذه الظاهرة واعتقد أن برودة الجو الانكليزي لا تحتمل، لكنه في ليلة من الليالي تحسس جهاز التدفئة الممتد تحت الشباك فوجده باردا، واكتشف أن صاحب البيت يسارع إلى إطفائه ما إن ينام. كل ذلك من أجل توفير بعض الجنيهات. تدخل عليه زوجة الرجل بفنجان شاي وقطعة كعك بعد مغادرة زوجها، تطرق الباب بأدب وتصبّح عليه مبتسمة بشعر كثيف متطاول، ثم تضع الشاي على الطاولة وتسأله قبل أن تغادر الغرفة إن كان بحاجة إلى شيء فيشكرها وتخرج. امرأة هندية وجدها ليث جميلة، ذات شعر ناعم، وبشرة برونزية شهية، وجسد بقوام ممتلئ بعض الشيء، إلا أنه برغم حاجته للجنس، لم يتجرأ على مغازلتها أو التقرب منها. كان الزوج عادة ما يخرج مبكرا إلى المطعم فعمله طباخ، مما جعل ليث يحس بثقل المسؤولية على كاهله، بالانفراد مع امرأة شابة وجميلة. الوحدة، والإحراج اليومي، والطوق الذي ضربه على نفسه، وقانون البيت الذي يمنع استقبال أي صديق أو صديقة، كل ذلك منعه من الاندماج مع الأسرة، وهو ما حمله على البحث عن سكن آخر. وخلال تلك الفترة القلقة تعرف في معهد اللغة على "ماساكو"، الفتاة اليابانية التي جاءت من الجزر البعيدة لدراسة اللغة، وكانت فتاة صغيرة الجسم ناعمة البشرة، مرتبكة الشخصية، وربما بسبب ضآلة حجمها اتخذت من ليث صديقا لها، يثرثران سوية أثناء الإستراحة، ويشربان الشاي في الكافتيريا، وحكت له جزءا من حياتها. ما توصل إليه من خلال قصصها المرتبكة، أنها يتيمة الأب والأم، وكانت تقطن مع جدتها لأبيها. أحس بطريقة ما بأنها قريبة الى روحه، تائهة مثله، لم تصل بعد إلى هدف لحياتها. وتحولت آنا إلى ذكرى بعيدة، نامت خلف بحار وسهول ومدن، تومض بعض اللحظات في عقله مثل نجمة بعيدة، حتى أنه لم يراسلها، لقد قرر حرق

السفن وراءه حتى النهاية. علاقته بماساكو شجعته أكثر للبحث عن مكانه الخاص. وظل أسبوعين يقرأ الاعلانات التي اعتاد أصحاب العقارات وضعها على واجهة المحلات الصغيرة، وكان أغلبهم من المهاجرين الهنود والباكستانيين والعرب. وذات يوم وقع بصره على أحد الإعلانات يعرض شقة صغيرة تتكون من غرفة وحمام ومطبخ، بإيجار مناسب، وتقع في الطابق الثاني، ولها سطح يطل على جانب من لندن. وكان الإيجار ينسجم مع دخله الذي يتقاضاه من المطعم الهندي، فاتصل بصاحب العقار وتم الاتفاق. ولم يلبث سوى أسبوع حتى أخبر صاحبه الهندي بنيته في الرحيل فوافق. وهكذا وجد ليث نفسه بشقة صغيرة لوحده، وهو ما جعله يحس كما لو أنه في حلم. هو ليث الغر، التائه في بحر هذا العالم المضطرب، يجد نفسه مقيما في شقة لوحده، وفي عاصمة الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس؟ أهو ليث ذاته ابن الأزقة الموحلة، وغبار الصيف، وصحاري الرمال، وأجمات القصب والبردي، سليل البدو والمزارعين وعمال المياومين، الناجي من المجزرة، يطل كل يوم على شارع أوكسفورد، ومتحف الشمع، والهايد بارك، والكاتادرائيات العتيقة، وجسر ويست منستر. استقبل ماساكو مرتين في شقته. وجدها خائفة محرجة مرتبكة، وقضيا في المرة الثانية ساعة على السطح يحدقان مدهوشين بغروب لندن، وهالات الظلمة وهي تزحف على السطوح والأبراج ونهر التايمز. كما أخبرنا أبو ليلى، في أن ليثاً تحمس لإيجاد سكنه الخاص لا بسبب ماساكو، ولا بسبب الإحراج الذي عاشه في بيت الطباخ الهندي، ولا بسبب قطعه للحرارة عن غرفته في ليالي الشتاء الباردة، بل من أجل امتلاك عنوان بريدي يحوله إلى شخص معلوم من بين بلايين البشر. تلك الشهور والسنون من غربته، ظل مصير أسرته يلح عليه يوميا، وظل يرغب بمراسلتهم، فمن حقهم، خاصة أمه، معرفة في أي بقعة من قاع العالم رست مراكبه، وهل هو ميت أم حي. فالزوبعة التي مرت على البلد تسببت بمقابر جماعية، وهجرات، وجرائم مروعة، وغيابات غير مفهومة لعامة الناس. سمع كثيرا من القصص عن الرقابة

الصارمة على الرسائل القادمة من الخارج، والعقوبات التي يتعرض لها الأهل الذين يتواصلون مع أبنائهم. وبعد انتقاله إلى الشقة، دبج لهم رسالة تحكي بالعموم عن حياته، ظل القصد منها، بالدرجة الأساس، أن يبلغهم بأنه موجود لا أكثر. ولم تمر سوى بضعة أسابيع حتى وجد رسالة من ابن عمه دست من تحت الباب، واستغرب أن يكون المرسل ابن عمه وليس واحدا من أخوته. قرأ الرسالة بلهفة، وبرغم أنه لم يجد أخبارا شافية عن تفاصيل الأسرة بعد غيبته، إلا أنه قرأ ملاحظة قصيرة في نهاية الرسالة جلبت له قلقا، وخوفا هائلا، لم يجربهما سابقا. كتب له ابن عمه أن الرسالة أرسلها ليس عن طريق البريد، بل بواسطة واحد من الموظفين في السفارة، وهو، كما يصفه، رجل طيب ونزيه وينصحه بلقائه، وهذا ما أدخل الرعب في صدره. معنى ذلك أن الرجل استدل على عنوانه، وراح ليومين كاملين يتخيل عناصر السفارة تراقب تحركاته في لندن، ثم راح يتخيل القصص والحوادث التي ستحصل من اغتيالات، إلى تصفيات سرية، إلى دهس، إلى خنق، فراح يفكر جادا بوسيلة للهروب. مثل غيره ممن هربوا عبر الحدود، شكلت السفارة في أي بلد يتواجدون فيه كابوسا يوميا، وشاعت حكايات عن اختطاف معارضين وإرسالهم مخدرين عبر البريد الدبلوماسي، ولا ينتظرهم هناك سوى الموت. وهو يتقبل في النهاية أي نوع من الموت فيما لو تم اختطافه من هذه المدينة، إلا ذلك النوع البشع والمرعب، أي إلقاء جسده النحيف في حوض من التيزاب. فكرة الرجوع إلى آنا ومدينتها لم يضعها في حسابه، الهروب من العاصمة ليس حلا فهو لا يعرف أحدا في مدينة أخرى، وجاءه الحل من صديق "نيازي" الذي كان يلتقيه بين فترة وأخرى. قال له لم لا تجرب السفر إلى كندا، أستطيع أن أحجز لك بطاقة سفر على الخطوط الكندية، وهناك يمنحونك اللجوء بسهولة. ووجد الفكرة مقنعة. فترة الانتظار حولت مدينة شاسعة مثل لندن إلى مكان لا يعنيه، تراقبه الشوارع والمطاعم والحدائق العامة بألف طريقة وطريقة. وصار يتمثل الموت في كل شارع وساحة ومطعم. جمع كل "جنيه" حصل عليه من خلال عمله في

المطعم، واشترى تذكرة السفر. ثم وجد نفسه بعد شهر فقط في أرض الثلج، والوعول البرية، والمهاجرين. وأكد صاحبنا المكنى أبو ليلى أن ليثاً، وحسب آخر رسالة بعثها له، يشتغل في محطة تعبئة بنزين، وصار له بيته الخاص، ويرتبط بعلاقة مع فتاة لبنانية مهاجرة، ويفكر بالزواج منها.

قصة ليث لم تدهشنا كثير، ففي هذا البلد جرت حوادث مشابهة. بين موت مفاجئ، وسفر نحو المجهول، وانزواء نهائي في كهوف الروح يسميه البعض منا بالجنون. كانت أعدادنا نحن الجيل الأول تتناقص سنة بعد سنة. وسنة بعد سنة تزداد أعداد الجيل الثاني كما سماه المخرج علي الشمري. وفي كل سنة نعد للخريف عدته، فهو فترة الكآبة، والظلام، والانتحار، ومعاقرة الخمرة خروجا من أزمات الروح. أزمات الروح وهي تنبثق بعيدا عن الضوء وتتكثف في بؤرة صلدة اسمها الخواء. كانت المدينة ترتجف من البرد، بشوارعها وأزقتها وباراتها وحاناتها وسكانها. وفي تلك الأثناء شاركنا في مسيرات ضد الحرب، دعت إليها منظمات عربية وعراقية في العاصمة، وكانت عادة ما تجري في ساحة البلدية، ونعدها مناسبة لرؤية أصدقائنا القدامى، ممن ارتأوا العيش بعيدا، وكانوا يزورون العاصمة يوما أو يومين ثم يغادرون. هي أيضا أوقات للقاء الزائرين من بلدان أخرى، والوافدين الجدد الذين نفذوا بنجاح عبر الجدران الحديدية للقارة، وتسقّط أخبار جماعتنا المتوارين. كل من يختط له طريقا خاصا في حياته يغيب عن أنظارنا. نائل على سبيل المثال، نجح في الدخول إلى دورة تعليم سياقة للحصول على شهادة عمومية تؤهله لقيادة باص داخلي، ورأيناه في أكثر من مناسبة فرحا لذلك التحول في مسيرة حياته، بدون أن نجد أي أسف لتركه العمل في المدرسة. وقد حصل، بعد أن أصبح سائق باص على شقة تقع في ضواحي العاصمة، ثم وضع دائرة صارمة حول حياته أخرج منها معظم أصدقائه القدامى.

ومن أصدقائنا مات عدد لا بأس به ممن وصلت أعمارهم إلى الستين أو السبعين، ومضت خريفات من حياتنا، كنا ندرك أنها لن تعود مرة أخرى، وهو إدراك كثيرا ما تكلمنا عنه في لقاءاتنا، وتركت آثارها الواضحة على شعورنا، وقد تحولت إلى الأبيض، ورؤوسنا وقد اصلعّت، وعيوننا وقد انتفخت في الوجه، وتناثرت البقع السود على بشراتنا. فيما شاعت التجاعيد في وجوهنا كأنها قدر بشري لا يمكن التغاضي عنه، وعمد البعض بسبب الشيخوخة إلى اقتناء العكاكيز لجولاتهم. وغادر ذلك اليوم الثلجي الذي جلبنا من المطار إلى الجزيرة خلف طيات كثيفة من الأحداث، والوجوه، والأمكنة، والخيبات. جيل صار يتلاشى يوما بعد آخر طبقا لقانون الوجود المتمثل بموت القديم وصعود الجديد. نعلل أنفسنا بحقيقة أننا ما زلنا أحياء، لو بقينا هناك لمتنا منذ أمد بعيد. إن لم نمت في الحروب كنا سنموت بالأمراض التي شكلت كابوسا لمواطنينا القدامى، بعد أن خربت المستشفيات، وتصحرت المزارع، وتآكلت المدن، وهرب الأطباء أو قتلوا، وتعب البشر في خضم عقود الحروب الممسكة بعضها ببعض مثل رتيلاء عجوز. وشاعت بيننا تصنيفات ذكية تؤطر وجودنا في أرض البرد والشقرة، تصنيفات راقبت تحولات مصائرنا بعد أن أوشكت الدائرة المغلقة على الاستحكام حولنا، وانتزعنا من جذورنا بشكل نهائي، ورحنا نختلف حول الصفة التي تنطبق على وجودنا، حيث شاعت في وسائل الاعلام تسميات حولنا سببت الصداع لبعضنا.

هل نحن لاجئون؟ مغتربون؟ منفيون؟ مهاجرون؟ أجانب؟ فالمنفيون هم ضحايا لسلطة فرضت عليهم العيش في جزيرة بعيدة أو إقليم ناء تفصله المسافات عن وطنهم، مثلما جرى الأمر لنابليون بونابرت الذي نفاه البريطانيون المنتصرون على جيشه إلى جزيرة "هيلانة". لم نكن نحن هكذا. هل نحن مغتربون مثل الأتراك الذين وفدوا في الستينيات أيدي عاملة ليساهموا في بناء القارة العجوز بعد أن دمرتها الحرب العالمية الثانية؟ هؤلاء يمكنهم زيارة تركيا في أي وقت يشاءون.

أجانب؟

نعم. الخراف السود وسط بحر من الشقرة، بعيوننا السود، وشعورنا الخشنة، وبشراتنا السمر التي لوحتها الشموس الصيفية، وحنيننا العضال الذي لا شفاء منه. لاجئون، هبطنا ذات سنة في رحاب هذه الجزر فاحتفت بنا، وهيأت لنا حياة كريمة برغم المصاعب التي صاحبتها.

أحياء؟ نسبيا. نلوك قصصنا وحكاياتنا مثلما نلوك علكة قديمة، خاصة إذا تعلق الأمر باختفاء امرأة.

وكانت تلك المرأة هي منى بعينها.

٢٤

اختفاء "منى" من المشهد بعد تلك الليلة الحلمية لم يشغل بال نائل فقط، بل بعضنا الآخر ممن لم يعرفوها يوما.

هل نجحت في توقيع العقد مع تلك الشركة البحرية، ومضت تجوب بحار الكرة الأرضية مثلما أخبرنا نائل؟ هل هاجرت مثل ليث إلى بلد آخر طلبا للمغامرة والوصول إلى هدف لا تعرفه حتى هي ذاتها؟ هل عادت إلى الوطن؟ هل تزوجت؟ كل تلك الأسئلة كانت تشغل بال من عرفوها، وخالطوها ذات يوم. وهنا تتواتر الروايات في مثل هذه الحالة بيننا، وتكثر التقولات، حتى وجدنا، أخيرا، مادة مثيرة أخرى نزجي بها أوقات جلساتنا المتشابهة الفارغة. نمذقها مع سائل الويسكي، وعصارة العنب، وخمير الشعير. حتى وجدنا أن جانبا من تلك القصص غريب بعض الشيء، ومن الصعوبة تصديقه، علما أن لا أحد منا يكترث لصدق أية قصة تحكى. ينبغي للقصة أن تجيء مثيرة فقط، مثل القصة التي رواها صديقنا، وهذا هو المهم: " كنت عائدا ذات ظهيرة في الباص رقم ثلاثة، الرابط بين الميناء الجنوبي والميناء الشمالي للعاصمة، وكان لي موعد مع شخص باكستاني أعرفه يريد تأجير محل للبيتزا، لكن مفاوضاتي معه فشلت. بعد أن غادر بنا الباص المحطة الشمالية، جاء مقعدي قرب النافذة، وكان الوقت ظهيرة ربيعية والسماء زرقاء خالية من الغيوم، بدت أشبه ببحر، يرغب المرء في أن يقذف بجسده فيها ويسبح حتى يصل الى القطب الشمالي. ومن كرسي كنت أحدق في الساحل رائق المزاج، هناك رأيت رافعات الميناء الضخمة، وهي تتحرك يمينا وشمالا، وبعض البواخر الصغيرة ترسو على الرصيف، وبدا العمال مثل كائنات مجهرية تسبح في الهواء الرائق، واصطفت الحاويات المعدة للنقل كأنها علب ملونة، وبان قصر الملك وسط الحديقة كأنه أيقونة لعصور خلت. أبعد من ذلك ظهرت الجزيرة مثل نقطة

سوداء في لوحة شاسعة الزرقة. فكرت في تلك السنوات التي مضت، مضت من أعمارنا، القارب الذي كان يقلنا كل يوم إلى العاصمة، والدهشة الأولى من رؤية امرأة تعمل في المطبخ عارمة الصدر، وجلسات الليل أمام التلفزيون، والأصدقاء الذين غادروا الحياة أو اختفت أخبارهم، وأول سهرة لي في حانة الهندي. طبعا الجزيرة أغلقت منذ سنوات بعد أن انقطع سيل اللاجئين، وقيل إنها تحولت إلى مختبر زراعي، لمعالجة الأسمدة الكيمياوية، وانتاج بذور محسنة للذرة والحنطة والشعير. وتداعت إلى ذهني تلك الشهور الكئيبة من حياتي هناك. كنت أتأمل في كل ذلك، حين جذب انتباهي زوجان من الركاب، رجل كهل وامرأة، يجلسان خلف مقصورة السائق، إلى يميني. الرجل شاهدته يعبث بشعر المرأة ذات القصة الناعمة، تسترخي أصابعه بعض الأحيان بين ثنايا الشعر أو يميل إليها ليطبع قبلة على خدها القريب منه. ما جذب انتباهي وصرفه عن مناظر الميناء، وذكريات الجزيرة، أن الرجل من أهل البلاد، أشقر الشعر ذهبي البشرة، لكن الفتاة بدت من جماعتنا بسواد شعرها، وبشرتها الممزوجة بالسمار. تجاوزنا محطة أوستربرو، ودخلنا متاهة المباني السكنية، وعند أحد المواقف نهض الرجل متهيئاً للنزول، وتطلعت بالمرأة المرافقة بفضول، ودققت في وجهها وإذا هي منى. أدركت من طريقة تعامل الرجل معها أنهما صديقان، وأدرت وجهي ناحية السكّة كي لا تراني. وحين حدثت واحدا من أصدقائي بالأمر أكد لي صحة المعلومة، وأضاف لي تفصيلات ألقت الضوء على دائرة العلاقة بينهما. قال لي إن ذلك الرجل التقى بمنى في حفلة ما، ويبدو أنه أعجب بها برغم فارق العمر بينهما، فوجد طريقة ذكية لربطها به، إذ طلب منها ترجمة بعض الوثائق الأجنبية إلى العربية بمبالغ مغرية، ويعتقد صديقي ذاك أن الرجل يشتغل محاميا، وكانت الترجمة ذريعة لنيلها. في المرة الأولى التقيا في مكتبه، والثانية أيضا، وفي المرة الثالثة التقيا في بيت الرجل، ومنذ ذلك الوقت أصبحا صديقين." ووشي لأسماعنا وجود تجمع راح يروج لفكرة مساندة النظام السياسي وهو يواجه التهديدات الأميركية ودعاياتها حول ملفات

انتهاك حقوق الانسان، والأسلحة الكيمياوية، والسجون والتعذيب، وقد سمعنا عن اشتراك عدد ممن نعرفهم في تلك الاجتماعات. وشاع بيننا أن واحدا من جماعة النظام زار العاصمة والتقى بتلك المجموعة في بيت محمد خوجة، صديقنا المناصر لحكومة ألبانيا ونظريتها السياسية بقيادة أنور خوجة. لكن ما أثار فضولنا هو وجود منى في ذلك الاجتماع، على رغم أنها غابت عن الأنظار لفترات طويلة. وقد سمعنا أن ذلك الاجتماع تمخض عن كتابة بيان باسم المغتربين يحيي فيه صمود جيش العراق وقيادته ضد الامبريالية الأميركية. وتم تشكيل تجمع رسمي أطلق عليه تجمع المغتربين الوطنيين، ويعد بعض أعضائه أنفسهم لزيارة بغداد ومقابلة المسؤولين ليطلعوا عن قرب على ما يجري في الساحة، وما هو الدعم الذي يمكن لتجمع المغتربين تقديمه لأرض الوطن. وما شكل لدينا صدمة، وأدخل الذهول في أرواحنا أن منى قد تكون من ضمن الوفد المسافر إلى هناك. وقيل إن محمد خوجة برر موقفه الغريب بأن اللحظة تستدعي الوقوف مع الوطن، فالعداء للإمبريالية يبقى هو أساس للصراع العالمي والوطني. ونقل إلينا أنه أطلع الضيف، ويشتغل في مفوضية حقوق الانسان في جنيف ممثلا عن العراق، على جزيرة اللاجئين، والمقاهي التي اعتدنا الجلوس فيها قبل سنين، وهي "الكليب تري" و"الحذاء الصيفي" و"الكراسنابولسكي"، وأخذه في جولة ليلية في منطقة كرستيانيا. تفهمنا وجود منى في ذلك التجمع، بعد انفصالها عن زوجها، ومغادرتها لمأوى الجالية، وقلقها الوجودي كامرأة مطلقة".

فيما روى شخص آخر قصة مغايرة لتلك، أذهلتنا لما حملته من غرابة، وقد سمعها من فم فتاة شقراء التقاها في واحد من البارات المنتشرة حول برج شارع المشي، ذلك البرج الشاهق الذي صعدنا إلى سطحه في أكثر من صيف لمراقبة النجوم، ومشاهدة خريطة درب التبانة، وتكون مدهشة، عادة، في هذا الجزء المرتفع من كتف الكرة الأرضية. وسألته مصادفة عن منى، باعتبارهما ينتميان إلى بلد واحد، فأكد لها أنه يعرفها منذ السفينة، حين كانت تسكن مع

زوجها ريبوار في غرفة صغيرة منتظرين الحصول على الإقامة، لكن ذلك يعود إلى سنوات طوال ماضية، وهو بالكاد يتذكر شكلها. وسألها كيف التقت بمنى، فأخبرته أنها سكنت معها في البيت ذاته، لمدة سنة، ويقع البيت في جزيرة آما، على طريق المطار، ويمكن رؤية البحر من طابقه العلوي. كان واحدا من البيوت الجماعية، المثيرة للجدل، فيه غرف عديدة، والبيت من طابقين، ويقطنه العزاب رجالا ونساء، ولكن شروط السكن في البيت غريبة بعض الشيء، قالت. عدا الإيجار الخاص بكل فرد، فالجميع يشترك بالطعام وخدمات البيت وذلك عبر ميزانية موحدة يستلمها شخص واحد كل شهر، وعليه أن يقدم كشفا شهريا أمام الجميع. الميزانية تصرف عادة على شراء الخبز واللحم والزيت والزبدة والجبن والمعكرونة بأنواعا ورب البندورة والرز والسكر والشاي والقهوة البرازيلية لماكينة صنع القهوة والبيرة والنبيذ، وغير ذلك من لوازم يومية، لأكثر من عشرة أشخاص.

وما كان يجمع عليه الساكنون هو رؤيتهم الفلسفية للبشر، وتتلخص بإزالة الحواجز بين فرد وآخر سواء كان ذكرا أو أنثى، فالحواجز الفردية، والخصوصيات، هي ما تولّد العقد النفسية والأمراض الروحية كالكآبة، واللؤم، واليأس، والأنانية المفرطة، والشيزوفرينيا، والبارانويا، لدى الكائن البشري. وعلى رأس تلك الحواجز تابو الجسد، بعد أن راكمت آلاف السنين قواعد وضوابط وممنوعات على حرية الجسد، حرية عرضه على الملأ، وحرية التمتع به، وإخفاء رغباته، ونزواته، وأصواته، وضروراته. تفتق ذهن رواد هذه الفكرة عن فكرة إزالة الأبواب من المنافع المشتركة داخل البيت، كالحمامات والمراحيض وغرف النوم، وهي من أهم الأمكنة التي تحجب الجسد عن العالم، حسب قناعتهم. ترى شخصين يتضاجعان على سرير في غرفة بدون أن يعيرا أهمية لحركة الآخرين، وليس بالضرورة أن يكون المتضاجعان من جنسين مختلفين. كما لا يستغرب أحد من سماع شخص يقضي حاجته في غرفة المراحيض، ويحلو للبعض التجول في الممرات وغرفة الجلوس عاريا، بلا أي

استنكار من القاطنين. الحوارات تنبع من جوهر المتحاورين، وتلامس أدق المواضيع المحرمة وغير المفكر بها. قالت امرأة الحانة صديقة منى، بسعادة: " تخيل ذات مرة نوقشت حتى معضلة الزنى بالمحارم، وكيف أصبح الانسان استثناء من بين الكائنات الحية. هل تتخيل انفتاحنا الفكري والعاطفي في تلك الحقبة؟ في ثقافتكم لا يمكن السماح بوجود تجمعات مثل تلك، أليس كذلك؟ كانت تجربة صعبة في البداية، لكن حين يألفها المرء تصبح مريحة، وهي تضعه على محك الحرية الشخصية الحقيقية. لا يعود يخشى من مواجهة الآخرين، ولا يعود يتستر على أخطائه سواء الجسدية أو السلوكية. عليك أن تعرض جوهرك عاريا مثلما نزلت من الرحم. هو اختبار لمتانة الشخصية في النهاية. لكنها كفتاة شرقية لم تصمد سوى سنة، وظلت خلال تلك السنة تتحرج، كما لاحظنا عليها، من أشياء كثيرة كنا نعتبرها طبيعية كالجلوس في المراحيض، أو المضاجعة مع شخص آخر بوجود الأبواب مفتوحة. افتقدناها ما أن أعلنت عن رغبتها في المغادرة. لم تخبرنا عن معاناتها بسبب ضوابط السكن، وأجوائه، بل أفادت أنها وجدت عملا على ظهر إحدى السفن التجارية. لم نرها منذ تلك السنة، لهذا أسأل عنها وأتوق لمعرفة أخبارها.

هل يعقل لامرأة عربية المرور بتجربة مثل تلك؟ تساءلنا مع أنفسنا، كيف هيّئ لها الخلاص من تلك الطبقات المتراكمة من التقاليد والمحرمات والممنوعات، وما القصد لديها في ولوج بحر ثقافة غريبة مثل تلك؟ طوال وجودنا في البلد لم نسمع بفتاة عاشت هكذا بيئة تعتبر شاذة حتى للمجتمع الذي نعيش بين ظهرانيه. لقد كنا غافلين عن التحولات الكبرى في دواخلنا، بعدما تم الاصطدام بيننا وبين كتلة البشر الذين عاشوا في هذا المكان عشرات القرون في عزلة عن بقية العالم. وهي تصورات غريبة، حاول البعض منا التمسك بهويته حتى النهاية، مثل رفض التجنس بجنسية أهل البلد، بل اعتبروا التجنس خيانة وطنية سيعاقب عليها صاحبها، ذات يوم، ما أن نعود إلى "أصابع الشرق الرحيمة"، كما وصفها شاعرنا "كمال" في واحدة من

قصائده. ويمكن القول، بالتالي، إن الأمر لا يعدو أن يكون خيارات شخصية، سواء لمنى أو لنائل وليث وجميل البصراوي وفريد نافع المقامر على الخيول، وغيرهم الكثير ممن شغلوا طاولاتنا بقصصهم وأخبارهم ذات سنة.

وتوصلنا إلى فكرة نفسر بها تحولات الأشخاص ممن عرفناهم أو سمعنا بهم أو عايشناهم في مرحلة ما. تلك الفكرة تنطلق من قناعة مفادها أن هناك آليات فردية تعتمل وتتفاعل داخل الشخص، وفي لحظة فارقة تنحرف به عن مساره المعروف بيننا لتتجه به إلى طريق آخر. طريق قد يكون معاكسا لما دأب عليه، ووصم به، طوال سني وجوده في هذا المكان، وإلا كيف نفسر ما جرى في دواخل محمد خوجة بحيث تحول من مناضل متطرف في عدائه لنظام بلده، إلى مروج لفكرة الدفاع عن الوطن ضد التدخلات الإمبريالية، الأميركية خاصة؟ وكيف نفسر خروج منى من شرنقة عزلتها، ويأسها، ورفضها لقيم الشرق، إلى مروّج لضرورة زيارة الوطن والتضامن معه في محنته؟ كيف نفسر اختفاء حازم الأعرج تماما من شاشة الرؤية، بعد أن ظل سنوات يشاركنا لعبة الورق، والوقوف في ساحة "الرصيف القديم" لاحتساء البيرة، وتبادل النكات الواصلة حديثا من العراق، والسهر في المراقص؟ لقد اختفى حازم هو الآخر، وضاعت أخباره لأقرب الناس إليه، وحسب ما نقل إلينا أنه صنع عزلته بنفسه كخيار شخصي، ولم يعد يطمئن إلى أي من أصدقائه، ولا أحد يعرف السبب، أو ماذا دفعه لاختيار العزلة، وما هي الظروف التي حرفت طبيعته تلك. حتى سمعنا أنه دائم الحضور في ذلك الجامع الصغير ذي المنائر النحيفة، وقد أطلق لحية كثة، ودأب على ارتداء الدشداشة مثل مجاهدي أفغانستان لتأدية صلاة الجمعة.

الشاعر العجوز فريد نافع على سبيل المثال، تحول فجأة إلى مدمن على سباق الخيول، يذهب إلى ساحة السباق القريبة من العاصمة ثلاث مرات في الأسبوع، ويراهن بمبالغ زهيدة الغرض منها تزجية الوقت أكثر مما هي للربح. أين الشعر والثقافة إذن؟ مدمن السباق ذاك صديقنا منذ دخولنا البلد، وصل

إلى مخيم اللجوء وهو يحمل فايروس السل في رئتيه، وقيل إنه التقط المرض في واحد من المخيمات الفلسطينية في لبنان. وقامت إحدى المنظمات بتسهيل وصوله إلى هنا بعد أن زورت له جوازا، وقطعت له بطاقة طيران. وكونه مصابا بالسل، ويحتاج إلى علاج عاجل، تكفلت السلطات الصحية بإيداعه المستشفى الوطني القريب من بحيرة "أوستربرو"، ثم أسكنوه بعد أن شفي، في "بانسيون" مخصص للاجئين يقع على ضفاف البحيرة، ليس بعيدا عن المرصد الفلكي. وكشف لنا زائروه ممن كانوا يترددون عليه في البانسيون أنه صار مدمنا على الكحول والدخان، والحشيشة أحيانا، برغم تحذيرات الأطباء له، إلا أن العلاج المستمر، نجح في شفائه من مرض السل، ولكنه بدلا من العودة ثانية إلى الشعر تحول إلى شخص عدواني، يصطاد الفرص لهجاء كل من يقترب منه. وقبل أن يتحول إلى مقامر في ساحة السباق، دأب فريد نافع على الجلوس في مقهى قريب من مقبرة الكاتب الشهير هانس كريستيان أندرسن، وجاره في المقبرة الفيلسوف المعروف "سورين كيركغورد". تلك سنوات نعرفها من حياته. لكن تحوله إلى مقامر ظلت غامضة لدينا، فسّرها البعض على أن العزلة دفعته للبحث عن الآخرين، ولأنه لا يطيق الاقتراب من شخص يعرفه بدون التسبب له بأذى، فضل أن يكون بين جموع لا تعرفه، وكانت ساحة السباق أفضل منعزل يقدم له هذا الامتياز. إدمانه على الحشيشة قاده إلى ترك الشعر، ثم هجر أقرب الناس إليه. وروى البعض لنا أنه لم يعد ينام بشكل طبيعي كما ينام الناس، صحوه ونومه يتعاقبان، وظل شيء واحد يحافظ عليه هو جلوسه في ذلك المقهى عند الظهيرة، لا يغادره حتى الساعة الرابعة. طاولته قرب الواجهة الزجاجية المطلة على شارع النوربرو، شارع العرب كما دأبت عليه التسمية، عيناه ترصدان المشاة، وذرى الأشجار في مقبرة المشاهير، وهي تتحول من الخضرة إلى الصفرة، لتتجرد أخيرا في زمهرير الشتاء، وضبابه الشبحي، متماهية مع الأحلام. يدخن بعصبية، يحتسي فناجين القهوة بإفراط، ولا تزول السيجارة من بين شفتيه وكأنه يحوّل جذوتها إلى نار مستعرة يحرق بها جسده.

وهذه ليست عادة جديدة على فريد، أخبرنا واحد من أصدقائه القدامى، وهو المخرج علي الشمري، لقد اعتاد ذلك منذ أن كان في بغداد. وعرف بأنه واحد من شلة "مقهى المعقدين" الواقعة في شارع السعدون. منذ فترة الشباب دأب على الجلوس في المقهى، على طاولة خشب عتيقة، وقراءة الجرائد والتدخين المتواصل. وقتها كانت الشلة التي يلتقي بها قد عرفت بأنها شلة متمردة من العبثيين المؤمنين بسارتر، وجان جينيه، والبير كامو، ورامبو. يطعنون بالعقائد كلها، ويرطنون بمصطلحات ثقافية حولتهم في أعين زبائن ذلك المقهى البسطاء إلى كائنات غريبة، شيطانية، تتكلم بلغة لا تنتمي إلى أزقة شارع السعدون وشارع أبي نؤاس، ودرابين حي البتاويين. ذلك الغموض جلب لهم ريبة السلطة وعيونها، فراحوا يراقبونهم يوميا، ويدونون المواضيع التي يتكلمون بها، وهي مجرد طلاسم لا تفضي إلى شيء، ليقدموها لاحقا إلى دوائر الأمن.

من ذلك التمرد السحيق، تمرد بغداد المنفتحة توا على العالم، في أواخر الستينيات وبداية السبعينيات، يقول الشمري إنه لم يحتفظ سوى بعادة التدخين، وسلاطة اللسان، يعنّ له في الليل النزول إلى شارع البحيرة، يتمشى فيه رواحا ومجيئا، من المرصد حتى المطعم الصيني الكائن على طريق ترابي ضيق وسط البحيرة، فقط كي يحس بأنه ما زال حيا، وأن ثمة عالما مثيرا ما فتئ يجتذب حواسه. المطعم الصيني ما هو إلا لعبة طفل، تجذبه أضواء مآذنه النحيفة المبنية حول قباب بيض على الطريقة الصينية. سنة بعد سنة تابع اهتمامه بذلك الحيز المحصور بين أوستربرو والمرصد الفلكي، البحيرات الأربع الساحرات في كف العاصمة، وبعض تلك المعالم تجذبه مثل مغناطيس. يجلس أو يقف أمامها يتأمل ذاهلا بروح الفن، خاصة حين يتصلب أمام نصب "النيل"، وهو يتربع على كتف البحيرة، وقيل إنه نسخة لنصب روماني صنع في القرن الثالث بعد ميلاد المسيح، أعاد واحد من الفنانين المحليين صناعته من جديد في القرن التاسع عشر، وانتهى به المآل ليحتل مكانه الحالي بين ثلاثة

تلال واطئة قرب البحيرة. جسّد الفنان نهر النيل على هيئة رجل كهل ملتح عار يتمدد على دكة برونزية، ثخينة، نحت الفنان على سطوحها المستطيلة حياة النهر العظيم: الفيلة الهائجة والزرافات تتناول طعامها من تلافيف الشجر، والتماسيح ذوات الحراشف وهي تفتح أفواهها منتظرة طريدة ستعبر النهر، وأفراس النهر تفتح أشداقها المرعبة، وتقف طيور اللقلق على ساق واحدة فيما تنط الضفادع حولها برعب. يتمدد النيل مسترخيا، مديرا ظهره للبحيرة وكأنه يراقب تحولات الطبيعة من روحه البرونزية المزرقّة، ممجدا الحياة المحيطة به، ووضعها النحات على شكل أطفال صغار يتسلقون تمساحا هائل الجسد، أو يركبون بحبور أغوانا منكسة الرأس، وأبناء النيل يتشبثون بالجسد الضخم بمتعة، أو يحبون نحو مياه البحيرة كأنهم ضفادع تتوق إلى ملامسة الماء.

يرى فريد أبا الهول، برأس فتاة ذات كبرياء فرعونية، وبجسد أسد يتكئ عليه النيل بجلال، ومن جوار أبي الهول تقف كأس على شكل قرن حامل لعناقيد عنب، يجلس عليها طفل صغير معافى الجسد. يمعن فريد النظر بعيني النصب المحدقتين إلى الأفق البعيد، ويتخيل هذا الرجل نهر دجلة، وكثيرا ما فكر أنه لو أمكن له نحت نهره لبدل تفاصيله تماما: سيكون هناك بقر، وفلاحون، وثمار بطيخ، وقرون باميا، وأسماك طالما تذوقها في مواقد مطاعم أبي نؤاس وسط بغداد، مع خمرة العرق المقطر من التمور.

ومن المؤكد أن فريداً لا يختلف عنا، فجميعنا ننتمي إلى الماضي، وربما هذا بالتحديد ما حكم علينا، طوال السنوات الفائتة، بالاستكانة داخل دائرة وهمية تضع حاجزا غير مرئي بيننا وبين هؤلاء البشر الذين استقبلونا ذات يوم، ووفروا لنا الخبز والطمأنينة. كان يمر بذلك النصب كل أسبوع مرة على الأقل، حين يذهب إلى مقهاه أو حين يقرر المرور بالمحال العربية للتفرج على البضاعة. يعنّ له أحيانا جلب قطع الخبز ليجلس قرب نباتات البردي والقصب النامية على ضفاف البحيرة، ليبدأ بإطعام البط والنوارس والإوز الذي يصادف مروره قرب الشاطئ، خاصة أوقات الغروب. كان يسميه داخل نفسه، "الغروب

النحيل"، حيث تدهشه المصابيح الليلية المحيطة بالبحيرة بأقسامها الأربعة، وتلك الانعكاسات الساحرة في المياه، في الشتاء خاصة حين يدرج الضباب على المياه، معيدا إياه إلى سنوات النشأة الأولى. يمتلئ عند مراقبة غروبه النحيل بنشوة روحية تشبه نشوة كتابة الشعر. حتى يحس بنفسه بعض الأوقات، وقد تحول إلى كائن أثيري. هل يمكن أن يكون شبحا من أشباح الفايكنغ بعث من مقبرة نوربرو؟ أو مقاتلا من مقاتلي الملك الأشداء؟ لا بد أنه يعيش في زمن آخر، لكنه يخفق في تحديده. هل هو في زقاق من أزقة الحيدرخانة، أم حانة من حانات شارع الحمرا البيروتي؟ هل عاش حقا ستين سنة في دهاليز هذا الزمن؟

كلنا يعرف أنه يتعامل مع حياته بعبث منقطع النظير، قد يكون فشله في أن يقدم شيئا مهما في الشعر هو ما انتهى به لهذه النهاية. ومن هنا صار موت فريد نافع قصة تروى بيننا، فاجأ الجميع، وحملنا إلى الاشتراك في جنازته. ثمرة أخرى تسقط في سلة الغياب الأبدي. كان يخشى تلك اللحظة في السنتين الأخيرتين كما لو أنه يهجس باقترابها، ويتحدث عنها لأصدقائه القليلين، لحظة دخوله إلى السرير، فما أن يهيئ نفسه للنوم حتى يمتلئ بإحساس، بل بيقين داخلي، أنه لن يفيق صباحا. وما يخيفه فوق ذلك كله، هو فكرة الدفن في أرض غريبة باردة، يثقلها الثلج في فصل الشتاء، حيث لن يزور قبره أحد بعد عشرات السنين من موته. لهذا أوصى صديقه علي الشمري وصية غريبة لم نألفها قبلئذ، ألا وهي حرقه بعد الموت، كي يتحول إلى رماد تنثره الريح على وجه البحر. وفي الحقبة الأخيرة من وجوده، كانت أيامه ترقص على حافة الموت. وهذا ما دفعه لقضاء يوم أو يومين من كل أسبوع لدى واحد تبقّى لديه من الأصدقاء، وظل وفيا له حتى النهاية. إنه علي الشمري. "فالموت يهرب من علي الشمري، ولا يقترب منه، وجهه بشع لدرجة أنه يخيفه ولا يجرؤ على الحضور إلى بيته..." عبارة، كثيراً ما يرددها فريد على مسامع مجالسيه متفكهاً، لذلك، كان ينام عنده بعمق، وراحة تامة.

٢٥

بعد وصوله إلى مستقره النهائي في مقبرة "فالبي" سألناه أكثر من مرة عن الأيام التي سبقت موته، فأخبرنا بأنه كان موقنا باقتراب أجله، شعر بذلك من العلامات التي كانت تعبر أفق خياله بين لحظة وأخرى، وكيف انفصل تماما عما يجري حوله. فقد طعم القهوة، ولذة الشعر، ومنظر الورق في أعالي الشجر، وجمال الضوء المنعكس على سطح البحيرات، ومذاق الشاي، ورتابة الأصوات لدى الأصدقاء، ولم يعد يتحسس الفتنة في وجوه الصبايا العابرات نحو المدينة، وكره النوم وكوابيسه، وكان من كل ذلك يتنسم رائحة العالم الآخر كل صباح، كما قال بأسف.

والهزائم العامة عادة ما تصير بعد تراكمها هزائم شخصية، واكتشف أن حياته كانت سلسلة من الهزائم التي وجهناها له.

وقتان كانا يسحرانه أثناء طيرانه فوق ذرى أشجار الجوز البري وصفصاف المقبرة هما وقت الغروب وسماه "الغروب النحيل" لكثرة ما حدق فيه، وغذى خياله بالإيحاءات، ووقت الفجر، حين ترتدي الموجودات في الأسفل رداء شبحيا، دخانيا، أقرب ما يكون إلى بكورة الخلق. وكان يصمت أزاء كل الأسئلة التي وجهناه له لمعرفة تاريخه الحقيقي في تلك الحقبة من عمره الأرضي. اتصل بالمخرج علي الشمري في اليوم الذي سبق موته وأخبره أنه سيأتي لقضاء ليلة في بيته. كان خائفا، ذلك الخوف المنذر بنهاية ما، وصل إلى بيت علي عصرا، في نهار صيفي طويل، لا تغيب شمسه حتى تدق الساعة الحادية عشرة ليلا، وعلي يعرف طقوسه جيدا. حضّر له السلطة واللبلبي واللبن مع الثوم، ووضع أمامه دورقا من العرق اليوناني، وقطع ثلج مكعبة في إناء بلوري أنيق، مع كأس طويلة مضلّعة السطح. فريد لا يأكل مع المشروب سوى ذلك، ولكنه اتفق معه

على أن يدخن في الشرفة فقط، فعلي ترك الدخان قبل أشهر بعد أن أصيب بنوبة قلبية خفيفة سببها انسداد شريان صغير في جدار القلب. أصبح هذا المرض شائعا بيننا. وقد انتقل علي إلى بيته منذ فترة قصيرة بعد أن طلق زوجته السورية، وترك معها بنتين صغيرتين. ويقع البيت في الطابق الرابع، يصله علي عبر مصعد ضيق من الزجاج. رتب بيته كما لو أنه يرتب منصة عرض مسرحي، كل شيء في مكانه الصحيح، المكتبة احتلت غرفة صغيرة بأكملها، وهي حصيلة أكثر من ثلاثين سنة من جمع الكتب، ثلاثين سنة من العيش في هذا البلد. جاءه شابا، وكلل الثلج رأسه من سنوات خمس خلت، فاضطر إلى صبغه باللون الأسود.

جدران الصالون زينها بلوحات تشكيلية لأصدقائه الفنانين، عراقيين وعرب التقاهم أو عرفهم أو زار معارضهم في إيطاليا، وفرنسا، والمغرب، ولبنان. ويعتقد أن تأمل لوحة فنية يبعث الصفاء في روح الفرد، فالتناسق، وتناغم الخطوط والألوان على القماش سرعان ما ينتقل إلى عقل المشاهد، وهو سبب ذلك الشعور بالصفاء، ودأب علي، بعد سنوات من العيش في العاصمة، على زيارات دورية لأهم متحفين فيها. متحف الفن الحديث القريب من قصر الملك والحديقة الملكية، وكان يجد فيه أجنحة فخمة لأهم الرسامين المعاصرين. يقف أمام لوحاتهم ساعات، ويمكنه أن يحس بالتغير الذي تحدثه في نفسه كلما غادر تلك الأجنحة، تغير يقوده إلى صفاء متسام بنغمات تصوفية، وكان يعده سحرا خالصا. والمتحف الآخر القريب إلى ذائقته وكان يغذيه بالمعلومات التاريخية وجماليات المنحوتات القديمة والآثار، هو المتحف الوطني الملاصق لحدائق التيفولي، مرة كان برفقة كمال الشاعر قبل أمسيته حول المغتربين بشهر تقريبا. كما لم يفوّت معرضا سنويا للفن التشكيلي من دون أن يزوره، مع إيمان حقيقي بأن رسالة الفن ورسالة المسرح تمضيان إلى الهدف نفسه، أي انتشال البشر من أصولهم الأرضية، والطيران بهم نحو سماوات الخيال والمغامرة والحلم. وكما لو أن الصالون قاعة عرض تشكيلية، ثبّت على كل

لوحة مصباحا صغيرا، يلقي نوره الخفيف على الألوان والشواخص والخطوط، بينما وضع سريرا ضيقا في نهاية الصالون للضيوف الطارئين، وهو السرير ذاته الذي اعتاد فريد النوم عليه عند كل زيارة. غرفة نوم علي له وحده فقط، ونادرا ما أتاحها أمام ضيوفه. ينفتح من عمق الصالون باب يؤدي إلى الشرفة، وهي ممر ضيق بعرض مترين فقط، لكن عليا أغلق الفضاء الخارجي بزجاج شفاف يعرض مشهدا شاسعا للمنطقة التي يعيش فيها.

على الحافة العريضة لسياج الشرفة وضع علي منفضة السجائر لفريد نافع، مع كرسي مريح يوفر إطلالة على الخارج. يعد له كأسا من العرق اليوناني، ويمسكها بيديه الاثنتين كما لو أنه يخشى عليها من الطيران، يرتشف منها رشفات صغيرة، يعقبها بملعقة من محتويات الصحون المتناثرة على الطاولة الزجاجية الواطئة. فريد لا يحب الصمت، ولا يريد سواه متكلما، وحديثه دائما عن شخص ما، سواء ممن يعرفه في فترة إقامته هنا أو من أصدقائه القدامى، وإن تعذر ذلك فيروي نتفا من حياته التي قضى شطرا منها في بغداد وبيروت، وعلي اعتاد على أن يكون مع فريد مستمعا فقط. أخبره أن يومه كان سيئا، فثمة ألم في معدته شعر به منذ الصباح. "أمامك خياران لتفادي الموت"، قال له علي وهو يشاركه كأسا من النبيذ الفرنسي أثناء ما كان يتنقل من المطبخ إلى الأريكة جوار فريد، "ترك الدخان، والعودة إلى كتابة الشعر". فنظر فريد إليه بعينيه الواسعتين الحادتين، وأطلق ضحكة عالية بدون أن يرد، فكلا الطلبين مستحيل. كان فريد يأمل أن يزول الألم مع تناوله للكحول، كما جرب سابقا. لكن الألم لم يزل. الحياة تعاقب البشر إذا ما تمادوا في تطرفهم، تدق لهم الناقوس بخفوت في البداية، ثم تقرع بصوت عال، لكن هذه البديهية لم تكن في حسابات فريد يوما ما. رفض المسرات، الصغيرة والكبيرة، رفض للحياة، وهذا ما يفتح الباب واسعا لسنابك الموت. فريد وصل إلى هذه المرحلة من تعامله مع جسده، ورأسه المحشو بالأفكار السود، ومحيطه المفروض عليه وخيباته الممتدة حتى نهر دجلة. بعض من أصدقائه كان يدرك هذه الحقيقة،

ومنهم علي، لكنه يعرف تماما أن لا فائدة من الوعظ والنصيحة. كان علي مترجما له مع الأطباء، قبل ما لا يحصى من السنين. ولبثت علاقتهما بين مد وجزر خلال أكثر من عقد. يتصل به كلما احتاج إلى مترجم ليتفاهم مع البنك أو مشرف البلدية حول قضية تخص السكن أو مراجعة المستشفيات. وحين يحل الصيف وتزهر المدينة بالسواح والألعاب والحرارة الناعمة، يدعوه للجلوس على كتف قناة "الميناء الجديد" قرب المسرح الملكي، يضعان بضع قناني من البيرة بينهما، ويقضيان الوقت بتأمل السفن القديمة الراسية في القناة، ويستعيدان حكايات الأصدقاء ونوادرهم، ويهيمان بوجوه الفتيات المراهقات بعد أن تخففن من ملابس الشتاء وانكشف بياض أجسادهن المشع بالشهوة.

رحلة فريد قد شارفت على النهاية، وأن أمرا ما يدور في ذلك الجسد الهش المتكوم على الأريكة في الصالون، ورائحة الموت يشمها عليّ في أرجاء بيته كلها. نهض فريد واتجه إلى الشرفة، أشعل سيجارة وأخذ يدخنها بنهم، مجيلا طرفه في اللوحة الضوئية المنفرشة في الأفق الليلي، رأسه خال من الأفكار، هواجس موته تتشكل في تلك اللوحة الضوئية البعيدة المتراقصة مثل قدر أعمى، الألم يتصاعد في بطنه، ويمتد قليلا قليلا إلى الأعلى. أنهى سيجارته واتجه هذه المرة نحو المكتبة، وكأنه يهرب من ألمه، ووقف يفكر بهؤلاء المختبئين بين الورق علّه ينسى الألم الغريب والمفاجئ في معدته وصدره. عرف بعضهم، سمع بالبعض الآخر، وتحسر بأسف على ذلك الزمن الجميل حين كان حشرة كتب، يلتهم كل ما يصل إلى مكتبات شارع السعدون من مطابع مصر، ولبنان، وسوريا. لبث أكثر من نصف ساعة وهو يستعرض العناوين والمؤلفين. ذاك عالم لم يعد عالمه. وفي مفاجأة عابرة وقعت عيناه على ديوان شعر لكمال، سماه، "وحدي سافرت غدا"، استله من بين الكتب، وتصفحه هنيهة، بعدها أطلق ضحكة سمعها علي من المطبخ، وقال بصوت عال: اسمع هذا اللغو، كيف لشاعر الجمع بين الماضي والمستقبل، لا يحدث هذا إلا لدى شعراء النثر المأبونين،

يعتقدون أنهم يمتلكون الحق في تحطيم اللغة ومنطقها، والزمن وتسلسله. يعتقدون أنهم سحرة اللغة. وجلّهم فقاعات صابونية تنفجر ما أن تمسها الأصابع. أغلبهم عبيد لما يترجم من شعر أجنبي. يقرأ قصيدة لرامبو ثم يركض إلى القلم ليكتب لغوا على منوالها يسميه قصيدة نثر. يقرأ مصادفة رواية لكافكا فيتخيل روحه وقد تحول إلى صرصار. تمطر في موسكو ونرفع المظلات في بغداد. أنا متأكد من أن صاحبك كمال لم يقرأ الجاحظ وأبا حيان التوحيدي ومقامات الهمداني، وأشك أنه اطلع على معلقات زهير بن أبي سلمى ولبيد وعنترة العبسي. لا يمكن لشاعر ركيك مثل هذا يكون قرأ لؤلائك الأفذاذ وإلا لجاءت جملته رصينة مثقلة بالبلاغة وفنون السرد العربي الذي نشأنا عليه. ثم تحت دهشة علي ألقى الكتاب على الأرض وطفق يدوس عليه بقدميه، وهو يردد:

- سافرت غدا، سافرت غدا، أكلت السمك غدا، سأبول على العالم البارحة، ما هذا اللغو يا صديقي. هل تعتبر نصب النيل القائم على كتف البحيرة فنا، وهذا الهراء فنا؟

- لا يصح المقارنة بين الكلمات والبرونز، قال له علي وهو يحتسي كأس النبيذ. أنت كمن يقارن ملحمة جلجامش بالأهرامات، أو حياتنا هنا مع الجحيم هناك.

وكأن فريد كان ينتظر هذه اللفتة فألقى عليه موعظة عصماء طويلة، تتضمن الجدوى من الاستمرار في الكتابة بعيدا عن الوطن: " لمن تكتب؟ لعاهرات "استيد كاذا"؟ لحشاشي كرستيانيا والميناء الجديد وبارك فيليباركن؟ أم تكتب لهؤلاء الضائعين من جماعتنا ممن رقدوا داخل الدائرة وتحولوا إلى ديدان تبحث عن طعامها في أروقة البلديات؟ تكتب شعرا وقصة ورواية ثم تنتظر كتابك أن يسافر آلاف الكيلومترات نحو الشرق، لتتلقفه أياد مشغولة بالضغط على الزناد؟ سخرية أن لا نرى الكذبة الكبيرة التي نعيشها. ما أجمل

هذه النخبة التي نتوجه إليها بشعرنا ومسرحياتنا. مراد المدمن على المخدرات، هذا الأهبل الذي ابتكر نظرية السلب والايجاب، كما لو كانت رسالة سماوية انتظرتها هذه البلاد عشرات القرون، لتتحقق معجزة غير مسبوقة على يديه الخفيفتين بالسرقة. أم حازم الأعرج المهموم بفتح دكان يبيع فيه الدخان والبيرة والشوكولاتة، حالما ببناء قصر في مدينة مولده المعفّرة بالغبار. أم ذاك الثوري محمد خوجة الذي صدع رؤوسنا بالصراع الطبقي، ومقارعة الإمبريالية، لينتهي متسكعا على موائد أقبح نظام ديكتاتوري عرفته البشرية؟ قلبي يرتعش مع الريح يا علي، أحسه وأشعر به كما أراك وأنت تقف في المطبخ. وصديقك كمال الموهوم بأنه كاتب عظيم متعدد المواهب، ويعيش في كنف عجوز تصرف عليه من راتبها؟ هذا عالم من الوحوش، آلاف البشر تقتل كل يوم، وملايين يقطعون الصحاري والبحار مشيا على الأقدام باحثين لجلودهم عن غرفة للنوم، وأفواههم عن كسرة من الخبز".

ويتصاعد في بطنه الألم مع تصاعد انفعاله في الحديث، حتى لم يعد بإمكانه مواصلة الكلام. علي من المطبخ يسمع مذهولا لهذيان فريد، وظنه سكت مختنقا من الانفعال فبادر راكضا إليه، وألفاه مائلا على الجهة اليسرى ويده تمسك بصدره وبطنه، وكان وجهه كامدا من الألم. هيأته كما بدت لعلي وكأنها توحي بالرحيل. الجسد الناحل المسلول يلقي تحية الوداع على حقول الشعر. هاجسه الذي لم يرغب في تصديقه. واستمر الألم يتصاعد بدون توقف، حتى كأن البيت كله مشبع بالألم. وكان مستشفى الضاحية قريب من البيت، وهو المكان اللائق في هذه الساعة لنقل فريد إليه، وقد بدت حالته بمجملها لا تسر، ولن يغامر بانتظار المعجزة. أجبره على النهوض، وخرجا إلى المصعد ببطء، فريد يتكئ على علي وهما ينقلان خطواتهما بتؤدة وحذر. استغرق الوصول إلى المستشفى نصف ساعة تقريبا. اتجه به علي إلى قسم الطوارئ، وأدخلوه فورا إلى الفحص. قرأ الطبيب ملفه الصحي فلم يجد شيئا خطرا في الملف، سوى بقايا مرضه القديم ذاته. فحص الضغط والحرارة

والنبضات القلبية فكانت طبيعية كلها، ثم سأله الطبيب عن الطعام، فشرح علي للطبيب أنواع الأطعمة التي أكلها. ناوله الطبيب حبوبا ضد المغص وحرقة المعدة وأرسله إلى البيت. لدى وصوله للبيت، وإثر طمأنة الطبيب، هدأ قليلا، وحاول معاودة الشرب لكن عليا منعه بقسوة، وأجبره على أن يأخذ حماما ساخنا علّه يخفف من الوجع. رتب له سريره، ووضعه فيه وغطاه بلحاف قطني خفيف، ومضى إلى غرفته.

وعند منتصف الليل تقريبا، فاق علي على صراخ فريد يشرخ هدوء البناية. مضى راكضا إليه مرتعبا من أنينه، وأضاء النور، فوجده جالسا وسط الفراش بهيئة مقلقة جدا. ألفى لون وجهه وقد صار كامدا، وتعابير ألم جادة وعميقة تنتشر على قسماته، فيما شاع في بشرته لون يكاد يقترب من السواد. ثمة أمر غير طبيعي يجري للرجل، فكر علي. لا يمكن أن يكون مغصا. واتصل ثانية بالطوارئ، وشرح لهم الحالة التي عليها صديقه، فقالوا سنرسل له سيارة إسعاف خلال دقائق. وبدأ القلق العميق والجاد يستولي على علي فعلا، فهذا ليس فريد الذي يعرفه. إنه يطل عليه من عالم آخر. نظرته ضبابية، جلده كامد، جسده مستسلم لأصابع داخلية تمزق أحشاءه. أصابع غير مرئية عديمة الرحمة. هل حلت نهاية الطريق؟ وسيغيب شاهد آخر من شهود عصر الحروب الأهلية، والثورات المقتولة، والأحلام الشعرية المتوجة بالفشل. أجل، الشهود يغيبون ولا تبقى سوى آثارهم.

وصلت سيارة الإسعاف بعد ربع ساعة، ثمة مسعفان نقلا فريدا فورا إلى السيارة. مدداه على السرير الضيق المحاط بآلات طبية غريبة. وما لاحظه علي هو انتشار لون كامد في صدره ورقبته وجسده، وفهم من المسعفين أن الأمر لا يتعلق بألم في البطن بل بمشكلة كبيرة في القلب. وبعد أن دوّنا رقمه الوطني، واطلعا على ملفه الطبي، أخبرا عليا أن صديقه أصيب بسكتة قلبية حادة، وسيزرقانه بإبرة منشّطة، علّه يستعيد وعيه، وقاما فعلا بذلك. وأثناء تلك

الثواني الممتدة مثل قرن، سقط فريد في غيبوبة مفاجئة، ثم انطلقت السيارة بسرعة هائلة، في شوارع فارغة، وعلي يقرفص جنب السرير حائرا في تفسير ما يجري. الأشياء تتواتر سريعا وكأنها في فيلم سينمائي. وما أن بانت أضواء واجهة المشفى حتى عرف من المسعفين أن فريدا قد فارق الحياة. أخبرهما الجهاز بذلك. في البداية لم يصدق الخبر، وتأكد له الموت من الطبيب المناوب الذي حدثه بصوت حزين عن النهاية، وها هو شاعر آخر يتوارى من معارفه. قال له الطبيب لا حاجة لبقائك هنا سندخله إلى صالة التشريح لنعرف سبب الموت بالضبط، والأفضل أن تذهب إلى البيت. الموت يقع مثل صاعقة على الجميع كلما أخذ واحدا من المعارف، كما لو كان يحدث أول مرة في الحياة. كان فريد قد أسرّ لعلي ذات يوم أنه إذا ما مات فجأة فعليهم حرق جثمانه، فلا يريد أن يدفن في هذه الأرض الباردة. وحين اتصل بأخيه وأخبره عن موته، وعن رغبة فريد في الحرق، رفض رفضا قاطعا تنفيذ وصية فريد: "مهما تمردنا على التقاليد، وحتى لو كنا شيوعيين لا نؤمن بوجود خالق، لكننا نتبع الطقوس عند الموت".

تجمعنا في ظهيرة اليوم الذي أعقب موته في مقبرة فالبي، وبعدد لا يتجاوز الخمسين شخصا، رؤوسنا بيض، وقاماتنا مثقلة بآلام الظهر، وضخامة البطون، وثقل السنين، وجبال من الخيبات. وجدنا القبر جاهزا، وانتظرنا خروج النعش من الكنيسة القريبة، حيث غُسِلَ وكُفِنَ حسب الطقوس الاسلامية، ثم وضع في تابوت خشبي أنيق، وحملته سيارة الدفن نحو القبر. انتهت حياة فريد في أخدود ضيق وسط أرض غريبة، لكنه "كتب قصيدته الأخيرة"، هكذا رثاه صديقه علي، قبل أن ينفضّ الجمع في ذلك اليوم.

أخبرنا وهو يتأمل غروبه النحيل فوق مقبرة فالبي أنه، ومنذ وصوله ذات سنة إلى هذه الجزر، كان يخشى لحظة مثل تلك، أن يدفن في غير بلده، وكان ممتعضا من أخيه بشدة كونه لم ينفذ وصيته.

٢٦

مصير فريد الحزين لم يكن الوحيد في تلك السنة. صديق آخر لنا كان يقطن في تلك المدينة البحرية التي هجرها ليث قبل سنوات، وانتهت به الرحلة في كندا الباردة، تحول إلى مشرد. ترك بيته الذي أعطته له البلدية وقطن الشوارع، شتاء وصيفا، نمت لحيته وتمزقت ملابسه، وحمل ما يحتاجه في مرحلة تشرده تلك في عربة تسوق، سرقها ذات يوم من سوبرماركت "دالاس" الذي اعتاد الجلوس في مقهاه طوال سنوات الصحو والعقل. قيل لنا أنه لم يبق من ملامحه القديمة إلا عيناه الواسعتان، لكنهما استحالتا إلى فحمتين متوهجتين، ثابتتي التحديق بسفن الميناء، وأمواج البحر المتلاطمة، وذرى أشجار السرو النامية منذ القدم على كورنيش البحر، البحر الذي ودع ليث بنوارسه المصطخبة إلى الجزر البريطانية.

وصل صديقنا المشرد قبل مدة قصيرة إلى مكاننا هذا جثة باردة حيث المقبرة، استجوبناه طوال ساعات الليل عن تجارب عيشه في الشارع، والوقت المستغرق لإنهاء رحلة الموت حتى الوصول إلى قبره طازج الطين وقد حفرته له البلدية ودفنته فيه قريبا منا، وهو يقع تحت شجرة كينا عملاقة. ولاحظنا أنه لا يحضر مجلسنا الليلي الذي يتم عادة بعد غياب الشمس واختفاء الضوء. وجدناه مختبئا أكثر من مرة قرب شاهدة قبر صديقه القديم أبي ليلى. كان متكتما، حتى صعب علينا معرفة إلى أي من المدن والبلدات ينتمي، وما هي المصاعب التي عاشها هناك في العراق. هل حارب في الجبهة، أم كان في زنزانة وأفرج عنه بعفو رئاسي؟ كما رأيناه أكثر من مرة لابدا بين الأغصان، هناك في أعلى شجرة الكينا، واعتقدنا أنه يود مراقبة السماء من ذلك الارتفاع، كما لو أنه يحلم بالوصول إلى نجمة بعيدة. وذات ليلة صاحية السماء رصدناه يحدق ب"مقبرة المقاومة" كما سموها، وهي مقبرة لا تبعد كثيرا عن مقبرتنا الإسلامية،

لكنها أكثر أناقة، وهي ملاصقة للطريق العام الممتد حتى الميناء الجنوبي. عمدت الحكومة إلى وضع تلك القبور بنسق منظّم، ثم كتبت اسم كل شهيد على بلاطة بيضاء، ينتصب جنبها صليب أنيق من الحديد غير القابل للصدأ. كانوا آلافا، سقطوا أثناء مقاومتهم للجيوش النازية التي احتلت الجزر أثناء الحرب العالمية الثانية. لم نكن نعرف بالضبط سبب تحديقه المتواصل بتلك القبور، وفسرنا الأمر على أنه معجب بشجاعة أولئك البشر، وإصرارهم على مبادئهم، حتى أنهم دفعوا حياتهم ثمنا لذلك. نحن من جانبنا هزمتنا الحروب واستكنا إلى الهروب. نعم. هربنا من المواجهة. وفي فجر مضيء، وكانت نجمة الصباح معلقة في الأفق، أكبر من أي نجمة رأيناها في حياتنا السابقة، شاهدنا صاحبنا سابحا على قمة شجرة ضخمة قرب الكنيسة، أفرد أعضاءه هاما بالطيران، وهو منظر استغربنا منه كثيرا، فسألناه عما يفعله والشمس توشك على الشروق، فرد علينا بألم:

- أرغب في الهروب من هذه الأرض. لم أعد أحتمل.

- لماذا تريد الهروب وتعشقه على هذه الشاكلة التي لم تحدث لأحد منا سابقا؟

فأجابنا بجدية صارمة:

- الأرض مليئة بالمآسي والشرور، مليئة بالمظالم والحروب، الفقر والجوع، والتعاسة، جميع من التقيتهم في حياتي القصيرة كانوا يعانون، ويبدو أن لا راحة لمخلوق قط على هذا الوجود الترابي. وسأهرب إلى كوكب آخر، أو ربما نجمة ثانية تختلف عن نجمتنا هذه.

نالنا العجب من حججه، ولم نحر جوابا، فتركناه في حاله، لكننا لاحظنا عودته إلى مكمنه ما أن طلع أول شعاع للشمس. هنا في هذا المنتجع المعزول، مقبرتنا الأزلية، كنا نستقبل بين فترة وأخرى واحدا من أصدقائنا الذين

عرفناهم حين كنا نعيش في تلك الجنة الأرضية، نجتمع حوله ليقص علينا حكاية جديدة لم نكن نعرفها.

ظهيرة هذا اليوم وكنا نتوارى في منتبذاتنا العميقة، أحسسنا بوفود أربعة أشخاص، تجولوا على القبور وهم يقرؤون الأسماء بحسرة، وكانوا يحملون قنينة صفراء، راحوا يحتسون منها، ويتذكرون رفاقهم النائمين في هذا المكان: الشاعر المدفون حديثا، والممثلة المسرحية الغائبة عنهم منذ سنة وكادت أن تؤدي دور الغريبة في مسرحية "الكابوس"، والملحن الكبير عازف العود الذي انتهى معزولا في شقة بائسة صرف أيامه فيها بجمع الأشياء العتيقة من تحف وتسجيلات موسيقية وكتب تراثية، وأنواع الراديوات، وأقراط الآذان. انتهت جولة قطيع الأحياء عند قبر الممثلة المثبتة صورتها على رأس القبر، وجميعنا يذكر أن "نماء" ماتت في الخمسين من عمرها، وظلوا جالسين سويعات حتى أنهوا شرابهم ثم رحلوا، وتحسرنا نحن على تلك الطقوس البعيدة التي أصبحت لنا مثل حلم صيفي. صرنا في تلك الفترة نتفقد بعضنا بعضا كما لو كنا نحس باقتراب ساعة انقراضنا. لنفسح المجال لجيل آخر، قد لا يمت إلينا بصلة متينة. رحنا نتسرب من منخل الحياة مثلما يتسرب خليط الرمل والماء، مما دفعنا إلى أن نفتش عن بعضنا بهوس الشيوخ وتشبثهم بما تبقى لديهم من أيام، وسنين، على هذه الأرض، وبظل قناعة راحت تتخمر فينا لتتحول إلى شلل داخلي من أن دورنا في هذا السباق الطويل قد انتهى. أصبحنا مثل فراخ ضعيفة تتجمع فيما بينها ناشدة القوة. نفتش عن حكاياتهم، ومصائرهم، وقصصهم، بهاجس من لا يريد الانقراض.

افتقدنا أبرز اثنين من أصدقائنا في اليوم الذي دفنا فيه فريد نافع، وهما نائل وكمال، وقد حدثنا نائل، بعد أيام من الدفن، بأنه لم يتمكن من الحضور إلى المقبرة لأنه كان يعمل على الباص، وقد كثّف من ساعات عمله الإضافية حيث راح يشتغل حتى في عطلة نهاية الأسبوع، لأن في ذهنه خطة للسفر إلى

المغرب، فهو يرغب في أن يتمتع بإجازة طويلة هناك، منتصف الصيف، وهو في حيرة بين اختيار "طنجة" أو "مراكش"، برغم أنه يمتلك أصدقاء في كلا المدينتين. وقد يبحث عن زوجة هناك قال ضاحكا بمزاج غير معهود. وأكد لنا أنه زار قبر فريد نافع بعد أسبوع فقط من دفنه، مضى إلى مقبرة فالبي، ووصل إلى الزاوية الضيقة التي شكلت بقبورها المتراصة ما عرف بيننا بالمقبرة الإسلامية. لم يكن الاستدلال على قبر فريد بالأمر الصعب، فالتربة لم تزل طرية، وهناك رأى صورة كبيرة له بشاربه الحليبي، وعينيه الواسعتين الحادتين، وربطة عنقه الأنيقة، إذ حرص على ارتدائها تحت مختلف الظروف، حتى انطلقت شائعة طريفة حول الأمر تقول إن فريدا لا ينزع ربطة العنق حتى وهو في السرير. وتساءل مع نفسه ساخرا إن كان دفنه قد تم مع ربطة عنقه تلك، أم لا؟ أبرز ما في الصورة ارتداؤه قبعة روسية عالية، أظهرته كما لو أنه ينتمي إلى الشيشان أو داغستان. وجد عددا من مزهريات بلاستيكية ضمت باقات من الورود، بعضها حقيقي وبعضها مصنّع، تراصت على جانبي القبر، وكتب على بلاطة حجرية مؤقتة اسمه ومهنته، مع مقطع شعري من ديوانه غير المطبوع الذي سماه "الغروب النحيل".

كمال الشاعر لم يحضر الدفن لسبب آخر مختلف تماما وجاء على لسان نائل. في تلك الفترة كان يعمل على الباص رقم واحد، وهو يربط جزيرة آما بضواحي العاصمة. توقف الباص عند حافة جسر "كنيبل" الرابط بين المركز وجزيرة آما، وكان الجسر قد ارتفع للتو نحو السماء ليتيح العبور لسفينة تتجه إلى الموانئ الداخلية للعاصمة. وكان الجسر يقف أمامه مثل جدار، هو وخطوطه البيض المحددة لاتجاهات السير، ومصابيحه المطفأة التي اتخذت شكل كؤوس مقلوبة، وسياجاته الحديدية المقشرة الطلاء. وكان نائل يسترخي على مقود الباص، مشغولا فيما يراه في السماء من طيور تتراقص فوق الجسر، السنونو الأبيض الخالد، والغربان المتجهة نحو غابات كرستيانا، وتلك الملوّية

الغريبة التي نبتت في هذا الجزء من الكوكب، والغيوم البيض السابحة في السماء وكأنها كائنات حية.

لم ينتبه في البداية إلى المرأة الواقفة جنبه. لكنه حين خرج من شروده، وحدق جيداً بالوجه، لبث لحظة يركز في تفاصيله، فالوجه سبق له أن عرفه في مكان ما، وجه مألوف لديه، إلا أنه لم يستطع ربط السمات باسم بعينه عرفه سابقا. بادرته المرأة وكأنها أدركت التباس ذاكرته، فقالت له مع ابتسامة لطيفة:

– نعم أنا "ميتا" ألا تتذكرني؟ صديقة كمال الشاعر.

وعادت إلى ذهنه مساحة المعرفة كلها، وتذكر ليالي اللقاءات في بيتها، فبادرها بالقول:

– أجل كيف حالك؟ مر الزمن راكضا منذ آخر مرة التقينا فيها، كيف هي أخبار كمال؟

– لا تسر، قالت له بألم، وهي تعدّل نظارتها على أنفها، لقد خرج من حياتي.

لم يتوقع نائل هذا الرد، وسألها عما حدث، فأجابته بألم واضح: طردته من بيتي قبل أكثر من سنة، وما حدث هو أن ابنة أختي الصغرى، وعمرها أثنتا عشرة سنة، كانت تزورني بعض الأحيان في عطلة نهاية الأسبوع، وذات يوم تركته معها وذهبت للتسوق من محل النيتو القريب من بيتنا، وخلال هذه الفترة، وهي لا تتجاوز الساعة، حاول كمال اغراءها، وتحرش بها بصفاقة. تخيل أن رجلا في عمره يتحرش بفتاة غرة تعتبر طفلة في مقاييسنا. وجدتها تبكي، وروت لي ما حاول كمال عمله بها. تخيل أنه أخرج عضوه لها. وأشد ما أرعبها عيناه السوداوان، المخيفتان، وهما تستعران بشهوة الاغتصاب. هذا

شخص مريض، طردته في اليوم نفسه، من روحي ومن بيتي. أخرجت كل ما يتعلق به من كومبيوتر، ومسجل، وملابس، ومتعلقات تخصه، وقذفتها خارج الباب، وقلت له سأكون لطيفة معك ولن أخبر الشرطة، لا أريد أن أؤذيك. تعرف أن تهمة التحرش الجنسي مع الأطفال يعاقب عليها القانون ببضع سنوات من السجن. قلت إنه غريب في البلد، ولن أتسبب بسجنه، وأفضل طريقة لمعالجة الموضوع هو القطيعة، وهكذا تخلصت منه. لكنها كانت تجربة رائعة، وضعتني على المحك.

وفي هذه الأثناء بدأ الجسر ينزل من عليائه، وظل نائل صافنا يحدق بخجل، وذهول، في وجه ميتا. لا يعرف ماذا يقول، وتذكر أنه لم ير كمال منذ فترة طويلة، والآن عرف سبب غيابه.

هذا آخر ما كنا نتوقعه من شخص كنا نعتبره متصوفا من أتباع محمد إقبال، ومحي الدين بن عربي، والحلاج، ومن المعجبين بحكمة المتنبي، وأبي العلاء المعري، ويكتب رواية تراجع كل التاريخ الإسلامي منذ تكليف محمد بالرسالة وحتى شنق الرفيق فهد مؤسس الحزب الشيوعي العراقي في نهاية النصف الأول من القرن العشرين. وربما هذا ما جعله يغيب عن المشاركة في دفن الشاعر فريد. فقد سمعنا من مصادر قريبة منه أنه وجد ملاذا في بيت أحد أصدقائه، مع اختفاء غير مبرر عن الحضور بيننا. وأغرب ما سمعناه عنه، وقيل أنه صار يمر بمرحلة نفسية حرجة، يكثر من تدخين السجائر واحتساء الخمور، أنه سافر إلى ستوكهولم عاصمة السويد، وراجع السفارة العراقية هناك، في رغبة للعودة إلى الوطن، أو للهروب من الفضيحة، كما فسر الأمر أكثر من شخص بيننا. بعض من السياسيين مثل جميل البصري، صديقه، كشف عن خوف من أنه سيبوح بأسماء كل المعارضين الذين جاءوا إلى البلد، وقد يعطيهم تفاصيل وافية عن نشاطاتهم، ومحلات سكنهم، مما سيسبب بمشاكل هائلة لعوائلهم في الوطن كما فعلها "أنكيدو" ذات سنة. زيارة العراق،

على أية حال، وبعد الحصار الخانق المضروب عليه منذ سنوات، ما عادت تثير العجب، والنفور، كما حصل قبل سنوات، وعرفنا أن منى ومحمد خوجة وآخرين لا نعرف سوى أسمائهم، كانوا ضمن وفد مضى إلى هناك لإبداء دعمهم لجيش الوطن المدافع عن ترابه، ومائه، وسمائه. التقوا بقيادات بارزة في السلطة الحاكمة، وأخرجوا بيان تضامن باسم الجالية. تغيرت لدينا قناعات كثيرة، وما لا يعقل ويصدق، لم يلبث أن صار بديهيات منثورة في أماكن لهونا، وطاولات حواراتنا. البشر ومعتقداتهم تتغير بتغير الأزمان، وهي قناعة تغلغلت في رؤوسنا على مر السنين، وإن ببطء. البعض نحو الأفضل والبعض نحو الأسوأ.

وبعد تمحيص وتتبع لمصادر الأخبار، من قبل المهتمين بكمال وأخباره وحياته ونشاطه الأدبي، تبين أن قضية مراجعة السفارة العراقية في ستوكهولم لم تكن سوى شائعة، فهو لم يسافر إلى هناك بل قصد الشرق مرة أخرى، وحل في مدينة دمشق. وقد أصابنا الخبر الأخير بدهشة أكبر من القصة السابقة وأشد، وتبين لنا أنها لم تكن شائعة على الإطلاق. سافر هذه المرة بجواز سفر البلد، حصل عليه قبل شهرين من مغادرته لبيت ميتا، وقرر أن تكون دمشق وجهته، وأولئك القريبون من كمال أفادوا أنه يزمع طبع روايته "الوديعة" في دار نشر سورية، وقال آخرون أنه قصد دمشق من أجل البحث عن زوجة، بعد أن بان عليه الكبر، ودب الشيب في شعره، واقتنع بلا جدوى العلاقات العابرة مع نساء البلد.

وكتب أحد أصدقائنا، وكان يقيم هناك مع زوجته وأطفاله، وهو صديق قديم لكمال، يشتغل صحافيا متفرغا لمجلة تهتم بصحافة أيام زمان، أنه التقاه في مقهى الروضة الواقعة في شارع العابد غير بعيد عن بناية مجلس الشعب.

فاجأته سحنة كمال المبيضّة، قليلا، وسماته المختلفة عما يتذكره منه قبل الرحيل إلى الغرب، بشعره الطويل والصلع الخفيف في رأسه، والقلق العميق في نظراته وتعابير وجهه، وفوق ذلك، حركات أصابعه الرفيعة المعتادة على القلم، وأزرار الكومبيوتر لاحقا، وعادة التدخين التي استولت عليه بشكل مبالغ به. أي باختصار سمة المغترب في أرض لا ترى الشمس إلا بضعة شهور في السنة، ويعتبر الثلج وجهها الأزلي منذ عشرات القرون. التقاه مصادفة في مقهى "الروضة" ثم رافقه عصرا، بعد احتساء الشاي إلى شقته التي استأجرها في منطقة الصالحية وتقع في الطابق الثالث. استأجرها لمدة شهر، وهي فترة كافية له، كما أخبره كمال للاتفاق مع دار نشر تطبع له روايته "الوديعة": "هي حدث عمري الأكبر، ورؤيتي لتاريخنا منذ الرسالة وحتى اليوم"، ذكر لصديقه بثقة مصممة.

٢٧

والغرابة في حكاية كمال الشاعر، كما وصلت إلى مجلسنا اليومي هذا، وسط أشجار المقبرة المتسامقة نحو السماء، وضبيح البوم في تلافيف الشجر، ونور النجوم البعيدة، أنها ابتدأت منذ تلك الأمسية غير المخطط لها، في ناد فسيح مزروع الأرض بالثيل، وورود الجوري، ولا يبعد سوى مئات الأمتار من مرقد شيخ العارفين "محي الدين بن عربي"، حيث قاده إليه صديقه الصحافي "زيدون هادي" بعد لحظات من انتهاء أذان الغروب. وصل كمال إلى دمشق قبل أسبوع من تاريخ لقائه بزيدون، وشعر بعد يوم واحد بأن لديه توقا هائلا لاسترجاع معالم هذه المدينة المحفورة عميقا في وجدانه. سبق وعاش فيها بضع سنوات، ووجدها جديدة عليه تماما. مرّ عليها الزمن بلمسات حانية كي يزيدها نضجا، وجمالا. وجدها دافئة، بيوتها ذات واجهات مشعة بأغصان الياسمين، وضوضاء شوارعها في الليل، والشهوة المتفجرة في عيون بناتها. وفسر السبب على أنه يقارنها بسنوات غربته في ذلك المكان الصقيعي، المتجمد المشاعر والأحاسيس. المكان، بدفئه وفوضاه وألوانه، هو ما يحتاج إليه، ويتوق للعيش فيه. كان دائما ما يؤمن بأن ثمة كيمياء سرية بين الروح والمكان، بعض المدن تدخل روح المرء بلا سبب مقنع، وبعضها ينفر المرء منها من دون سبب واضح. أجل، وجدها كما تناهت إلينا الأحداث، مدينة دافئة، ضاجة بالحركة، مفعمة برائحة القهوة، وأحس أن ما يفتقده في هذه الفترة من حياته هو الدفء.

وكان أن زار البيت الذي قطنه ذات زمن، بيت "أم حسن" في مساكن برزة، واستطاع أن يستدل على الزقاق الضيق ذاك، ويلمح الباب الأسود عينه لكن المتقشر الطلاء، فشعر بقلبه يدق دقات سريعة مثل من يقدم على لقاء حبيب، وتاق لأن يطرق الباب ليسأل عن أم حسن، صاحبة البيت، يطلب منها الدخول إلى الحديقة الصغيرة المزروعة بالورود المحيطة بباب خشب لتلك الغرفة

القديمة. غرفته الفقيرة، ذات الباب الخشبي المشقق، المنفتحة على حديقة البيت، لم تفارق خياله يوما.

وقف أمام الباب الأسود مترددا، خائفا، وفي دقيقة فقط عادت به ذاكرته إلى مقطع مهم ومشوّق من حياته. يكاد ينسى متى طوح به إلى الشام في تلك السنة، كل ما يتذكره هو أنه جاء من مطار طهران ذات يوم بورقة عبور "ليساباس"، لا يمتلك سوى حقيبة ملابس، وبعد سكن مؤقت في مساكن الزاهرة، كتب عليه أن يجرب أحياء المدينة كلها، العتيقة منها والجديدة، النائية والقريبة، إلى أن قيض له الحلول كطائر غريب في ذلك الزقاق، وفي تلك الغرفة الواقعة في حديقة البيت. غرفة متواضعة جدا، سقف من الصفيح والخشب والخرسانة، جدران مدروزة بالنورة، وباب مشقق كان يقيه من عيون الجيران. لكن على رغم فقرها كحيز للسكن، لكنه فرح لها كثيرا، واحتفل بها على طريقته الخاصة. ليلتها احتسى نصف لتر من عرق الريان ولم يكن له من نديم سوى جدران النورة، وشقوق الخشب، وبعوض الياسمين، وأوهام ماضيه كهارب من حرب، وجد نفسه سائق دبابة على الحدود الايرانية العراقية بأرض فلاة ذات هواء مختلف، وكاد يقتل بصاروخ في واحد من هجومات الإيرانيين في الجبهة الجنوبية. في ذلك الوقت بدأ كمال ينشر بعض القصائد العمودية في صحف المعارضة العراقية، وألتقى بأصدقاء أمورهم جيدة، يساعدونه بعض الأحيان كلما وقع في أزمة، أو يدفعون ثمن البيرة التي كان يحتسيها في بارات دمشق. وتعرف على صديقه زيدون هادي، وكان صحافيا لامعا ويكتب في صحف كثيرة.

تسمر أمام الباب الأسود، وفكر بمجرى السنين السريع، معتصر القلب بمخالب الماضي، وطوال سنوات غربته لم ينس المدينة النائية المسماة دمشق، ولا غرفته الواطئة الملفقة المبنية في حديقة بيت أم حسن. فتلك المدينة بجبلها وحاراتها القديمة وياسمينها ومقاهيها ومطاعمها وباراتها ونسائم ربيعها، عادة ما

تزوره في الأحلام وكأنها تعده بقصة جديدة سيعيشها هناك. وبرغم تلك الذكريات الموجعة والتوق لرؤية بيته القديم، وحنينه إلى تلك الفترة من حياته، لكنه لم يمتلك الشجاعة لطرق الباب والسؤال عن أم حسن صاحبة البيت. دع الباب، باب الماضي مغلقا، فكر مع نفسه، وتداعت إلى خياله ليلة الدود تلك حين اكتشف أن فراشه يعوم على طبقة من ديدان صغيرة أدخلت الرعب فيه وحملته على الهروب، وفسر رمز الدود على أنه سنوات عمره وهي تهرب به نحو فسحة منسية من هذا العالم. تذكر الشابين المستأجرين في البيت، وتلك المرأة التي دأبت على الاطلال من السياج لمراقبته. بعض المواقف تتطلب من المرء ترك الماضي خلف أسوار من حديد، وهي فلسفة كثيرا ما آمن بها. لن يجده كما تركه بالتأكيد، وهذا بالضبط ما يخشاه. ربما ماتت أم حسن، وربما أزيلت غرفته الواقعة في الحديقة من أساسها. وكر راجعا إلى الشارع الرئيسي، وراح جسده يسبح بموجة ألوان تبثها مصابيح الشوارع وواجهات المحال، يتطلع في الوجوه، بدون أن يشعر بقربها منه، ووفدت إلى روحه كلمات ارتسمت على شكل حكمة تقول: لا تلتفت وراءك إلى المكان الذي غادرته. ووقع نظره على محل بيع الشاورما، المحل المنتصب في ركن الشارع وألفاه لم يتغير، إلا أن الزحمة القديمة قد خفت، فما كان منه، ليختم جولته بأكلة دمشقية، إلا أن يتناول سندويشا من شاورما الدجاج مع كأس من اللبن العيران، عاد بعدها في أحد الميكروات نحو قلب المدينة. ثم قضى اليومين التاليين في سوق الحميدية، وجلس في مقهى النوفرة، وتوغل ماشيا في أزقة دمشق القديمة ناظرا إلى الشبابيك الملونة والمقرنصات العثمانية ووجوه النساء المطلة من فتحات السطوح، وانتهى به المشوار في ساحة باب توما. وشعر بذاكرته تسترجع صورها القديمة المتخفية تحت ركام ما مر به في سنوات البعاد. تلك الليلة سكر وحيدا في مشرب "قصر البلور" قبل أن يعود إلى شقته بمزاج عال ومشاعر متفائلة. حاول الاتصال بدور نشر في دهاليز منطقة الحلبوني، وشعر بأنه يتعامل مع تجار لا علاقة لهم بالرواية، فلم يوفق في الحصول على كلام واضح

حول الطبع. عاش بعيدا عن واقع النشر، ومجريات الموافقات المطلوبة لنشر عمل أدبي يفترض أن توافق عليه الرقابة الصارمة، وقد دخل الإحباط في روحه بعض الشيء لكنه لم ييأس. وحين التقى بصديقه زيدون في مقهى الروضة، درة شارع العابد مثلما يصفها أصدقاؤه منذ عشرات السنين، عاد إليه الأمل مجددا في نشر رواية الوديعة، كون زيدون يعيش هنا، ويشتغل في حقل الصحافة والنشر، وله باع طويل في هذا المجال.

حدثه أثناء ما كانا يسيران في "طلعة العفيف" متجهين نحو نادي "الرواق" عن فكرة الرواية وأحداثها ورسالتها، وكيف أن الفن عموما، والرواية منه خصوصا تطيل من الفترة الزمنية لحياة الكائن، فالحياة تسير في زمن خطي لا يمكن للفرد تجاوزه، إلا في حالة واحدة هي الفن، الفن يرسم في الزمن الخطي تجاعيد، ومنعطفات، وزوايا، وشبكات، ودهاليز توسع من بقعة العمر الممنوحة للبشر، والفن يضغط الوقت ويوسعه ويراكمه ويختصره ويطيله، حتى يظن الواحد عبر الفن وكأنه عاش قرونا عدة بدل المائة سنة، على أقصى تقدير، التي منحت له في حياته. كتابة الوديعة أشعرته وكأنه عاش ألف سنة، هي التاريخ المثمر لحضارتنا الإسلامية. أعجبت زيدون الفكرة ووعده بأنه سيأخذ على عاتقه قضية النشر خلال أيام وجوده في الشام، كما أثنى على جو الرواية وضرورة مراجعة تاريخنا المزيف سواء ببحث في هذا المجال، أو عبر عمل إبداعي مثل الرواية.

كان الليل يستولي على الأفق، وأضواء خافتة تتغامز على جبل قاسيون، والحديقة كانت مضاءة بشكل جيد، إذ عمدت إدارة النادي على دس المصابيح الخافتة تحت الشجيرات الموزعة بمحاذاة السياجات، بينما أضيأت الممرات الضيقة بين الطاولات بمصابيح صغيرة تكشف المكان لكنها تحّول الجالسين إلى كائنات شبحية الملامح.

عطر الياسمين والجوري المتفتح يسري في الهواء، والليلة حالمة تعد بالكثير. الطاولات شبه ممتلئة، يحتلها رجال ونساء متأنقون تبدو على سماتهم نخبوية واضحة، كتاب، وفنانون، ورسامون، وصحافيون، مشغولون بحوارات عن الثقافة، واللون، والنشر، وغير ذلك من مواضيع طالما افتقدها كمال في ذلك البلد البعيد. كانا يتجولان في الممرات بحثا عن طاولة شاغرة حين صاح أحد الجالسين باسم زيدون، فاتجها نحوه، وأفردوا لهما مكانا، وكان الجالسون خليطا من النساء والرجال، يحتسون جميعهم بيرة "بردى" السورية المعروفة. وأول ما لفت نظر كمال فتاة مميزة الهيئة تجلس قبالته، بوجه وضاء، وشعر كثيف، وجسد منتصب، وعينين تشعان في وجهها كما لو كانتا جوهرتين. جوارها جلست صديقتها صامتة، حزينة، تحتسي كؤوسها بأناقة وتجيل طرفها بالموجودين، وبدت أقل جمالا من صديقتها بكثير. فهي تمتلك وجها أسمر فيه شيء من البلادة. وكمال يستمع إلى حوارات الجالسين فقط. سمع معظم الحديث يدور عن التطور الحضاري لقارة أوروبا، مع مقارنة حادة بينها وبين ما تعيشه مجتمعاتنا من تخلف وأمية وتهميش للمرأة، وكان كمال معتصما بصمته، بدون أن يظهر ما يدل على تجربته الغنية في هذا النقاش. لكنه مع تقدم الساعات، واحتساء مزيد من الكؤوس، راح يفتح قوقعته بحذر ليدلي بين حين وآخر بآراء مقتضبة، حول حرية المرأة وحقوقها في البلد الذي جاء منه، وسرعان ما بدأت أفكاره تلفت إليه النظر. وبدأت الفتاة الجميلة تبادله ابتسامات ودودة مع كل رأي من آرائه، واستشف كمال أنهم عرفوا من خلال آرائه، وملبسه، وشعره الطويل، أنه قادم من المهجر. حواراتهم تتنقل بين المواضيع كما تتنقل الفراشات بين الزهور.

فنان فلسطيني ملتح، متقدم في السن، على هيئة راهب، قال بصوت رزين فرض الصمت على الطاولة:

- اللوحة، إضافة جديدة لكتاب الحياة، وهي فكرة ابتدعها الإنسان منذ القدم للتمرد على الرب.

وقال آخر بدا أن له باعا طويلا في النقد الفني:

- الألوان موسيقا الأرواح الشفيفة حين تتوتر في لحظة إلهام وتجل، لذلك فالفن التشكيلي يظل فنا نخبويا لا يفقه رموزه سوى القلة ممن وصلوا إلى النضوج عقلا وحسا. انظروا ما يحدث في مجتمعاتنا العربية من انتشار واسع لسوق اللوحة، وهو أمر جديد علينا نحن الفنانين، وأعتبر الأمر ظاهرة تبشر بخير، كلما تذوق العامة الرسم، ودخلوا المعارض، كلما أثبتوا أنهم في الطريق الصحيح نحو الحداثة. ثقافتنا ليست ثقافة بصرية، والإبداع خلل بايلوجي في الشخص. هل هنالك مبدع لا يعاني خللا ما في روحه أو جسده؟

تلك الآراء، وغيرها، هي ما ظل يدور من أفكار في ليلة الصيف المعطرة برائحة الجعة، وأريج زهور المكان. واستشف كمال أن معظم الموجودين ينتمون إلى عالم الرسم ودهاليزه في النقد والتسويق والصناعة والمعارض، ثم انعطف الحديث نحو موضوع حساس، أخطر من أن يناقش على طاولة شراب في ليلة صيفية مقمرة، موضوع العذرية، والموقف منها سواء في الغرب أو الشرق. بعضهم ربطها بالأخلاق المهيمنة، وبعضهم ربطها بالدين، وفاجأهم كمال برأيه حين أعلن أنه لا يمانع من الزواج بفتاة فاقدة لعذريتها. وكانت الفتاة واسمها "دارين" تنظر إليه بدهشة، بل وعلقت معه بنقاش عميق عن حرية المرأة، بما في ذلك حرية الجسد. فيما كانت فيروز، فوقهم، تغني بصوت ساحر وشاعري كعادتها، غناء ينسجم مع الجو الرومانسي المستولي على الحديقة، وهو جو يشجع المرء على الشرود الناعم، والسفر مع الخيالات المنفلتة من أسارها. وكمال بطبعه يميل للغوص في الذات أكثر من الحوار والنقاش، وأيقن أنه محمول على أجنحة ليلة فريدة، لذلك كلما توقف الحوار على الطاولة أو انتقل إلى أشخاص آخرين، ينقلب إلى روحه مستطلعا ما يوحيه المكان والشخوص

الموجودون. يتصاعد في داخله شعور بالتفوق على الجالسين حوله، يدعمه بالحجج والمسببات، بينما يده تنقل الكأس بتلقائية بين سطح الطاولة وفمه. وعيناه تسبحان في وجه دارين. "هو الذي رأى كل شيء"، برق في رأسه ذلك البيت الشعري في ملحمة جلجامش، وتخيله ينطبق عليه. أجل، لم لا؟ شاهد عروس البحر تجلس على تلك الصخرة البنيّة تحلم بظهور حبيبها من بين الأمواج، وعاش سنوات مع نساء شقراوات متفننات بممارسة الحب، وعبر ذلك الجسر الرابط بين جزيرتين، جسر "كنيبل"، حتى ليحس المرء بنفسه طائرا في الهواء. قرأ شعرا في كنيسة، وضاجع نساء تحت أغصان السرو وسط غابات ثلجية، وسبح مع قناديل البحر في مياه الشمال، وكاد يفقد حياته في رحلة بحرية بسماء عاصفة، على ظهر عبارة تصل بين بلدين. وبرشلونة، آه لتلك البرشلونة العجيبة، المعتقة بالحب والقصص، التي زارها مع صديقته "ميتا" لأسبوعين، كانا الأجمل في حياته. لا يعتقد أن واحدا من الجالسين رأى تلك الكاتدرائية المهولة التي صممها "غاودي"، وسماها العائلة المقدسة، أو تجول في أعجوبة المدينة، ورمزها، ومعلمها العالمي، بارك الإبداع الحر بتماثيله، وتصاميمه، وممراته المرصوفة بالحجر، وشكل أشجاره المنسقة بروح طفولية قلما يمتلكها إنسان عادي. هم لم يقفوا على قبر الفيلسوف "سورن كيركغورد"، وقبر القاص المدهش "هانس كريستيان أندرسن"، حبيب أطفال العالم من المكسيك غربا حتى الصين شرقا، في تلك المقبرة المسورة بأشجار السنط السامقة والسنديان، مقابل المقهى الذي اعتاد غريمه الشاعر الراحل "فريد نافع" على الجلوس فيه. هل رأى هؤلاء طير ببغاء يموت، ويوارى الثرى في حديقة بيتية ثم يوضع على قبره الصغير وردة جوري، كما فعلت إنكا وطفلها؟ ذلك الفعل عدّه حضارة بكاملها. الحضارة وعي للجمال، وفيما كمال يسبح في تداعياته المكتومة تسامت فيروز صادحة في المكان، صوتها يشعشع على زهور الجوري واضمامات الياسمين، وأعشاب الحديقة الندية: "يبكي ويضحك لا حزناً ولا فرحا/ كعاشقٍ خطَّ سطراً في الهوى ومحا"، هي فيروز

رفيقة العشاق، تغني له وحده. تحلق به في سماوات أخرى بعيدة، سماوات الأشعة الشمسية ذات الألوان البنفسجية، المترسبة على تكويرة القطب. أجل، لم يرتشفوا الكؤوس الدافقة لبيرة البحّارة السوداء بساقياتها الشقراوات المبتسمات دائما في حانات الميناء الجديد، ولا رقصوا في بارات كرستيانيا حتى الصباح، سوية مع الزنوج القادمين من هارلم، وهنود المايا الذين تركوا شيلي بعد انقلاب "بينوشيت" على "سلفادور الليندي". ولا دخنوا الحشيشة على بحيرات مشعة المياه، تهدل سماواتها الصباحية باليمام، والبط البري، وطيور الحب، وتعكس مياهها أشعة الشمس عند الغروب الضاحك. ولا رقصوا على موسيقا الزنوج وهم يقتطعون قصب السكر في جامايكا، وأغنية بوب مارلي التي سحرت رواد بار جمهورية الموز في نوربرو. "**No woman no cry**". لكل ذلك يتفوق هو على الجالسين كلهم. هل كتب واحد منهم اسمه على لحاء شجرة سرو نابتة في أقصى شمال الأرض؟

ومن غيمة الخيالات المحلقة في رأسه، شدت انتباهه المشتت جملة أطلقتها دارين في آخر الليل، جملة نافرة عن إيقاع الحديث، ذلك حين قالت: "هذا حلم، لو أجد شخصا يتزوجني ويرحل بي إلى أوروبا لوافقت فورا، ولن أفكر بقبول العرض لحظة واحدة. أنا لم أخلق لهذا المكان". لم يكن كمال متابعا لخلفية الموضوع الذي حدا بها لقول ذلك، لكنه، وبدون أن يتردد لحظة واحدة، قال لها بصوت حاسم أذهل الحضور: "أنا أتزوجك، وأرحل بك إلى أوروبا". ثم ران صمت مطبق على الطاولة.

هل أخذت دارين قول كمال بجدية؟ هل كان كمال يمزح، أو أن القول نزوة صعب التكهن بعواقبها؟ هل كانت الفتاة جادة في حلمها ذاك؟ أخيرا لم شعر بوضوح، بأنها وجهت كلامها له وحده؟ أسئلة تركت حائرة على الطاولة، وليست هناك أية رغبة في فحصها، لا من كمال ولا من الجالسين. الدقائق والساعات كان تمر صافية، تنساب الموسيقا على بتلات الياسمين، وظلت

الكؤوس تتدفق، نبيذا أبيض وجعة شقراء، وضحكات رائقة، وشذا لورد جوري عصرته حرارة الصيف فأعطى ما لديه، وكان الليل يتقدم إلى المنتصف، وقد تم دفع الحساب بتبرعات الجالسين، ولملم الجميع حاجاتهم من كتب ومجلات وصحف وحقائب نسائية، واتجهوا إلى باب الخروج. وهنا تركت دارين صديقتها الصامتة، وتقدمت منه بجرأة غير مألوفة، ثم ناولته ورقة صغيرة كتبت فيها تليفونها، وطلبت منه الاتصال بها إن رغب في ذلك.

٢٨

ومنذ تلك الليلة الفيروزية وقع كمال في المصيدة، ولم تفارق دارين مخيلته. صوتها يسمعه بوضوح، عيناها الساحرتان ركزتا بعمق في خيالاته، جسدها أثير لا يغيب. يومان، بعد الحدث المزلزل لقلبه، وهي تداعب خياله، ويستعيد جملتها حول انتظارها للفارس القادم على حصانه الأبيض. حوّل شقته إلى غرفة للنوم فقط، أما ما عدا ذلك فكان يفكر بامتصاص المدينة بأقصى سرعة ممكنة، بالطبع بدون أن تفارق دارين مخيلته. المدينة تغيرت كثيرا منذ تلك السنة التي غادرها. صديقه زيدون تغير هو الآخر، رأى شعيرات بيض كثيرة تلون سواد شعره، ووجهه اتخذ تعابير أكثر رصانة، ويتذكر اليوم البعيد للقائه معه أول مرة، في مقهى الروضة، وكان كمال يقطن وقتها في غرفة أم حسن، وكان يقضي يومه بالتحري عن الطرق المأمونة للوصول إلى أوروبا. جمعته بزيدون ميوله الصحافية والأدبية، بداية في مقهى الروضة وجلساته اليومية، أو مقهى الندوة والهافانا، ثم لاحقا، حين صارا يسكران سوية في مشرب الريس، وبار فريدي، أو غالب الأحيان في غرفة كمال، ودأبا على صرف ساعات من الحوارات المعمقة حول الأوضاع السياسية، والروايات العربية أو المترجمة، والصحف المعارضة. مال زيدون نحو الصحافة، فانغمر بالعمل مع بعض الصحف العراقية المعارضة الصادرة في دمشق، وما أن بدأت موجة السفر إلى أوروبا، طلبا للجوء، حتى أعلن زيدون موقفه الرافض للمغادرة. عادة ما كان يردد أمام أصدقائه قائلا: إنني هنا قريب من الوطن، سأترك القارة العجوز لكم. وتزوج لاحقا من امرأة سورية، يسارية التوجه كما وصفها لكمال في واحدة من رسائله، وعاش في دمشق كل تلك السنوات، لكنه ظل على اتصال مع كمال عبر التليفون، والرسائل. دعا كمال إلى بيته، وعرّفه على زوجته وابنتيه، وانتبه كمال إلى زيدون وهو يطيل النظر به كما لو يجده غريبا عنه،

أو مخلوقا هابطا من كوكب آخر. حدس أنه يلمس فيه تغييرات عميقة، حولت شخصه إلى كائن جديد. هل يمكن أن يكون قد تغير إلى الحد الذي يجده فيه انسانا غريبا؟ هل تزيح التجارب الجديدة تعابير الوجه القديمة بعد أن تتحول إلى بصمات مخفية على البشرة؟ تمنى لو يستطيع هو نفسه معرفة تلك التغيرات، خاصة في مظهره الخارجي. كبر بالعمر، صحيح، إلا أن الشخص بالتأكيد لا يمكنه رصد تلك التحولات وهو ينظر في المرآة.

ذلك النهار، أنهوا الغداء في بيت زيدون على عجل، ثم أدخله إلى غرفة صغيرة وجدها كمال تشبه مختبرا صحافيا، ومن تلك الغرفة بدأ مشروعه في إصدار المجلة، وسماها "أيام زمان"، وتصدر كل ثلاثة أشهر برئاسة تحرير زيدون ذاته. الغرفة مكتظة بالجرائد القديمة، والمجلات الصادرة في لبنان ومصر والعراق، وبعضها يعود إلى منتصف القرن العشرين وبطبعات "صفر" مكدسة على طاولات صفت على امتداد الجدران. من ذلك الخزين العتيق يستخرج زيدون مقالاته وهي تخص كل حقل من حقول المعرفة. الماضي جميل دائما، وضعه شعارا للمجلة. هناك المقالات السياسية والثقافية والفكرية، وهناك الصفحات الخفيفة المسلية، المختصة بالمناسبات الاجتماعية، وأخبار الشخصيات المعروفة في مجتمعها القاهري، والبيروتي، والبغدادي، والدمشقي، والفلسطيني، وهناك أهم الأحداث التي شكلت عناوين الصفحة الأولى لجرائد تلك الحقبة، كحرب الأيام الستة وحرب فلسطين وحرب تشرين والانقلابات العسكرية التي كان يقوم بها عادة ضباط متحمسون للسلطة، وأخبار المغنيات والممثلين. ووجه انتباهه إلى أعداد سابقة من المجلة مرتبة على طاولة مربعة، بهيئة أعمدة، وأهدى لكمال نسخة من كل عدد، وقال له مازحا: "تمتع بقراءتها في الشقة، ربما تلهمك بكتابة رواية أو قصيدة. ولا تنس أن الماضي جميل دائما. كلما كبرنا زاد تعلقنا بالماضي مع الأسف. وكأنه يقربنا من الموت دائما".

ثم تجولا عصرا في منطقة "الحلبوني"، حيث تستقر معظم دور النشر والمطابع، والتقيا بأكثر من صاحب مطبعة، ووجدا أن الجميع يصر على الحصول على موافقة الرقابة قبل الحديث عن الطبع وتفاصيله. وفي النهار التالي زارا مقر اتحاد الأدباء الواقع في المزة، وسلما مخطوطة رواية "الوديعة" إلى ديوان الاتحاد، ثم أخبره زيدون بأنه سيتابع القضية مع لجنة الرقابة عبر أصدقاء يشتغلون في هذه المؤسسة. حدث كل ذلك وكمال لم ينس وجه دارين. ظل وجهها يشع في ظلام لياليه مثل عنوان روايته: الوديعة. اتصل بها ذات ظهيرة من تليفون مقهى الروضة، فتفاجأت بالصوت، ولم يبد عليها أنها كانت تنتظر اتصاله، بل تجاهلته في البداية حتى ذكّرها بتلك الأمسية. يمكن أن تكون تلك الليلة نزوة كلام عابرة. ويمكن أن يكون ادعاؤها بنسيانه تمثيل فتيات. ليس متأكدا من شيء، لكنهما اتفقا على اللقاء في مقهى "الهافانا". جلسا على طاولة تطل على الشارع، وكان الحرج طاغيا على كليهما، وكأن ذلك الاقتراح في تلك الليلة لم يكن سوى هلوسات سكارى. احتسيا القهوة بصمت، ورأى كمال أن يدخل في الموضوع مباشرة، فسألها إن كانت لا تزال على نيتها بالزواج والرحيل إلى أوروبا، فشاعت في وجه دارين حمرة خفيفة، ورمشت عيناها بخجل، ثم أجابته إجابة مواربة: "ألا يعتمد الأمر على الشخص؟ أنا لا أعرفك، والزواج قضية مصيرية في حياة الفتاة، لا بد من فترة تعارف، حتى يصل المرء إلى قناعة تامة". وكان عطر خفيف لم يشمه كمال سابقا، ينتشر في الفسحة بين وجهيهما فيه طعم شوكلاته، يتسلل إلى أنفه بين لحظة وأخرى وكأنه أمواج سرية يحملها الهواء. لاحظ أن وجه دارين مختلف بعض الشيء عن وجهها في ذلك المساء. الضوء كشفها أكثر من ذي قبل. هي أكثر جمالا وإغراء من تلك الليلة. عيناها السوداوان، اللوزيتان، تلتهمان وجهها العريض المشرّب بخمرة. وأثناء ما كان يحدق في عينيها هبط إلى رأسه بيت الشعر المشهور: "عيناك من شدة عمقهما أضعت فيهما ذاكرتي". متأكد أنه ل"أراكون" نهر السين، كتبه

متغزلا بعيني حبيبته "إلزا تريوليه"، وحفظه منذ أن كان سائق دبابة على الجبهة.

باح لها كمال بنتف من ماضيه، وتمحور بوحه بالدرجة الأساس على اهتماماته الشخصية، وكيف أن الكتابة هيمنت عليه كليا، ويعتقد أن حياته ستكون صحراء من دون نسيم الكتابة. لم يتزوج في حياته، عدا ذلك فهو بحاجة إلى امرأة تتكلم لغته نفسها، وتشاركه العقلية ذلتها، وقد مل من العلاقات غير الجادة، ويرغب في الاستقرار وتكوين عائلة. ثم حدثها عن حياة الغربة، والاندماج في مجتمع صناعي متطور، وصدمة الحضارة التي عاشها عدد غير قليل من أصدقائه، أوصلت بعضهم إلى الموت المبكر والجنون.

تدرس دارين في جامعة دمشق قسم الإعلام، في المرحلة الثالثة، وفي الوقت ذاته تعمل موظفة في صالة عرض للوحات التشكيلية تمتلكها أخت صديقتها "رزان"، الصديقة التي كانت معها في تلك الجلسة. لا تبعد كثيرا عن شارع الحمرا، في ما يسمى طلعة العفيف. ومن عملها ذاك تعرفت على معظم الرسامين، ودخلت في الوسط الثقافي والفني، وحضرت عددا من اللقاءات الأدبية، والندوات، ومعارض الرسم، ولديها ميل إلى التمثيل، وتحلم في أن ترى نفسها في واحدة من المسلسلات التلفزيونية. ثم بدأ الجليد يذوب بينهما قليلا قليلا، وتناولا دورا ثانيا من القهوة، واقترحت عليه دارين أن تقوده إلى المدينة كي يطلع على معالمها، وكيف تغيرت بعد كل تلك السنوات التي فارقها.

لا شك أنه سيجد مدينة أخرى بالتأكيد، أما برفقة فتاة جميلة، فاتنة مثل دارين، فسوف تبدو المدن جميعها فائقة الجمال. هذا ما اقتنع فيه وهو يتبع دارين في شرايين مدينتها مثل أعمى جذل. أجّل ملاحقة الرواية لدى اتحاد الكتاب العرب، واقتصرت لقاءاته بزيدون على مقهى الروضة، وترك لدارين أن تخطط كل يوم يلتقيان فيه.

قالت له سنمر بفترة تعارف، ثم نمضي بمشروعنا.

أول أمسية كرساها لصالة العرض المعروفة في الوسط الفني ب"صالة البهاء"، وكانت تبعد مئتي متر، تقريبا، عن شارع الحمرا في قلب العاصمة. بعد يومين فقط من الاقتراح، دخلا سوية بابا فخما من حديد مشبك، تتسامى منه موسيقا عجيبة، لا تسمعها الأذن لكنها تسري في الجو، تستوقف الأحاسيس وكأنها أياد لا عد لها تتشبث بهما، ثم قادهما درج صاعد إلى الأعلى، درج نظيف البلاط، يتلامع كأنه بركة ماء، وعند استدارته وضعت مزهريات من الفخار فيها نباتات صغيرة زرق أوحت لكمال ببهاء المكان، وتجربة لشرق لم يعشه سابقا. كثرة الحضور أشعرته ببعض الخوف، فمنذ سنين طوال لم يعتد التواجد بين هذا الكم من البشر. وكانت الموسيقا الخفيّة تتصاعد في الصالة الفسيحة المغلقة. على الجدران لوحات غريبة بأحجام مختلفة، قسم مضاء بأنوار مخبأة في الجدران وقسم معتم. شعر بأنه في حلم، وهو يحدق بتلك الألوان التي تشير إليها دارين، لم يدخل صالة عرض تشكيلية حتى بلغ العشرين سنة. حتى هناك، في بلد الجليد، لم يحبذ الرسم كثيرا، برغم أنه زار متحف الفن الحديث وسط العاصمة أكثر من مرة، وقاده علي الشمري يوما إلى متحف المعروضات الإسلامية ل"ثورفالدسون" قرب القناة، لكن استعصى عليه التواصل مع المنحوتات، واللوحات، والمشغولات اليدوية. كان يجدها أكثر كثافة من روحه، عكس الكلمة المكتوبة. لقد ورطته دارين في ضوع المكان، وكان أثناء وقوفه أمام اللوحات يرمقها وهي تتنقل من شخص إلى آخر، منتشية باللون، والغزل المنصب على جهدها وذوقها. في حوار سريع داخل الصالة مع دارين سألها كمال عن زوار الصالة لأنه لاحظ وجود أجانب أوروبيين، فأخبرته أن صالتهم مشهورة لدى السياح، وهم يزورونها في افتتاح كل معرض. فعلا لاحظ كمال وقوفها مع شباب ورجال أوروبيين أمام لوحات المعرض. سمعها تتحدث معهم بإنجليزية مقبولة لفتاة تعيش في الشرق. برغم معرفته بضرورة التبسط مع الزبائن على هذا الشكل، كونها هي من تدير الصالة، ويعتبر الأمر جزءا من

روتين العمل، إلا أنه ود مع نفسه لو تنكمش قليلا معهم، وبخاصة مع الأوروبيين. كان يفضل لو يبقى الأوروبي الوحيد الموجود في الصالة.

بدا المعرض وكأنه أسطورة بابلية أو سومرية حول مكان فردوسي، تطوف ألوانه دانية، وفيه جوار وأثمار، وأنهار من لبن وخمرة، وتلك الموسيقا رداء حلم لامرأة، ودارين تميس أمامه وكأنها حبيبة الأزمان كلها. عشتار الراقصة، جدائلها تلتف حولها مثل زهرة بنفسج، يريدها خلاصة النساء أجمع في لحظة الانتشاء، ورقص الجسد بشساعة الابتهاج والحرية. ثم رأى في عين خياله دارين وهي تعيش معه في شقة من شقق العاصمة، سيغلق جدرانها على جمالها. يجلس هو في غرفته الخاصة متفرغا لكتابة الشعر والروايات. إنها امرأة تستحق أن يخلف منها قطيعا من الأبناء. وسيكتب في جسدها ملحمة شعرية يستبعد منها البيت العمودي، ولا بأس أن يحتذي "رامبو" فيسميها المركب السكران، فهو سكران بعينيها، واستدارة شفتيها، وبرق جبينها. يقرأ كمال اللوحات عادة قراءة قصصية، يستنبط منها حكاية، وهو ما اعتاد القيام به حين دأب على زيارة المتحف الوطني سوية مع علي الشمري. يرى لوحة لغوغان فيؤلف عنها قصة مشوقة، وسرد لا ينتمي إلى حقل القراءة التشكيلية للوحة، حتى لوحات سلفادور دالي يفبرك من تكويناتها السوريالية حدوتة قابلة للتفسير. لم تستهوه اللوحات التجريدية على الإطلاق. نافذة دمشقية مقرنصة مع الشبكة الحديدية، ونباتات متسلقة مع بقع ضوئية صفر وبرتقالية. كل ما موجود في الصالة ينقل المرء إلى حيز يشبه الخيال. نعم، اللوحة إضافة جديدة لكتاب الحياة كما قال ذلك الرسام ذو اللحية الكثة، وبعد قليل سيطل وجه من تاريخ لا ينتمي إلى زمن، يتوقع خروجه من بين نسيج القماش وزوايا الإطارات وصفحة الجدار، بل من أرضية البلاط والسقف ذي الثريات والمصابيح. فكر في المواعيد الغرامية لهؤلاء الزوار، والنظرات التي يتبادلها الذكور مع الإناث، والعلاقات وهي تنسج مع كل معرض، والصالة من هذا الجانب بوابة لقلوب أهل المدينة، يدخلونها ثم يجدون أنفسهم يلتقون في مطعم من مطاعم باب شرقي، أو بار

من بارات باب توما، أو في مقهى النوفرة المشرف على الجامع الأموي، وربما في قطار الزبداني حيث سيجوب بهم الضواحي مارقا من تحت أغصان شجر الحور. اللوحة هنا ذريعة النفوس الظامئة للحب. دخل اللوحة كأي شاعر حالم، وقف جنب المرأة وسط الغرفة المعتمة، ثم قال للمدينة حدثيني عن نفسك، قالت إنك الآن فيها. وكان دائما ما يستحضر فيلم المخرج الياباني "أكيرا كوراساوا"، "أحلام"، كلما رأى لوحة رسم بارعة، ويتذكر بوضوح كيف دخل بطل الفيلم في لوحة فان جوخ، "الغربان"، في لقطة إعجازية لا يمكن نسيانها.

الأشخاص أنفسهم الذين التقاهم في النادي تلك الليلة، ليلة فيروز ورائحة الياسمين، وهم يشتبكون بحديث جاد، ويشيرون بأيديهم إلى لوحات بعينها بدا أنها نالت اهتمامهم. وتفاجأ بوجود رزان كذلك، سلمت عليه بحرارة، وقادته إلى ركن منزو خارج الصالة تجلس فيه امرأة كبيرة السن وراء طاولة عريضة تناثرت على سطحها الزجاجي ألبومات صور، وأوراق، وأقلام. قدمتها إليه قائلة: هي أختي "نادية". فارق السن واضح بينهما. عرف لاحقا أنها مالكة الصالة، ورثتها عن زوجها الفنان المشهور القادم من إحدى مدن الجزيرة السورية. كان يتخذها مرسما طوال عقود من السنين. بدت وهي تجلس بين اللوحات المركونة إلى الجدران، وسط الضوء الخافت المنبعث من مصابيح صغيرة، مثل ساحرة تتعبد في كهفها. لكنها ساحرة يؤطر الحزن وجهها العريض الأسمر. يبدو أنها ترملت من فترة وجيزة، إذ ما زالت تلبس السواد. طلبت من كمال الجلوس وشرب فنجان من القهوة، لكنه كان يفكر باللحاق بدارين، فودعهما وعاد إلى الصالة. سيغوص في روح دارين، وجسدها، وتفاصيلها، متمثلا بالحكمة القائلة إنك كلما تفاعلت مع شخص آخر سيقودك ذلك إلى النفاذ والغوص في داخله، كما لو أنك تغوص في بقعة من الطين، وليس أمامك سوى البحث عن الجوهر. هذا يخص الكائن، كيف إذا كان المقصود امرأة فاتنة مثل دارين؟

٢٩

ليلة الاتفاق على السفر في قطار الزبداني، اتصل تلفونيا ببيتها بنية الاستفسار عن زوادة الطعام، لأن دارين أخبرته أن الرحلة تستغرق ربما ساعتين، وسيعودان في القطار نفسه إلى "محطة الحجاز" وسط دمشق، والرحلة لا تعدو أن تكون سياحة في الريف، ومشاهدة وادي نهر بردى. سأل عنها فأخبرته المرأة التي ردت عليه أنها خرجت منذ ساعة، وكان الوقت ليلا، ولم يتمكن كمال من النوم. بقي ساهرا يقلب أفكاره عن المكان الذي قصدته دارين، حتى أنه اتصل بصديقتها رزان فأبدت استغرابها من الاتصال للوهلة الاولى، ثم أخبرته أنها لا تعرف، وهي لم تكن على موعد معها الليلة. عادة لم يكن كمال من النمط الذي يندلق على المرأة، يتريث في حسم علاقته ويعطي فرصة للآخر كي يعبّر عن موقفه حيال مشكلة ما تحدث، لكن مع دارين الأمر مختلف، فثمة هاجس لا علاقة له بالمنطق والعقل يلقي به إلى القلق والتوجس من هذه الفتاة، لا يعرف بالضبط ما هو. إحساس فقط. هل كان ذلك الإحساس يصله عبر نظراتها؟ عبر تعابير وجهها وهي تستمع إلى تنظيراته الثقافية التي يحاول بها جذب اهتمامها؟ هل للأمر علاقة بالتخاطر عن بعد؟ هو في بعض الأحيان يؤمن بهذه الموهبة الممنوحة لبعض الأشخاص، الصوفيين على وجه الخصوص. فتاة جميلة، منفتحة، عصرية المظهر، لا بد من وجود معجبين حولها.

حين سألها وهي تقف جنبه في قطار الزبداني عن غيابها البارحة، قالت له بتعابير تحمل براءة فائقة إنها سهرت مع صديقتها في "باب توما"، وعادت متأخرة بعض الشيء إلى البيت، لذلك لم تتصل به. قال لها ما كنت أعرف أن بلدكم فيه كل هذا الجمال، برغم أنني عشت فيه بضع سنوات قبل اليوم. انتظر، ردت عليه وهي تحدق من النافذة إلى أشجار السرو والسنط

والصفصاف النامية على ضفتي بردى، انتظر لأريك أماكن أجمل، بيت العظم وبيت جبري وعجائب جبل قاسيون ومفازات الصحراء المحيطة بصيدنايا. وسأقودك إلى الشق الجبلي الذي سلكه المسيحيون الأوائل وهم يهربون نحو الجبل حفاظا على دينهم الجديد.

– هل اشتغلت سابقا دليلا سياحيا؟ سألها كمال ضاحكا.

– كلا. كنت مع مجموعتي نقوم بجولات راجلة على معظم المناطق الغريبة والجميلة، من غابات وسهول وجبال حتى توغلنا ذات مرة في القرى الحدودية المحاذية لهضبة الجولان، فمنعتنا القوات الدولية من التوغل أكثر. كنا ننظم الرحلات ليلا بعض الأحيان، أو نخرج إلى المسير في الساعة الخامسة فجرا، وهكذا رأينا ريف السيدة زينب، وبتنا أكثر من مرة في بساتين الغوطة، واصطدنا القنافذ في الأراضي البرية حول مدينة دوما.

توغله في دارين قاده إلى مزيد من القلق والتوجس والوحدة، قاده إلى حانات العاصمة كلها، كلما ابتعدت دارين يجد نفسه في واحدة من تلك الحانات مع شلة من المثقفين، والفنانين، تعرّف عليهم في مقهى الروضة، أو عن طريق "زيدون هادي". تحل الساعة الثالثة عصرا فينهض من كان على الطاولة متجهين إلى نادي المحاربين القدماء، أو قصر البلور في باب توما، وهناك، يحتسون عرق الريان مع المازة، ويثرثرون عن الأدب والنساء ويدخنون. وحين تنتهي الجلسة في المساء يوسوس له بعض الأصحاب ليكملوا السهرة في باب توما، أو في واحد من بارات "باب شرقي". هذه هي الحياة التي تاق إليها طوال سنين من الغربة، والبرد، والضياع. أصدقاء، وخمرة، وكتب، وحوارات عن كل ما يجري من حروب وهجرات وكوابيس. أو كما يقول شاعر البلد "محمد الماغوط": "تبغ وأرصفة وأموت". بدون أن ينسى متابعة رقابة اتحاد الأدباء والكتاب، لإجازة طبع روايته. اعتبر هذا الزمن الذي يعيشه خارج سياق حياته، كلما فكر بالبرد، والغربة، ووحشة الغرف، في تلك الجزر البعيدة تنتابه

قشعريرة تخض جسده مثل محموم. جماليات حياة الشرق، قبل أن يتغرب، لم يكن يلتفت إليها، جماليات المكان أو حميمية البشر، بالعكس كان يهرب منها، ويعتبرها عتيقة متخلفة لا تنتمي إلى الحاضر. وكثيرا ما أطلق على المدن التي جاء منها اسم "مدن الأموات". اليوم، وبعد تلك التجربة المريرة، امتلك عينين زرقاوين كما يقول علي الشمري حول مسرحيته الكابوس، عينين زرقاوين تسرحان في عمق الأشياء ببرود، وحيادية، مع نفحة من العقلانية الخالية من العواطف، أو بتعبير أدق اندفاع العواطف. حاول استدراج دارين إلى الشقة أكثر من مرة غير أنها تراوغه بذكاء، يغريها بعقد الزواج الذي سيكتبانه في المحكمة ثم يقدمانه إلى السفارة لإجراء معاملة "جمع الشمل". لكنها تتحجج بأكثر من طارئ، فيمضي ظهرا إلى بار "فريدي" المنزوي في زقاق ضيق عتيق، يجلس هناك مع "بطحة عرق"، وصحن من المكسرات، ليسافر إلى عالم الخيال.

وذات يوم حين كان مستغرقا بتأملاته في بار "فريدي"، وسط ضجيج الرواد وحواراتهم وهمساتهم وطلباتهم التي لا تنقطع، قرر أن يكتب ديوان شعر يسميه "ديوان دارين". يكرس قصائده لعينيها، وصفحة خدها المشعة مثل مصابيح قاسيون، وأسنانها اللؤلؤية المنتظمة كحور وادي بردى، وشعرها المتطاير في الريح كأنه قطيع من خيول الجزيرة، ذلك ما وصفها به في رحلة الزبداني، مع نفسه بالطبع، وكانت وقتها تقف عند النافذة سارحة بصفحة الأفق المؤطرة بالجبال. ضائعة تائهة في خياراتها ووحدتها، وكان يخاف من صمتها، برغم أنها حدثته عن المدن التي كانت تحلم بزيارتها أو السكن فيها. كانا عادة ما يدوران في الشوارع الداخلية ناظرين إلى الرازونات، والشبابيك، والواجهات الدمشقية العتيقة، يلبثان ساعات بلا هدف، يستمع إليها وهي تصف له مشاعرها حين تقف مستقبلا في سهوب الثلج الريفية، وترنو إلى البحار المليئة بالسفن، وتجلس وسط الشواطئ العاجة بالسابحين، وترقص في مقاصف الموسيقا المشهورة في باريس ولندن ومدريد وفينا. ثم تغني له بخفوت "ليالي الأنس في

فينا"، وكان صوتها يشبه صوت "أسمهان". أريد الرحيل من هذا المكان، سأموت من الرتابة، تردد أغلب الأحيان، فيقول لها كمال بصوت حاسم ينبع من سهوب العشق، قرري فقط، وسنذهب إلى المحكمة فورا لعقد الزواج. إلا أنها تماطل لسبب لا يدركه. وكان يحلم مثلها. سيريها مقهى الحذاء الصيفي، ويقف معها على برج العاصمة المدور حيث يمكنها رؤية المدينة بسقوفها القرميدية، وأبراج كنائسها، وغاباتها، وبحيراتها، ويحكي لها عذابات هاملت أمير البلاد. سيريها مقبرة فالبي حيث يرقد أصدقاء حميمون عاشرهم ذات سنة ولم تبق من صورهم سوى الحكايات، وسيجلس معها قرب نصب النيل، على العشب الأخضر المبتل، ويروي لها سيرة ذلك الشاعر الذي تخلف عن حضور مواراته التراب. سيسافر معها في القطار نحو الريف، وسيحضر معها ألعاب الحواة في شارع المشي، ويجلس في متاهة الكليب تري، ليستعيد ذكريات عشرات السنين من ماضيه. لن ينسى مرافقتها إلى منطقة كرستيانيا كي تعيش الحداثة في آخر تجلياتها. وستكون لما يتبقى من حياته طعما خالدا، له مذاق الكراميلا، كونه يقضي ما سيأتي من سنين مع امرأة جميلة تلهمه الشعر، والروايات، والقصص.

سيناريو الغياب تكرر أكثر من مرة.

وحين غابت عنه يومين، هاتفها مرات إلى بيتها ولم يجدها، وعرج على الصالة وسأل "نادية" صاحبة الصالة، فلم تعطه جوابا شافيا، وظل قلقا حتى وهو بين أصدقائه في مقهى الروضة أو في الحانات النهارية. غيابها المتكرر عن مجهره، غيابها غير المفهوم، أوصله إلى مرحلة حرجة من التفكير. لم يعد يحتمل، والغيرة نار. اتصل بصديقتها رزان، ذات ليلة وسألها بنبرة يائسة وجمل حزينة عن دارين، إذ تعذر عليه رؤيتها ثلاثة أيام متواصلة، فطلبت منه أن يلتقيا بمقهى "الهافانا" عند الساعة الواحدة ظهرا، وستخبره بشيء خاص يهمه. لم ينم كمال تلك الليلة. أنهى علبة دخان "مارلبورو" وقنينة من عرق

الريان. وظل محشورا في حيز رأسه، يفكر، مأسورا، بحلقات مفرغة. تسلمه الواحدة إلى الأخرى، فيستعيد حوارات الأيام الماضية، وينقب عن معنى كل كلمة قالتها دارين، وكل فكرة أبدتها حول موضوع ما. هناك خلل ما لم يصل إليه. هناك حلقة مفقودة لا تراها العيون، وهكذا حتى فاجأه صوت أذان الفجر معيدا إياه إلى الواقع. عندها وقع تحت ضغط الصمت الهائل المستولي على الشقة، وشوارع المدينة خلفها. وقبل أن يتوجه إلى فراشه أيقن أنه يعيش حالة إرباك مدهشة، حالة ضياع وجودي كمن وجد نفسه معلقا بين السماء والأرض، ولا يعرف لماذا وكيف وصل إلى تلك الحال. جميع آلياته العقلية، وخزينه الثقافي، وتجربته الحياتية، لا تعمل بصورة صحيحة، فقد عصفت تلك الجميلة بها جميعا، وألقتها إلى سلة القمامة.

وجاءت رزان على الموعد بالضبط، جاءت بوجه معتنى به، وبحاجبين أنيقين، وشفتين حمراوين تلتمع من ورائهما أسنان ناصعة البياض، ولاحظ كمال تسريحتها الأنيقة وكأنها خارجة للتو من تحت يد الحلاق. وهي المرة الأولى التي يلاحظ فيها أناقة رزان، وبعد أن ارتشفا قهوتيهما قالت له بوجه جاد: " دارين ليست لك، قلبها مع رجل آخر"، وكاد قلب كمال ينفجر من التوتر والقلق. وراحت تقص عليه كل ما تعرفه عن دارين: " هي من مدينة حمص، ومن عائلة مسيحية، جاءت إلى كلية الصحافة برغبة عارمة لممارسة هذه المهنة حالمة بالشهرة، وبموقع بارز بين النخبة المثقفة للعاصمة. ولخوف عائلتها من ضياعها في دهاليز العاصمة أسكنوها في دير السريان الواقع في الباب الشرقي، لديهم سكن جماعي يستقبل فتيات يعشن الظروف ذاتها، حيث يتطلب منهن العودة إلى السكن قبل التاسعة مساء. وكونها تمتلك ثقافة حسية اهتمت بالفن التشكيلي، وتولعت بحضور المعارض، وتعرفت على عدد كبير من الفنانين، وكتبت تغطيات صحافية بسيطة، وأجرت مقابلات مع رسامين، ونشرت مقالاتها في عدد من الصحف، وهذا ما قادها إلى مرسم زوج أختي. كان لديها هوس باللوحات والرسامين والألوان، ووجدت ضالتها بزوج أختي، عن طريقه

توغلت في أسرار اللون، والمدارس الفنية، والإيحاءات الكامنة خلف الأشكال والخطوط. ووجد زوج أختي ضالته هو الآخر في تلميذة جميلة، متحمسة، تتشرب تعاليمه وكأنه رسول هابط من السماء. لم يدخلها عالم الفن فقط، بل أدخلها بحره الواسع كله، فكان يقرأ عليها قصائده وقصصه وآراءه في الحياة والفن والمجتمع، ويعرّفها على أصدقائه الفنانين والشعراء والكتاب. مرسمه لا يخلو منهم، ليلا ونهارا، وهكذا جعلها تعيش في واحة من الكلمات، والألوان، والأحلام. حتى أنه فكر مرة أن يجعلها سكرتيرة له، توضب لوحاته، ومواعيده، وتهيّئ معرضه الجديد، وتشتري ما يحتاجه من فرش وألوان وقماش، لولا معارضة نادية. فدارين فتاة جميلة في النهاية، وزوجها رجل، برغم تجاوزه سن الستين، وينفعل بالجمال وحيوية الشباب أكثر من غيره. وتعرف أن الشهرة مغرية، تغيب العمر عن الفتيات في أحيان كثيرة".

وكان كمال يسمع فقط، أدار ظهره لبار المقهى، حيث تنتصب هناك أدوات صنع القهوة العربية ذات الأريج المسكر، والندل بستراتهم البيض، والموسيقا الناعمة التي تسري فوق رؤوس الزبائن. ومن مكانه كان يرى المارة في الشارع خارج الباب الزجاجي للمقهى وهم ينطلقون يمينا نحو "ساحة المرجة"، وشمالا نحو "ساحة المحافظة"، و"السبع بحرات". لكنه كان يسبح بأبخرة مخدرة حوّلت كل ما يراه إلى ظلال، أو أشباح خالية من الملامح. وكانت الموسيقا الناعمة، القادمة من مكان ما في فضاء المقهى، تزيد من ضبابية الأحاسيس والانفعالات. وكاد كمال يفقد احساسه بالمكان، والزمان، حتى لينسى في أي مدينة يجلس، وكيف جاء إلى هذا اللقاء، ولماذا. صحيح أن مظهره الخارجي يوحي بالهدوء والتماسك، لكنه في الداخل كان يغلي، يتمزق، يتفكك، يود أن يهرب نحو فضاء آخر خارج المقهى.

ثم تواصل رزان حديثها فينغمر كمال أكثر فأكثر بزينتها، وعطرها، ولون شفتيها، لتبدأ محركاته الصغيرة بالعمل، محركات الخيال التي تبدأ شغلها

بدون سيطرة منه كلما جلس في مواجهة امرأة. جربت سطوتها عليه مع إنكا حين كانت تواجهه في صف تعلم اللغة، في ذلك البناء المنزوي وسط الغابة، ومع ميتا حين جلست قبالته تلك الليلة في بار جمهورية الموز. وها هي تشتغل بأقصى طاقتها بمواجهة رزان، وهي تواصل بوحها، وكشفها لأسرار صديقتها، بصوت أنثوي محشو بالإغراء، والإثارة: " تستطيع القول إنها كانت منفتحة أكثر مما تحتمل مدينة مثل مدينتنا، ما زالت أسيرة التقاليد على رغم الطلاء الحضاري، والقشرة البراقة. جاءت من عائلة محدودة الموارد، ومن أجواء مسيحية ضيقة ومتزمتة، لتنفلت من غير رقيب وسط العاصمة ذات الوجوه العديدة بلياليها، ومراسمها، ومطاعمها، وحفلاتها الراقصة، وفرصها المقدمة بعض الأحيان على أطباق من ذهب، لفتاة جميلة، وساذجة، مثلها. صدّق أنها لم تستخدم عطر "الديودرانت" قبل عيشها في العاصمة!! ما أن تنهي محاضراتها في كلية الصحافة حتى تأتي مشيا، من "البرامكة" إلى المرسم. في البداية كانت تنتظر أمام الدرج وصول زوج أختي، إن كان غائبا، ساعات بعض الأيام. وفي النهاية، وبعد أن تعززت ثقته بها، أعطاها مفتاحا إضافيا للمرسم فصارت تأتي بأي وقت تشاء، وتنصرف في أي وقت تشاء. أجل. منحها ثقة مطلقة. أنت تعرف أن وجود فتاة عصرية جميلة، وصحافية، في مرسمه، يضفي بعدا حضاريا على المكان. يتباهى به زوج أختي أمام زواره وأقرانه من الفنانين وضيوفه، وبعضهم كانوا من الأجانب القادمين إلى سوريا للسياحة. في المرسم تعرفت على "خافيير"، شاب إسباني يخدم في القوة الدولية لمراقبة وقف إطلاق النار على الحدود بين سوريا وإسرائيل. جاء ليشتري لوحة من المرسم فنمت بينهما علاقة غامضة، كلما استفسرت عنها تقول إنه اتفق معها على الزواج، وقد مضت سنتان على علاقتهما. الرجل الأوروبي يحترم المرأة، تقول. يعرف كيف يوقظ أنوثتها. لا يلهث وراء الجنس فقط. ولا يمتلك قوالب جاهزة في التعامل معها. الرجل الشرقي لا تمثل له المرأة سوى موضوع للذة. تعلم خافيير العربية خلال فترة قصيرة وبدأ يجرب معها لغته البسيطة، وهي

خليط من اللهجة الشامية والفصحى. زارت معه الأماكن نفسها التي أخذتك إليها في جولاتكما، وكأنها عمدت إلى أن تجرب أحاسيسها، وانفعالاتها بالأماكن مع رجل آخر غير خافيير. مات زوج أختي بسرطان الرئة، وكان مدمن تدخين، لا تسقط السيجارة من بين أصابعه، ولا يدخن نوعا محددا، وفي الفترة الأخيرة أدمن على السجائر الكوبية الثقيلة. يطلب منه معارفه الكف عن التدخين فيرد إن وضع البلد لا يعجبني. على أية حال، جاء إلينا موته مفاجئا. وبعد أشهر، نصح بعض الأصدقاء أختي بتحويل المرسم إلى صالة عرض، ولأن الجميع كان يطلق على زوج أختي لقب "أبو بهاء"، فهما لا ينجبان، ارتأت أختي أن تطلق اسم بهاء على الصالة، وارتأت الاحتفاظ بقسم صغير داخل الصالة للوحات المرحوم كمعرض دائم. ثم قررت توظيف دارين منسقة للصالة. استأجرت دارين شقة صغيرة في منطقة "جرمانا" بجوار "ساحة السيوف"، وأعتقد أن خافيير هو من كان يدفع إيجارها، فراتب دارين الشحيح لا يؤهلها لدفع إيجار شقة وتمشية أمور احتياجاتها، وقد وفرت الشقة لهما مكانا آمنا للقاء في إجازاته. أظن أنها حبلت منه ذات مرة وأسقطت، ثم اعتكفت في شقتها أسبوعا كاملا لم تحضر إلى الصالة. في الفترة الأخيرة وجدتها تمر بصراع رهيب مع نفسها، وشعرت من خلال كلامها أن مشروع زواجهما قد فشل، بدون أن أعرف السبب. أتصور أن الرجل فطن إلى تعقيدات رهيبة ستصاحب حمل زوجة عربية للعيش في إسبانيا، ستشكل لبيئته الضيقة عبئا تكهن به مسبقا، ومن جانب آخر لا استبعد ملله منها بعد أن قطف ثمرة العلاقة بينهما." سكتت رزان وساد صمت ثقيل على الجلسة، وأيقن كمال أن دارين قد غابت عنه وتلاشت مثل حلم ليلي. ذلك اليقين الصلد في داخله تمدد واحتل خلايا جسده كلها، وهو ذاته ما أوحى لعينيه بسكب قطرات صغيرة راحت تسيل على خديه. الأمر الذي حدا برزان للنهوض من كرسيها واحتضان كمال بلمسة أمومية صادقة، ثم طبعت قبلة بطيئة على خده. جرى المشهد الحزين في مقهى "الهافانا" الراقي غير بعيد عن ساحة المرجة.

وتلك القصة أذهلتنا، وآمنا أن اللعنة تلاحق جيلنا في كل مكان، واعتبرناها صدمة كارثية لأحد أصدقائنا رغب في تغيير مصيره والبدء من الصفر. قال أحدنا معلقا على الحكاية "إن ما تأتي به الريح تأخذه العاصفة"، فلم نفهم مرماه بالضبط. أوضح لنا السبب الذي دعاه لاستخدام هذا المثل، فتسرع كمال بعرض الزواج على فتاة التقاها في تلك الليلة، أول مرة، يعتبر تهورا وخرقا وسذاجة، فكيف يمكن لرجل الارتباط بامرأة لا يعرف شيئا عن ماضيها؟ ولم لم يخطر على ذهنه حقيقة أن فتاة جميلة مثل دارين لا يمكن أن تبقى بدون زوج، أو خطيب، أو حتى صديق؟ كان كمال ساذجا، لم يختبر الحياة بعمق، مذ عرفناه في تلك الجزيرة وهو يعيش في بطون الكتب، يعتقد أن الحياة تشبه ما يتخيله عنها وهذا من الأخطاء الفادحة. ألم نصل نحن إلى هذه النتيجة أيضا؟ ما نحلم به، ما نخطط له، ما ننوي تحقيقه، لا يتطابق بالضرورة مع الواقع، ومن الطبيعي أن يقع، تبعا لهذه البديهية التي تعلمناها قبل رحيلنا عن الأرض، في شباك الخداع كما جرى له مع دارين.

ثم فاجأنا أحد أصدقائنا وكان يتكئ على شاهدة قبر، ويقضي ساعاته غير الأرضية ناظرا إلى النجوم المتلاهثة في السماء، بالقول: مهلا، مهلا، لم تكملوا حكاية صديقنا، ولم يصلكم منها سوى المقدمة، أما الخاتمة فجاءتني قبل أيام. سألناه وكيف جاءت إليك؟ أجابنا ساخرا: مع الريح. واتجهت الأنظار إليه بذهول، وتلبثت على طيفه هنيهات، إلى أن تابع كلامه قائلا بنبرة العارف، الخبير:

– الحكاية لم تقف عند قبلة رزان المواسية لكمال في مقهى الهافانا، كلا. ردة فعل كمال على صدمته جاءت أكثر سذاجة من حكايته مع دارين، فلكي ينتقم منها، كما صور له عقله المرتبك والضائع، مضى بعد أسبوع إلى المحكمة وتزوج برزان.

شلّنا الذهول، ولفّنا الصمت، خاصة وجو الليلة العاصف المزلزل للشجر، العابث بمياه البحر، يساعد على سماع الحكايات والأخبار. وهنا برزت لدينا صورتان للحكاية، صورة لكمال وأخرى لرزان. ندرك أن المصادفة تتحكم بالفرد ما أن يغادر بلده، وتتغلغل أحيانا حتى في التفاصيل الصغيرة. مصادفة شاءت لكمال أن يمضي مع صديقه زيدون إلى نادي الرواق كي يقابل دارين، ووجد فيها فتاة أحلامه في تلك اللحظة، من دون أن يعبأ بماضيها، ومنشئها، وحياتها اليومية. قذف بجسده إلى البحر بدون معرفة بالسباحة. والمصادفة لم تتحكم بقرارات كمال فقط، بل بنا جميعا، فنحن لم نختر المجيء إلى هذه الجزر بإرادتنا، قالوا لنا ستستقبلكم مثل فاتحين ويممنا وجوهنا نحوها، وعشنا في تلك الجزيرة، وعلى متن القوارب الراسية على تخوم العاصمة، وفي الفنادق العتيقة والبانسيونات. امتصصنا الحياة مثل اسفنجة، واستهلكت السنون أعمارنا، ومات الكثير منا. وكل ذلك حدث مصادفة، ولا علاقة للتخطيط، والإرادة، بما أقدمنا عليه أو عشناه. حتى تحول كمال إلى شاعر، وروائي لاحقا، جاء مصادفة، فلو بقي هناك، في تلك الحرب، لقضى نحبه بشظية، أو رصاصة قناص، أو قنبلة، وتحول إلى هيكل عظمي مدفون في حفرة مجهولة. والمصادفة هي ما أنقذه من لوامس الموت العجفاء قبلنا. ومصادفة كونه شاعرا وروائيا دفعت به إلى تحسس الجمال أكثر من سواه، وهي ما قادت روحه، مثل فراشة، إلى مصباح دارين. لكن ماذا عن رزان؟ الأمر واضح. لم تتكئ على المصادفة، بل خططت لضربتها بإتقان أنثوي. بلغت الثلاثين بدون أن تتزوج، حياتها كانت تضيع في التدريس بتلك المدرسة الابتدائية العتيقة الجدران، الواقعة في منطقة "ركن الدين"، وفي ألوان صالة البهاء، ومشاوير طوال مكررة مع دارين، باحت فيها دارين لها بأدق أسرارها. وبوعي وتخطيط قدمت هي تلك الأسرار على طبق من ذهب إلى كمال. وجدت الفرصة أمامها ناجزة فسعت لاصطيادها.

انقطعت أخبار كمال عنا لسنوات، وحين صارت الحدود مفتوحة للجميع، بعد تلك الحرب الرهيبة التي اقتلعت النظام من جذوره، سمعنا بأن كمالاً عاد إلى العراق سوية مع رزان وطفلتهما "أرواد". البعض أكد أنه عاد عن طريق "المفرق" الأردنية، بينما قال آخرون إنه عاد عن طريق معبر "الوليد" السوري. فيما جاءت حكاية أخرى بكونه سافر إلى أربيل، ومن هناك تسلل إلى بغداد بعد سقوط النظام. على أية حال فالأمر لم يعد يعنينا في خضم الأحداث المتسارعة التي نسمع عنها، ونتأملها من بعيد. أما رواية "الوديعة" فلم تصدر حتى اليوم. وجاءت حكاية كمال لتكون خاتمة لسهرتنا في هذه الليلة. لاح الفجر من الشرق على هيئة مشحات نورانية خفيفة تسبح على غيوم بيض، وبدأت الطيور تغرد بين أشجار السرو السامقة والجوز البري والسنديان، وهدأت العاصفة الليلية في أعالي الشجر. وكل ذلك علامات سافرة، مؤكدة، على أننا قادمون إلى نهار جديد. وما هي إلا دقائق وسنختفي في الهواء، كما دأبنا على ذلك منذ سنين.